فهرس

الجزء التاسع

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندى

(تم فهرس الجـزء التـاسع من كتاب صبح الأعشى)

صبح الأعشى

الجزء التاسع

al-Qalqashandī, Aḥmad ibn ʿAlī
/kitāb ṣubḥ al-aʿshā/

دار الكتب السلطانية

كتاب
صبح الأعشى

تأليف

الشيخ أبى العباس أحمد القلقشندى

الجزء التاسع

طبع
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٤ هـ
١٩١٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

القسم الثانى

من مقاصد المكاتَبات، الإخوانيَّاتُ

(مما يكْتُب به الرئيسُ إلى المرءوس والمرءوسُ إلى الرئيس والنظيرُ إلى النظير)

قال فى "مواد البيان" : ولها مَوْقع خَطِير من حيثُ تشترِك الكافَّةُ فى الحاجة إليها . قال : والكاتبُ إذا كان ماهرا، أغربَ معانِيَهَا، ولَطَّف مبانِيَهَا، وتسهَّلَ له فيها مالايكادُ أن يتَسَهَّل فى الكُتُب التى لها أمثلةٌ ورسومٌ لاتتغيَّر ولا تُجاوَزُ، وهى على سبعةَ عشرَ نوعا :

النوع الأوّل

(التَّهانِى)

قال فى "مواد البيان" : كُتُب التَّهانِى من الكُتُب التى تظهَرُ فيها مقاديرُ أفهامِ الكُتَّاب، ومنازِلُهم من الصِّناعة، ومواقِعُهم من البَلَاغة . وهى من ضُروب الكِتَابة الجليلةِ النفيسةِ، لما فى التهنئة البليغة من الإفصاح بقَدْر النعمة، والإبانةِ عن مَوْقع المَوْهِبة، وتَضاعُفِ السُّرور بالعطيَّة . وأغراضُها ومعانيها متشعِّبة لاتقِف عند حدّ، وإنما نذكر منها الأصولَ التى تفرَّعتْ منها فروعٌ رجعَتْ إليها، وحُمِلتْ عليها .

قال : ويجب علىٰ الكاتب أن يراعىَ فيها مرتبةَ المكتوبِ إليه والمكتوبِ عنه فى الرسالة اللائقةِ بهما مما لا يُتَسامَحُ بمثله .

ثم التهانى علىٰ أحدَ عشرَ ضربا :

الضـــرب الأول

(التهنئةُ بالوِلَايات ، وهى علىٰ تسعةِ أصناف)

الصنف الأول ـ التهنئةُ بوِلَاية الوِزَارة :

قد تقدّم فى المقالةِ الثانيةِ فى الكلام علىٰ ترتيب المملكةِ أنّ الوِزارةَ كانت فى الزمن المتقدّمِ هى أرفعُ وظائفِ المملكة وأعلاها رُتْبةً ، وأنّها الرتبةُ الثانيةُ بعـدَ الخلافة . وكانتْ فى زمن الخُلَفاء تكادُ أنْ تكونَ كالسلطنة الآنَ ، فهى من الأتباع[(١)] ومَنْ فى معناهم علىٰ نحو ما كانتْ فى الزّمَن المتقـدّم بينَ الرُّؤَساء والأكابر، ومن الرؤساء والأكابر بحسب ماتقتضيه رتبةُ المهنَّإ .

وهذه نُسَخُ تهانٍ من ذلك علىٰ ما كان عليه الحال فى الزّمَن القديم .

تهنئةٌ بوِزَارة : من إنشاء أبى الحسين بن سَعْد، كَتَب بها إلىٰ الوزير محمدِ بن القاسم بن عُبَيد رحمه الله، وهى :

مَنْ كانتِ النعمةُ ـ أيد اللهُ الوزيرَ ـ نافرةً عنه وبفِنائِه غَريبة ، فهى تَأْوِى من الوزير إلىٰ مَثْوًى معهود ، وكَنَفٍ محمود ، وتُجاوِرُ منـه من يُوَفّيها حقَّها ، ويُقابِلها بحُسْن الصُّحْبة لها ، ويَجْرِى فى الشكر لمـا يُولّاه ، والرِّعاية لمـا يُسْتَرْعاه ، علىٰ شاكلةٍ مضىٰ عليها السَّلَفُ من أهله ، ونشأ فى مثلها الخَلَفُ ، مقتدِيًا بالأول الآخِر ، وبالماضى

(١) أى التهنئة من الأتباع الخ .

الغابر، تَشَابُهاً فى كَرَم الأفعـال ، ورِعايةً لحُقُوق الآمال ، واعتماداً للرأفة والرَّحْمه ، وعُمُوما بالإنْصاف والمَعْدِله ، إلىٰ ما خَصَّ اللهُ به أهلَ البيت رضىَ اللهُ عن المـاضين منهم وأقام عِزَّ الباقين وحِراستَهم : من العلم بالسياسة والدُّرَابة[1] بتدبير المَمْلَكة ورِعاية الأُمَّة ، والهداية فيهم لطُرُق الحَيْطة ونَهْج المصلحة .

والحمدُ لله علىٰ ما خَصَّ به الوزيرَ من فضـله الذى رفع قَدْرَه فيه عن مُساماة ومشاكلة المُقَادر[2] والشَّبِيه ، وجعله فيما حباه به نَسِيجَ وَحْدِه ، وقَرِيعَ دَهْرِه ، وجمع له من مَوَاهب الخير ، وخَصائص الفَضْل ما أبان به مَوْقِعَه فى الدِّين ، وأعطاه معه الوِلايةَ من جميع المسلمين .

والحمدُ لله حمدًا مجدِّدًا علىٰ ما جدّده له من رَأْيِ أمير المؤمنين وآجْتِبائه ، ومحـلّه من آخْتِيارِه وآصطِفائه .

والحمدُ لله علىٰ ما مَنَحه من كرامته ، وجدّد له من نِعْمته ، فيما أعاد إلىٰ تدبيرِه من وِزَارته ، وأشرَكه فيه من أمانَته ، آحتياطًا منه للمُلْكة ، ونظرًا للخاصّة والعامّة ، فإنّ عائدةَ رأيِه سَوَّتْ بين الضَّعِيف والقَوِىّ ، ووصلَتْ إلىٰ الدَّانِى والقَصِىّ ، وأعادت إلىٰ المُلْك بَهاءَه ، وإلىٰ الإسـلام نُورَه وضِياءَه ، فاكتست الدنيـا من الجِدّة بعد الإخْلاق ، والنَّضارة بعد الإنْهاج[3] ، مالم يكُنْ يوجَدُ مثلُه إلّا بالوزيرِ فى شَرَف مَنْصِبه ، وكَرَم مُرَكَّبه ، فهنّأ اللهُ الوزيرَ ما آتاه وتابَعَ له قَسْمه ، ووصلَ له ماجدّد له بالسَّعاده ، وأمدّه فيه بالزِّياده ، وأعطاه من كلِّ مأمول أعظمَ حظّ وأوفرَ نصيبٍ وقِسْم ، تراخيًا

(١) فى الأصل والوراثة لتدبير وهو تصحيف سخيف .

(٢) فى القاموس "قادرته قايسته وفعلت مثل فعله" .

(٣) الإنهاج البِلىٰ ، أنظر القاموس فى مادة (ن هـ ج) .

فى مُدّة العُمُر، وتناهيًا فى درَجة العِزّ، وآحتياطًا بالموْهبَة فى العاجله، وفوْزا بالكرامة فى الآجله؛ إنه فعّال لما يشاء .

تهنئة أُخرىٰ فى مثل ذلك : أوردها فى ترسّله ، وهى :

التهنئةُ بالوزير للزّمان وأهلِه بما جمّلهم به، وجدّد لهم من مِيسَم العِزّ، وسَرْبَلهم إيّاه من حُلّة الأمْنِ بوِلَايتـه، والنعمةُ علىٰ أوليائه ورعَاياه علىٰ حَسَب مواقِعِهم من مشاركتـه وحُظُوظِهم من مَعْدِلتِـه ظاهِرةٌ، ولله علىٰ ذلك الحمْدُ الفاضل ، والشكر الكامِل . وللوزيرِ من هذه النعمةِ الجليلةِ، والدولةِ السعيدة، أهْناها موْقعا، وأسْراها مَلْبسا ، وأدْوَمُها مُدّه ، وأجملها نَغَبـه، وأثْراها مُبَوّءا ، وأسلَمُها عُقْبىٰ ؛ فتولّاه الله بالمَعُونة والحِراسه، وأيّده الله بالنصر والكِفَايه، وأنهضَه بما قلّده وآسترْعاه، وبلّغه مَحابّه ومُناه، وأرجو أنْ يكونَ مَوْقِعِى من ثِقة الوزير يُلحِقُنى عنده بمن مكّنَتْه الأيامُ من قضاءِ الحقّ فى التلقّى والإبْعاد، ويُعوّضُنى بتفضيله مما حَرِمتُه منها مَحَلّ ذوى الإخلاص والآعتِداد .

تهنئةٌ أُخرىٰ فى مثل ذلك : أوردها فى ترسّله أيضا ، وهى :

وهـذا أوّلٌ يتْلوه مابعـده بلا تَناهٍ ولا نَقْص بإذنِ الله ومشيئته ، بل يكون موصُولا لاتُبْلَغُ منه غايةٌ إلا شفعتْها درجةُ تُرْقىٰ، تكْنُفُ ذلك كِفايةٌ من الله شاملةٌ كاملةٌ ، وغِبطةٌ فى البـدْء والعاقبَة بلَا آنْقِطاع ، ولا آرْتِجاع ؛ حتّى يكونَ المُنْقَلَب منه بعد بُلُوغ العُمُر منتهاه، إلىٰ فوْزٍ برحمة الله ورضاه . فهنيئًا للوزير بما لايَقْدِر أحدٌ أنْ يدّعِىَ فيه مُساعفَةَ المِقْدار، ولا ينالُه بغير آستِحْقاق؛ إذ لامثلَ ولا نظيرَ للوزير : فَضْـلا ظاهرا، وعلمـا علىٰ العلوم مُوفِيا؛ وسابقةً فى تقليب الخلافة ظهرًا لِبطْن، وحَلْب الدّهر شَطْرا بعد شَطْر؛ وجَمْعًا من مال السلطان لما كان متفرّقا، وحفْظًا

لما كانَ ضائعا، وحمايةً لبَيْضة المُلْك، وضَبْطا للثغُور، وتلقياً للخُطوب بما يَفُلُّ حدَّها، ويُطْفِئ نارها ولهبَها ويُقيم أوَدها؛ وما وهبَ الله فى رأيه من فتح البلاد المُرْتجة، وقمْع الأعداء المتغلبة، وسكُون الدَّهْماء، وشُمول الأمْن، وعُموم العدْل؛ والله يَصِل ذلك بأحسَنه.

تهنئةٌ أُخرىٰ فى مثل ذلك: من إنشاء علىّ بن خلف فى "مواد البيان" وهى:

أطال الله بقاءَ حضرةِ الوزارة السامية، فارعةً من المعالى أسْمَقَها نُجُودا، كارعةً من المِنَنِ أعذبَها وُرُودا، ساحبةً من الميَامِن أرقَّها بُرودا؛ ممتّعةً بالنِّعم التى يُرامِى الشُّكر عن حَوْزتِها، ويُحامِى البِشْرُ عن حَوْمتِها؛ مبلغةً فى أوليائِها وأعدائِها، قاضيةَ ماترتمى إليه رِحَابُها؛ فلا ترىٰ لها وليًّا إلَّا لاحبَ المَذهَب، ثاقبَ الكوكب، سامِىَ الطَّرْف، حامِىَ الأنْف؛ ولا عدُوًّا إلا ضَيِّقَ المَطْرَح، وعِرَ المَسْرَح، صالدَ الزَّنْد، مفلَّلَ الحدّ، راغِمَ العِرْنِين، مَتْلُولًا للجَبِين. ولازالتْ أزِمَّةُ الدنيا بيَدِها حتّى تَبلُغ بآمالها مُنْتهاها، وتجرِىَ بأيامها إلىٰ أقصىٰ مَداها؛ [فهى] من أعظَم النِّعم خطَرا، وأحسَنِها علىٰ الكافّة أثَرا، وأوْلاها بأن يُفاضَ فى شكرها، وتتعطَّرَ الآفاقُ بذكْرها. ولسيدنا الوزيرِ الأجلّ يَراعٌ يستَيقِظ فى صلاحهم وهم هاجِعُون، ويَنْتَصِبُ فى الذَّبِّ عنهم وهم وادِعُون، وكَلَ تدبيرَهُم فيه، إلىٰ مدبِّرٍ يخافُ الله ويتّقيه، ويعملُ فيمَنِ آسترْعاه بما يرتَضيه؛ ولا يَمُدّ يدَ الاقتدار عليهم متسلِّطا، ولا يتَّبِع دواعِىَ الهوىٰ فيهم مُتَسَقِّطا؛ واضعًا الأشياءَ فى حقائقِها، سالكًا بها أمثَلَ طرائقِها؛ مُلايِنًا من غير ضَعْف، مُخاشِنًا من غير عُنْف؛ قريبًا من غير صِغَر، بَعيدًا من غير كِبْر؛ مُرَغِّبا بلا إسْراف، مُرْهبًا بإنصاف؛ ناظرًا إلى محقَّرات الأمور وأطرافِها، كما ينْظُر فى معاظمِها وأشْرافها؛ آخذًا بوثائق الحَزْم، متمسِّكا بعَلائق العَزْم؛ راميًا بفكْرته من وراءِ العَواقب، خاطمًا بآرائه أنُوفَ المَصاعب؛

ناظمًا بإيالته عقود المصالح، موطّئا برياضته ظهور الجوامح؛ إن تقف ذا النبوة الفريده، والهفوة الوحيده؛ اقتصر على مايوافقه الوالد الحدب، من مقوّم الأدب [وإن قبض](١) على المرتكس فى غوايته، المفلس فى عنايته؛ ضيّق عليه مجال العفو، وأحاق به أليم العذاب والسطو؛ فقد سكنت الرعيّة فى عدله، وأوت حرما منيعا من ظلّه؛ ووثقت أنّ الحق بنظره شامخ شاهق، والباطل سائخ زاهق؛ والإنصاف مبسوط منشور، والإجحاف محطوط مبتور؛ والشمل منظوم، والشرّ مضموم. فنطقت ألسنتها بإحماده، واشتملت أفئدتها على وداده؛ واتفقت أهواؤها على رياسته، وتطابقت آراؤها المسابقة على دوام سيادته؛ وعرف أمير المؤمنين عذق النظر فى دولته؛ وسلّم أمور مملكته إلى النّصيح المأمون، والنّجيح الميمون؛ الذى وفّقه الله تعالى لاختياره، ويسّره لاصطفائه وإيثاره؛ وأنّه قد ناط أموره بمن لم يستخفّ ثقيل حملها، وينوء بباهظ ثقلها؛ فتمتّع بلذيذ الكرى، وتودّع بعد السّير والسّرى؛ وأمن من إلمام ملمّ معضل، وحدوث حدث مشكل. وهذه نعمة تعمّ الخاصّة والعامّة عموم الغيث إذا همع وتدفّق، وتشملهم شمول النهار إذا لمع وتألّق؛ وهم أولى بالتهنئة فيها وشكر الله تعالى عليها.

وسيدنا الوزير حقيق بأن يهدى إليه الدعاء المرفوع، والتضرّع المسموع؛ بأن ينهضه الله تعالى بما حمّله، ويعينه على ما كفّله؛ ويتولّاه بتوفيق يثقب أنواره، وتأييد يطبّق غراره، وتسديد يحسّن آثاره؛ وإجراء ما يتولّاه على أوضح سبيل وأقصده، وأرجح دليل وأرشده؛ إذ لا يجوز أن يهنّا بماله عناؤه وكلّه، ولمذعنيه صلاحه كلّه. والعبد يسأل الله ضارعاً لديه، باسطا يده إليه؛ فى أن يقبل صالح أدعيته لحضرة الوزارة السامية؛ وأن يجعل ماأحلّه فى محلّه من رياستها، وأوقعه

---

(١) الزيادة يقتضيها المقام كما لا يخفى .

فى مَوْقِعه من سياستها ، دائبًا لا يُنتزَع ، وخالدا لا يرتجع ، وأن يؤيِّدها فيه بما يقضى له بالإحراز والتَّخويل ، ويَحْمِيه من الابتزاز والتحويل ؛ إنّه سميعُ الدعاء ، فعّالٌ لما يشاء ، إنْ شاء الله تعالىٰ .

الصنف الثانى — التهنئة بكَفالة السلطنة :

وهذه نسخةٌ من ذلك ، كُتِب بها عن نائب الشام ، من إنشاء الشيخ جمال الدين آبن نُبَاتة ، وهى بعد الألقاب :

لا زالَ دائرًا بهنائِه الفَلَك ، مُنيرا بضِياء عَدْله وبِشْره الحَلَك ؛ قريرًا بحُسْن كَفالته المُلْكُ شاهدًا بفضل أسمائِه وسِماتِه المَلَك ، مقسوما بأمر الله نَدَاه وبأسُه ليَحْيا مَنْ حَىَّ ويَهْلِكَ مَنْ هَلَك ؛ تقبيلًا يُسَاقَهُ به التُّراب ، ويُشاهَدُ شَرَفُ مَطْلَعه علىٰ السَّحاب . ويُنْهِى قيامَهُ علىٰ قَدَمِ وَلاءٍ ودعاء : هذا يَنْزِلُ القلبَ وهذا يَصْعَد إلىٰ الأُفُق ، ومُقامَه علىٰ بُشْرىٰ وحمدٍ منهما الأمْنُ يحلِّى بوصْفِه النُّطْقَ كما تُحَلِّى الأعطافُ بالنُّطُق ؛ وأنه وَرَدَ مثالٌ شريفٌ علىٰ يد فلانٍ يتضمَّن البِشارةَ العامَّه ، والمَسَرَّة التامّه ، والنعمةَ التى يُعَوِّذُ سَنَا جَبِينها من كل عينٍ لامَّه ، وخبرَ الخيرِ الذى حَيَّت أزهارُه المتضوِّعةُ نَدَّ مِصْرَ فأوّلُ ما بلغه مَنافِسَ الشام شامَّه ، بأنَّ المواقفَ الشريفةَ — أعزَّ الله تعالىٰ سلطانَها — قد فوّضَتْ إلىٰ مولانا كَفالةَ الإسلام وبَنِيه ، وكِفايةَ المُلْك بصالح مُؤْمِنيه ، ونيابةَ السلطنة الشريفة وما نَسَقَتْ ، وتدبيرَ الممالك وما وَسَقَتْ ؛ فيالها بُشْرىٰ آبتسمَتْ لها ثغورُ البَشَر ، ومَسَرَّةً آستجلىٰ سَنَاها مَنْ آمَنَ وبُهِتَ الذى كَفَر ، وخبرًا تلقَّت الأسماعُ بَرِيدَه منشدة : قُلْ وأعِدْ بأطْيَبِ الخَبَر ، هُنالك أخذ المملوكُ حَظَّه من خيرِ بُشْرىٰ ، ونَصيبَه من مَسَرَّةٍ حُمِد بصَباح طِرْسِها المَسْرىٰ ، وحمِدَ الله تعالىٰ علىٰ أن أقام لسلطانِ البسيطة من يَبْسُط العدْلَ والإحسانَ لمَنابه ، ويقلِّد رعيَّته

عقودَ النِّعم إذا تقلَّد ماوراءَ سريره وبابه ، ومَنْ إذا كَفَل سيفُه ممالكَ الإسلام وثِقَتْ بالمَغْنَم والسَّلامه ، وإذا كتب قلمُـه قالتْ ولا سيَّمـا أخبارُ جند المسلمين : هكذا تكونُ العَلامه ، وجهَّز المملوكُ هـذه الخدمةَ نائبةً عنه فى تقبيل الأرض ، وعَرض الهناء بين يَدَىْ من يُسَرُّ المملوكُ بوَلائه اليومَ ويرجُو أن يُسَرَّ به يومَ العَرْض ، ولو وصفَ المملوكُ ماعنـدَه من السُّرور والشَّوْق لضاق الورقُ عن تسطير الواجب منه وضاقَ الوقتُ عن أداء الفَرْض ، والله تعـالىٰ يجدِّدُ لمولانا ثمراتِ الفضلِ الواضح ، والرأى الراجح ، والقَـدْر الذى هو علىٰ ميزان الكواكب راجح ، ويمتِّعنا كافَّةَ المماليك بدَوْلة سلطانه الذى علم البيتُ الشريفُ أنّه علىٰ الحقيقة الخَلَفُ الصَّالح .

وهذه نسخة تهنئةٍ لأمير جاندار بولاية إمْرة جاندار ، من إنشاء الشيخ جمال الدين ابن نُباتةَ ، وهى بعد الألقاب :

أعلىٰ الله منارَها ومنالَها ، وخلَّد قبولَهـا وإقبالَها ، وأجزل من الغصِّ الذى تناولَته ثمرَها وأسبغَ به ظِلالَها ، ولا زال فى سَيْفها وعَصَاها مآربُ لِلْمُلْك ، وفى بأسِها ونَدَاها مواقعُ للنَّجاة والهُلْك ، ولا برِحتِ القُضُب من سُيُوف وغُصون : هـذه حاكمةً بسَعْدها حُكْمَ الملك ، وهذه مُسَخَّرة فى تجريدها تسخيرَ الفُلْك ، تقبيلَ مخاصٍ فى وَلائه ودُعائه ، مُهنِّأ القلبِ مسرورٍ بمـا يتجدَّدُ من مَسَرَّات مولانا وهَنائه ، ويُنْهى أنه بلغه ماأفاضتْه الصدقاتُ الشريفةُ علىٰ مولانا من المَبرَّات ، وما جدّدتْ له من المَسرَّات ، وأنها ضاعفتْ مزيدَ الإحسان إليه ، ودعتْه أميرَ جاندار وَدَّت العِصيُّ النُّجوميَّة لو قدّمتْ نفسَها بين يَدَيْه ، وأنَّ المواقفَ الشريفةَ قرَّتْ به عينا وأقرَّتْ ، وأنَّ الدولة القاهرةَ ألقتْ عصاها إليه وآستقرَّتْ ، وكما سَلَّمت إليـه العَصَا فى السِّلْم سلّمت إليه السـيفَ فى الحَرْب ، وكما قرّبَتْـه فى مواقف العَدْل والإحسان قرّبتْـه فى مواقف الطَّعْن والضَّرْب ، فأخذ المملوكُ حظَّه من البُشْرىٰ ، وأوجب علىٰ نفسـه الفـرح

وسجدَ للهِ شُكرا ، وودَّ لو حضرَ يُشافِه بهـذا الهَناء الشامل ، ومَثَل قائما لديْه بحقّ التهنئة القيامَ الحقيقيَّ الكامل ، وحيثُ بعُـدَتْ دارُه ، ونأتْ عن العِيَان أخبارُه ، فقد علم الله تعالىٰ مُواصلتَه بالأدعية الصالحةِ ليْلا ونَهارا ، والموالاةِ والمحبَّة التى يشْهد بها الخاطرُ الكريمُ سِرًّا وجِهَارا ، والله تعـالىٰ المسئُول أنْ يزيدَ مولانا من فضله ، ويَسُرَّه بمتجدِّداتِ الخير الذى هو من أهلِه ، ويمتّعنا كافّةَ المماليك بدوام سلطانِ هذه الدولة الذى شَمِل بظله ، وغَنِى بنَصْره عن نَصْله ، إن شاء الله تعالىٰ .

الصنف الثـالث — التهنئـة بالإمارة .

من كلام الأقدمين :

تهنئـة من ذلك ، أوردها أبو الحسين بن سَعْد فى ترسُّله ، وهى :

وهَنَأ اللهُ الأميرَ مواهبَه الهنيَّـه ، وعطاياه السَّوِيَّه ، وأدام تمكينَه وقُدْرتَه ، وثبَّت وَطْأته ، وحَرَس ماخوّله ، وجعـل مَاهيًّا له من مُؤتَنَف الكرامة أيْمَنَ الأمُور فاتحـةً وأسعَدَها عاقبه ، ووصل أيَّامَه بأجمل الوِلَايه ، وأجَلّ الكِفَايه ، حتّى ينتهِى [من] آستيفاءِ سعاداتِ الحُظُوظ وحَوْز القِسَم والآمال ، [إلىٰ] الدرجةِ التى تليقُ بما أفرده اللهُ به من الكمال ، وخَصَّه به من الفضل فى جميع الخِصَال . ومن أفضلِ ماأعتَدُّ به من نِعَم اللهِ علىَّ بالأمير وبجميل رَأْيه ، ومَحَلّى من طاعتِه وخِدْمته ، أنّى لا أخْلُو فى كل وَقْت وحالٍ من بَهْجةٍ تتجدَّدُ لى ، ومسرَّةٍ تصِلُ إلىَّ ، وتتوفَّرُ علىَّ ، بمـا يُسَهِّله الأمير علىٰ يده من مستصْعَبِ الأمور ، ومستَغلَقِ الخُطوب ، التى تبْعُد عمَّن يُزاوِلُهـا ، ويجعل اللهُ بطَوْله وحَوْله للأمير القُدرةَ عليها ، ويتوحَّد بالكِفَاية فيها ، فيَنْمُو بجميل تدبيره ولَطِيف نَظَره ، ويَطَّرِدُ بصاعِدِ نَجْمـه ويُمْن نَقِيبته وعِزّ دَوْلتـه ، وذلك من فَضْل الله ونِعْمته ، يُؤْتى فَضْلَه مَنْ يَشاء وهو ذُو الفَضْل العَظيم .

الصنف الرابع – التهنئـة بولاية الحجابة .

وقد كان لها فى الزمن القديم المحلّ الوافر فى الدولة وعلوّ الرتبة فيها .

من كلام الأقدمين :

تهنئـةٌ من إنشاء أبى الحسين بن سعد، كُتب بها إلى أبى بكر بن ياقوت حين ولى الحجابة بعد نكبة أصابته، وهى بعد الصدر :

وقد كانت أنفسنا معشر عبيد سيدنا وحملة إنعامه، ومؤمّلى أيامه، فى هذه الأحوال التى نقد سيدنا منها فيما ابتلاه صبره، وأبان فيه قدره، وزاد العارف بفضله نفوذا فى البصيره، وأعاد ذوى الارتياب فيه إلى الثقة؛ فاستوى المنازع والمسلّم، واستوى العالم والمعاند – نعمةٌ منه تعالى ذكره خصّه بها وصانه عن مشاكلة النظير، ومزاحمة الأكفاء – على سبيل من القلق والارتماض، والسقوط والانخفاض؛ جزعا من تلك الحال الغليظه، وإشفاقا على تلك النفس النفيسه؛ وخوفا على معالم البرّ والتقى، وبقيّة العلم والحجا، وتاريخ الكرم والندى؛ أن يدرس منارها، وتطمس آثارها؛ ولولا ما منّ الله به من الخلاص منها وما منح بكرمه فى عاقبتها، لأوشكت أن تأتى عليها وتعجلها عن مواقيت آجالها؛ لكنه عظمت آلاؤه، وتقدست أسماؤه؛ أتى بالأمن والفرج، بعد استيلاء الكرب والوجل، وانبتات أسباب الرجاء والأمل؛ فعرّف سيدنا موقع الخيرة فيما قضاه، وميّز له الخبيث من الطيب ممن عاداه وتولاه؛ وجعل النعمة التى جدّدها له فيما ردّه أمير المؤمنين إلى تدبيره من أمر داره ومملكته، وحراسة بيضة رعيّته، مشتركة النفع والفائده، مقسومة الخير والعائده؛ بين كافة الأمّة فيما عمّ من المعدله، وشمل من المصلحه . ولاح من تباشير الخير، وأمارات البركة، فى استقامة أمور البلاد، وصلاح أحوال العباد؛ وأفرد الله سيدنا بحظّ من

المَوْهِبَة وَفَّانِي فيه على حُظُوظ الأولياء، وزادني على سِهام الشُّركاء . وأنا أرغبُ إلى الله فى إسعاد سيدنا بما جدّدهُ له، وتعريفه بركةَ مُفْتَتَحه ويُمْنَ خاتِمته. والحمد لله فى مُبْتَداه، والسلامة فى عُقْباه، وتبليغه من حَظٍّ مأمول، وخيرٍ مَطْلوب، وحالٍ عليَّة، ورُتْبة سَنِيَّة، أفضلَ ما بَلَّغ أحدا آختصَّه بفضله، وآصطفاه من خَلْقه، إنه جَوَاد ماجِد . فإنْ رأى سيدُنا أن يتطول بإجراء عبده على كريم عادته فى تشريفه بمكاتبته، وتصريفه فى أمره ونهيه، محقِّقا بذلك أملَه، وزائدًا فى نِعَمه عنده، فعل إن شاء الله تعالى .

تهنئةٌ أخرى من ذلك، من إنشاء علىّ بن خَلَف أوردها فى "مواد البيان" وهى:

إنما يُهَنَّأ بالوِلَاية ـ أطال الله بقاءَ الحاجب الجليل سيِّدى ومولاى ـ مَنِ آنْبَسطتْ إليها يدُه بعد آنقِبَاض، وآرتفع لها قَدْرُه مِنَ آنْخِفاض، وأوجدتْه الطريقَ إلى إحراز جزيل الأجر والجزاء، وآكتناز جميل البركة والثَّناء، وأفضتْ به إلى آتِّساع السُّلْطان، وآنتِفَاع الأعْوان، فأمّا من جعل الله يَدَه الطُّولى، وقَدْرَه الأعْلى، ورِيَاستُه حاصلةٌ فى نفسه وجوهره، وسِيادَتُه مُجتناةٌ من سِنْخه وعُنْصُره، فالأَوْلى ـ إذا آستُكْفِىَ رَغْبةً فى إنصافه وعَدْله، وحاجةً إلى سَدَاده وفَضْله، وآفتقارًا إلى فَضْل سِيرته، وآضْطِرارا إلى فاضل سِياسَتِه ـ أن تُهَنَّأَ الرعيّةُ بوِلَايته، وتُسَرَّ الخاصّة والعامّة بما عُدِق من أمورها بكِفَايته، وغيرُ بِدْعٍ رَبْطُ[1] أمير المؤمنين بالحاجب الجليل أمْرَ حِجابته، ونَصْبُه للزَّحمة[2] عن حَضْرته، وجعلُه الوَسِيطَ والسفيرَ بينه وبينَ خَواصِّ دَوْلته، وقد وَثِق بيُمْنِ نَقيبته، وآطّلع على خُلُوص نِيَّته، وسكَنَ إلى صِدْق طاعتِه، وعَرَف طهارةَ جَيْبه، وسلامةَ غَيْبه، وصِدْقَ لَهْجته، وحَصافَةَ أمانته،

(١) فى الأصول ارباط ولم نقف على فعله فيما بأيدينا من كتب اللغة .

(٢) أى الدفع والذب يقال زحمه عنه أى دفعه انظر المصباح .

واعتمادَه للحقّ فيما يُورِد ويُصْـدِر ، وينْهى ويُجيب ؛ وآبتلاه فعَرَف طِيبَ طُعْمته ، وخِفَّةَ وَطْأته ؛ ورأْفتَه بالضَّعيف المَهْضُوم ، وغِلْظتَه على العَسُوف الظَّلُوم ؛ [فرأى] أن يُحِلَّه محلّ مَنْ لا يَغيب عمّا شَهِده ، ولا يرتابُ بما سمعه ، على أنّى المهنَّأ بكل نعمةٍ يجدّدها الله لديْه ، وسعادةٍ يُسْبِغُها عليه ؛ [ولو أنصفت] لسلكْتُ من الصَّواب سَنَنا ، وآعتقَدْتُ جميلًا حَسَنا : لآستشعارى بالأنْفَس من لَبُوس سِيادته ، وتَحَلّى بالأنْصع من عُقُود رِياسته ؛ وإذا كانت رعيَّتُه أجدَرَ أن تُهَنَّأَ بوِلَايته ، وتَعرِف قَدْر مالها من الحَظّ فى نظـره ؛ فأنا أعدَلُ من هنائه إلى الدُّعاء له بأن يبارِكَ اللهُ تعـالى له فيما قَلَّده ، ويُوفّقه فيما وَلّاه ويُسَدّده ، ويُلْهِمه آدّخارَ الثواب والأجْر ، وآكتنازَ الحمد والشكر ، والهدايةَ إلى سَنَن الآسـتقامه ، وما عاد بمحبّة الخاصّـة والعامه ؛ وإنهاضه فى خِدْمة أمير المؤمنين ، والعَمَل من طاعته بما يُزْلِف فى الدنيا والدين ؛ واللهُ يستجيبُ فى الحاجب الجليل هذا الدعاء ويَسْمَعُه ، ويتقبَّله ويرفَعُه ؛ إن شاء الله تعالى .

الصنف الخامس — التهنئـــة بولاية القضاء .

التهنئة بذلك من كلام الأقدمين :

تهنئة من ذلك : من إنشاء علىّ بن خلف ، أوردها فى "مواد البيان" وهى :

أَوْلى المِنَح أن يُتفاوض شكرُها والتحدّثُ بها ، ويُتقارضَ حمدُها والقيامُ بواجبها ؛ نعمـةٌ تَشمَل عِطافُها ، وعَمَّت ألطافُها ، وآشترك الناسُ فيها آشتراكَ العُموم ، وحلّتْ منهم فى النفع محـلَّ الغيث السَّجُوم . وهـذه صورةُ النعمة فى ولاية قاضى القُضاة — أطال الله بقاءه — لمـا تتضمَّنه من إثبات العَـدْل والإنصاف ، وآنحسار الجَوْر والإجحاف ؛ وآعتلاء الحقّ وظُهوره ، وآختلاء الباطل وثُبُوره ؛ وعِزّ المظلوم وإدالته ، وذُلّ الظَّلُوم وإذالتـه ، وتمكين المضْعُوف وآقتداره ، وآنخزال العَسُوف وٱقتساره .

وإنْ هَنَّأتُه حرس الله عُلَاه بموْهِبَة أتىٰ بارقُها بجميل الثَّناء، وجزيل الجَزاء، قد ناء من تحمّلها بباهظ الشيء ومتعبه، وقام من سئلها بكل الأدب ومنصبه، عدلت عن الأمثل وضَلَلْتُ عن الطريقة المُثلىٰ؛ لكنّى أهنّئه خُصوصًا بالمَواهِب المختصّة به آختصاصَ أطواقِ الحمائم بأعناقها ـ والمناقِبِ المُطيفةِ به إطافَةَ كواكبِ السَّماء بنِطاقها، فى أنْ ألّفَ اللهُ القلوبَ المتباينةَ علىٰ الإقرار بفضْله، وجمعَ الأفئدةَ المتنافيةَ علىٰ الاعتراف بقُصُور كلِّ محلٍّ عن محلّه، وجعل كلَّ نعمةٍ تُسْبَغ عليه، ومنّةٍ تُسْدىٰ إليه، موافقةَ الآمالِ والأمانِى، مُفْضيةً للبشائر والتَّهانِى: لأنّ مَنْ أحبَّ الحقَّ وآثره، ولبِسَ الصِّدْق وآستشْعره، يَنْطِقُ بلسان الإرادةِ والآختيار، ومَنْ تركهُما وقَلاهما، وخلعَهُما وألْقاهما، ينطِقُ بلسانِ الآفتقار والآضْطرار ـ والخصائص التى هو فيها نَسِيجُ وَحْدِه، وعِطْرُ يومِه وغدِه ـ والمحاسِنِ التى هى أَنَاسِىُّ عيونِ الزّمان، ومَصابيحُ أعيانِ الحُسْن والإحْسان. ثم أعودُ فأُهنّئه عمومًا بالنِّعم المشتركةِ الشُّمُول، الفَضْفاضةِ الذُّيُول؛ التى أقرّتِ القَضاءَ فى نِصَابه، وأعادتِ الحكْمَ إلىٰ وطَنِه بعد نُجْعتِه وآغْترابه؛ وأعلَتْهما فى الرُّتْبة الفاضله، وقَدَعتْ بهما أنفَ الذِّروة العالِيَه. وأرفعُ يدى إلىٰ الله تعالىٰ داعيًا فى إمداد قاضِى القُضاة بتوفيقٍ يُسَدِّدُ مَرامِيَه، ويُرْشِد مَساعِيَه؛ ويهذّب آراءه ويصحّحها[1]، ويُبْلِج أحكامَه ويُوضّحها؛ ويخلّد عليه النعمةَ خُلودَها علىٰ الشاكرين، ويُبَصّره بحُسْن العقبىٰ فى الدنيا والدِّين؛ وهو سبحانه يتقبّل ذلك ويرفعُه، إن شاء الله تعالىٰ.

التهنئة بذلك، من كلام أهل العصر:

تهنئة من ذلك: أوردها الشيخُ شِهابُ الدين محمودٌ الحلبىّ فى كتابه "زَهْر الربيع فى الترسّل البديع" وهى:

(١) فى الأصل ويفخمها وهى تصحيف لا يناسب المقام.

أنفَذ اللهُ تعالى أحكامَه، وشكر إحسانَهُ و إنعامَه؛ وخلّده ناصرًا للشريعة المطَهَّرة وأَدامه، وجدّد سَعْدَه وأسعد أيّامَه؛ وجعله المسترشِدَ والمقتفِيَ بأمر الله والرّاشدَ والمستنجِد والمستَنْصِر والنـاصِر والعاضِـد، والحـاكم القـائم بأمر الله (١) من القُضاة الثلاثة الواحِد .

المملوكُ يقبّل اليدَ العاليـة تبرُّكا بتقبيلها، وأداءً لواجب تعظيمها وتبجيلها؛ ويهنّئُ المَوْلى بمـا خصّهُ الله تعالى من مُضاعفة نَفَاذ كلمته ورَفْع منزلته، وإمضاء أحكامه الشريفة وأقضيَتِه؛ وتقليده أمورَ الإسلام، وتنفيذ أوامره فى الخاصّ والعام؛ ويهنّئُ بالمَوْلى مَنْ رُدَّت أمورُه إليـه، وعُوِّل فى ملاحظة مصالحه عليه؛ فإنّ مَوْلانا مازال بالعِـلْم والعَمَل مشهورا ، وسعْيُه فى الدنيـا والآخرة سَعْيا مشكُورا؛ ويقظةُ مولانا جديرةٌ بزيادة الاهتمام، والاحتياط التام؛ بملاحظة طلبة العلم والمشتغلين، والفُقَهاء والمدرِّسين؛ وسَبْر أحوال النُّوّاب، وأنْ لايكفيَهُ الاعتمادُ على حسن البِزّة وطهارة الأثواب؛ بل يُمعِنُ فى الاطّلاع على مايعتمِدُونه النَّظَر، ويُلاحِظ كُلًّا منهم إن غاب عن مجْلسه أو حضَر؛ فمَنْ رآه يَهْدى إلى الحقّ و إلى الطريق المستَقِيم، ولا يَقْرب إلا بالتى هى أحسَنُ مالَ اليَتِيم؛ فيحقّق له من العِنَـاية أملا ، ولا يُضِيع أجْرَ مَنْ أحسَنَ عملا؛ حرس اللهُ المولى ومتّع بحياته ، وأعاد على الكافّة بركة صِيامه المقبُول وصَلَاته؛ ونفع الإسلامَ بمستجاب دَعَواته، إن شاء الله تعالى .

الصنف السادس — التهنئة بوِلَاية الدعوة على مذهب الشِّيعة .

وقد تقـدّم فى الكلام على ترتيب المملكة فى الدّولة الفاطميّة، بالديار المِصْرية، ذِكْرُ موضُوعها وعُلُوّ رُتْبتها عندهم؛ وإنمـا ذكرناها حِفْظا للأصل ولاحتمال وُقُوعها.

(١) بياض بالأصل بقدر كلمة ولعله حتى يكون من القضاة الخ .

تهنئةٌ من ذلك : من إنشاء علىّ بن خَلَف، أوردها فى "موادّ البيان" وهى:

أطال اللهُ بقاءَ داعى الدُّعاة لصَبَاح من الرحمة يُبْلِجه ، وطريقٍ من الحكمة يُظْهِر بيانَه، وليلٍ من السُّنَّة يَنْزِع طَيْلسانَه؛ وحَرسه على الإيمان يُجَدِّدُ ماأخلَقَ من بُرُوده، ويُنَظِّم ماوَهى من عُقُوده؛ وعلى المؤمنين يفتَحُ لهم أبواب الرَّشاد، ويُهمى إليهم سَماءَ الإفادة والإمْداد . ولا زالت الحقائقُ مقصودةً منه بالميزَة التى رشَّحتْه لحِفْظ مبانيها، وأهَّلتْه للعبارة عن معَانيها ؛ حتّى يرقُمها فى الأخْلاد، ويَمْحُو بهارُسومَ العِناد، ويَنْشُر بُشْرَها فى الآفاق والبلاد . أنا أعْدِلُ عن هَناءِ داعى الدُّعاة ـ أطال الله بقاءه ـ بماعُدِق به من أمر الدَّعْوة الهاديَة العَلَويّه ، ونُصِب له من فَرّ مَضَاحك المُشْكلات عن أسرار الحقائق الإلهيَّـه، والترجمةِ عن غوامض الحِكَم الشَّرْعيّة؛ والتوقيف على مَوارد الهُـدى ومَشارعه ، والإرشادِ إلى مَشارق الحق ومَطالِعه؛ إلى هَنَـاءِ الدَّعْوة وأهلها بمـا قيَّضه الله تعالى لهم من مَحلّه الرفيع الذى ألحقه العقلُ نحو هذا الكمال ، ووطَّأ له مَدارجَ الترقِّى والاتِّصال؛ فشَفَّتْ نفسُه وشَرُفَتْ، وتطلَّعتْ على عالَم الملكُوت وأشرفَتْ؛ وجَنى بيَدِ التَّبصِرَة ثِمارَ الحِكْمة، واستنزَلَ بمَنْزِل المُوادّ غُيوثَ النِّعمه؛ وجَرّد الضِّـياء من الظلام ، تجريدَ الأرواح من الأجسام إلى دار السلام؛ واستَمَدّ بلطِيفته موائدَ علوم عالَمِ اللَّطافه؛ وأمدّ بمرَكَّب ألفاظها تحاكُم الكافَه، وحَلَّ فى الغَبْراء محلَّ الغرّاء فى الخَضْراء، إنْ أوضحتْ سبيلَ سائرٍ يجنب طريقٍ جائرٍ تُوَصِّل بنزوعها غاشية إظلام، حُسِر عن الحق قِناعُ إبهام، أوفعلَتْ(١) فى الجواهر زيادة وثمرة (؟) أخذت تعاديا(؟)فأدْلَتْه للهمم العاملة شَرَفًا وسُمُوًّا: لما أعلى بذلك من قَدْرها وقَدْرِهم، وطيَّب من ذِكْرها وذِكْرِهم ؛ وأعْطِف إلى الدعاء لداعى الدُّعاة بأن يجعل اللهُ تعالى

(١) كذا فى الاصلين ولم نهتد الى تثقيفه تأمل .

ماخُوِّله من هذه الرِّياسة راهنًا لا يُرتَجَع، وما نُوِّله من هذه السيادةِ مستقِرًا لا يُنتَزَع؛ وأن يؤيِّده بالتوفيق، ويُعبِّد له مَنَاهج التحقيق، ويُطْلِق لسانَه بالبيان، ويُمِدَّه بُروح منه فى نُصْرة الإيمـان؛ وقد حَتَم الله تعالىٰ باجابة داعيه، ولا سيما داعى الدُّعاة [فإنه] جدير بأن يُجاب الدعاءُ فيه، إن شاء الله تعالىٰ.

قال فى "موادّ البيان": وإنما أوردت هذا المثال بهذه الألفاظ، لأن ألفاظ هذا الدّاعى يجب أن تكون مشتقَّة من ألفاظ الدعوة، مناسبةً لمَذْهبها؛ ولولا ذلك لأغنىٰ عنـه مثالُ تهنئة قاضى القضاة؛ ومن تأملهما عرف ما بينهما من الفُرْقان.

الصنف السابع — التهنئـــة بالتقدمة علىٰ الرجال.

رُقعةٌ من ذلك:

[من حلّ] محـلَّ سيدى — أطال الله بقاءه — من السُّؤْدَد الناطقِ الشَّواهـد، المنتظِمِ المَعَاقد، المُتضارِعِ الطارِف والتالِد، المنتقِل فى الوَلَد عن الوالد، والمجد الذى قَصُر عن مُطاولَته الطِّرازُ الأول، وتَطاطأ له الإنعامُ المخوَّل، وحاز ماحازه من شَرَف الرِّياسه، وفَضْل السِّياسه، والاستقلالِ بحقُوق ماتولّاه، وتَسْديدِ ماتوَلّه واستكْفاه؛ فتشوَّفَتْ إليـه أعالى الرُّتَب، وتشوّقَتْ إليه المنازلُ السنيَّة من كَثَب، خطبَتْه العُلَا سائقة عنه مَهْرَها، وتَطامنَتْ له مُوَطِّئةً ظَهْرَها؛ فلم يَكْثُرْ له أن يتقدّم علىٰ [أهل] عَصْره فَضْلا عن قبيلته، ويتأمَّر علىٰ جميع نَوْعه فضلا عن طائفته: لأنه المقدّمُ عليهم بالرُّتْبة والطَّبْع، لا بالاصطلاح والوَضْع؛ فشكر المملوكُ الله تعـالىٰ علىٰ بُزُوغ هِلَاله وإبْراقه، وطُلوعه لميقات العز وتنفاقه؛ وسأله أنْ يجعلَ ماأقرَّ العيونَ من سيـادته، وحَقَّق الظنونَ فى سـعادته؛ خالدًا راهنـا، ومُقيمًا قاطنا؛ وأن يَزيده من السعاده، ويُرقِّيَه كلَّ يوم فى دَرَج السياده: لتكونَ هـذه الرتبةُ علىٰ امتناع مَرْقبها، وارتفاع

مَرْكَبِها ، أوّلَ درجة تخطَّاها ، ومنزلةٍ فَرَعَها وعلَاها ؛ ثم لايزالُ راقيا فيما يتلوها حتّى يحتذى بكواكب الجَوْزاء ، ويَطَّحُودارةً على الحُفَاء ، مُهَنَّأً غيرَ منغَّص ، ومُزيَّدًا غيرَ منقَّص ؛ والله تعالىٰ يجيب هذه الأدعيةَ الواقعة مواقعَها ، والمستحَقَّات الموضوعةَ مواضِعَها .

الصنف الثامن — التهنئـةُ بولاية الديوان .

رُقعةٌ من ذلك :

ويُنْهِى أنَّ من حَلَّ محلَّ مولانا — أطال الله بقاءه رافلًا فى لَبُوس السَّعاده ، متحَفِّلًا بسُلُوس السِّياده ، متنقِّلا فى رُتَب المجْد ، متوقِّلا إلىٰ غَدَنِ(١) الجَدّ ؛ مستَوْليًا علىٰ شِعَاب العُلَا ، متمكِّنا من رِقاب الأعداء — فى الاِستقلال والاِضطلاع ، والمعرفةِ بحقوق الاِصطفاء والاِصطناع ؛ ورفعة مذهَبِه علىٰ الكِفَاية والغَناء ، والنهوض بثقيل الأعباء ؛ خطبَتْه التصرُّفات حاملةً عنه صداقَها ، وتشوَّفته الولاياتُ مادَّةً إليه أعناقَها ؛ وقد اتَّصل بالمملوك ماجدّده الله تعالىٰ من سعادته ، وأنجزه من مَواعِيد سيادتِه ، التى كانت واضحةً فى مَخَايِل فضله ، لائحةً فى دلائل نُبْله ، مكتُوبةً فى صَفَحات الأقدار ، مرقومةً بسَواد اللَّيْل علىٰ بَياض النهار ؛ فجَذِل المملوكُ بذلك ، جذَلَ الحَميمِ المُشارِك ، وسُرَّ به سرورَ الخليطِ المُشَابِك ؛ وليس ذلك لأنَّ الذى تولَّاه مَوْلانا وجدَ [فيه] خَلَلًا فرَقَعه ، وخُمُولا فرفَعه ؛ بل لأنَّ الحَقَّ غالَبَ الحظَّ فغلَبَه ، والواجبَ سالَبَ المُمْكِنَ فسلَبَه ؛ وأناخَ رِكابَ الرِّياسة فى المحلِّ الخِصْب الذى يَحْمَدُه ويرتَضيه ، والله تعالىٰ يتفضَّل علىٰ رعيَّته ، المتوطِّنين بفاضل سياسته ، من حِبائه ولطفه ، ورأفته وعَطْفه ، بما يُسْبِغ عليهم ظلالَ العَدْل ، ويقلِّص عنهم سُدُولَ الجور والحَيْف ، إن شاء الله تعالىٰ .

(١) فى " اللسان " الغدن سعة العيش والنعمة .

قلت : وكتبتُ للمقرّ البَدْرىّ محمودٍ الكلستانى الشهير بالسّراى مهنّئا له باستقراره في كتابة السِّرّ الشريف بالديار المصرية في الدولة الظاهرية «برقوق» في سلطنته الأولى:

رَفَعْتَ للمجدِ مُــذْ وُلِّيتَ بُنْيـانَا * وشِدْتَ للفضلِ بعد الوَهْنِ أركانَا !
وأصــبحَ المُلْكُ فى زَهْوٍ، ومالِكُه * يَميسُ عُجْبًا، وهَنَّا التَّخْتُ إيوانَا !
قدِمْتَ مِصْرا فأمستْ مِنْكَ فى فَرَحٍ * تَهُـزُّ بالبِشْرِ من لُقْياكَ أرْدَانَا !
وغُودِرَ النِّيــلُ مُذْ وَافَيْتَ مُبْتَهِجًا * وقد رَمَى الصَّــدَّ والإبعادَ جَيْحانَا !
ألفاظُكَ الغُرُّ صارتْ لِلْوَرَى مَثَلا * وكُتْبُكَ الزُّهْرُ بَعْــدَ اللَّثْمِ تِيجانَا !
تَفُوقُ قُسًّــا إذا تَبْــدُو فصاحَتُها * وتَفْضَحُ المِصْـقَعَ المَلَّاقَ سَحْبانَا !
قد أفْحَمَتْ فى مَجازاتٍ بلاغَتُهـا * تُرْكًا ورُومًا وبعدَ الفُرْسِ عُرْبانَا !
كلُّ المَوَالى إذا وَلَّوْا فلا أَسَــفٌ * إذ أنْتَ باقٍ، ويُبْقِى اللهُ مَوْلانَا !
مولًى به قــدْ تَشرَّفْنا وجُمِّلْنَا * بوجهِــه، ولِذِكْرِ القومِ أنْسانَا !

الصنف التـاسع ــ التهنئـــةُ بولاية عمل .

أبو الفَرَج البَبَّغاء :

عَرَّفَ اللهُ سيدى بركةَ هــذا العملِ الجليل، بنبيلِ نَظَرِه الجميل، وحَميدِ أثَرِه المحروس؛ وتناصُرِ سياسته الشريفة بسِمَةِ رياسته؛ ووفّق رعيّتَه لشُكْرِ ماوليَها من فائضِ عَدْلِه ومحمودِ فِعْلِه؛ فالأعمالُ منه ــ أيده الله تعالى ــ بالتهنئة أَوْلَى، وبالتّطاوُل بما شَمِلَها من بركات تدبيره أَحْرَى؛ والله بكَرَمه يَسمَعُ فيه صالحَ الدعاء، ويبلّغه أبلغَ مُدَدِ البقاء، فى أسبغِ نِعَمِه، وأرفعِ مَنْزِله، وأصدقِ أُمْنِيَّة، وأنجحِ طَلِبَة؛ بمَنّه .

وله فى مثـــله :

لولا ما يَشْرَكُ التَّهانِى من بركات الدُّعاء الذى أرجو أنْ يسمعَ اللهُ فيك صالِحَه، ويُجيبَ أحسنَه، لأجلَلْناك عن التَّهنِئة بمستَجدِّ الأعمـال، ومستَحْدَث الوِلَايات، لقُصُورها عن آستِحْقاقك، وآنحطاطِها وإن جلَّتْ عن أيْسَرِ واجِبـاتك، وتعجُّلِها بمأثُورِ كفَايتك، وبركاتِ نَظَرك، ومواقِعِ إنصافِك. فهنَاكَ اللهُ نِعمةَ الفَضْل التى الولايةُ أصغرُ آلاتها، والرِّياسةُ بعضُ صِفاتها؛ ولا أخْلاكَ من مَوْهِبَةٍ مُجَدِّده، ومِنْحةٍ مُؤَبَّده.

وله فى مثـــله :

سيدى ـ أيده الله ـ أرفعُ قَدْرا، وأنْبهُ ذِكْرا، وأعظَمُ نُبْلا، وأشهرُ فَضْلا، مِنْ أنْ نُهَنِّئَه بوِلَاية وإنَّ جَلَّ خَطَرها، وعَظُم قَدْرها؛ لأنَّ الواجبَ تهنئةُ الأعمال بفائِض عَدْله، والرَّعِيَّة بمحمُودِ فِعْـله، والأقاليم بآثارِ رِياسته، والولايا تِ بسِمَات سِياسته؛ فعرَّفه اللهُ يُمْنَ ماتولَّاه، ورعاه فى سائر ماآسْتَرْعاه، ولا أخْلاه من التوفيق فيما يُعانيه، والتسديد فيما يُبْرِمه ويُمْضيه.

الأجوبة عن التَّهانِى بالوِلَايات

قال فى "موادّ البيان" : هذه الكُتُب إذا ورَدَتْ، وجبَ علَى المُجِيب أن يستَنْبِط من كل كتاب منها المعنىٰ الذى يُجِيب به. قال : والطريقةُ المستعملةُ فيها أنَّ كتَابَ المجيب يجب أن يبنىٰ علىٰ أن المهَنَّىَ قسيمٌ فى النِّعمـة المتجدده، وشريكٌ فى المنْزِلة المستَحْدَثة، وأن الحظَّ الأوفرَ فيما ناله المهَنَّى للمهَنِّى وببركةِ دُعائه، وتوقعه لمـا يَرِدُ

من حاجاته وتبعاته لينفـذها ، نازلا على أخلص مخالصته، وعاملا بشروط مودّته، ونحو هـذا ممـا يضارعه . فإن كان المجيبُ رئيسا أو مرءوسا ، وجب أن يرتّب الخطاب على ماتقتضيه رتبةُ كلٍّ واحد منهما .

وهذا مثال من ذلك :

زهر الربيع :

وردتِ المُشرَّفةُ الكريمـةُ ، أتمّ اللهُ على مُرْسِلها نعمتَه ، وأعلى قدْرَه ومنزلتَـه؛ وجعل جَناحَ العِـدا مخفوضا ، وعَيْشَـه فى دَعَةٍ وخَفْض، وقدْرَه للتمييز مرفوعا ، وعدُوَّه للتقصير فى ٱنحطاط وخَفْض ؛ فتلقّاها باليمين، وظنَّها الريحَ الجنوب لما تحمَّلته من رِقَّة الحَنين ؛ وعلِمَ ما أبداه فيها من تفَضُّلاته ، وٱعترَف بالتقصير عن مُجاراته ومُجازاته ؛ فشنَّف سَمْعَـه بألفاظٍ كأنَّهنَّ اللؤلؤ والمَرْجان ، وبيَّنتِ البَوْنَ الذى بَيْنه وبَيْن غيرِه تلكَ الفصاحةُ والبَيَان ؛ وقابل أياديَهُ بشُكْرِ لسانه ، وجازاه بحُسْن الدُّعاء عن إحْسانه ؛ ولا يقومُ بشُـكْرِ فضـلِه اللسانُ ولا الجُثْمان ، وهلْ جَزاءُ الإحْسانِ إلّا الإحْسان؟ .

فأمّا ماأشار إليه من الهَنَاء بالمَكان الذى تولّاه، وأبداه من المحبَّـةِ التى أوجبَتْ عليه أن يتَوالاه، فاللهُ تعالى يُعينه على ماهو بصَـدَده، ويجعلُ الحقَّ والخير جاريَيْنِ على لسانه ويَده، ويرزُقه ٱتباعَ محكَم كتابِه وسنّةِ رسولِه ؛ ويُحَصّلُ له من الرُّشْد غايةَ سُولِه ومأْموله ؛ فإن هـذه الولايةَ صَـعْبةُ المِرَاس ، وجَوادَها كثيرُ الشِّماس ؛ لٰكن ببركات المَوْلىٰ يحصُل من الله الأَرَب، ويَسْهُل لأوليائه القصدُ والإسعادُ والطَّلَب ؛ أدام اللهُ ظلَّ المولىٰ وأسـعَدَه، وأوضح لدَيْه طريقَ السـعادةِ ومَهَّـده؛ ومنَحَه من الألطاف الخفيَّة أفضلَ ماعوَّده؛ بمنّه وكَرَمه .

الضـــرب الثانى

(التهنئـــةُ بكرامة السلطانـ وأجوبتُهـا)

وفيــه ثلاثة أصــناف :

الصنف الأول ــ التهنئةُ بالإنعام والمَزِيد ولُبْس الخِلعَ وغير ذلك .

من كلام الأقدمين :

ويُنْهِى أنه آتّصــلَ بالمملوك ماأهّل مولانا السلطانُ مَوْلانا لَهُ : من المحلِّ السَّنِىّ ، والمكانِ العلِىّ ، الذى لم يزَلْ موقُوفًا عليه ، متشَوّفا إليه ، نافِرًا عن كلِّ خاطبٍ سِواه ، جامِحًا على كلِّ راكبٍ إلّا إيّاه ، فاقرّ اللهُ عينَ المملُوكِ بذلك لِصِــدْقِ ظنه ، وعلِم أنَّ ماأصاره اللهُ تعالى إليــه من هذه المنْزِلة المُنِيفه ، والرُّتبة الشريفــه ، مَدْرَجةٌ تُفْضِى إلى مَدَارج ، ومَعْرَجة تنْتهِى إلى معَارِج ، والله تعالى يَزِيدُ معالِيَه عُلُوًّا ، ويُضاعف محلّه سُمُوًّا ، بمنّه وكرمه ، إن شاء الله تعالى .

ومنه ــ ويُنْهِى أنه آتّصــل بالمملوك نبَأُ المَوْهِبَة المتجَدِّدة لديْهْ ، والنعمةِ المُسْبَغةِ عليه ، وما آختَصّه به مولانا السلطانُ من الاصْطِفاء والإيثار ، والاجتِباء والاخْتِيار ، وتقديمِه للرُّتْبة الأَثِيره ، والإنافةِ إلى المَنْزِلة الخَطِيره ، فسُرَّ المملوكُ للريّاســة إذْ أحلَّها الله تعالى فى محلِّها ، وأنزَلَها على أهلِها ، ووصَلَها بكُفْئِها وكافِيها ، وسَلَّم قوْسَها إلى رَامِيها ، والله تعالى يجعلُ هذه الرتبةَ أوّلَ مَرْقاة من مَرَاقِى الآمال ، ومكيِنِ الرُّتَب التى يَفْرَعُها من رُتَب الجَلال ، إن شاء الله تعالى .

من كلام المتأخرين :

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

أدامَ اللهُ أنصارَه، وجعل التَّقوىٰ شِعارَه، وألْبسه من المحامد أكرمَ حُلَّة، وتولّاه من المكارم أحْمدَ خَلَّة، ولا زالت الخِلَع تتشرّف إذا أُفيضتْ عليه، والمدائح تُستطاب بذكره لاسيّما إذا أُنْشِدتْ بيْنَ يَدَيْه .

الخادمُ يُنْهِي إلىٰ علمِ المَوْلىٰ أنه اتّصل به خَبرٌ أهْدىٰ إليه سُرورا، ومَنَحه بَهْجةً وحُبُورا : وهو ما أنعم به المولىٰ السلطانُ خلَّد اللهُ سلطانَه، وضاعفَ إحسانَه : من تشريفه بخِلْعته، وما أسْبغَهُ عليه من وَارِف ظِلّه ووافِرِ نعْمته، وأبداه من عِنايَتِه بالمولىٰ ومحبّته؛ وقد حصَلَ له من المَسَرَّة ما أجْذَلَه، وبَسَط فى مُضاعفةِ سَعْد المولىٰ أمَلَه؛ فإنه بلَغه أنَّ هذه الخِلعة كالرِّياض فى نَضارتِها، وحُسْن بَهْجتِها؛ وأنها كلّما بَرَقتْ بَرِقَ لها البصرُ، وظنَّها لحُسْنها حديقةً وقد حَدَقَ إليها النظر؛ وقد جمعتْ ألوانَ الأزهار، وأرْبىٰ ناسجُها فى اللُّطْف علىٰ نَسَمة الأسحار؛ وأسكنتْ حُبَّها حبّاتِ القلوب التّى فى الصُّدور، وسَمَتْ عن المَدْح برائقِ المنظُومِ وفائقِ المنْثُور؛ وأن ابنَ سُلَيْمانَ[1] لو رآها، لاعترف بأنَّ فى لُبْسها لكلِّ فتًى شرفًا لاريْبَ فيه، ونَسبَ البيتَ المنسوبَ إليه إلىٰ أعاديه؛ وأنّه لو نظر نَضْرةَ نُضارِها لما جعل لها فى الحُسْن نَظِيرا، ولو ألْقاها علىٰ وَجْهه لارْتدَّ لوَقْته بَصِيرا؛ فلِذلك أصدر هذه الخدمةَ مهنّيَةً، ومُعْرِبةً عما حصل له من الفَرَح ومُنَبّيَة؛ ولجيدِ مَدْحه العاطلِ من مثل هذه الألفاظ مُحلّيَة؛ تولّاه اللهُ فى كلِّ يومِ مَسَرّةً وبُشْرىٰ، وأجرىٰ له علىٰ الألْسُن حمدًا وشُكْرا؛ وجعله لكلِّ خيرٍ أهلا، وشَكَرله تفضُّلا شاملًا وفَضْلا؛ ومتّعه من العافية بلباسٍ لايَبْلىٰ؛ إن شاء اللهُ تعالىٰ .

(١) مراده أبو العلاء المعرى أحمد بن سليمان .

الصنف الثانى – التهنئة برضا السلطان بعد غضبه .

فمن ذلك :

وتُنهى أنه آتَّصل بى ماجدّده الله تعالى لمولاى – أطال الله بقاءه – من حُسْن عاطفة مولانا أمير المؤمنين – خلّد الله ملكه – وآنعطافه عليه بعد آنصرافه ، وإعادته إلى رُتْبته التى نشَزت عنه دَلالا لا مَلالا ، وهجرته هجر المستصلح المستعتِب ، لا هجرَ القالى المتجنّب ، وكيفَ تقلاه ، وهى لا تجدُ لها كُفُؤًا سواه ، ولتوقُّع المملوك بما وقع من هذه الحال ، وعلمه أنَّ عوْدها إليه كعودة المودَع [إلى مودِعه] لاعَوْدة المنتجع إلى مَرْبَعه ، وأنّ الذى وقع من الآنحراف إصلاحٌ باديه تهذيبٌ وتقويم ، وخافيه توقيرٌ وتعظيم : لِمَا فى عِتاب أمير المؤمنين من شَرَف الرُّتْبه ، والدِّلالة على آستقرار الأُثْرة والقُرْبه ؛ وحُلُوله محلَّ الصِّقال ، من أبيض النِّصال ، والثِّقاف من العسّال ، ولا سيمّا ورياسته محفوظه ، وسيادته ملحوظه ؛ وهيبتهُ فى النُّفوس ماثلَه ، وجلالته فى القلوب حاصلَه ؛ (١) ولم ير المملوكُ أجلَّ مَوْهبةً من الله سبحانه من شكرٍ يسترهنُ هذه النعمةَ ويخلّدها ، وحمدٍ يرتبطُها ويقيّدها ؛ ورغبتُ إلى الله سبحانه أنْ يجعلَ هذا العِزَّ الحادثَ لابثًا لايتحوّل ، والسعدَ الطارفَ ماكِثًا لايتنقّل ؛ إن شاء الله تعالى .

ومن ذلك :

ويُنهى أنَّ من عادة الزمان أن يَكِفَ سحابُه ثم يكُفّ ، ويَرِفَ نباتُه ثم يجفّ ، ويَدِرَّ حَلَبُه ثم ينقطع ، ويُقبِلَ خيرُه ثم يرتجع ؛ إلا أنّه إذا سلَب النعمةَ ممن يستوجب إمرارَها عليه ، وآنتزع الموهبة ممن يستحقّ آستمرارَها لديه ،

(١) لعل الواو زائدة و يكون متعلق اللام فى قوله «ولتوقع» الخ تأمل .

كانَ كالغالِطِ الذى يُراجِع نفْسَه فيندَمُ علىٰ مافرَط، ولا يلبَثُ أن يستَدْرِك الغلَط، مُعقبا نَبْوته بإناَبته، متعقِّبا هَفْوته باستقالَته، ماحِيًا إساءته بِرأْب ماثلَم، وأسوِ ماكَلَمْ، وإصْلاح ما أفسد، وتأليف ماشَرَّد . فلا جَرَم أنَّ النفُوسَ بإقبالِه علىٰ مَنْ هذه صفتُه واثِقه، والآمالَ لِانصرافه إلىٰ مَنْ هذه صورتُه متحقِّقه؛ وإذا سَلبها هَرْولَ فى إيداعها لدَيْه، وأخذ [فى] إفاضتِها عليه. وما زال المملوكُ ـ مُذْ عاملَ الزمانُ مولانا بِسُوءِ أدبِه، ونأىٰ عنه بجانبِه، وقبَضَ بنانَه، وغيَّر عليه سُلطانَه ـ عارفًا أنَّ هذه الفَعْلة فَلْتةٌ من فَلَتَاته التى يتوقَّى شرَّها، ولا يرجعُ إلىٰ مثلها؛ وأنَّ الاستِبْصار، يقُودُه إلىٰ الاعْتِذار، والاضْطِرار، يَحْدُوه علىٰ ردِّ ما انترعه بالإجْبار: لأنه لا يجِدُ من يحُلُّ محلَّ مولانا فى ارتباطه بإيناسه، وتعهُّده بسَقْى أغراسه، وقيامِه بشُكْره، وتزكيته ببِرِّه، متوقِّعا لأن تتيَقَّظ عينُه، وينكشِفَ رَيْنُه، فيرىٰ ماصنعَتْ يَدَاه، ويبادِرُ لاستقالة ماجَنَاه، حتّى طرق البشيرُ بمـا سَهَّله الله تعالىٰ من انحِسار الكُرَبه، وعَوْد مولانا إلىٰ شَرَف الرُّتْبه، وصلاح مافسَـد، وعَوْدِ السلطان أعزَّ الله نصره إلىٰ ماعهِد، وركُونه إلىٰ حضرته، وانقلابِه عنه رافلاً فى تشريفه ومكْرُمته؛ فكانَ معتقَدُ المملوكِ فيه هلالاً فى السِّرار فأهَلَّ، وجَنِينا فى الحَشَا فاستهَلّ؛ فاستَوْلىٰ علىٰ المملوكِ من السُّرور ما عمَّ جوارِحَه، وعَمَر جوانحـَه، وأطار بجَنَاح المَرَح، وألبس حُلَّة الفَرَح؛ إذ ما جَدَّده الله تعالىٰ له من السـعادة يحُلُّ به فى العُموم، محلَّ الغيثِ السَّجُوم؛ لأنَّه حرَسَ الله عزَّه لايستأثِرُ بعَوارِف الله عنـده، ولا يكُزُّ علىٰ عطاياه يَدَه؛ بل يمنَح ممـا مُنِح، ويُولى ممـا تَوَلَّى، ولا يَضِنُّ بمـالٍ ولا جاهٍ، ولا يقْعُد عمن أمَّله ورجَاه؛ والله تعالىٰ يجعلُ ذٰلك ممـا أقرَّبه العيونـ، وصدَّق فيه الظُّنون؛ لاتُخْلقُه الأيام ولا تُبْليه، ولا تَزْويه الحوادثُ ولا تؤَثِّرفيه؛ إن شاءالله تعالىٰ .

الصنف الثالث — التهنئة بالخلاص من الاعتقال .

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

جدّد الله سعده، وضاعف جدّه، وأنجح قصْده، وأعذب مَنْهله ووِرْده، ولا انفكّت الأيّامُ زاهيةً ببقائه، والأنفس مسرورةً بارتقائه إلى رُتَب عَلْيائه . أصدرها تُفْصح عن شَوْقٍ يَعْجز عن سَوْقه الجَنَان، ويقْصر عن طُوله اللّسان، وسُرورٍ تزايد حتّى أبكاه، ولاعج بمشاهدة طَلْعته السعيدةِ أغْراه؛ وتُهنّيه بما جدّد الله له بعد الاعتقالِ من الفَرَج والفَرَح ، ومَنَّ به بعد ضيقِ الخواطر من الابتهاج والمَرَح؛ فهذه المسرّةُ ماءٌ زُلالٌ بَرَدَ بها الأُوام ، وإنعامٌ عامّ، حمد الله عليها الخاصُّ والعامّ؛ فالحمدلله الذى عوّضه عن مأتم الحُزْن بما تمّ من السرور، و[عن] الهَمّ المانع عن الوُرُود والصُّدور بانشراح الصُّدُور؛ فإنّ القلوبَ شَغفها حبُّه وشغفها، وضاعف لتعويقه أسَاها وأسَفها، بحيث اعترىٰ المَنَاطِقَ قلقٌ وعلاها اصفرار، وعُطّلت يدُ كل غانية من الحُلِيّ فما ضمَّها قُلْبٌ ولاسِوَار؛ ولبِس الخُطباء حزنا وأُلبِسته المحابِر، وكادت لغَيْبته وفَقْد اسمه تندُبه الجوامعُ وتَبْكيه المنَابر؛ خلّد الله سعادتَه، وسهّل له من خيْرَى الدنيا والآخرة قَصْده وإرادتَه؛ بمنّه وكرمه .

الأجوبة عن التهنئة بكرامة السلطان و رضاه بعد غضبه

قال فى ”مواد البيان“ : يجب أن تكون أجوبةُ هذه الرِّقاع مُودَعةً من الثناء على المهنِّى — لمحافظته على رُسوم المَودّة وقيامِه بشُروط الخُلّة — ماتقتضيه رتبتُه ورُتبةُ المُجيب ، وأنّه مشاركٌ له فى متجدّدِ النعمة ، مُفاوضٌ فى حديث المَسَرّة ؛ والتيمُّن بالدعاء، ونحو هذا مما يحسُن موقعُه عند المبتدئ بالهناء؛ ويضَعُه بحيثُ وضَع نفسَه من الاختصاص بمَنْ كاتَبه .

وهذا مثال من ذلك :

زهر الربيع : [جواب] هناء بخلعة :

أدام الله علاءه ، وشكر آلاءه، وضاعف سناءه ؛ وحمد مننه التى أثقلت لكل معتف ظهرا وخففت هما، وأنالت لكل ولى نصيبا من عوارفها وقسما . المملوك ينهى إلى العلم الكريم ورود المكاتبة التى كستها يده حلة جمال ، وألبستها ثوب إفضال ؛ وأعدتها بكرمها ، وحسنت وجهها بلسان قلمها ؛ فأمطرته سحاب جود أربى على السحاب الهتون ، وأوقفته منها على ألفاظ كأمثال اللؤلؤ المكنون ؛ فأجتنى ثمار الفضائل من أغصانها ، وآجتلى عروس محاسنها و إحسانها ؛ وفهم ما أشار إليه من التهنئة بالخلعة التى أنعم المولى بها(1) على خادمه وتصدق ، وحقق الأمل فى مكارمه وصدق ، و إنعامه خلد الله دولته ، وأعز نصرته ، قد كثر حتى أخجله ، وميزه على كثير من مماليك بيته العالى وفضله ؛ وأناله من المنزلة ما سمابها على أمثاله ، ورقى بها بعد رقة حاله ؛ فالله يخلد سلطانه ، ويثبت بالسعادة أركانه ؛ وهذا بسعادة مولانا ومساعدته ، ومعاونته ومعاضدته : فإنه كان السبب فى الآتصال ببابه أولا وآخرا ، وممن أغاثه بذلك وأعانه عليه باطنا وظاهرا .

وكل خير توخانى الزمان به * فأنت باعثه لى او مسببه

---

(1) فى الأصول أتم الله بها مخدومه ، ولا معنى له تأمل .

الضـــرب الثـالث
(من التهانى التهنئـــة بالعَوْد من الحجّ)

وهذه نسخ من ذلك يُنْسَج على مِنوالها .

فمن ذلك :

ويُنْهِى أنه طرقَ المملوكَ البشـيرُ بعَوْد مولانا ـ أطال الله بقاءه ـ من مَقام الطائفين ، إلى مَقَام المعتفين ؛ وأوْبتِـه من كَعْبة الإحرام ، إلى كَعْبـة الإكرام ؛ وتنقُّله من موْقِف الحُجّـاج ، إلى موْقف المحتاج ؛ وحُلُوله بمنزله الذى هو قبلةُ ذَوِى الآمال ، ومحطُّ الرِّحال ؛ بالسَّـعْى المشكور ، والحجِّ المبرُور ؛ والنُّسُـك المقبُول ، والأجرِ المكتُوب ؛ فحمدتُ الله تعالى على موْهبتِه ، وسألتُه زيادتَه من مكْرُمتِـه ؛ واستنجحْت هـذه المكاتبةَ أمامَ ما أرومُه من مشاهَدتِه ، وأرجُوه من الاستِسْعاد بملاحَظتِه ؛ وبَرْد أُوَار الشوق بمحاضَرته ، ومجدِّدًا عُهودَ التيمُّن بمباسَمته ؛ فإن اقتضى رأيُه العـالى أن يُعرِّف المملوكَ جملةً من خبره فى بَدْئه وعَوْده ؛ ومنقَلبه ومتوجَّهه ؛ وما تفضَّل اللهُ تعـالى به من أمانِ سبيله ، وهِدايةِ دليله ؛ وتخفيفِ وَعْثاء سـفرِه ، وتسهِيل وَطَره : لِأسْكُنَ إلى ذلك إلى حِينِ التمثُّل بنَظَره ، فله الفضـلُ فى ذلك . والله تعالى يبلِّغه سُوله ، ويوصِّله مرادَه ومأمُولَه ؛ بمنّهِ وكرمه .

ومن ذلك :

ويُنْهِى أنَّ مولانا لايزال حاجًا إلى كعبة الحرَم ، أو كعبَةِ الكرَم ؛ وطائفاً بشـعائرِ الوُفود ، أو بشَعائر الجُود ؛ وواقفًا بموقِف الاستِفْتاح ، أو موقف السَّماح ؛ وناحِرَ البُدْن بمِنَى ، أوناثِرَالبِدَر للمُنَى ؛ فلا يرتفِع فى حالٍ من الأحوال برُّه ، ولا ينقطِعُ عن الله

تعالى ذكرُه ، ومَنْ كان بهذه المَثابه، فى إحراز الأجْرِ والإنابه ، فهو حقيقٌ أن تُعْمَر بالتهنئـةِ أوقاتُه وأزمانُه ، كما عَمَرها سـعيُه و إحسانُه ، وقد عرَف المملوكُ آنكفاءه ـ أدام الله علُوّه ـ عن مَقام الطائفين والعاكفين ، إلى مَقام القاصدِين والمعتَفِين ، وعوْدَه إلى منْزِله المعمُور ، بعد قَضائه فريضةَ السَّعْي المشكُور ، فعدلْتُ فى مخاطَبَته عن الهناء إلى الدعاء بأن يتقبّل اللهُ تعـالى نُسُكه ويثقّل ميزانَه ، ويُطْلِق فى حَلْبـةِ الخيرات عِنانَه ، ويُحْبِيَه لأجرٍ يُحْرِزه ، وثواب يَكْنِزُه ، والله تعـالى يُجيبُ ذلك فيه ، ويُرِيه فى نَفْسه وأحِبَّته مايرتَضيه .

ومن ذلك :

وتُنْهِى أنّه قد طرَقَنى البشير بآنكفَاء مولانا إلى مقرّ عَلائه ، وآنفِصاله عن مَلاذِ النُّسَّاك والعُبَّاد ، إلى مَعاذِ الزُّوَّار والقُصَّاد ، فعرفتُ أنَّ ذلك النسيمَ العليلَ من تلْقائه ، وذلك النُّورَ الصادعَ من آلائه ، وذلك الأفْترارَ من أسِرَّته ومخَايِله ، وتلكَ العُذُوبةَ من شِيَمِه وشمائله ، فكاد المملوكُ يطير ـ لو طار قبْلِى غيرُ ذِى مَطار ـ فرَحا ، وأخرِقُ الأرض وأبلُغُ الجبالَ لو أمكن ذلك مَرَحا ، وآنفتح قلبى حتّى كادت مهجَتُه تَفيضُ سُرُورا ، وطاشَ حِلْمِى حتّى تفرّق مجموعُه بَهْجةً وحُبورا ، والله تعالى يجعل نِعمَـه موصولةَ الحبل ، مجموعةَ الشَّمْل ، بمنّه وكرمه .

أبو الفرج البَبَّغاء :

جعل اللهُ سَعْيك مشكورا ، وحجّك مبْرورا ، ونُسُكَك مقبُولا ، وأجْرك مكتُوبا ، وأجزَلَ من المَثُوبة جزاءَك ، ومِنْ عاجِلِ الأجْرِ وآجِله عطاءَك ، وقرَن بالطاعات عَزَماتِك ، وبالسَّعْي إلى الخير نَهَضاتِك ، ووفَّقك من صالح الأعمال ، وزكِيّ الأفعال ، لمـا يجمعُ كلَّ خيرِ الدارين . ولمّـا طرقَتْنى البشارةُ بقُدومك ، بدأتُ بإهداء الدعاء ، وتجديدِ

الشكر لله تعالىٰ والثّناء، وٱستنبتُ فى ذلك المكاتبَه، أمامَ ما أنا [عازم] عليه : من المُشافهَة والمُخاطَبه، ولن أتأخّرعن حظّى من المسير إليك للتيمّن بالنظر إلىٰ غُرّتك، ومداواة ماعانيتُه من ألَم الشوقِ بمُشاهدتِك .

الضــــرب الرابع

(من التهانى ، التهنئةُ بالقُــدُوم من السَّفَر)

من كلام المتقدّمين :

علىّ بن خلف :

ويُنهِى أنّه ٱتّصــل بالمملوك خبَرُ توَجُّهه[1] إلىٰ الناحية الفلانيــة، فعرَفَ المملوكُ أنه قصَـدَها ليَخُصَّ قاطِنيها ، بنصيبٍ من موَاهِبــه ؛ ويُفيضَ علىٰ ساكنيها، سِجالًا من رَغَائبه ؛ ويُسوِّىَ بينهم وبين مَنْ راشَه بحِبَائه ، وجَبَرَه بنوافله وآلائه ؛ فسألتُ الله تعـالىٰ أن يُطيلَ عُمُر المكارمِ بإطالة بَقائِه ، ويجمعَ شَمْل السُّؤدَد بدَوام عَلائه ؛ ثم ٱتّصل بى عودُه إلىٰ مَقرّه ، خَفيفَ الحقائبِ من وَفْره ، ثقيلَها من ثَنائه وشُكْره ؛ فحمِد المملوكُ اللهَ تعالىٰ علىٰ إسْفارِ سَفَرِه عن بُلُوغ الأَوْطار، وٱنحسارِ أُمنيَّته عن أذْيال المَسَارّ، وما خصَّه به من السَّيْرِ الشَّحِيح، والسَّعْى النَّجيح ؛ والسَّلامةِ المفرَّقة علىٰ الوِجْهة والمنقلَب، والمفتتَح والمعتقَب ؛ ولمّـا عرض للمملوك ماقطَعه عن مُشافَهتِه بالدعاء ، رفعَ يدَه إلىٰ الله تعالىٰ ضارعًا لدَيْه فى أن يتولّاه فى هـذا المَقْدَم الميمون ، بالسعْد المَضْمُون، وإنالة الأمانىّ المُقِرّة للعيُون ؛ وأن يمنحَه فى الحِـلِّ والتَّرحال، والقَطْن[2] والآنتِقال، توفيقًا يقارِنُ ويُصاحِبُ، ويُسايِرويُواكِب ،وأنْ يجعلَ ماخَوَّله من نعمه راهنًا خالدا، وما أَوْلاه من موَاهبه بادئًا عائدا، إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) فى الأصل وجهته وهو تصحيف إذ الوجهة الناحية والجهة وهو غير مراد كما لا يخفى .

(٢) مصدر قطن فى كتب اللغة التى بأيدينا علىٰ فعول لا علىٰ فعل .

ولـه ايضـا :

ويُنْهِى أنه طلَع عليه البَشير، طُلوعَ القَمرِ المُنير، مُؤْذِنا بمَقْدَم حضرته، ومُعْلِما بظُهور طَلْعتـه، وحُلُوله فى مَعَانه(١) الذى هو مَعَان الإقبـال، وعَوْن الرجال، وقرارة الأقيال، ومَحَطُّ الرِّحال، وقبلةُ الجُود، ومُعرَّس الوُفُود، فسألتُ الله تعالىٰ أن يبْقيه جمالًا للأيَّام، وثِمـالًا للأنام، وعِمادًا للقُصَّاد، ومَرادا للرُّوَّاد، والله تعالىٰ لا يُخْلِيه فى تصرُّفاته، وجميع حركاته وسكَنَاته، من سَعْى سعيد، وعيش رَغيد، بمنّه وكرمه .

أبو الفرج البَبَّغاء :

مَن كانتْ غَيبـةُ المكارم مقْرونةً بغَيْبته، وأَوْبةُ النِّعم موصولةً بأَوْبته، سافرتِ الأنفُسُ حيثُ كانَ إليـه، وقدِمتِ الآمالُ عند قُدُومه عليـه، وما زالتِ الأنفُس إلىٰ الأُمْنيّة بقُرْبه متطلّعـه، ولوُرُود السُّرور بوُروده متوقّعه، إلىٰ أنْ أنِسَتْ بعد الوحشة بلقائه، وتنَسَّمَتْ أرجَ مَنِّه ونَعْمائه، فوصلَ اللهُ قُدومَه من الكَرامه، بأضعاف ما قرَن به مَسيرَه من السَّلامه، محروسًا من طَوارِقِ الغِيَر، مبلَّغا أبعدَ العُمُر .

وله فى مثـلـه :

مَنْ كانت مادّةُ سُروره، بمَغِيبه وحُضُوره، لم يجِدْ مع بُعْدك مُؤْنسا يسْكُن إليه، ولا عِوَضا يعوَّلُ فى السَّلْوة عليـه، وما زلتُ أيامَ غَيْبتك ـ لا أوحشَ اللهُ منـك ـ بالوَحْدة مستأْنِسا، وبالشّوق إليكَ مُجالِسا، أُلاقِيك بالفِكْر، وأشاهِدُك باتّصال الذِّكْر، إلىٰ أنْ منَّ الله مِن أَوْبتك بمـا عَظُمت به النعمه، وجلَّت لدَىَّ معه المَوْهِبَه، فوصـلَ اللهُ بالسلامة نَهَضاتِك، وبالسعادة حَرَكاتِك، وبالتوفيق آراءَك وعَزَماتِك، وحرَسَنى ببقائك وبقاءِ النعمة عِنْدك، وهَنّأنى النعمةَ الجليلةَ بقُرْبك .

(١) فى القاموس واللسان «المعان المباءة والمنزل» وأورداه فى مادة م ع ن .

ولـه فى مثـــله :

مَنْ كنتَ نهـاية أمنيَّته، وقُطْبَ مَسَرَّته؛ كان من نَفْسه مستوحِشا مع بُعْدك، وبدَهْرِه مستـأْنِسا مع قُرْبك؛ وما زلْتُ معـك بالنيَّة مُسافِرا، وبالشَّوق سائرا، وبالفِكْرِ ملاقِيـا، وبالأمانِىّ مُناجِيا؛ إلى أن جمعَ اللهُ شملَ سُرورِى بأَوْبتِـك، وسكَّن نافِرَ قلَقِى بعَوْدتِك؛ على الحـال السارّة من كمال السّـلامه، ووُفُور الكُلْفه؛ فأسـعدكَ اللهُ بمَقْدَمك سـعادةً تكونُ بها من الزمان محرُوسا، وللإقبال مُقابِلا، وبالأمانِىّ ظافرا؛ ولا أوحش اللهُ منـك أوطانَ الفضل، وعَضَّد إخوانَك ببقائِك وبقاء النعمة عندك.

ولـه فى مثـــله :

لو كان القلبُ يجِدُ عنـك مُنْصَرَفا، أو يرىٰ منـك فى آكتسابِ المسَرَّة خَلَفا؛ لأستراحَ إليه من ألَمِ بُعْدك، وآستنْجدَه على مَرارة فِراقك؛ لكنَّك أيدَك الله جملةُ مسَرَّته، ونهايةُ أُمنيَّته، فليس تتوجَّه أمانيُّه إلّا إليك، ولا تَقِفُ آمالُه إلّا عليك؛ فالحمدُ لله الذى أقرّ بفَيْئَتك أعيُنَ إخوانك وأوِدَّائك؛ وافاكَ اللهُ من السّعادة فى أَوْبتك أضْعاف ما آكتنفَكَ من الكِفَاية فى ظَعْنك.

اِبن أبى الخِصال :

سَرّ اللهُ مولاى ورَئِيسى، وربَّ تشريفى وأَنِيسى؛ بلِقـاء الأحْباب، وآتِّصال الأسْـباب، وأَوْبةِ الغُيَّاب؛ ولا زالتِ الأيامُ تتصنَّعُ لإقْباله، وتُقبِّـله أوجُهَ العِزّ فى آقتباله؛ وتُوفيه على رغم الحاسد حَقَّ جَلَاله.

البُشْرىٰ - أدام الله آعتزازه - بمَقْدَم الوزيرِ فلان قد أوضعَتْ ركابُها، وآتَّصل بالنفوس أعلاقُها وأسبابُها؛ فهنيئًا مَعْشَرَ الأولياء بسُبُوغ هذه النعمة الجليله، والمِنْحة

الجزيله، ولا أستوفى شكر مابه أتى مُعَظَّم قَدْره، وملتزِمُ بِرّه، من ثناء كعَرْف الطيب يُهْدىٰ، ومَذْهَب فى الإنهاض لا يُقْضىٰ واجبُه ولا يؤدّى، ولا زالتْ حياةُ مولاىَ تُفَدىٰ، وأفعالُ بِرّه تتعدّى، وقد لثَمْتُ مواقعَ أنامله وُدًّا، ووردْتُ من محاسن بيانه مَنْهلا عَذْبا [وورِدا] فأمتعنِى اللهُ بحياته العزيزةِ الأيّام، الطيّبة الإلمام، الموصولةِ العهدِ والذّمام، وأقرأُ علىٰ سيدى من سَلامى مايلثِمُ يدَه، ويقضى حقَّ اليراع [الذى] أنشأ به البرّ وولّده، والسلامُ المعادُ عليه وعلىٰ جملته ورحمة الله وبركاته .

الشيخ جمال الدين بن نُبَاتة عن نائب الشام إلى القاضى عَلاءِ الدين بن فضل الله كاتب السرّ الشريف، بالأبواب الشريفة بالديار المصرية، عند عَوْده من الكَرَك إلىٰ الديار المصرية، فى سنة ثلاثٍ وأربعين وسبْعمائة، مهنّئا له بعوده إلى منْزله بالديار المصرية، وآستِقْراره وعوْدِه إلىٰ كتابة السرّ الشريف بالأبواب الشريفة السلطانية، وهى :

تُقبِّل الباسطةَ الشريفةَ - إلى آخر الألقاب - لازالَتْ خناصِرُ الحمد علىٰ فَضْل بنانها معْقوده، ومآثِرُ البأس والكرم لهـا ومنها شاهدةً ومشْهوده، وبَواتِرُ السُّيوف مَسيَّرةَ القصد إلىٰ مُناظرةِ أقلامها المقْصوده، تقبيلاً يودّ لو شافَه بشِفاهه مَوْرِدَ الجُود من الأنامل، وكاثر بثغْره عند المُثول للتقبيل ثُغورَ الأَماثِل، فكان يُشافهُ بشَوْقه مَوْرِدا كثيرَ الزِّحام، وكان يكاثِرُ بعقْد قُبَله علىٰ يد الفضل عُقُودا جزيلةَ الآنتظام، وكان يُحاكِم جَوْرَ الضَّيْم إلىٰ مَنْ أبىٰ اللهُ لجار مشاهدته أنْ يُضَام . ويُنْهِى ماوصل إليه وإلىٰ الأولياء من السُّرور، وما رُفِع بينهم وبين الآبتِهاج من السُّتُور، وما طُولِع فى أخبار المَسرّة من السُّطور، بوُصُول مولانا ومَنْ معه إلىٰ مَساكن العزّ ساكنين، ودُخُولهم كدُخُول يوسُفَ عليه السلام ومَنْ معه إلىٰ مِصْرَ آمنين، وآستقْراره

فى أشرف مكانٍ ومكانه، وآستنصار مصر بأقلامه على العادة فإنّ هـذه سهامٌ وهذه كنانه، وإسفار غمام السفرة عن كوكبٍ علا طالمـا حرس بيمينه أفق الملك وهداه وزانه، وما كانت إلا غيبةً أحمدَ الله عُقباها، وغيابةً بعُدٍ منّ الله عزّ وجلّ وجلّاها، وفترةً ثنى الله فترتها فتنفس خِناقُ المَنصب المشتاقِ لوجهه الكريم، وهجرةً صرف الله هجيرها فسـقى طرسَ الإنشاء الذى آبيضّت عيناه من الحُزْن فهو كظيم، وما محاسن مولانا إلّا زينةٌ من زِينَ الدنيا فعليها يتشاكس المتشاكسون، وما مزاجُ كلماته إلّا من تسنيم ﴿ وفى ذلك فليتنافس المُتنافسون ﴾ .

فالحمدُ لله على أنْ أقرّ العيونَ بمعاودة ظلّه الوريف، وعلى أنْ شفى الصُّدُور بقُربه وأوّلهـا وأَوْلاها صَدْرُ السرّ الشريف، وعلى أنْ أجزلَ الهَناء وقد شَمِلَ ظلُّه، وقد كَمُل بابْن الفضل فضـلُه، وقد بهر سَنَاؤه وسَنَاه، وقد تسعَّب القريبُ والبعيدُ فإنْ أجدى على مِصر مَوْرِدُه فقد جادتْ على الشام سَماه . وقد أخذ المملوكُ حظَّه من هذه البُشرى، ووالى السُّجود لله شُكْرا، وجهَّز خدْمته هذه نائبةً عنه فى تقبِيل بَنَان إنْ سَمّـاه مَوْلى الكرَم بحرا، فقد سَمّاه مربّى الملك برّا، لازالتِ الممالكُ متحفَةً بيُمْنِ مولانا ظاعِناً ومُقِيما، متّصفةً بحمده وحمدِ سَلَفِه الكريم حديثاً وقديما، تاليةً على مُهمّات المُلكِ بصُحْبة بيته الشريف ﴿ وكان فَضْلُ الله عليْكَ عظِيما ﴾ .

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى فى تهنئة بقدوم من سفر :

أدام الله ظِلَّه، ورفَعَ محـلّه، وشكَرَ إنعامَهُ وفضـلَه، وأعزّ أنصارَه، وضاعفَ آقتدارَه، ولا زال مؤيَّدا فى حركاته، مسدَّدا فى سائرِ فَعلاته، مصحُوبًا بالسـلامة فى المَهامِه والقِفار، مخصوصًا من الله تعالى بالأعوان والأنْصار .

الملوكُ يُنْهِى بعد تقبيلِ الأرض ، والقيام بمـا يَجب من سُنَنه والفَرْض ، عِلْمَه بحلُول رِكابِه العالى بمَغْناه ، واستقرارِ خاطرِه الشريف فى مَحَلِّه ومَثْواه ، وجَمْع الشَّمْل بالأهل بعد طُول الغَيْبه ، وبَعْد القُفُول والأَوْبه ؛ فتضاعف لذٰلك فرَحُه وسُروره ، وزال عن قَلْبِه قليلُ الهمِّ وكثيرُه ؛ فاللهُ يمنَحُ المولىٰ أطيبَ المنَازِل ، وأسَرَّ الرَّواحِل ؛ ويجعلُ تجارةَ مَجْدِه رابِحه ، وأوامِرَ دوامِ عزِّه لائِحَـه ، حتّى تُنْشِد نفسُه الكريمـةُ قولَ أبى الطيِّب :

أنَا من جَميع النَّاسِ أطْيبُ مَنْزِلًا * وأسَرُّ راحِـلةً وأرْبَحُ مَتْجَـرا !

لازالتِ الأعْيُنُ قريرةً برُؤْيتهِ ، وقلوبُ الإخوان قارّةً بمشاهدَتِه ، والأوجهُ وسِيمَه ، والنِّعم الظاعِنةُ مُقِيمه ، إن شاء الله تعالىٰ .

أجوبة التهنئة بالقدوم من السفر

قال فى "موادّ البيان" : أجوبةُ هذه الرِّقاع ينبغى أن تُبْنىٰ علىٰ الاعتراف للمُهَنِّئ بحقِّ تعهُّده ، وكَرِمِ تفقُّده ، وإطِّلاعه علىٰ الحالِ فى السَّـفَر ، وما أفضتْ إليـه من السـلامة ، والتأسُّفِ علىٰ ماتقضّى من الأيَّام فى مُباعدَته ، والتخلُّف عن مُباسَمَتِـه ؛ وأنه لم يزَلْ يدَّرِع الإدْلاج ، ويَقْطَع الفِجاج ، رغبةً فى القُدوم إليه ، والوفادةِ عليه ، وبلِّ الغُلَّة برُؤْيته ، وترويح النفس بمحاضرته ، وما يليقُ بهذا النَّمَط من الكلام .

الضـــرب الخامس

(من التهانئ التهنئةُ بالشهور والمواسِم والأعياد)

وهى علىٰ ثمـانية أصـناف :

الصنف الأوّل – التهنئـةُ بأوّل العامِ وغُرّة السَّنة .

من كلام المتقدّمين :

تهنئة من ذلك : من إنشاء أبى مسلم محمد بن بحر :

أسـعدَ اللهُ سـيِّدى بِعامِه ، والفضل منه وما حَوىٰ من الأعياد والأيّام الخَطِيرة وسائر شُهوره وأيّامه ، ومتصرِّف أحواله ، و بمـا يأتى ويكُرّ عليه من زمَانه ، سعادةً تَسُوقُ إليه حظُوظَ الدِّين والدنيا كامله ، وتجمعُ له فوائدَ الأمَدَيْن تامّةً وافِيـه ، وترتَهِنُ إليـه النِّعم فلا تزالُ لَديْه زائدةً نامِيه ، و بلّغه بهـا الأمَلَ ، ومدّ له فى البقاء إلىٰ أنْفَس المُهَل .

ولأبى الحسين بن سعد :

عظّم اللهُ علىٰ مَوْلاىَ بركةَ الشهر والسنةِ المتجدِّدَيْن ، ووهَبَ له فيهما وفيما يتلُوهُما من أيام عُمُره ، وأزمان دَهْره ، سعادةً تجمع له أشْتاتَ الحُظُوظ ، وتصل لَدَيْه موادَّ المَزِيد ، ويُيَسِّر له بُلوغَ الأمـل فى كلّ مايُطالع ويُنـازِع ، والأَمْن من كلّ مايُرَاقِبُ ويُحـاذر .

وله فى مثـله :

عَظَّم اللهُ علىٰ سَيِّدى بركة الشهر والسَّنة ، وأعاشَهُ لأمثالها مُدّةَ آختلافِ الجديدَيْن ، وتَجاوُر الفَرْقَدَيْن ، ممتَّعا بالنِّعم السابِغـه ، والمَواهب المتَرادفه ، والسَّـعادة والغِبْطه ، والعزّ والمَسَرّه .

ولد فى معناه :

جدّد اللهُ لسيِّدى فى الأيَّام الحاضِرة والمستَقْبَله[١]، والأحوال الراهِنة والمُتنقِّلة ؛ حظُوظًا من السَّـعادات ، وأقسامًا من الخَيْرات ؛ لايُحْصَى عددُها، ولا ينقضى مَدَدُها .

وله فى مثـله :

عَظَّم الله [على مولاى] بركَةَ الشهر والسـنة المتجدّدين علَيْـه ، وعَرَّفه فيهما وفى الأيّامِ بعدَهما من حادث صُنْعه ، ولطيف كِفَايته ؛ ماتدوم فيه السعاده ، وتَعْظُم به المِنّه ، وتحسُن فيه العاقِبَه .

وله فى مثـله :

عظَّم الله على مَوْلاىَ بركَةَ هـذا الشهر : المـاضِى [من] أيامه و باقيها ، وهـذه السنَةَ ، وجعلها أيمَن سنةٍ حالَتْ عليه وأسعَدها .

ومنه : ويُنْهِى أنَّ المملوكَ يُهَنِّئُ غُرَّة الأيَّام ، بغُرّة الأنَام ؛ وصـدْرَ العام ، بصَدْر الكِرَام ؛ بل يهَنِّئُ الزمن كلَّه نعَمْ وأهلَه بالحَضْرة التى واسَتِ المَعَالِى .

الصنف الثانى — التهنئـةُ بشهر رمضانَ .

من كلام المتقدّمين :

لأبى الحُسَيْن بن سعد :

جمع اللهُ لمولاىَ فى هذا الشهر الشريف شُروطَ آماله وأحكامَ أمانِيه ، فى حاضِرِ أمرِه وعاقِبته ، وعاجِلِ دُنْيـاه وآخرته ؛ وأبقاه لأمثاله بقاءً لايتناهَى أمَدُه ، فى ظِلِّ عيش يرضاه ويَحْمَدُه .

(١) فى الاصول الماضية تأمل .

ولـه فى مثـلـه :

عرّف الله سيدى بركةَ هذا الشهر الشريف وأعاشَهُ لأمثاله ، ما كرَّ الجديدان، وآختلف العَصْران، ممتّعًا بسوابغ النِّعم، محروسًا من حوادث الغِيَر، ومُوَفّقًا فى شهره، وأزمان دَهْره، لأزكىٰ الأعمال، وأرضىٰ الأحوال، ومقبولًا منه مايُؤدّيه من فَرْضه، ويتنفّل به قُرْبةً إلىٰ ربّه .

ولـه فى مثـلـه :

عرّفه الله بركةَ إهْلاله، وأبقاه طويلًا لأمثاله ؛ موفّقًا فيه من عمل الخير، ومُراعاةِ الحقّ، وتأديةِ الفَرْض، والتنفُّل بالبِرّ، لما يُرْضيه، ويستحقّ جزيلَ المَثُوبة عليه، ممتّعًا بعده بسَنِيّ المَواهب، وجَسِيم الفوائد ؛ مع آتصالِ مُدّة العُمُر، وآجتماع أُمنيّات الأمل .

ولـه فى مثـلـه :

عَرَّف اللهُ مولانا بركةَ هذا الشهر الشريف وأيّامه، وأعانك علىٰ صيامه وقيامه ؛ ووصل لك مايزيدُ من فَضْله وإنعامه ؛ وتابع لك المزيدَ من مَنائحه وأنْعامه ؛ وختمَ لك بالسعادة العُظْمىٰ بعد الآنتقال [فى الجاه والرياسة إلىٰ] أبعد المدىٰ ؛ وفى العزّ والثّروة إلىٰ أقصىٰ المُنىٰ .

أبو الفرج الببغاء :

جعلَ اللهُ ماأظلّه من هذا الصيام مقرونًا بأفضل قَبُول، مُؤْذِنا بإدراك البُغْية ونُجْح المأمُول، ووفّقه فيه وفى سائرِ أيّامه، ومستأنَفِ شُهوره وأعوامه، لأشْرَف الأعمال وأفضَلِها، وأزكىٰ الأفعال وأكْمَلِها، ولا أخْلاه من بِرٍّ مَرْفُوع، ودعاءٍ مسمُوع، وسَعْى مشْكُور، وأمرٍ مَبْرور، إلىٰ أن يَقْطَع فى أجملِ غِبْطة وأتمّ مسرّةٍ أمثاله .

ولـه فى مثـلـه :

عرّفكَ اللهُ بركةَ هـذا الشهر المعظّم قَدْره ، المشرّف ذِكْره، ووفّقكَ فيـه لصالح الأعمال، وزكّى الأفعال، وقابَلَ بالقَبُول صِيامَك، وبتعظيم المَثُوبة تهجُّدَك وقِيامَك، ولا أخلاك فى سائر ما يَتبعـه من الشُّهور، ويَليه من الأزمنـة والدُّهور، من أجرٍ تَدّخره، وأثرٍ تَشكُره .

قلت : وممـا كتبتُ به تهنئـةً بالصوم للمَقرّ الأشرف الناصرىّ محمد بن البارزىّ كاتبِ السرّ الشريف المؤيَّدىّ بالممالك الإسلامية، فى سنة ستّ عشرةَ وثمانمائة نظمًا :

أيا كاتبَ السِّرّ الشَّرِيف ومَنْ بِه * تَمِيسُ نَواحِى مِصْرَ تِيهًا مَعَ الشَّامِ!
ومَنْ جَلَتِ الجُلَّى كتَائبُ كُتْبِـه، * ومَنْ نابَ عن وَقْع السُّيُوفِ بأقْلامِ!
تَهَنَّ بهذا الصَّوْمِ والعِيدِ بَعْـدَه، * ومِنْ بَعْدِه بِالعِيد والعَـامِ فالْعامِ!
وتَرْقَ رُقِىَّ الشَّمس فى أَوْجِ سَعْدِها * وتَبْقَ بَقاءَ الدَّهْرِ فى فَيْضِ إنْعامِ!

الصنف الثـالث — ما يصلُح تهنئةً لكلّ شهرٍ من سائر الشُّهور .

لأبى الحسين بن سعد :

عظَّم اللهُ بَركةَ إهْلاله، وأعاشه لأمْثاله، أطْولَ المُدّة، ممتَّعا بأدْومِ النِّعمة، ومشفَّعا(؟) بأفضل الأَملِ والأُمْنيّه .

وله : أسـعد اللهُ سيِّدى بانْصِرامه وإهْلالِ ما بعـده ، وأبقاه ما بَقِىَ الزمان ممتَّعا بالعِزّ والنِّعمه، محروسًا من الآفات المَخُوفة، والحوادث المَحْذُوره .

وله : عَظَّم اللهُ على سيدى بركةَ الماضِى والمستقبَلِ من الأيام والشُّهور [والأعوامِ] والدُّهُور، ووصلَ له السعادةَ باتِّصالها، وجدَّدَ له النِّعمةَ بتجدُّدها .

وله : عظَّم الله بركةَ آنسِلاخه ، و إهْلالِ مايتلوه ؛ مُجَدِّدا لك بتجدُّدِه فوائدَ الخيرات ، وأقسامَ البركات ، تدُوم فيها المُدّه ، وتطُولُ بها النِّعمه .

وله : أسعدَك الله بإهْلاله ، وأعاشك أبدًا لأمْثالِه ، ممتَّعا بدَوامِ العزِّ والنعمه ، وآجتماعِ أسبابِ الرَّخاء وشُروط المحبَّه ، إنّه جوادٌ كريم .

[وله : عَظَّم اللهُ علىٰ مولاىَ بركاتِ هذا الشَّهر ومايتلُوه ، و بلَّغه مايُحاوِله ويَنْحُوه ، فى مستأنَفِ الشُّهور ، ومؤتنَف الدُّهور ، مُضاعَفًا له العِزُّ والتأييد ، ومَوْصولًا له أصلُ النعمةِ بحُسْنِ المَزِيد] (١) .

وله : عَظَّم اللهُ علىٰ مولاىَ بركةَ الشَّهر ، وأدامَ له سَلامةَ الدَّهر ، مَوْفُورا من العِزِّ والسلطان ، غيرَ مذْعُور بنوائِبِ الزَّمان .

وله : عظَّم الله علىٰ سيدى بركةَ الأيّامِ والشُّهور ، والسِّنينَ والأحْقاب ، وجمع له المواهِبَ كامِلَه ، والفَوائد فاضِلَه ، دِينًا ودُنْيا ، وحاضِرةً وعُقْبىٰ .

وله : عظَّم اللهُ عليكَ بركَته ، وعَرَّفَك يُمْنَه وسَعادتَه ، وجدّدَ لك الخَيْرات ، بتَجْديد الأوقاتِ والسّاعات ، حتّى تحوزَ منها أسْنىٰ الحُظُوظ وتبلُغَ مما تمنّاه أقصىٰ الغايات .

الصنف الرابع — التهنئة بعيد الفطر .

من كلام المتقدّمين :

لأبى الحسين بن سعد :

عظَّم اللهُ علىٰ سيِّدى بركةَ هذا العيد ، واعاشَه لأمْثاله ، من الأعْيادِ المَشْهُوده ، والأيّام الجَديده ، [فى] أهنإ عيش وأرْغَده ، وأطْوَلِ مدًى وأبْعَده .

(١) الزيادة فى بعض النسخ .

أبو الفرج الببغاء :

أسعدكَ الله بهذا الفطرِ الجديد ، والعيدِ السَّعيد ، ووَصَل أيَّامَك بعدَهُ بأكملِ السَّعادات ، وأجْمَل البركات ، وجعل ما أسلَفْتَه من الدُّعاء مقبُولا مسْمُوعا ، ومن التهجُّد زاكِيًا مرْفوعا ، ولا أخلاك من نِعمةٍ يحرُسُ الشكرُ مُدَّتَها ، ولا يُخْلِقُ الدَّهْرُ جِدَّتَها .

من كلام المتأخرين :

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

المولىٰ أدامَ الله نِعمَه ، وحرَسَ شِيَمَه ، هو سيِّدُ الأفاضل ، ورئيسُ الأماثِل ، وحسَنَةُ الزَّمان ، ولَيْثُ الأقْران ، وهو فى الأنَام ، كالأعيادِ فى الأيَّام ، فإنَّ الأنامَ ليلٌ والمولىٰ المِصْباح بل الصَّباح ، وسائرَ الأيَّام أجسادٌ وسائرَ الأعيادِ هى الأرْواح ، فإذا كان المولىٰ قد زُهِيَ علىٰ أبناءِ جِنْسِه ، ويومُ العِيد علىٰ غَدِه وأمسه ، فقد صار كلٌّ منكما إلىٰ صاحبه يتَقَرَّب ، ويلزَم ويلْزَب ، وهو أحقُّ الناسِ بأن يُبْهِجه مَقْدَمُه ، وأن يُهنَّىٰ بيَومِه الذى هو مجْمَعُ السُّرور ومَوْسِمُه .

والخادم يُهَنِّئُ المولىٰ بهذا العِيد ، واليومِ السَّعيد ، فإنه وافىٰ فى أوانِ الرَّبيع وزمانِه ، ليُبَاهِيَ بغُصْنِ قَدِّه أغصانَ بَانِه ، ويَسْتَنْشِقَ فى صَدْرِه ووِرْدِه ، رائحةَ رَيحانه ووَرْدِه ، ويختالَ فى رِيَاضه وحَدائقه ، ويُلاحِظَ بَهْجةَ أزْهارِه وشَقائقه ، والعيدُ والرَّبيعُ ضَيفانِ ومكارِمُ المولىٰ جَديرةٌ بإكرام الضيف ، والتمتُّع بالمَلاذِّ فيهما قبلَ رَحيلِهما وقُدُوم حَرِّ الصَّيْف ، وأن يُحَسِّنَ وجْهَ عِيده ، بحُلُوله فى مَغْناه ووُجُوده ، بما يُوليه لعُفَاته من إنعامِه وجُوده ، لازالتِ الأعيادُ تُهَنَّىٰ ببَقائه ، وألسنةُ الأيام تَشْكر سوابِغَ نَعْمائه ، وتحمَدُ جزِيلَ عَطائه ، وتَنْطِق بوَلائه وثنائه ، أبدًا ، إن شاء الله تعالىٰ .

قلت : ومما كتبتُ به مهنئًا للمقرّ الأشرف الناصرىّ محمد بن البارزى صاحب دَواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية فى الدولة المؤيَّديَّة «شيخ» بعيد الفِطْر نظمًا، بعد أن سألته حاجةً فقضاها، وأسنىٰ لى الجائزةَ علىٰ نثرٍ كتبتُه له .

سألتُ نِظامَ المُلكِ كاتبَ سِرِّه * إزالةَ ضَنْكٍ أرهفَ الدَّهرُ حَدَّه!

فمَنَّ بجاهٍ زَعْزَعَ الأرْضَ وقْعُه، * وجادَ بمالٍ لايُرىٰ الفقرُ بَعْدَه.

وبالبارِزِىّ ٱزدانَ وصْفُ مكارمٍ * فأشْبَهَ فى فَضْلٍ أباه وجَدَّه!

فيهْنَاهُ صَوْمٌ ثمَّ عِيدُ مَسَرَّةٍ * وطالِعُ إقْبالٍ يُقارِنُ سَعْدَه!

ورَفْعُ دُعاءٍ لايُغِبُّ تَتابُعًا، * وطِيبُ ثَناءٍ خامَرَ المِسْكُ نَدَّه!

الصنف الخامس — التهنئة بعيد الأضحى .

من كلام المتقدمين :

أبو الحسين بن سعد :

كتابى والنحر — نحرَ اللهُ أعداءَ مَوْلاىَ وحُسَّادَ نعمتِه ، وأمتعه بموَاهبه عنْده ، وبارك لَهُ فى أعيادِه ومتجدِّد أيامه ، بركةً تنتظِم السَّعادات ، وتتضمَّن الخيْرات ؛ متصلةً غير مُنْقطعه ، وراهنةً غير فانيه .

من كلام المتأخرين :

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى :

تَهَنَّ فأيّامُ السُّرورِ أواهِلُ * وكُلُّ مَخُوفٍ عن جَنابِك راحِلُ!

ونَجْمُك من فَوقِ الكَواكِبِ طالِعٌ، * ونَجْمُ آمرئٍ يَشْنا سُمُوَّك آفِلُ!

أَلَا أيُّها المَوْلَى الّذِى عَمَّ جُودُه: * فَدَتْكَ العَوالِى والجِيادُ الصَّواهِلُ!
تمتَّعْ بِعِيدِ النَّحْر، وافاكَ خاضِعًا * يُحَقِّقُ مِنْ دُنْيَاكَ ما أنْتَ آمِلُ!
ودُمْ كابِتَ الأَعْداءِ وآبْقَ مُخَلَّدًا * علَى المالِ عافٍ، بالرَّعِيَّةِ عادِلُ!
لَقَدْ راقَ مَدْحِى فى مَعالِيكَ مِثْلَما * صَفَتْ منكَ أَوْصافٌ ورَقَّت شَمائِلُ!

جعلَه اللهُ أبركَ الأعياد وأسْعدَها، وأيْمَنَ الأيَّام وأمْجدَها، وأجْملَ الأوقاتِ وألَذَّها وأرْغَدَها، ولا بَرِحَ مَسْرُورا مستَبْشِرا، مَنْصُورا على الأعداء مقْتَدِرا، مسْعُودا محْمُودا، مُعانًا بملائكة السماء مَعْضُودا، مُهنًّا بالسُّعود الجَديده، والجُدُود السَّعِيده، والقُوَّةِ والناصِر، والعُمُر الطويلِ الوافِر:

ولا زالَتِ الأعيادُ لِبسَكَ بَعْدَه * [فَتَخْلَعُ] (١) مَخْرُوقًا وتُعْطَى مُجَدَّدا،
فذَا اليومُ فى الأيَّامِ مِثْلُكَ فى الوَرَى * كما كُنْتَ فِيهِمْ أَوْحَدًا كانَ أَوْحَدَا!

وأعاده على المولَى فى صِحَّةٍ دائِمه، وسلامةٍ مُلازِمه؛ وأصار عِيدَه مُطِيعا لأوامِرِه كسائِر العَبِيد، وعَبِيدَه فى كلِّ يوم من المَسَرَّة ببقائِه لها كالعِيد، والأيَّامَ به ضاحِكةَ المَبَاسِم، والأعوامَ جميلةَ المَوَاسِم؛ ومتَّعَنا بدَوامِ حَياته، وآستِجْلاء جميلِ صِفَاته، وآستِحْلاءِ مدائِحِه بإنْشادِ عُفَاته؛ وأراهُ نَحْرَ أعادِيه، بين يَدَيْه كأضاحِيه، وأصار الحجَّ إلى بابه غافِرًا سَيِّئاتِ الإفلاسِ والإعْدام، ومُبِيحًا لُبْسَ المَخِيطِ من إنعامِه العامّ؛ ألبسهُ اللهُ من السعادةِ أجملَ حُلَّه، ومنَحه من المكارِمِ أحْسَنَ خَلَّه.

الصنف السادس — التهنئة بِعيد الغَدِير من أعياد الشِّيعة:

وكان لهم به آهتمامٌ فى الدولة الفاطميَّة بالديار المِصْريَّة. والطريقُ فى التهنئةِ به علَى نحو غيرِه من الأعياد.

(١) بياض بالأصل والتصحيح من المقام.

مايصلُح تهنئةً لكلِّ عيد .

أبو الفرج الببغاء :

لولا العادةُ المَشْهوره، والسُّنَّةُ المأثُوره ، بالإفاضةِ فى الدُّعاء ، والمشافهةِ بالتهنئةِ والثَّناء، فى مثلِ هذا اليومِ الشريف قَدْرُه، الرفيعِ ذِكْرُه، لكان أيَّده الله دُونَ رُؤَساء الدَّهْر، وملُوكِ العَصْر يجلُّ عن التهنئة : إذ كانتْ سائرُ أيَّامِه بما يُودِعُها من أفعال الخير مُعَظَّمه، وبما يَبُثُّها من المحَاسِن مكرَّمه، فبلَّغه الله أمثالَه محرُوساً فى نفسِه ونِعْمته، محفُوظا فى سُلْطانه ودَوْلته، مُوفِياً على أبْعد أمانيه، مُدْرِكا غايتَها فيما يؤمِّلُه ويَرْتجيه .

وله فى مثله :

عرَّفكَ الله يُمْنَ هذا العيدِ وبركَته، وضاعفَ لك إقبالَه وسعادتَه، وأحْياكَ لأمثاله فى أسبَغ النِّعم وأكملِها ، وأفسحِ المُدَد وأطْولِها ، وأشرف الرُّتَب وأرفَعِها ، وأعزِّ المَنازل وأنْفعها، وحَرَسَ مِنْحَتك من المحذُور، ووَقَى نِعمتَك من عَثَرات الدُّهور .

الصنف السابع — التهنئة بالنَّيرُوز .

وهو من أجلِّ أعيادِ الفُرْس، على ماتقدم ذكره فى الكلام على أعياد الأمَم ، فى المقالة الأولى . وكان للكُتَّاب به آهتمامٌ فى أوائل الدَّوْلة العبَّاسية بالعِراق، جَرْيا على ما كان عليه الفُرْس من قَدِيم الزمان .

وفيه لأبى الحسين بن سعد :

هذا يومٌ شَرَّفَتْه العجم ، ورَعَى ذِمَامَه الكَرَم ، وهو من أسلافِ سيِّدى ذَوِى النَّباهة، وأخلافه ذَوِى الطَّهارة، بين مُنْشِئِ رَسْمه، ومؤدِّى حقِّه ، وكاسٍ له بقَبُول

انتسابه إليه جمالًا يبقىٰ علىٰ الأيام، وحالًا يتفق بها لدىٰ الأنام؛ فليس أحدٌ أحقّ بالتهنئة [به] ممن سنّه آباؤه، وشيّدته آلاؤه، فصارت إلىٰ أوّليّته نسبته، وبكرم سجيّته عصمته.

وفيه له: هذا - أيد الله سيّدى - يومٌ عظّمه السّلف من العجم، وسيّدى وارثُ سُنّة الكرم؛ وللسادة علىٰ العبيد فى هذا اليوم رسْم فى الإلطاف، وعليها لهم حقٌّ فى القبول والإسعاف؛ وقد بعثتُ بما حضر جاريًا علىٰ سُنّة الخدمه، وعادلًا عن طريق الحشْمه؛ ومقتصرا علىٰ ما اتّسعتْ له الحال، وما يوجبه قدْرُ سيّدى من المبالغة فى الاحتفال، فإنْ رأىٰ أن يُشرّف عبده بالاحتمال إليه، وإجرائه مُجرىٰ الأُنس عنده، فعل، إن شاء الله تعالىٰ.

وفيه للكرجىّ:

هذا يومٌ تسْمو له العجم، ويُستعجم(١) فى العرب؛ تشريفًا له واعترافًا بفضله، واقتداءً بأهله، وأخذا بسُنّتهم فيه، فليهْن(٢) لإحراز الدولة فى العزّ [منزلا] بحيثُ لا يُرام، ولا يُضام؛ ولا ترقىٰ إليه الأمانى، ولا يطْمع فى مساواته المُساوى؛ وإنهم بعد تصرّم الدولة علىٰ حميد آثارها، وجميل الذّكر فيها؛ أعلامٌ تُضْرب بهم الأمثال، وتزْهو بأيّامهم الأيّام، وآثارهم تُقتفىٰ، وأعيادُهم تُنتظر؛ يُتأهّب لها قبْل الأوان، ويُعْرف فيها أثرُ الزمان؛ وإنّك منهم فى الذّروة الساميه، والرُّتبة العاليه؛ ومحلٍّ لا عار معه علىٰ حُرّة فى الخُشوع لك، والتعلّق بحبلك. وقد وجدتُ الأتباعَ عندَ ساداتها فى مثل هذا اليومِ علىٰ عادةٍ فى الإلطاف جشّمتْها، وسيّرتْ بها علىٰ أقوام منحتْهم ظُهورَ الدّعوىٰ فيها، فأقبل قائلهم يقول: «لو كان بابُ الإهداء مفتُوحا غيرَ مسْدُود،

(١) مراده أن العرب اتبعت العجم فى تعظيمه تأمل. (٢) قد بلغ التحريف من هذا مبلغه حتى لا يكاد يفهم والمراد أن دولة الفرس أحرزت من العز منزلا بحيث الخ تأمل.

ومُباحًا غير ممنُوع ، لأتحفتُ بالغُرَاب الأعْصَم ، والكِبْريت الأحمر ، والأبلَقِ العَقُوق ، وبَيْض الأَنُوق» . وقد بعثتُ بهدِيَّة لا تُرَدُّ (يعني الدعاء) .

وفيه : من كان مَحلّك من العِزّ ، ونَبَاهةِ الذِّكْر ، وٱرتفاع الدَّرجه ، وعُلُوّ المَنْزِله ، وسَعة البَلَد ، وبُعْد الأمَد ، لم يتقربْ متحلٍّ بالعلم والأدبِ إليه فى يوم جديد إلّا بصالح الدُّعاء ، وحُسْن الثناء .

وفيه : لو أخَّرنا هذا ٱنتظارًا لوجُود ماتستَحِقُّه ، لٱنقضتْ أيامُنا ، بل أعمارُنا ، قبل أنْ نقضىَ لك حَقًا ، أو نُؤَدِّىَ عن أنفسنا فرضا : لٱرتفاعِ قَدْرك عمّا تحويه أيدينا ، وعُلُوّ حالك عما تبْلُغه آمالُنا ، وقد ٱقتديتُ بسُنَّة الخَدَم والأوْلياء فى الأعياد ، وأوضحْتُ العُذْر فى ترك الاجتهاد ، وبعثْتُ فى هذا اليوم ، الذى أسألُ الله أن يُعيده عليك ألْفَ عام ، فى نَماء من العِز ، وعُلُوّ من القَدْر ، وتمامٍ من السُّرور ، ومزيد من النِّعمة ....

الصنف الثامن — التهنئة بالمِهْرجان .

وهو أحدُ أعيادِ الفُرْس ، على ماتقدّم ذكره فى المقالة الأُولى ، فى الكلام على أعياد الأمم . وكان للكُتّاب من الاحتفالِ بالتهنئةِ به فى أوائل الدولة العبّاسيّة مالهم بالنَّيْروز .

فيه — لأبى الحسين بن سعد :

لسيِّدى علىّ فى الأعياد المشْهُورة ، والأيّام الجَديدة ، عادةُ ٱختَزَلَنِى عن بَعْضها فى هذا الفصل ، كَلالُ الطَّبْع عن البَعْض ، ووقُوعُ الخطر (؟) بعرضه من الثناء نَظْما ونَثْرا ، ومن الإهداء عرضا وبرا ، دعاءٌ تزيد قيمتُه على الأعلاقِ الثّمينه ، وموقعُه على الذخائر النَّفيسه ، ولُطْفُه على التُّحَف البديعه ؛ فأسعدَ الله سيدى بهذا اليوم سعادةً تَعُم ، ولا تَرِيم ، وتَزِيد ، ولا تَبِيد ، وتتوطَّن ، ولا تَظْعَن ؛ وتجمع حظُوظًا من

الخيرات ، وفوائدَ من البركات ؛ يتّصِلُ سنَدُها ، ولا ينتهى أمَدُها ؛ وأبقاه فى أسبغ عِزّ وأرفع رُتبـة وأرغَدِ عِيشة ، مكنوفاً بحراسةِ تَقِيه [وآله] عَوادِىَ الزمان ، وتصرِفُ عنهما طوارِقَ الحَدَثان ؛ ما طَرَد الليلُ النَّهار ، وطلَعَ نجم وغَار ؛ وعلىٰ ذلك ــ أيد الله سيدى ــ فإنَّ الحِرْص علىٰ إقامة الرَّسم والتطَيُّر من إضاعةِ الحقِّ بعثانى علىٰ مُراجعة القَرِيحه ، وآستِكْداد الرَّوِيّه ؛ فأسعفا بمـا قَبِلته الضرورة ؛ ولم أُطِعْ فى إهدائه سُلطانَ الحِشْمه ؛ وفضلُ سـيدى يتّسِع لقَبُول الميْسُور ، وتحسينِ القَبِيح ؛ والله المعينُ علىٰ تأدية حقّه ، والقيامِ بواجب فرْضه .

ولـه فيه أيضا ، إلىٰ مَن منع أن تُهدىٰ إليه فيه هدية .

لو كنتَ فتحْتَ باب الإلطاف ، ونَهجْتَ إليـه سَبِيلا ؛ لتنازعَ أوْلياؤُك قصبَ السَّبْق وتنافَسُوا فى السَّرَف ؛ فبان للمجتهِد فضْله ، وآلتمس العذْرَ فى التقصير ملتَمِسُه ؛ وعمَّت المنحةُ كافَّتهم بمـا يظْهَر من موَاقعهم ، وينكشف من أحوالهم ؛ لٰكنَّك حظَرْت ذلك حَظْرا آستوىٰ فيـه الفريقان فى الحُكْم ، وآمتـدّ فيه علىٰ ذَوِى الخَلَل السِّتْر ؛ ولم تحظُر الدُّعاء ، إذ حظَرْتَ الإهداء ؛ فأنا أُهْـدِيه ضَرورةً وآختيارا ، وإعلانًا وإسْرارا ؛ فأسعَدَكَ الله بهذا العيد الجديد ، الذى زادَ بك فى قَدْره ، وشرَّفه بأن جعلك من أرْبابه ووُلاة أمْرِه .

أبو الفَرَج البَبَّغاء :

هذا اليومُ من غُرَر الدُّهُور المشهُوره ، وفضائِل الأزْمِنـة المذْكُوره ؛ معظَّمٌ فى العَهْد الكِسْرَوِىّ ، مستظْرَفٌ فى العَصْر العَرَبِىّ ؛ باعثٌ علىٰ عِمارة المَوَدّات ، مخصوص بالآنْبِساط فى الملاطَفَات ، ولستُ أستَزِيدُه ــ أيّده الله ــ من بِرٍّ يُولِيه ، ولا تَطَوُّلٍ إلىّ يُسْدِيه ؛ غيْرَ إدخالى فى جُمْلة من بَسَطَته الأَنَسـه ، وثقَّفَته المحبّه ؛

وتقرّبتُ منه بوكيد الخدمه، فى قبول ما إن شرّف بقبوله، كان كثيرًا مع قلّته، جليلًا مع نزارته؛ فإنْ رأىٰ أنْ يقوّى منه ثقتى، ويقابل بقبولِ ما أنفذته رغبتى، فعل، إن شاء الله تعالىٰ.

ولـه فى مثـله :

قد أطعتُ فى الانبساط إليك دواعىَ الثقه، وسلكتُ فى التحرّم بك سُبُل الأنسه، وتوصّلت بملاطفتك إلىٰ حسم موادّ الحشمه؛ فاستشهدتُ علىٰ ثقتى بك فيما أنفذته بمفارقة الحفْله[1]، وكُلف المكاثره؛ فإنْ رأيتَ أن تكلنى فى تقبّله إلىٰ سعة أخلاقك، وتسلكَ فى ذلك أخصرَ طريقٍ إلىٰ ما أخطبُه من مودّتك، وأزاحمُ عليه فى إخائك؛ فعلتَ، إن شاء الله تعالىٰ.

ولـه فى مثـله :

هذا اليومُ ـ أيّد اللهُ سيدى ـ من أعياد المروّه، ومواسم الفتوّه، وأوطانِ السرور، ومحاسنِ الأزمنة والدّهور، بلّغه [الله] أمثالَه فى أنضر عيشٍ وأسبغ سلامه، وأبسطِ قُدره، وأكمل مسرّه؛ وقد توثّبت إلىٰ الاقتداءِ فيه بأدبِه، والأخذِ بمعرفة فروضـه بمذهبه، وأطعتُ فى الانبساطِ إليـه دواعىَ الثقة، وأنفذت ما اعتمدتُ فى قبوله علىٰ مكانى منه، عائذًا بالتقليل من كُلف المكاثره، ومستثقل الكلفه؛ فإن رأىٰ أن يأتىَ فيما التمسته ما يُناسِبُ شرفَ طبعه، وسعة أخلاقه؛ فعل، إن شاء الله تعالىٰ.

ولـه فى مثـله :

لو كانت الملاطفات بحسبِ الرُّتب وقدْر المنازل، لما انبسطتْ قدرةٌ ولا اتّسع إمكانٌ لما يستحقّه نُبلُ محلّه، وواجباتُ رياسته؛ ولكنّنى من بين خدمه ضعيفُ المُنّة عن خدمته فى هذا اليومِ السعيد؛ بلّغه الله أمثالَه فى أفسح أجل، وأنجح أمل،

---

(١) كذا فى الأصل ولعله «الكلفة».

بما يَخْدُمُهُ به ذَوُو الخِدْمات الوكيدةِ عنده، المكينةِ لديه؛ غير أنّى أثِقُ منه -أيده الله- بحَمْل قليلى على عِلمه بإخلاصى فى وَلائه، وآنتسابى إلى جُمْلته، وآختلاطى بأنسابه؛ فإنْ رأى أن يُجرِيَنى فى قَبُول ذلك على سُـنَّة أمثاله من ذَوِى الجَلالة، عند أمثالى من الأولياء والحاشيةِ، فعل .

وله فى مثـــله :

لو كانتِ الهَدايَا لا تُتَقَبَّل مالم تُناسِبْ فى نَفَاسة القَدْر، وجَلالة الذكر، مَحلَّ من يُتَقَرَّبُ بها إليه، ومنزلةَ من أهداها إليه عليْه، لَمَا سمتْ هِمَّةٌ، ولا آتسعتْ قُدْرة، لِمَا يستحقُّه - أيده الله - بأيْسر واجِباته، وأصغرِ مفْتَرَضاته؛ غير أنَّ الأَنَسةَ بتفَضُّــله، والاعتدادَ بسالف تَطَوُّله، والتحقُّق بخِدْمته، والانتسابَ إلى جُمْلتــه، بَسطَنى إلى إنفاذ ما إن شرَّفنى بقَبُوله كان مع قِلَّتــه كثيرا، ومع نَزَارتِه جليلاً؛ فإنْ رأى أن يقوِّى بذلك منه ثِقتِى، ويحسِمَ مادَّة آحتشامى، فعل .

أجوبة التهنئة بالمواسم والأعياد

قال فى "موادّ البيان" : هذه الكتُبُ والرِّقاع مضمُونُها الهَناء بالمَوْسم الجديد، والدعاء للهنإ فيه بتَمَلِّيه . قال : وهذا المعنى مُقَاوَض بين المهنِّئ والمهنَّأ، وينبغى أن تكون أجوبتُها مشتقَّةً منها . ثم قال : وقد يتصرَّف الكُتَّاب فيها إذا كاتبوا الرُّؤساء تصرُّفا يخرج عن هذا الحكم .

وهـــذه أمثلة من ذلك :

أبو الفرج الببغاء :

سَمِع الله دُعاءَك، وبَدَأَ فى تقبُّل المسألة بِك، وأجْزل من أقْسامه حظَّك، وبلَّغك أمثالَه فى أفسح مُدَد البقاء، وزاد فيما خوّلكَ من المواهب والنَّعْماء؛ ولا أخْلانِى من بِرِّك، وأنهضَنى بواجِبَاتِك .

ولهُ فى مثـله :

كلَّ يوم أسعدُ فيه بمشاهدَتك ، وأقطعُه فى ظلّ مودّتك ، حقيقٌ بالإحماد ، مُوف علىٰ محاسن الأعياد ، فسمعَ اللهُ دُعاءَك ، وأطال ماشئتَ البَقاء بقاءَك ، وجعل سائر أيامك مقرونةً بالسّعادات ، موصولةً بتناصر البَركات .

من زهر الربيع :

يخدُم المجلسَ العالىَ جعـل الله قَدْره علىٰ الأقدار سامياً ، وجزيلَ نَواله علىٰ مَنْ هامَ به من العُفَاة هامياً ، ونصره نَصْرا عزيزا ، وأسكنه من حِراسته حِصْنا حَصينا وحِرْزا حريزا ، ولا زالتِ الأيّام حاليـةَ الجيدِ بوُجُوده ، والأيْدى تَهَشُّ إلىٰ تَنـاوُل أياديه وجُودِه ، وأخبارُ المكارمِ عنه مَرْويّة وإليـه مَعْزوّه ، وآياتُ فضله وفضائِله بكلّ لسانٍ متلُوّه .

وينْهِى إلىٰ علمه وُرُودَ مشرّفته التى حلّتِ الأسمـاعَ عند ماحَلّت ، وسَمَتْ عن الرِّياض لَمّـا جُلِيَتْ عَروسُ فضلها وجَلّتْ ، وزهَتْ علىٰ زُهورِها ، برَقْم سُطُورها ، وطيب عَرْفها ونَشْرها ، بمـا فاحَ من طَيِّها عِنْد نَشْرها ، وفائق حُسْنها وبَهْجَتها ، ورائق بَراعةِ عبارَتها ، ومعامَلتها بمـا يجبُ من فُروض إكرامها والسُّنَن ، والمشْيِ فى تجْيلها علىٰ الطريقِ المألُوفِ من مُوالاته والسَّنَن ، وعِلْمه بمـا أشار إليه من الهَناء بالعيد ، واليَوْمِ السعيد ، وقد تحقّق بذلك إحسانه الذى ما بَرِح متحقّقا بجميـله وجزيله ، وشاكرًا لكثيره وقليله ، وحصلَتْ له البُشرىٰ ، والمسَرّةُ الكُبْرىٰ ، ليس للعيد بمُفْرَده ، ولا لهذا الهناء بمجرّده ، بل لبقاءِ المَوْلىٰ ودَوامِ سـعادته ، وتخليد سيادته ، فإنّه لكلّ إنسانٍ عينٌ ولكلّ عين إنْسان ، وهو رُوحٌ والأيّام والأنامُ جُثمان ، فالملوكُ ببقائه كلّ

يومٍ يتجدّدُ له عيدٌ جديد ، ويتضاعَفُ له جَدٌّ سَعيد ؛ حرَسَ اللهُ شرَفَه الرفيعَ من الأذىٰ ، وأراه فى عَيْن أعاديه جِذْعا ناتئًا وسلَّمَ لحظَه المحروسَ من القَذىٰ ؛ وأصار أيّامَه كلَّها أيامَ هَناء ، وبِدايةَ سعادتِه بغير حدٍّ وانتهاء .

الضرب السادس

(التهنئة بالزواج والتسرّى)

من كلام المتقدّمين :

أبو الفرج الببغاء :

وصلَ اللهُ هذا الاتّصال السعيد ، والعَقْد الحَميد ، بأحمدِ العَواقِب ، وأجملِ المِنَح والمَواهِب ؛ وجعل شَمْلَ مَسرَّتك به ملْتئِما ، وسبَبَ أُنْسِك بإقبـاله منتَظِما ؛ وعرَّفك به تعجُّلَ البركات ، وتناصُرَ الخيْرات ؛ ولا أخلاكَ فيه من التَّهانى بنُجَباء الأوْلاد ، وكبَتَ بكثْرة عددِك سائرَ الحُسّاد ؛ وهنأنى النعمةَ الجليلةَ بإخائك ، وعضَّدنى وسائرَ إخوانِك ببَقائك .

وله فى مثله :

قرنَ اللهُ بالخِيرةِ ما عقَدْتَ ، وبالسعادةِ ماجَدَّدْت ، وبجميلِ العاقِبةِ ما أفدْتَ ، وعرّفك بركاتِ هذا الاتّصال ، ولاأخلاكَ فيه من مَوادِّ السعادةِ والإقْبال ؛ وعضَّدك بالبَرَرة من عَقِبك ، والسادة من ذُرِّيّتك .

وله فى مثله :

إنّى وإن كنتُ ملْتَحِفا بلُحُف مودَّتك ، ومتمسِّكا بعِصَم أُخُوَّتك ؛ أَوْلىٰ بالتهنئة بما يَحْدُث لك من وُرودِ نِعْمه ، واتّصالِ مَوْهِبه ؛ فإنّى ما أجِدُ فرَصَ الدعاءِ لك

ساقطا ، ولا واجبَ الشكر لله تعالىٰ علىٰ ما أوْلانى فيك زائلا ؛ فعرَّفك اللهُ بركةَ هذا الاتِّصالِ الحميد ، والاقترانِ السَّعيد ، وجعله للسُّرور مُكثِّرا ، وباليمن مبشِّرا ، وأحياكَ للتهانى بمثلِه فى السادةِ من وَلَدِك ، والنُّجباء من ذرِّيتك .

وله فى مثـله :

وصل اللهُ هذا الاتِّصالَ الميْمُون بأرْجحِ البركات وأفضَلِها ، وأنجح الطَّلِبات وأكملِها ، وأحمدَ بدْأَه وعُقْباه ، وبلَّغك الآمالَ فى سائرِ ما تهْواه ، وأحياكَ للتهـانِى بأمثاله فى البَرَرة من وَلَدِك ، والنُّجباء من عَقِبك .

من كلام المتأخرين :

للشيخ شهاب الدين محمود الحلبى :

جعلَ الله الخِيرَةَ له فيما يَذَرُه ويأتيه ، والنجاحَ مقْروناً بما يُعيده من الأوامر ويُبْديه ، والألسـنةَ شاكرةً مايُوليه من الإنعامِ ويُسْديه . صدرَتْ هـذه الخدمةُ معْرِبةً عن ثناءٍ تأرَّج عَرْفُه ، وولاءٍ أعجزَ الألسِنةَ شرْحُه ووَصْفُه ؛ وتهنئةٍ بهذه الوُصْلة المباركةِ جعلهـا الله للاتِّصال بالسـعادةِ سَبَبا ، ومحصِّـلةً من الخيراتِ مَرَاما وافِراً وأرَبا ؛ وعَرَّفه بركةَ هـذا العُرْس الذى أصبحَ الخيرُ بفِنائه مُعرِّسا ، ونُورُ الشمسِ من ضياء بهجَتِه مقتبِسا ؛ فنحمدُ اللهَ علىٰ هذه الوُصْلة سِرًّا وجَهْرا ، ونشكُره أنْ جعـلَ بينه وبينَ السَّعْد نَسَـبا وصِهْرا ؛ منحَ اللهُ المولىٰ الرِّفاءَ والبَنِين ، والعُمُر الذى يُفْنِى الأيامَ والسِّـنين ، ورَزَقه إسعافاً دائمـا وإسْعادا ، وأراه أولادَ أولاده آباءً بل أجْدادا ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

أجوبة التهنئة بالزَّواج والتسرّى

قال فى "مواد البيان" : أجوبةُ هـذه الرِّقاع يجب أن تكون شكرا للمهـنِّى على العِناية والاهتمام، و[مشتملة على] الإبانة عن موْقِع دعائه من التبرُّك والتيمُّن به ، إلا أن تكون البِدايةُ بمعنًى يخرُج عما هذا جوابُه، فينبغى أن يُجابَ عنه بمـا يقتضى الإجابةَ عن ذلك .

الضـــرب السابع

(من التَّهانِى التهنئةُ بالأولاد، وهو على ثلاثة أصناف)

الصنف الأول — التهنئـةُ بالبنين .

ممـا أورده أبو الحسين بن سعد فى ترسُّله .

أنّه ليس من نِعَم الله وفَرائدِ قِسَـمه وإن حُسُنَ موقِعُها، ولَطُف محلُّها، نعمـةٌ تَعْدِل النعمةَ فى الوَلَد، لنَمائِها فى العَدَد ، وزيادتِها فى قُوّة العَضُـد ، وما يُتعجَّل من عظيم بَهْجتِها ، ويُرْجىٰ من باقِى ذِكْرِها فى الخُلُوف والأعقـاب، ولاحق بركتِها فى الدعاء والاستِغْفار .

ومنـه : أنّه ليس من النِّعَم نعمةٌ تُشْبِه النعمةَ فى الولد، لزيادتِها فى قُوّة العَضُد، وحُسْن موقعها فى الخَلَف والعَقِب ؛ واتّصلَ بى خبرُ مولودٍ فسرّنى ماوصـلَ اللهُ به من العارِفةِ إليك، وشرِكتُك فى جميل المَوْهِبة فيه شَرِكةَ مَنْ له مالَكَ وعليه ماعلَيك؛ وسألتُ اللهَ أن يُوزِعَك شُكْرَ النِّعمة ويُؤْنِس بهذا المولُود رَبْعك، ويُكثِّر به عددَك، ويعظِّم بركتَه ويُمْنَ طائرِه علَيـك، ويَزيدَ به فى النعمـة كذلك، ويفْعل اللهُ ذلك، بمنّه وطَوْله .

وفيه لابى الحسين بن سعد إلىٰ أبى مُسْلِم بن بحر يهنّئه بابنٍ حدَثَ له :

فأمّا ماجدّد اللهُ من النعمة فى القادم والموهوبِ لك وَلَدا وأُنْسا، ولنا سَندًا وذُخْرا، فقد جلَّ قدرُ هذه المَوْهِبَة عن أن يُحاط لها بوَصْف، أو يُوفىٰ لها بشُكْر.

وفيه لعلى بن خلف :

ويُنْهِى أنه اتَّصل بالمملوك بُزُوغُ نَجْمِ سعدٍ فى مَشارِق إقْباله، مُؤْذِنٍ باتّساق سُمُوّه وجَلاله ؛ فأحدَثَ من الجَلال والاستبشار بمَقْـدَمه ، والتبرُّك والتيمُّن بقدمه ؛ ماتلألأتْ علىٰ المملوك أنوارُه، وحسُنَتْ عنده آثارُه ؛ وسألتُ اللهَ تعالىٰ راغباً إليه فى أنْ يُعرِّفَه سعادَةَ مَوْلِده، ويُمْنَ مَوْفِده، ويجعلَه شادّا لعَضُده ، ومُوريا لزَنْده ؛ ويَشْفَعه والسادةَ السابقين، نُجباءَ مُتلاحِقين ؛ يتَبَلَّجُون فى نِطَاق سعادتِه، ويَتَوسَّمُون فى آفاق سِيادتِه ؛ ويَصُونَ سِلْكَهم من الانفصام ، وشَمْلَهم من الانْهِدَام ؛ ويُبقِيهم غُرَرا فى وُجُوه الأيَّام، وأقمارا فى صَفَحات الظَّلام ؛ بمنّه وفَضْله ، إن شاء الله تعالىٰ.

وفيه له : ويُنْهِى أنَّ المملوكَ يشكُر الله تعالىٰ علىٰ ما أنزلَهُ عِنْد مَوْلانا من عَوارِفه، واختصَّه به من لطائِفه ؛ شُكْرَ مَنْ شارَكه فى النعمة المُسْبَغَة عليه، وانتهىٰ إلىٰ خبرُ السَّنَد المتجدد لمَوْلانا، فطار المملوكُ بخَوافِى السُّرور ومَقادِمه، وأخذ من الابْتِهاج بأوْفىٰ قِسمه ؛ وسأل اللهَ تعالىٰ أنْ يُبارِكَ له فى عطِيَّته، ويُرْدِفَه بزِيادتِه ؛ ويُوفِّر عدَدَه ، ويشُدَّ بصالحِ الوَلَدِ عَضُده ؛ ويُجْنِيَه من هذا القادِم ثِمارَ المَسَرّه، ويُرِيَ عينَه منه أقرّ قُرّه ؛ ويَشْفَع المِنْحة فى مَوْهِبَته بإطالة مُدّته .

وفيه : ويُنْهِى أنَّ أفضلَ النِّعم مَوْقعا، وأشرفَها خطَرا ومَوْضعا ؛ نعمةُ الله تعالىٰ فى الولد : لزيادتِها فى العَدَد وقُوّة العَضُـد ؛ وما يُتَعجَّل من عِظَم جمالهـا وزينتِها، ويُرجىٰ من حُسْن مآلهـا وعاقبتِها ؛ فى حفْظ النَّسب والأصْل، وحُسْن الخِلافةِ علىٰ

الأهل ، وجميلِ الذِّكْرِ والثَّناء ، ومتقبَّلِ الاستغفارِ والدُّعاء ، وقد اتصل بالمملوك بُزُوغُ هلالِ سماءِ المجْد ، ومتعلَّق الإقبال والسَّعْد ، فأشرقتِ الأيامُ بإشراقه ، ووثقتِ الآمالُ باجتلائه واتِّساقه ، فقام المملوكُ عن مولانا بشُكْرِ هذه النعمة المتجدِّده ، والمَوْهِبة الراهنة الخالِدَه ، وهنَّأْتُ نفْسِي بها ، وأخذت بحظِّى منها ، والله تعالىٰ يَعَرِّفُه يُمْنَ المولودِ من أطهر والدة وأطيبِ والد ، ويُعمِّر به منزِلَه ، ويُؤْنس ببقائه رَحْلَه ، ويبلِّغ محبِّيه ، من الآمال فيه ، ما بَلَّغهم فى الماجد أبيه ، إن شاء الله تعالىٰ .

وفيه : ويُنْهِى أنَّ نعمَ الله تعالىٰ وإن كانتْ علىٰ مولانا متظاهِره ، ولديه متناصِرَه ، فقد كان المملوك يرغَبُ إلىٰ الله تعالىٰ فى أن يُجمِّل الأيامَ من نَسْله ، بمَنْ يحفَظُ عليها شرفَ أصْلِه ، ويَخْلُفُه بعد العُمُر الطويل فى نُبْله وكَرَم فِعْله ، ولمَّا اتَّصل بالمملوك نبأُ هذا الهلال البازغ فى سَمائه ، المُقِرّ لعُيون أوليائه ، المُخَيِّب لظُنُون أعدائه ، حَمِدتُ الله تعالىٰ علىٰ مَوْهِبَته ، وسألْتُه إقرار نِعْمته ، وأن يُعرِّف مولانا بركةَ قَدَمه ، ويُمْن مَقْدَمه ، ويوفِّر حظَّه من زيادَتِه ، وسعادةِ وِفادته ، وأن يجعلَه بَرًّا تقيًّا ، مباركا رَضِيًّا ، ويُفسِّح فى أجَلِه ، ويُبلِّغه فيه أمَلَه ، إن شاء الله تعالىٰ .

من كلام المتأخرين :

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

هُنِّئْتَ بالإسْعافِ والإسْعادِ * ونَفاذِ أمْرٍ فى العِدَا بنَفَادِ !

وبَقِيتَ ما بَقِىَ الزمانُ مُهَنَّأً * ووُقِيتَ شَرَّ شَماتَةِ الحُسَّاد !

يا مالكَ الرِّقِّ الَّذى أضحىٰ لنا * من جُودِه الأطْواقُ فى الأجْياد !

خُلِّدتَ فى عَيْشٍ هَنِيٍّ أخْضَرٍ * يَسْطُو ببِيضِ ظُبًا وسُمْرِ صِعاد ،

حَتَّىٰ يخاطبَك الزمانُ مُبَشِّرا : * مُتِّعْتَ بالإخْوانِ والأوْلاد !

جدّدَ اللهُ فى كلِّ يوم له مَسَرّةً وبُشرىٰ ، وأطابَ لعُرْفه عَرْفا ونَشْرا ؛ وشدّ له بولده السعيدِ الطلعةِ أَزْرا وأَسْرا ، وسَرّىٰ به الهمُومَ عن القلوب وأصارَهَا لديْه أَسْرىٰ ، ورفَع درجَتَه إلىٰ سماء المَعالى ليُقال : سُبْحانَ الذى بعَبْده أَسْرىٰ .

المملوكُ يَخْدُم المولىٰ ويهنّيه ويشكُره ، ويُطْلِعه علىٰ ماحصل له من الابتهاج للسبَبِ الذى يُنْهيه ويذْكُره ؛ وهو أنه اتّصل به قُدومُ المسافرِ بل إسفارُ البَدْر، وظهورُ مَيْمُونِ الغُرّة الذى جاء لأهله بأمانٍ من صُروف الدّهْر ؛ وهو الولدُ العزيزُ الموفَّق النَّجيب ، فلان ، أبقاه اللهُ تعالىٰ ليَحْيا مشكُورًا محمُودا ، منْصُورا بسَيْف مجْده وسِنَان سعدِه مَسْعُودا ؛ وأدام عِزّه وعُلَاه ، وأعلىٰ نجْمَه وخلّد شرَفَه وبَهَاه ، وضاعف سَناءه وسَنَاه ؛ وأرانا منه ماأرانا من السعادة فى أبيه ، فسُرّ وابتهج بهذه النعمةِ غايةَ السُّرور والابتهاج ، واتّضح له فى شُكْرِ إحسانِ المولىٰ وحُسْنِ ولدِه كلُّ طريقٍ ومِنْهاج ؛ وسأل اللهَ تعالىٰ أن يُطَوّل له عُمُرا ، ويجعلَه لإسعادِ والدِه وإسعافه ذُخْرا ، ليَرْتَعَا فى رِياض الدَّعَة فى صِحّة وسلامه ، ويحُلّا فى فِناء العُلا لهما دارَ إقامه ؛ ويبْلُغا من السعادة درجةً لا تَرِيم عاليةً ولا تُرام ، وتَخْضعَ لهما الليالِى والأيّام ؛ ويرشُقاهما بِسهام الصُّروف ويَطْعَناهما بأسنّتِها ، ويَفْهما دعاءَ الأيام لهما من صدورها ويسْمَعاه من ألسِنَتِها ، مخاطِبةً لأبيه ، ومنشدةً لسائرِ أهلِه ومحبّيه :

مَدَّ لكَ اللهُ الحياةَ مَدّا ، * حتّى ترىٰ نجْلَكَ هذا جَدّا

الصنف الثانى — التهنئةُ بالبَنَات .

من كلام المتقدّمين :

أبو الحسين بن سعد :

النِّعمةُ نِعْمتان : إحداهُما تُعجل الأُنْس ، والأُخْرىٰ تدّخر الأجر ؛ وعلىٰ حَسَب

ماتُتَلَقَّى به من الشُّكر على ظاهر المحبوب ، والتَّسليم فيما يَجْرِى مَجْرَى بعض المكْرُوه ؛ يكون المتاعُ عاجلا ، والثوابُ آجلا ؛ وما قَدَّمتُ القولَ [إلاَّ] لِمَا ظننته يَعْرِض لك من الوُجُوم فى هذه المَوْهِبَة ، فى المولُودة التى أرجُو أن يعظِّم الله بركتها ، ويجعلها أيْمَنَ مولُودٍ فى عصرها ، ودالَّةً على سعادةِ أبيها وجَدِّها ؛ و [لئِنْ] كان فى الطبع حُبُّ الذُّكور والشَّغفُ بالبَنِين ، فإنَّ البنين من البَنَات ، وهُنَّ باليُمْن معْرُوفات ، وبالبَرَكات مَوْصُوفات ، وبالذُّكور فى أثَرِهنَّ مُبَشَّرات ؛ فهَنَاك الله النعمةَ فيها تهْنِئةً لاتنْقضى سعادتُها ، ولا يعترِضُ النقصُ والتقدير(١) شيئًا منها ؛ وأبقى هذه الصبيَّة ممتَّعا أبُوها بها ، ومُنْشأً له الحظُّ من حَدَاثتها ؛ وبلَّغها أفضلَ مَبالِغ الصالحاتِ القانتات من أُمَّهاتها ؛ وجعلَ فى مَوْلِدها أصدقَ دليل على طُول عُمُر أبيها وسَعادة جَدِّه ، وتضاعُف نِعم الله عِنْده ؛ إنه لطيفٌ جَوَاد .

أبو مسلم محمد بن بحر :

مَرْحبًا بِبِكْر النِّساء ، وبِكْر الأوْلاد ، وعَقيلة الخِباء ، والمأمُولة للبركة ، والمشْهورة باليُمْن ؛ وقد جرَّبناه فوجدْناه معْهودًا مسْعودا ؛ والله يعرِّفُك أضعافَ ماعَرَّف مَنْ قبْلك ، ويُبارِكُ لك فيما رزَقك ؛ ويُثَنِّى لك بأخٍ للمولودة ويجعَلُه رديفَها ، وفى الخير قرينَها وشريكَها .

علىّ بن خلف :

ويُنْهِى أنّ المملوكَ اتّصل به ارْتِماضُ(٢) مولانا بمَقْدم الكريمةِ الوافده ، بطالع السعادةِ المتجدِّدَه ؛ فعجِبَ المملوكُ من وُقُوع ذلك من مثل مولانا مع كمال نُبْله ،

(١) المراد به التضييق انظر القاموس .

(٢) يريد قلقه وعدم انبساطه .

وشرف عقله وعلمه ، فإنّ الله تعالى جلّ آسمه يقول : ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ وإن ما جدّده الله تعالى من مواهبه جديرٌ أن يُتلقّى بالسرور والفرح ، لا بالآستياء والترح ، لا سيّما والذَّكرُ إنما يتفضّل على الأنثى بنجابته ، لا بحليته وصورته ؛ وقد يقع في الإناث مَنْ هو أشرَفُ من الذكور طبعا ، وأجزَلُ عائدةً ونفعا ، وقد رُوى أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلم قال : " إذا رُزِقَ العَبْدُ الأنثى نادىٰ منادٍ من السماء : يا أهلَ الدار أبشروا بالرِّزق ، وإذا رُزِقَ ذكرًا نادىٰ منادٍ من السماء : يا أهل الدار أبشروا بالعزّ " فليستقبل مولانا الرِّزقَ بالشكر فإنّ العزّ يتبعه ، ولا يعارِضُ اللهَ تعالى في إرادته ، ولا يستقِلّ شيئا من هِبَته ، والله تعالى يُعرّفه يُمْنَ عُهودها ، وسعادةَ قُدومها ، وأن يسُرّه بعدها بإخوةٍ متتابعين متلاحقين ، يؤيّدون أمْرَه ، ويُحيُون بعد العمُر الأطولِ ذِكْرَه .

أبو الفرج الببغاء :

لو كان الإنسانُ متصرِّفًا في أمره بإرادته ، قادرًا على إدراك مشيئته ؛ لبطلتْ دلائلُ القُدْره ، وآستحالتْ حقائقُ الصَّنعه ، ودَرَسَتْ معالمُ الآمال ، وتساوىٰ الناسُ ببلُوغ الأحوال ؛ غيرَ أنّ الأمرَ لمّا كان بغير مشيئته مصْنُوعا ، وعلى ما عنّه ظهر في الآبتداء مطْبوعا ؛ كان المُخرجُ له إلى الوُجود من العدم ، فيما آرتضاه له غيرَ متّهَم ؛ ومولانا ــ أيده الله ــ مع كمالِ فضْله ، وتناهي عَقْله ، وحِدّة فِطْنته ، وثاقب معْرفته ، أجلُّ من أن يجهَلَ مواقِعَ النِّعم الواردةِ من الله تعالى عليه ، أو يتسخَّط مواهِبه الصادرةَ إليه ، فيرمُقَها بنواظِر الكُفر ، ويسْلُكَ بها غيرَ مذاهِب الشكر .

وقد آتّصلَ بالمملوك خبرُ المولودة كرّم الله غُرّتها ، وأطال مُدّتها ، وعرَّفَ مولانا البركةَ بها ، وبلّغه أملَهُ فيها ؛ وما كان من تغيُّره عند آتّضاح الخبر ، وإنكارِ ما آختاره

له سابقُ القدَر، فعجِبَ المملوكُ من ذلك وٱستنكره، من مَولانا وأنكره، لِضيق العُذْر في مثله عليه . وقد علِمَ مولانا أنّهنّ أقربُ إلى القلوب، وأنّ الله تعالى بدأ بِهِنّ في الترتيب فقال جلّ من قائل : ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ وما سَمَّاه الله هبةً فهو بالشُّكر أولى، وبحُسْن التقبّل أحرى ؛ ولَكَم نَسبٍ أفدْنَ، وشَرَف ٱستحْدَثْن ؛ من طُرُق الأصهار، والاتّصال بالأخيار . والملتمسُ من الذكَر نجابتُه ، لاصُورتُه وولادته ؛ ولَكَمْ ذكَرٍ الأُنثى أكرَمُ منه طَبْعا ، وأظهرُ منه نَفْعا ؛ فمولانا يُصوِّر الحالَ بصُورتها ، ويجدّدُ الشُّكرَ على ماوُهِبَ منها ؛ ويستأنِف الاعتراف له تعالى بما هو الأشْبهُ ببصيرته ، والأولى بمثله ؛ إن شاء الله تعالى .

الصنف الثالث — التهنئةُ بالتَّوْءم .

أحسَنُ ما رأيتُ من ذلك قولُ بعض الشُّعراء ممّا كَتَب به إلى بعض أصحابه ، وقد وُلِد له ذكَرٌ وأُنثى من جاريةٍ سوداء ، وهو قوله :

وخَصَّكَ ربُّ العَرْش منها بتَوْءَمٍ * ومِنْ ظُلُماتِ البَحْرِ تُستَخْرَجُ الدُّرَرُ!
واركَ أضحى وارِثًا عِلْمَ جابِرٍ * فأعطاكَ من ألقابه الشَّمْسَ والقمَرَ!

الأجوبة عن التهنئةِ بالأولاد

قال في "موادّ البيان" : أجوبةُ هذه الرِّقاع يجبُ أن تُبنَى على شُكرِ ٱهتمامِ المُهنِّئ ورعايته ، والاعتدادِ بعنايته ؛ وأنّ الزيادة في تجدّد المهنَّى [به] زيادةٌ في عَدَده ، وأن نصيبَه من تحرُّك السرور فيما يخلُص إليه من المَواهب كنصيبه : لتناسُبِهما في الإخاء ، وتَوافيهما في الصَّفاء ، وأن تراعَى مع ذلك مرتبة المهنِّئ والمَهنَّى ، ويبنَى الخطاب على ما يقتضيه كلٌّ منهما .

وهـــذا مثالٌ من ذلك :

زهر الربيـــع :

ويُنْهِى ورودَ الكتاب الذى تَشرَّف المملوكُ بوُرُوده ، وأشرقَت الأيَّام بكمالِ سُعُوده ، وأرغَمَ ببلاغته مَعْطِسَ مُناوِيه وحَسُوده ؛ فشكرَ أيادِىَ من أنْعم بإرساله ، وآكتسىٰ بالوقُوف عليه حُلَّةً من حُلَل فَخْره وجَماله ، وبالغَ فى إكماله ، حتّٰى وقفَ إجلالًا له بين يَدَيْه ، ثم تلا آياتِ حُسْـنِه على أُذُنَيْه ، فوجده مشتَمِلا علىٰ إحسانٍ لم يَسْبِقْه إلىٰ مثله أحَد ، ومنَنٍ أوْدَعها فيه فلا يُحصيها حَصْر ولا عَدَد ، فهَيَّج بوُرُوده رَسِيسَ الأشواق ، وتقلَّد بإنعامِ مُرْسِـله كما قُلِّدت الحمائمُ بالأطْواق ، ووجدَ لَوْعةً لا يُحْسِـن وصفَها لسانُ اليَراع فى الأوْراق ؛ وعلم ما أشارَ إليـه المَوْلىٰ من التهنئة بالوَلَد الجديد ، بل بأصْغَر الخَـدَم والعَبِيد ، وما أبداه منَ الآبتهاج لميلادِه ، وأظهره من التفضُّـل المعروفِ من آبائه الكرامِ وأجْداده ؛ ولِمَ لا يكونُ الأمرُ كذٰلك والوالدُ مملوكُه ، وهو مملوكُ السادةِ الأجِلّاء أولادِه ، حَرَس الله مَجْـدَه ومتَّعه بثَوْب مكارِمِه ، وخَفَض قدْرَ مُحارِبه ورفَعَ كلمةَ مُسالِمِه ؛ ولا زال مَمَـاليكُه تتزيَّدُ تَزَيُّدَ الأيَّام ، وسَـعادتُه باقيةً بقاءَ الأعوام ، وعينُ العناية تحرُسه فى حالَتَىِ السفرِ والمُقَام ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الضـــرب الثامن

(من التهانى التهنئةُ بالإبْلال من المَرَض والعافيةِ من السَّقَم)

فمن ذلك :

ويُنْهِى أنه مازالَتْ أجسامُ أهل التَّصافِى ، تشترِكُ فى الأسْقام والعَوافِى ، كما تَشْتَرِكُ أنفُسُهم فى التخالُص والتَّوافِى ؛ ولمَّـا ألَمَّ بمولانا هـذا الألَمُ الذى تفضَّل الله تعـالىٰ

بإماطته، ومَنَّ فيه علىٰ السُّؤدد بحراسة مولانا وحياطته ؛ فرأيتُه حالًّا فى جوارحى، مُحْرِقًا لجوانحى، ممازِجا لأعضائى، متملِّكا لأنوائى[(١)]؛ ولئن كنتُ قد تحمّلت من ذلك عبـا، وآرتقيت من تحمّله مُرْتَقًى صَعْبا؛ فلقد تَخَرْتُ بمماسّته، وأحمدتُ طبعى علىٰ مُشاكلته؛ وشكرت الله تعالى إذْ جعلَنى شُعْبة من سَرْحته، وجبِلّة من طينَته؛ وعلىٰ ماسَرَّ به من إقالته وإنعاشه، ومُصافاته وإنْشاشه؛ وسألتُ الله تعالى أنْ يبقيَه نُورا يُوضِّح مَغْربَ الدّهرِ ومَشْرِقه ، ودُرًّا يُرصِّع فَوْد المجد ومَفْرِقه ؛ ويُحْسن الدِّفاعَ عن حَوْبائه، وهو سبحانهُ يُجيب ذلك ويتقبّله ، ويرفعُه ويَسْمَعُه؛ إن شاء الله تعالىٰ .

وله فى مثـــله :

المملوكُ يُهَنِّئُ مولاه خاصّةً إذ جعله الله تعالىٰ من صَفْوةِ أوليائه، وخالِصة أحبّائه؛ الذين يبتليهم آختبارا، ويثيبهـم آختيارا : ليجمع لهم بين تمحيص وِزْرهم، ومضاعَفة أجْرِهم؛ والحضّ علىٰ طاعته، والآنصراف عن معْصيته؛ ويُهنِّئُ الكافّة عامّة بالمَوْهبة فى نُوره المُطلِعـة لأمَلِ الإقبال ، المُروِيَة لِمَاحِل الآمال ؛ ثم أعطفُ علىٰ حَمْد الله علىٰ مامَنَّ به من إبْلاله ، ويَسَّره من آستقلاله ؛ والرَّغبة إليه فى أن يمنحَه صحةً تُخَلَّد وتُقيم، وعافية تَرْهَن ولا تَريم؛ وأن يحمِيَه من عَوارض الأسْقام، ويصُونه من حوادثِ الأيّام؛ بفضْله وجُوده، إن شاء الله تعالىٰ .

أبو الفرج الببغاء :

أفضلُ مايَفْزَع إليه العبدُ المخلِص، والمَوْلىٰ المتخَصِّص؛ فيا ينَوبُ سـيِّدَه ويُهِمُّ وَلِيَّ نِعمته، الدعاءُ المقترِن بصدْق النيه، وصَفَاء الطويّة [فالحمد لله الذى منَّ بالصحّة] وتصدَّق بالإقالة، وتدارك بجميل المُدافعة؛ وعَمَّ سائرَ خدَمِه أيّده الله بالنِّعمه، وأعادَه

(١) كذا فى الأصل ولعله لأحشائى أو نحو ذلك .

إلى أجمل عاداته من السلامة والصحّه، فائزا بمُدَّخَر الأجر، متعبِّدا بمستأنَف الشكر، فلا أخلاه الله من زيادة فيما يُوليه، ولا قصدنا بسماع سُوء فيه؛ وحرس من الغِيَر مُهجته، ومن المحذُور نعمته .

وله فى مثله :

ما كنتُ أعلم أنّ عافيتي مقرونةٌ بعافيتك، ولا سلامتي مضافةٌ لسلامتك، إلى أن تحققت ذلك من مُشاركتى إيَّاك فى حالتَى الألم والصحه، والمرض والمحنه؛ فالحمدُ لله الذى شرَّف طبعى بمناسبتك، وجمَّل خُلُق بملاءمتك؛ فيما ساءَ وسرّ، وإيَّاه تعالى أشكُر على ماخصَّنى به من كمال عافيتك، وسُبوغ سلامتك وسُرْعة إقالتك؛ وبه ـ جلّ اسمه ـ أثِقُ فى مَزيدك من تظاهُر النِّعم، وتوفُّر القِسم .

وله فى مثله :

ولولا أنّ متضمَّن كتابك قرن ذكرَ المرض الهاجم عليك، بذكر ما وهبه اللهُ لك من عَوْد السلامة إليك، لما اقتصرَ بى القلقُ على [ما] دُون المَسير نحْوك، والمبادرة لمشاهدتك، غيرأنّ السُّكون إلى ماأدّاه كتابُك سابقَ الجزع، والطُّمأنينة إلى ماوهبه اللهُ من كفايتك حالتْ دُون الهلَع؛ فالحمدُ لله الذى منّ بالإقالة، وتصدّق بالسَّلامة وعمّ بالكفايه؛ وهو ولىُّ حِراستك وحراستى فيك .

وله فى مثله :

سيِّدُنا فى سائر مايذكِّره اللهُ من هُجُوم ألمٍ مُؤْذن بصحّه، واعتراض محْنةٍ مؤدِّية إلى منْحه، مَرْمُوقٌ بالعافيه، محروسٌ من الله جلّ اسمه بالحفظ والكلاءة؛ فهو مع العلة فائزٌ بذخائر الأجر، ومع العافيةِ موفَّقٌ لاستزادة الشُّكر؛ فالحمدُ لله الذى عقدَ الكرم ببقائه، وشفى مرضَ الآمال بشفائه؛ وكفاه اعتراضَ المَخُوف، وعوارضَ الصُّروف .

ولـه فى مثـــله :

ما آنفردَ جِسْمُك بالعِـلَّة دُونَ قَلْبى، ولا آختصَّت نفْسك ـ حرسها الله تعالىٰ ـ بمُعاناة المَرَض دُون نَفْسى؛ ولم أزلْ بالقَلْب تاليا، وفى سائر ماشكوتَهُ بالنِّية مُساوِيا؛ إلىٰ أنْ كشفَ الله الغُمَّه، وأقال العَثْره، ونَفَّس الكُرْبه؛ ومَنَّ بالسلامه، وتصَدَّق بالكِفايه، وأوجبَ بالعـافِيةِ علينا جميعًا فُروضَ الشكر، بعد ما ادَّخره لك بالألَم من كثْرة الأجر؛ فالحمـد لله علىٰ ذٰلك حمدًا يؤدِّى إلىٰ حِراسة ماخَوّلك، ويُؤْذِن بالمَزِيد فيما منحك .

ومن كلام المتأخرين :

أعلىٰ الله قدرَ الجناب الفُلانى، ولا زالتْ شُموسُ أيامه لاتخَافُ كُسُوفا ولا أُفُولا، وأقمارُ لياليه تَغرِس فى قلُوب أوليائه ومحِبِّيه فُروعًا وأُصُولا .

المملوكُ يَخْدُم خدمةَ مَنْ تحمّل جميلا، ونال من تَفَضُّل الجناب الكريم جزِيلا .

ويُنْهِى ما حصل له من السُّرور بعافيـةِ مولانا، فالشكرُ لله علىٰ ماجَدّد من النِّعمة التامَّه، وسَمح به من الكرامة العامَّه؛ حين أعاد البَـدْر إلىٰ كَماله، والسُّرورَ إلىٰ أتمِّ أحواله؛ وما كانتْ إلا غَلْطةٌ من الدَّهْر فاستَدْركها، وصَفْقةٌ خارجةٌ عن يده فملَكها؛ فقرَّتْ بذٰلك العُيون، وتحقَّقت فى بُلوغ الأمل الظُّنون؛ وآنجبَر قلبُـه بعدما وهَن، وعاد جَفْنُه بعد الأرَق إلىٰ الوَسَن؛ وقال : ﴿ الحمدُ لله الَّذِى أذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ ﴾ . ولقد كان يتمنّىٰ المملوك لو فازَ من الرُّؤْية الشريفة بحظِّ السمع والبَصَر، وتملّىٰ بمشاهدة وجْهه الكريم فإنَّ فيه البُغْيَةَ والوَطَر .

والمملوك فمـا يُعَدّ نَفْسَه إلا من المحبين الذين بذَلُوا نُفوسَهم لمحبته وأعدُّوها؛ والله تعالىٰ يسرّ الأولياء بتضاعُف سُعُوده، ويُديم بهجةَ الأيَّام بميْمُون وُجُوده؛ ويُطيل

فى مدّته ويحرُسُها من الغِيَر، ويحرُس أحوالَ مِزاجه الكريم علىٰ القانُون المعتبَر، ويَكْفِى أولياءَه ومحبِّيه فيه كلَّ مكروهٍ وحَذَر، إن شاء الله تعالىٰ .

من زهر الربيع :

وَلَمَّا شَكَوْتَ، ٱشْتكىٰ كُلُّ ما * علىٰ الأرضِ وٱهتزَّ شَرْقٌ وغَرْبُ!
لِأنَّك قَلْبٌ لِجسْمِ الزَّمانِ * وماصَحَّ جِسْمٌ إذا ٱعتَلَّ قَلْبُ!

حرَسَ الله جَنابَه، وأسبَلَ عليه رِداءَ السعد وأثوابَه، ومتَّعه بِبُرود العافية وجِلْبابِها، وفتح له إلىٰ نَيْل السعادة سائرَ أبوابِها، ومنَحه الكِفايَةَ والأَمْنَ فى سِرْبه، والعافيةَ فى جِسْمه من قَلَق كلِّ مرَضٍ وكَرْبه، وجمع له بين الثَّواب والأَجْر، وجازاه بجزيل الغُفْران عن جميلِ الصَّبْر .

المملوك يَبَشِّر نفْسَه ومولاه بِمَا مَنَّ الله به من صِحَّةِ مِزَاجه الكَرِيم، والإبلالِ من مرضٍ كاد يُدِير كُئُوس الحِمَام علىٰ كلِّ صديقٍ حَمِيم، ويحمَدُ الله علىٰ عافيتِه حمدًا جزيلا، ويشْكُره عليها بُكْرةً وأَصِيلا، فإنَّه قد عُوفِى لعافيتِه المجدُ والكَرم، وزالَ عنه إلىٰ أعدائه الأَلَم، فالمولىٰ حفِظ[1] الله صِحَّته من السَّقَم، وحمَاهُ من أَلَم أَلَمّ، وجعل سعادَتَه تتزايَدُ علىٰ ممَرِّ الأنفاس، وجسَدَه سالما من الأذىٰ كسلامة عِرْضه من الأَدْنَاس، إن شاء الله تعالىٰ .

الشيخ جمال الدين بن نباتة :

وقىٰ اللهُ من الأسواء شَخْصَه الكريم، وشَمْلَه النَّظِيم، وقلْبَ محبِّه الذى هو فى كلِّ وادٍ من أوديةِ الإشفاقِ يَهِيم .

---

(١) لعله حفظ الله على المولىٰ صحته الخ .

ولا زالت الصحةُ قرينَه حتّى لا يعتلّ فى منازله غيرُ مُرور النَّسيم . ويصفُ شوقا يَزِيد بالأنفاسِ وَقْدا، ويجدّد للأحشاءِ وَجْدا، ويباشِرُ القلبَ المُغْرَم فيَمُدّ له من عذاب الانتظارِ مَدّا .

وينهى أنه جهَّز هذه الخدمةَ نائبةً عنه فى آستجلاءِ وجه أكرمِ الأحبَّه، وتُصافِحُ اليَدَ التى أقلامُ كُتُبها فى شكوىٰ البِعادِ أطِبَّه، مبديةً إلىٰ العلم الكريم أنّه معَ ما كان يكابِدُه من الأشواق، ويعالِجُه من خَواطر الإشفاق، بلَغه ضَعْفُ الجسد الموقَّى، وعارِضُ الألم الذى آستطار من جَوانِح المحبِّين بَرْقا؛ فلا يَسْأَلُ الجنابُ الكريمُ عن قلْبٍ تألَّم، وصدْرٍ صامتٍ بالهُموم ولكنَّه بجراح الأشْجان تكلَّم، ولسانٍ أنشد :

ألا لَيْتَنِى حُمِّلْتُ ما بِكَ من ضَنًى * علىٰ أنَّ لى منه الأذَىٰ ولكَ الأجْرُ!

ثم لَطَف اللهُ تعالىٰ وعجَّل خَبَرَ العافية المأموله، والصحةِ المُقْبِلة عَقِيبَ الدَّعوات المقبوله؛ فيالها مسَرَّة شَمِلَتْ، ومبَرَّة كَمَلت؛ وتهنِئة جمعتْ قلوبَ الأوِدّاء وحَمِلَتْ، وأعضاء فَدَتْها(١) عيونُ المَهَا فنقلَتْ عنها صِفاتِ السِّقام وحَمَلَتْ؛ وعافيَة حوَّلتْ إلىٰ قلوب الأعداء المَرَض، وجَوْهَرِ جسدٍ طاهرٍ زال [عنه] بأسُ العَرَض؛ فهنيئًا له بهذه الصحةِ المتَوافِرة الوافيه، والحمدُ لله ثم الحمدُ لله علىٰ أنْ جمع بين حُصُول الأجْرِ ووُصُول العافيه، وعلىٰ أن حفظ ذاتَه الكريمة وحفْظُها هو المقدّمةُ الكافيةُ الشافيه :

وتقاسَمَ الناسُ المسرَّةَ بينهم * قِسَمًا فكانَ أجلُّهم قِسْما أنا!

والله تعالىٰ يُسْبِغ عليه ظِلال نِعَمِه، ويحفَظُه حيثُ كان فى نَفْسِه وأهلِه وخَدَمِه؛ وكما سَرَّ الأحبابَ بخبرِ عافيتِه كذلك يسُرُّهم بعِيان مَقْدَمه .

---

(١) فى الأصل قيدتها ولا معنى له .

أجوبة التهنئة بالإبلال من المرض والعافية

قال فى "مواد البيان" : أجوبةُ هـذه الرِّقاع يجبُ أن تكونَ مبنيَّةً علىٰ وصف الألَمِ وصُورته وما تفضَّـل الله تعالىٰ به من إمَاطتِه ، وشكرِ المهنِّى باهتمامه وعِنَايته .

وهذه أمثلة من ذٰلك :

من زهر الربيع :

أدام اللهُ نعمتَه ، وشكرِ منَّته ، وأدالَ دَوْلتَـه ؛ وأعلىٰ قدْرَه وكلمتَـه ، وحتَّم علىٰ الألسنة شُكرَه والقلوبِ محبَّتَه . ولا زالتِ التهانِى من جِهته وافِده ، والبشائرُ وارِدَه .

ويُنْهِى وُرودَ الكتاب الذى أعدَّته يدُ المَعالى فعادَ كَرِيما ، وشاهدَ حُسْنَ منْظرِه فصار وجْهُه وَسِيما ؛ وأنه وقَفَ عليه ، وأحاط عِلْما بكلِّ ماأشار المَوْلىٰ إليه ؛ فذكَّره أُنْسا كان بخِدْمته لم يَنْسَه ، وجدَّد له وَجْدا ما زال يَجِدُ فى قلبه ونَفْسِه عينَه ونفسه ؛ ونَشر من مآثِرِه المأثُوره ، وفضائله المرقومةِ فى صَـفَائح الصَّحائف المسطُوره ؛ ماشنَّف به وشَرَّف ، وشوَّق إلىٰ لِقـائه وشَوَّف ؛ وأقامَ البُرهانَ علىٰ ذَكِيِّ فِطْنته ، وزَكِى فِطْرته ؛ وعلِمَ ماأنعم به وتفضَّل ، وأحسَنَ وتَطَوَّل : من تهنئة المملوك بالإبلال من مَرَضه ، والبُرءِ من سَقَمه ، والتخلُّص من يدَىْ وجَعِه وألَمِه ؛ وسُرَّ بوُرودِ كريم مُشَرَّفته ، أعظَمَ من سُرورِه بلِباس ثَوبِ عافيتِه ؛ وبدَوامِ مجْده وسعادتِه ، أكثَرَ من صِحَّةِ مِزاجه وٱستِقامتِه : فإنَّ مكارمَ المَوْلىٰ كالحدائقِ النَّاضره ، ومنْزلتَـه أعزَ فى القلوبِ من الأحداقِ الناظِره .

فالحمدُ لله الذى مَنَّ بالعافية من ذلك المَرَض ، والداءِ الذى ألَمَّ بعرَضَيْه فاحتوىٰ منهما علىٰ الجَوْهَر والعَرَض ؛ وطالَ حتَّى أسأمَهُ من نَفْسه وعُوَّاده ، وآيَسَه من الحياة

لولا لطفُ اللهِ واللهُ لَطِيفٌ بعبادِه ، وهذا ببركةِ المولىٰ ودعائِه الذى كان يرفَعُه ، والخواطِرُ والأسماعُ مع بُعْد الشُّقّة تشْهد به وتسْمَعُه ، جعل الله التهانِىَ مع الأبد واردةً منه و إليه ، وشكرَ إنعامَه وأتمَّ نعمتَه عليه ، إن شاء الله تعالىٰ .

قلت : وكتبتُ للمَقرّ العلائىّ علاءِ الدين الكَرَكىّ وهو يومئذ كاتبُ السِّرِّ الشريف فى الدولة الظاهريّة «برقوق» فى سلْطنته الثانية ، وقد برَأ من مرض نظما :

أَفْدِيه مِنْ جَسَدٍ قدْ صَحَّ مِن سَقَمٍ * فباتَ جَوْهَرُه خالٍ من العَرَضِ!

فاستَبْشَرتْ بعَلىّ القَوْمِ شِيعَتُه * وماتَ حاسدُه بالسُّقْمِ والمَرَضِ!

الضرب التاسع
(التهنئةُ بقُرْب المَزار)

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى :

قرّب اللهُ مَزارَه ، وأدْنىٰ جِوارَه ، وأعانَ أعوانَه ونَصرَ أنصارَه . ولا زالتِ الأنفُسُ لقُرْبه مَسْروره ، وراياتُ مجْده فى الملإِ الأعْلىٰ وأحزابُ الإسلام بهيبَتِه علىٰ أعداء الدِّين مَنْصُوره .

المملوكُ يقبِّل الباسطةَ العاليةَ بسَطَ اللهُ ظِلَّها ، وشكَرَ علىٰ الأولياء فَضْلَها . ويُنْهِى أنه اتّصل به طَيِّبُ أخباره ، وقُرْبُ مَزاره ، فتضاعفَ شَوْقُه ، وتزايد توَقُه ، وهيّجتْ صَبابتُه لاعِجَه ، وسَهّلتْ إلىٰ نَيْل المَسرّة طُرُقَه ومَناهِجَه :

وأَبْرَحُ مايَكُونُ الشَّوقُ يَوْمًا * إذا دَنتِ الدِّيارُ مِنَ الدِّيارِ!

فاللهُ يقرِّبُ من أمَدِ التَّلاقِى بَعيدا ، ويجعلُ رِداءَ الاجتماع بخِدْمته قَشيبا جَديدا .

الضـــرب العـاشر

(التهنئـــةُ بنزول المَنـازل المستجِدّة)

فمن ذلك [من إنشاء] عليّ بن خلف :

أشرَفُ المَنَازل رُقْعه ، وأترَفُها بُقْعه ، وأرفَعُها رفعـه ، ما اتّخذه موْلانا لنفسـه موْطنًا ، وجَعله بنُزوله فيه حرمًا آمنا ، وصيرّه بخُصْب مكارمه للعُفَاة مَرادًا ومَقْصدا ، وبِعُذْب نوافـله للظُّماة مَشْرَعا ومَوْردا ، وللسُّؤدَد بمجده مَعْقِلا ، وللرِّياسـة بشَرَفه مَنْزِلا ، والله تعالىٰ يجعَلُ هذه الدارَ التى تدَيَّرها وحَلّها ، وحَطَّ بها رحْلَه ونزلها ، مأهولةً ببقائه ، آنسةً بسُبُوغ نَعْمائه ، عامرةً بسعادته ، مَشِيدةً بتناصُر عِزّه وزيادته ، لاتُخْطِئُها حوائمُ الآمال ، ولا تتخطَّاها دِيَمُ الإقبال ، ويُعرِّفُه من بركتها ، ويُمْن عَتَبتها ، مايقضى بامتدادِ الأجل ، وانْفِساح الأمل ، وبلوغ الأمانِى ، واتّصال التّهانى ، بمنّـه وكرمه ، إن شاء الله تعالىٰ .

ومن ذلك :

ويُنْهى أنه قد اتّصل بالمملوك تحوُّلُ مولانا إلىٰ المنْزِل المنْشَإ الجديد ، ذى الطالع السـعيد ، والطائر الحميد ، فسألتُ اللهَ تعالىٰ أن يُبَوِّئه منه المبْوَأَ الكريم ، ويمتّعه فيـه بالدَّعة والنَّعيم ، والنَّمـاء والمَزِيد ، والعَيْش الرَّغيـد ، ويجعَلَه واصـلًا لحبْله ، مأهولًا بأهله ، ويعرِّفَه بركةَ عَتَبته ، ويُمَلِّيه بَهائه ونَضَارته ، وحصل للمملوك السُّرورُ بأن بلَّغه الله الوَطَر ، فى سُكْنىٰ ماعَمَر ، وأناله الأمَلَ والالتذاذ بخِدْمته ، والسُّرورَ بافْتِضاض عُذْرته ، إن شاء الله تعالىٰ .

ومن ذلك :

مولانا ـ أمتع الله بوجوده ـ غنيّ عن الهَنَاء بمنْزِلٍ ينْزِله ومَحلّ يحُلُّه ، إذِ الله سـبحانَه وتعالىٰ قد كثّر أوطانَه وآدَره ، وبلّغه فى تمامِ عِمارَتها وانفساحها وطَرَه ،

وخصَّه بأفضلِها مَعَانا ، وأشرفِها مَكَانا ؛ والمستوجِبُ فى الحقيقــة للهَنَاء هو الموضِعُ الذى آختاره دَارًا ، وآرْتضاه مستَقَرًا ؛ وعرَفَ المملوك آنتقالَه ـ لازال يتنقَّلُ فى بُروج السَّعْد ، ويأوِى إلىٰ ظلٍّ ظَلِيلٍ من المجْد ـ إلىٰ الدار الفلانية لازالتْ جامعةً لشَمْله ، مأنوسةً بأهْله ؛ فعدَلَ عن خِدْمته بالهناء ، إلىٰ إخْلاص الدُّعاء ، بأن يعرِّفَه الله تعالىٰ يُمْنَها وبرَكَتها ، ويُرِيه إقبالَهـا وسـعادتَها ؛ ويَقْرُنَ تحوُّله إليهـا بأيمَنِ طائِر ، وأبركِ طالِـع ؛ فإنَّ للحركات أوقاتًا محمودةً ومَذْمومة : فإذا آعْتَنىٰ اللهُ تعالىٰ بعَبْد من عَبِيده ، وفَرَضَ له نصيبًا من تأييده ؛ وفَّقه للحركة فى الزَّمَن السعيد ، والوقتِ الحميد ؛ لتكونَ مَصَايِرُه مُشاكلةً لمَبادِيه ، وأعجازُه مشابِهــةً لهَوَادِيه ؛ واللهُ تعـالىٰ يجعَـل بابَها محطًّا للقُصَّاد ، ومناخًا للوُفَّاد ، ومَزارا للعُفَاه ، وملاذا [للعُنَاه] (١) ويصلُ بها حَبْله ، ويُنْشى بها طِفْله ؛ ويضاعِفُ باستِيطانِها أُنْسه ، ويسر بتَبَوُّئها نَفْسه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

أبو الفرج الببغاء :

أسـعدُ المنـازِل وأشرفُ المواطِن ماآسـتَوْطنه أيَّده الله وتبوّاه ، وتخيره لنَفْسـه وآرتضاه ؛ فغدا بشَخْصِه وطَنَ الإقْبال ، وبفائِض كَرَمه حَرَمَ الآمال ؛ وبشَرَفه للسُّؤدَد مَعْقِلا ، وبنُبْـله للرِّياسة مَنْزِلا ؛ فعرَّفه الله يُمْنَ هــذه الدارِ المعمورةِ بحُلُول البركات ، المحفوفةِ بتَناصُر السَّـعادات ؛ وجعلها وكلَّ رَبْع يقْطُنُه ، ومحلٍّ يسكُنه ، مبشِّرا بامتدادِ بقائِه ، وآهِلاً بالزِّيادة فى نَعْمائه .

وله فى مثــله :

كلُّ وطن يحُلُّه ـ أيده الله ـ ويقْطُنه ، ومحـلٍّ يتخَيَّره ويسْكُنه ؛ مقصودٌ بالشُّكر والثناء ، آهِلٌ بالحمدِ والدُّعاء ؛ لا يتخطاه مُتوارِدُ الآمال ، ولا تنْقَطِع عنه موادُّ الإقبال ؛

(١) بياض بالاصل والتصحيح من المقام .

ولذلك صار هذا المنزلُ السعيدُ من فضائلِ الأرض ومحاسِنها ، ونُجعَ الآمال ومعادِنها ؛ فعرَّفه الله يُمْنَه وبركَتَه ، وإقبالَه وسعادتَه ؛ وقرن انتقالَه إليه بأسبغ نِعمه ، وأكمل سَلَامة وأبسط قُدرةٍ وأعلى رُتْبه .

ولـه فى مثـلـه :

عرَّفه الله [من] بركةِ هذا المنزِل المَوْرود ، والفِناء المقصُود ، ما يُوفِى على سالف ما أولاه من تكامُل البركات ، وتناصُر السَّعادات ؛ وجعل مستقَرَّه فيه مقرونًا بنُمُوّ الحال ، وتتابُع الإقبال ، فى أفسح المُدَد وأطولها ، وأنجح المطالِب وأفضَلِها ؛ وعمّر أوطانَ المكارم بإقباله (١) ، وعَضَّد الأمانِىّ باتِّساع نَعْمائه .

أجوبة التهنئة بقُرْب المَزار ، ونُزوِل المنازل المستجدّة

قال فى "مواد البيان" : أجوبةُ هـذه الرِّقاع يجب أن تُبْنَى على الاعتداد للمهنِّئ بتعهُّده ، والشكرِ له على تَودُّده ، والابتهاج بهَنائه ، والتبرُّك بدعائه ؛ وأن المستجدّ غير مبايِنٍ لمنْزِله ، ولا خارجٍ عن أحكام محله ؛ وأنّ تمـامَ بركته ، أن يُؤْنِس فيه بزيارته ؛ وما يشابه هذا .

الضرب الحادى عشر

(نَوادِر التَّهانِى ، وهى خمسـةُ أصـناف)

الصنفُ الأوّل — تهنئـةُ الذمىّ بإسلامه .

فمن ذلك ما أورده أبو الحُسَين بن سعد فى ترسُّله ، وهو :

وما زالتْ حالُك ممثِّلةً لنا جميلَ ما وهبَ اللهُ فيك حتّى كأنّك لم تزل بالإسلام مَوْسُوما ، وإن كنتَ على غيره مُقِيما ؛ وقد كُنّا مؤمِّلين لِمَا صِرْتَ اليه ، ومُشْفِقين لك

---

(١) لعله بيقائه ليناسب السجع الذى بعده .

مما كُنْتَ عليه، حتّى إذا كادَ إشفاقُنا يستَعْلى على رجائنا، أتت السعادةُ فيك بما لم تزل الأنفُس تَعِدُ منك، ونسألُ اللهَ الذى نوّر لكَ فى رأيك، وأضاءَ لك سبيلَ رُشْدِك، أنْ يؤهِّلك لصالح الأعمال، وأنْ يؤتيَك فى الدنيا حسنةً ويقيَكَ عذابَ النار.

ومن ذلك، من كلام أبى العَيْناء:

ولتَهْنِئْكَ نعمةُ اللهِ عليك فى أُخُوّةِ المهاجِرين والأنصارِ والتابعين بإحْسان؛ والحمدُ لله الذى فوّزَ قِدْحَك [وأ] علىٰ كَعْبك، وأنقذَ من النار شِلْوَك، وخلّصك من لَبْس الشّك، وحيْرة الشِّرْك، فأصبحت قد آستبدلت بالأدْيار المساجد، وبالآحادِ الجُمَع، وبقِبْلة الشام، البيتَ الحرَام، وبتحْريف الإنجيل، صحّةَ التنزيل، وبأوْثان المشركين، قِبْلةَ الموحِّدين، وبحُكْم الأُسْقُفّ رأسِ المُلْحِدين [حكم] أميرِ المؤمنين وسيّدِ المرسلين، فهنَاكَ الله ماأنعم به عليك، وأحسنَ فيه إليك، وذكّرك شُكْره، وزادك بالشُّكْر من فَضْله.

أجوبة التهنئة بإسلام ذمىّ

قال فى "موادّ البيان": أجوبةُ هذه الرِّقاع ينبغى أن تكونَ مبنيّةً علىٰ شكر المهنِّأ للمهنِّئ، وآعترافه بنعمةِ الله تعالىٰ عنده، وآبتهاجه بممازَجته فى الدِّين، الذى جعل اللهُ أهلَه إخوانًا متصافين، وخُلّانًا متوافين، ومَنَّ عليهم به، وبإماطةِ الحسائِف(١) من قلوبهم، ونحو هذا.

الصنف الثانى — التهنئة بالختان وخروج اللّحية.

فمن ذلك تهنئةٌ لأميرٍ بختان ولدَيْن له:

فمن خَصائِصِ ما حَباه اللهُ بعدَ الذى قدّم له فى نَفْسه — نفّس الله مُدّتها، ووسّع له مُهْلتها، وأفنىٰ الأعدادَ دُونَ فنائها، والأعمارَ دُونَ تصرّمها وآنتهائها: [من] الفضائل

(١) الحسائف جمع حسيفة وهى الضغينة والسخيمة أنظر اللسان فى ج ١٠ مادة ح س ف.

المشهوره، والمحاسن المذكوره، والمناقب المأثوره، وأقسام الفضل الذى ينقضى دون تصرُّم(؟) منازله وصفُ الواصف إذا أفرط، وينتهى دون أيسرها أملُ الآمل إذا اشتطّ - ما وهبَ الله له من أولادٍ سادةٍ فضّلهم فى الأخلاق والصُّوَر، وأكملهم فى الأجسام والمِرَر، وقدّمهم فى العقول والأفهام، والقرائح والألباب، ولم يجعل للمعايب فيهم سميه، ولا للإناثِ بينهم شركه؛ حتّى يكون مسلّما لهم قصبَ العلا والمفاخر، وصدورَ الأسرّة والمنابر، من غير منازِع، ولا مُقارع، ولا مُساهم، ولا مُقاسِم، وزادهم من النّماء فى النَّشْء والبركة وايمن بما يُؤذِن الحاضرُ منه بالغابر، ويدلُّ البادى على الآخر، وعدًا من الله تعالىٰ ذكره لهم بأوْفىٰ السعادات، وأكمل الخيراتِ وأعلىٰ الدّرجات؛ أرجو أن يجعل اللهُ النُّجح قرينه، والنجاةَ ذريعته؛ وما أوْلاه فيهم فى هذه الحال الحادثةِ التى يَغدِق الله بها أداءَ الفريضة، وكمال الشريعه، ويقع التطيُّر بالختان، الذى جعله الله من شروط الإيمان، وفرضه على جميع الأديان: من السّلامة على عِظَم الخطَر، وشِدّة الغرَر، فى إمضاء الحديد على أعضاءٍ ناعمه، وإيصال الألمَ إلىٰ قلوبٍ وادعة، لم تُقارِعْ نَصَبا، ولم تُعانِ وصَبا، وٱجتمع فيه إلىٰ رقّة الصِّبا، وضَعف الأسْرِ والقُوىٰ، ٱعتيادُ الرحه، ومخالفةُ الترفُّه والتنقُّل بين الشهوات؛ علىٰ أن كلَّ واحد من الأميرين شَهِد المعركة أعزَلَ حاسرا، وباشر الحرْبَ مغرّرا مُخاطرا، فثبت لوقْع السّلاح، وصَبَر علىٰ ألَم الجراح، وأبلىٰ بلاءَ الفارس المُدَجّج، والكَمِىّ المقنَّع، ثم خرجَ خُروجَ شِبْل الليْث، وفرخ العُقاب، كالقِدْح المُعلّى والشّهاب الساطع، والنّجم الثاقب؛ وكان فلان أكثرَهما تغيُّرا فى وجه قِرْنه، وسطْوةً علىٰ مُنازِله؛ وكلٌّ قد حصّل فوق الخَصْل، وحوىٰ فضيلةَ السّبْق، وٱستحقّ ٱسمَ البأس والشّده، وحِليَةَ البَسالة والنَّجْده.

ومن ذلك ماأورده ابو الحسين بن سعد فى كتابه :

الحمدُ لله الذى كَسَاك باللِّحيـة حُلّةَ الوَقار ، وردّاك رِداءَ ذى السَّمْتِ من الأبرار والأخْيار ؛ وصانَكَ عن مِيسَم الصِّبا ، ومطامع أهـل الهوىٰ ؛ بمـا جَلَّلك من اللحية البهيّه ، وألبَسك من لِباسِ ذوى اللُّبّ والرَّوِيّه ؛ وألحقك فى متصرَّفاته بمن يسـتقِلّ بنفسه ساعيا ، ويستغْنى عمَّن صحبه حافظا ؛ وجعل ماجَمَّل من صُورتك ، وكمَّل من أداتك وآلتك ، قِرْنًا لمن جاذَبك ، وخَصْمًا لمن نازَعك ؛ ونفىٰ عنك ذِلّةَ الاحتِقار ، من أهل المَراتِب والأخْطار ، تستوِى [بهم] فى المجالس الحافله ، وتجرِى مَجْراهم فى المَشاهد الجامعـه ؛ مسمُوعا قولُك إذا قُلت ، ومُصْغًى إليك إذا نطَقت ؛ آمنًا من آنصراف الأبصار عنك لقُرْبِ وِلَادك ، ومن [عدم] الاستماع لحديثك لقِلّة الثِّقة بسَدادك ؛ وجاريًا مَجرىٰ كَمَلةِ الرجال علىٰ الجمله ، إلىٰ أن يكشفَ اللهُ مَخَابِرَك بالمِحْنه ؛ وتعطىٰ المَهابةَ من الدّاعِرِ العادى ، ومن السَّبُعِ الضارى ؛ ولو كان عاريًا من هذه الكُسْوة الشريفه ، والحِلْية الملحُوظه ؛ لسِيقَتْ إلىٰ الازدراء بالأعين ، والاستِصغارِ بالقلوبِ والألْسُن ؛ أصنافُ الحيوان : من البهيمة والإنسان ؛ ثم لا يُحِسُّ من نفسه قوةً علىٰ الدَّفع عنها ، ولا من صرعته ثباتا(؟) علىٰ يدها فيه . وتلك نعمةٌ من الله جل وعزّ حَباك بمرتبتها فى جَمال غَشَاك (١) ، وكمالٍ أتاك ؛ فَلْيُصدّق بها آعترافُك وشكْرُك ، وليحْسُن ثناؤُك ونَشْرُك ؛ قضاءً لحق الله عليك ، وآستِدْرارا فى المزِيد من إحسانه إليك .

الصنف الثالث — التهنئـة بالمـرض .

أبو الفرج الببغاء :

فى ذِكْر الله سيدى بهذا العارِض — أماطه اللهُ وصَرَفه ، وجعل صحةَ الأبَد خَلَفه — مادلّ علىٰ ملاحظته إيّاه بالعناية ، إيقاظًا له من سِـنَة الغَفْلة ؛ إذ كان تعالىٰ لايُذَكِّر

(١) غشى فلان فلانا أتاه كغشاه يغشوه . قاموس .

بطُرُوق الآلام، وتَنْبِيه العِظَات، غَيْرَ الصَّفْوة من عِبَاده، الخِيرةَ من أولِيائه؛ فهنّأه الله الفوزَ بأجرِ مايُعانِيه، وحَمَلَ عنه بألطافه ثِقَلَ ماهُو فيه؛ وأعقبَ ما اختصَّه من ذَخائر المَثُوبةِ والأجْرِ بعافيةٍ تقتَضِيه، ولاسلَبَ الدنْيا جمالَ بَقائِه، ولا نقَلَ ظِلَّه عن كافَّة خَدَمِه وأوْليائه.

الصنف الرابع — التهنئة بالصَّرْف عن الوِلَاية.

أبو الفرج الببغاء:

مَنْ حَلَّ مَحَلَّه — أيده الله تعالى — من رُتَب الرِّياسة والنُّبْل، كان معظَّمًا فى حالَتَى الولاية والعَزْل؛ لايَقْدَح فى قَدْره تغيُّرُ الأحوال، ولا ينقُلُه عن موْضِعه من الفضل تنقُّل الأعمال؛ إذ كان آستيحاشها للفائت مِنْ بَركات نَظَره، بحَسَبِ أُنْسها كان بما أفادَتْه من محُمود أَثَرِه. فهَنَّأه الله نعمةَ الكِفاية، وأوزَعَه شكْرَ ما آحتازه من النَّزَاهة والصِّيانه؛ ولا أخْلاه من التوفيق فى سائرِ متَصَرَّفاته، والخِيرةِ الضامنةِ لعَوَاقب إراداته.

وله فى مثله:

لَو كان لمستَحْدَث الأعمال ومستَجَدِّ الولايات زيادةٌ علىٰ ما آختصَّك به من كمال الفَضْل، ومأْثُور النُّبْل؛ لحاذرنا آنتقالَ ذلك بآنتقالِ ما كُنْتَ تتولَّاه بمحمود كِفايَتِك، وتحُوطُه بنواظر نَزَاهتِك وصِيانَتِك؛ غير أنَّ الله تعالىٰ جعلك بالفضل مُتَقَمِّصا، وبالمحامِدِ متَخَصِّصا؛ فالأسَفُ فيما تَنْظُر فيه عليك لامِنْك، والفائدةُ فيما تتَقَلَّده بك لالك؛ ولذلك كُنْتَ بالصَّرف مهنًّأ مسْرورا، كما كُنْتَ فى الولاية محموداً مشكورا؛ فلا أخْلاك الله من تَواصُل آلائه، وتظاهُرِ نَعْمائه؛ فى سائر ما تُبْرِمه وتُمْضيه، وتعتَمده وترتَئِيه.

أبو الحسين بن سعد ـ عمّن تولّى عملًا إلىٰ من صُرف عنه :

قدقُلِّدْتُ العمَلَ بناحِيَتِك ، فهنَاكَ الله تجديدَ وِلَايَتِك ، وأنفذْتُ خليفَتِى لِخلافَتِك ؛ فلا تُخْله من تبصيرك وهدايتك ، إلىٰ أن يمُنّ الله بزيارَتِك .

تهنئة بصرف عن ولاية :

لو كانتْ رِياسةُ سيِّدى مجنيَّةً من عُرُوش الوِلَايات ، وسيادَتُه خارجةً عن سانِح التصَرُّفات ، لأشفَقَ أولياؤُه من زوالها بمزايَلَتِهما ، وحَذِرُوا من آنتِقالها بنَقْلهما ؛ لٰكن ماوُسِم به من الكمَال ، وعَلَا به من رُتَب الجَلَال ، موجُودٌ فى غريزته وُجودَ الفِرِنْد فى السيفِ المأثُور ، والّلألاء فى النور ، وإذا تَصرَّف ، أورد الله الرعيَّةَ من مَشارِعها نِطَافا ، وأسبغ عليهم من ظِلّها عِطَافا ؛ وإذا آنصرف لخيرٌ مُسْتَبَلٌّ تقلّص ، وعيشٌ رائعٌ تنَغّص ، والأسفُ علىٰ العمل السَّلِيبِ من حُلَل سياستِه الفاضله ، العاطِلِ من حِلىٰ سِيرته العادِله ؛ ولهذا أصبح ـ أيّده الله ـ بالعَزْل مبتهجا مسْرُورا ، كما كان فى الولاية محمُوداً مشكُورا ، وآنطلقَتْ ألسِنةُ أوليائه ، فى هَنَائه ، بما وَهَبه الله من الرَّفاهِيَة والدَّعه ، وحطَّه عنه من الأثقال المُقْلقه ، ولا سِيَّما وقد علِمَ الخاصُّ والعامُّ أنّ الأعمال إذا رُدّت إليه ، وعُوِّل فيها عليْه ، تَسلَّمَ المودِع وديعتَه ، والناشدُ ضالّتَه ؛ وإذا عُدِل فيها إلىٰ غيره تناولها تناوُلَ الغاصب ، وآستولىٰ عليها آستيلاءَ السَّالِب ؛ فلا تزال نازعةً إلىٰ ربّها ، متطلِّعَةً إلىٰ خِطْبِها ، حتّىٰ تعودَ إلىٰ محلِّها ، وترجِعَ إلىٰ نَصْلِها ؛ والله تعالىٰ أسأل أن يقْضِىَ لمولانا ببُلُوغ الأوطار ، إن شاء الله تعالىٰ .

أجوبة التهنئة بالصرف عن الولاية والخِدْمة

قال فى "موادِّ البيان" : يجب أن تكون أجوبتُها مبنيَّةً علىٰ شُكر الاهتمام والاعتداد بالمشاركة فى الأحوال ، مع وُقُوع ما ورَد من الخطاب المَوْقِعَ اللطيف ، وما ينتظم فى هذا السلك .

جواب مَنْ ورد عليه كتابُ من وَلِى مكانه فى معنىٰ ذلك .

فمن ذلك :

ما ٱنصرفَتْ عنّى نعمةٌ أُهْدِيتْ إليك، ولا خلَوْتُ من كرامةٍ ٱشتملتْ عليك؛ وإنّى لأجِدُ صَرْفِى بكَ ولايةً ثانيـه، وحُلّةً من الوِزْر واقِيه؛ لما آمُلُه بمكانك من حميد العاقِبة وحُسْن الخاتمه .

الصنف الخامس — تهنئـةُ من تزوّجتْ أمُّه بزواجها .

قد تقدّم فى أوّل المقالة الأُولىٰ فى حكاية حائِك الكلام مع عمرو بن مَسْعدةَ وزير المأمون[1]، أنه قال يُكْتَب إليه :

أما بعدُ، فإنّ الأمور تجرِى علىٰ خلافِ مَحابّ المخلوقين [واللهُ يختار لعباده[2]]، فخارَ الله لك فى قَبْضِها [إليه، فإن القبور أكرم الأكفاء[2]] والسلام .

أبو الفرج الببغاء: وقد أمره سيفُ الدولة ٱبنُ حَمْدانَ بالكتابة فى معنىٰ ذلك ٱمتحاناً له :

مَنْ سلَكَ إليك ـ أعزَّك الله ـ سبيلَ الاِنْبِساط، لم يستَوْعِرْ مَسْلَكا من المخاطَبة فيما يحسُنُ الاِنقباضُ عن ذِكْر مثله . وٱتّصل بى ما كانَ من خبَرِ الواجبةِ الحقِّ عليك، المنْسُوبة بعد نِسْبتِك إليها إليْك ـ وَفّر الله صيانتَها ـ فى ٱختيارِها ما لَوْلا أنّ الأنفُسَ تتناكرُه، وشرْعَ المُروءة يَحْظُره؛ لكنتَ فى مثله بالرضا أوْلىٰ، وبالاعتداد بما جدّده الله فى صِيانتِها أحْرىٰ؛ فلا يُسْخِطَنّك من ذلك ما رضِيَه وجوبُ الشّرْع، وحسّنه أدبُ الدِّيانة؛ ومُباحُ الله أحقُّ أن يتّبع، وإيّاك أن تكونَ ممن لمّا عدِم ٱختياره تَسَخّط ٱختيار القَدَر له، والسلام .

---

(١) تقدم فى ج ١ ص ١٤٢ "وزير المعتصم" .

(٢) الزيادة مما تقدم فى ج ١ ص ١٤٥ .

النوع الثانى
(من مقاصد المكاتبات التعازى)

قال فى "موادّ البيان": المكاتبةُ فى التعزيَة بالأحداث العارضة فى هذه الدنيا واسعةُ المَجال: لما تتضمَّنهُ من الإرشاد إلى الصَّبْر، والتسليم إلى الله جلّت قدرتهُ، وتسليَة المعزَّى عما يُسْلَبه بمشاركة السابقين فيه، ووعدِه بحُسْن العِوَض فى الجزاء عنه، إلى غير ذلك مما ينتظم فى هذا المعنى. قال: والكاتبُ إذا كان جيِّدَ الغَريزة حسنَ التأتِّى فيها، بلغ المراد. ثم قال: وحكمُها حكم التَّهانى من الرئيس إلى المرءُوس ومن المرءوس إلى الرئيس ومن النظير إلى النظير.

ثم التعـزيةُ على أضْرُب:

الضرب الأوّل
(التعزِيَةُ بالابن)

أبلَغُ ما كُتِب به فى ذلك ما كتب به النبىُّ صلّى الله عليه وسلم، إلى مُعاذ بن جَبَل، معزِّيًا له بابنٍ له مات، فيما ذكره أبو الحسين بن سعد فى ترسُّله، وأبو جعفر النحّاس فى صناعة الكُتّاب، وهو:

«من محمدٍ رسولِ الله إلى مُعاذِ بْنِ جَبَل:

«سلامٌ عليكَ، فإنِّى أحمَدُ إليكَ اللهَ الذى لا إلهَ إلّا هو»

«أما بعد، فعظَّمَ اللهُ لكَ الأجر، وألهمَكَ الصَّبْر، ورزقَنا وإيّاكَ»

«الشُّكْر. ثم إنَّ أنفُسَنا وأهلِينا ومَوَالِيَنا من مَوَاهِبِ الله السنِيَّة، وعَوارِفِه[1]»

(١) فى أصولنا بالفاء ورواية المستطرف (وعواريه) أى بالياء جمع عارية.

«المستودَعة ، تمتَّع بها إلىٰ أجلٍ معدود ، وتُقْبَضُ لوقتٍ معلوم ؛»
«ثم ٱفترض علينا الشُّكْرَ إذا أعطىٰ ، والصبرَ إذا ٱبتَلىٰ ؛ وكان ٱبنُك من»
«مَواهِبِ اللهِ الهنِيَّة ، وعَوارِفه[1] المستودَعة ؛ متَّعكَ به فى غِبْطةٍ وسُرور ،»
«وقبضَه منكَ بأجرٍ كثير : الصلاةِ والرحمةِ والهُدىٰ إن صبرتَ»
«وٱحتسبْت ؛ فلا تَجْمَعَنَّ عليكَ يامُعاذُ خَصْلتين[2] إنْ يُحْبِطْ جَزَعُك»
«صَبْرَكَ فتندَمَ علىٰ مافاتَك ؛ فلو قَدِمْتَ علىٰ ثوابِ مُصيبتِك قد أطعْتَ»
«ربَّك وتنجَّزْتَ موعُودَه ، عرفتَ أنَّ المصيبةَ قد قَصُرت عنه . وٱعلَمْ»
«أنَّ الجزَعَ لايَرُدُّ ميِّتا ، ولا يَدْفع حزنا ؛ فأَحْسِن الجزاءَ وتَنَجَّزِ الموعُودَ ؛»
«ولْيُذْهِب أسَفَكَ ماهو نازلٌ بك فكأنْ قَدْ . »

من كلام المتأخرين :

تعزِيةٌ بولد . من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة ، وهى بعد الألقاب .

وأحسنَ عَزاءه بأعزِّ فَقِيد ، وأحبِّ حبيبٍ ووَلِيد ، وعوَّضَ بجميلِ الصبرِ جوانحه التى سُئلت عن الأسىٰ فقالت : ثابتٌ ويَزِيد . صدرَتْ هـذه المفاوضةُ تُهْدى إليه سلاما يَعِزُّ عليه أن يُتْبَع بالتعزيه ، وثناءً يَشُقُّ عليـه أنْ يطارِحَ حمائمَ سَجْعه المُطْربَةَ بحمائم الشَّجْو المُبْكِية المُنْكِيه ، وتوضِّح لعلمه ورُودَ مكاتبته المؤْلمة ، فوقفْنا عليها إلا أنَّ الدَّمْعة ماوقفَتْ ، وخواطِرَ الإشفاق عليه وعلىٰ مَنْ عنده طفَت حُرَقُها وما ٱنطفَتْ ؛

(١) فى أصولنا بالفاء ، ورواية المستطرف (وعواريه) أى بالياء جمع عارية .

(٢) أى فقد الثواب وفقد الولد . وإليه يشير من عزىٰ عمر بن عبد العزيز بابنه فقال :

وعوِّضت أجرا من فقيد فلا يكن ۞ فقيدك لا يأتى وأجرك يذهب

وعلمنا ماشرَحه ولم يَشْرح الصَّدْر علىٰ العادة ـ مِنْ وفاة الولد فلان، سقىٰ اللهُ عهدَه ولَحْدَه، ونضَّر وجهـه وتغمَّد بالرِّضوان خالَه وخَدّه؛ ومابقي إلّا التمسُّكُ بأسـباب الصـبر، والتفويضُ إلىٰ مَنْ له الأمر؛ والدُّنْيا طريقٌ والآخرةُ دارٌ ودِهْليزها القبْر؛ وللمرءِ من تشَبُّته وازع، والاجتماعُ بالأحبَّـة الراحلينَ واقع؛ إن لم يَصِيرُوا إلينا صِرْنا إليهم، وإن لم يَقْدَمُوا فى الدار الفانيـة علينا قدِمْنا فى الدار الباقيةِ عليهم؛ نسألُ اللهَ تعالىٰ أن يجمعَنا فى مستقرّ رحمتِه، ويُحضِرَنا مع الأطفال أو مع المتطفّلين ولائمَ جنّته؛ والله تعالىٰ يُدارِكُ بالصبر الجميل قلبَه، ولا يجمعُ عليه فقْدَ الثواب وفقْدَ الأحِبَّة .

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

رزقه الله تعالىٰ ثَبَاتا علىٰ رَزِيَّته وصَـبْرا، وجعلَ له مع كلِّ عُسْرٍ يُسْرا؛ وأبقاه مُفَدًّى بالأنفُس والنَّفائس، وكان له أعظَمَ حافظٍ من نُوَبِ الدهر وأجلَّ حارس .

المملوك يُنْهِى علمَه بهـذه النازلة التى فَتّتِ القلوبَ والأكباد، وكادَتْ أن تُفرّقَ بين الأرواح والأجْساد؛ وأذالَتْ ذخائرَ العُيون، وابتذَلَتْ من المَدامِع كلَّ مَصُون؛ وأذابتِ المُهَج تحرُّقًا وتلهُّبا، وجعلت كلَّ قلْب فى نارَيِ الأسىٰ والأسفِ متقلِّبـا؛ وهى وفاةُ ولده الذى صَغُرَ سِنُّه، وتزايَدَ لفَقْده همُّ المملوك وحُزْنُه :

ونَجْلُك لا يُبْكَىٰ علىٰ قَدْرِ سِـنّه * ولٰكنْ علىٰ قَدْرِ المَخِيلة والأَصل !

وكان الأمَلُ يحدّث بأنه يَشُدّ للمولىٰ أزْرَه، ويَشرح بِرّه صـدْرَه؛ ويؤثّل مجدَه، ويُبقى الذِّكْرَ الجميل بعـدَه؛ ففُقِد من بين أترابه، وذَوىٰ عند ما أينَعَ غُصْنُ شبابه؛ وغُيِّب مَنْظَرُه الوسيمُ فى لحده وتُرابه؛ وسيِّدُنا يعلم أنَّ الموتَ مَنْهَل لابدّ من وَرْدِه[(١)]، وآبنَ آدم زَرْع لابدّ من حَصْده؛ وأنَّ المنية تشمَلُ الصغيرَ والكبير، والجليلَ والحقير،

(١) هو مصدر كالورود عن آبن سيده أنظر اللسان (ج ٤ ص ٤٧١) .

والغنيّ والفقير، فينبغى له آستعمالُ صَبْره ، والآستبشار بمضاعفةِ أجْره ؛ والله يمتّعه بأهلِه وطُول عُمُره .

وله :

لَهْفِي وما لَهْفِي عليك بنافع! * كَلَّا ولا وَجْدِى ولا حُرُقاتِى!
يا مَنْ قَضَى فقضَى سُرورِى بعْدَه * وتحدّرتْ أسفًا له عبَراتِى!
عُقَدُ التجلّدِ حلّها فَرْطُ الأسَى * والقلْبُ موقوفٌ على الحَسَراتِ!
لو كُنْتَ ممّنْ يُشْترَى أو يُفْتَدَى * لفُدِيتَ بالأرواح والمُهجاتِ!
كُنْتَ المُعَدَّ لنُصْرتِى فى شِدّتى * فقضَى الحِمَامُ بفُرقةٍ وشَتَاتِ!
والله لا أُنْسِيتُ نَدْبَك والبُكَا * أبدًا مَدَى الأنفاس واللّحظاتِ!
ويَسُوءنى أن عِشْتُ بعْدَك ساعة * أسَفا لفَقْدِك ميّتًا وحَيَاتِى.

أعظم اللهُ أجْرَ مولانا ومنحه صَبْرا جميلا، وأجرا جزيلا، وثناءً عريضَ الشُّقّة لثَبَاته على هذه الفادِحة طويلا ؛ وجعل هذه الرزِيّةَ خاتمةَ الرّزَايَا، وممحِّصةَ جميع الذنوب والخَطَايا ؛ ولافجَعَه بعدها فى قُرّة عين، ولاأورد محبوبًا شُغِف به قلبُه الكريمُ مَنْهلَ الحِمَام ولاسقاه كأسَ الحَيْن .

المملوكُ يقبّل البِساطَ الذى مافتِئ لنَشْر المَعْدَلة مبْسُوطا، وكلُّ أمل ببِرّه مَنُوطا .

ويُنْهِى إلى العلم الشريف علْمَه بهذه المُصيبة التى أصابتْ فُؤادَكلّ محبّ فأصْمَتْه، وطرقَتْ سمعَ كلّ ولىّ فأصَمّته ؛ وولجَتْ كلَّ قلبٍ فأحرقَتْه صَبابةً وحُزْنا ، ومرّت على الصَّلْد فصدّعته ولو كان حَزْنا ؛ وهى وفاةُ فلان سقَى الله عهْدَه ، وأسكنَ الرحمةَ ثَرَاه ولَحْدَه، فشَقّ أسفًا على المفقود جيبَ كلِّ جَنَان وطوَى الأكبادَ على جِراحها ، وحَسّر الأجساد على أرواحها :

وماهِىَ إلَّا نَكْبَةٌ أىُّ نَكْبةٍ * أهاجَتْ سَعِيرًا فى الحَشا يتَلهّبُ!
فَلا جِسْمَ إلَّا بالتحرُّق ذائبٌ * ولا قَلْبَ إلَّا فى الأسىٰ يتقلّبُ!
بَكىٰ كُلُّ جفْنٍ مَصْرَعَ السيفِ فاْغتدَتْ * عيونٌ عليْه فى الأباطِح تَسْكُبُ!
لَقَدْ هالَ عُذَّالى بُكائى تعجُّبا * وإنَّ بكائى بَعْدَ فَقْدِيه أعْجَبُ!
فلو رَامَ قُسٌّ وَصْفَ حُزْنِى ولَوْعتِى * لَقَصَّر فى أوصافِه حين يُسْهِبُ!
فَواللهِ لاجفّتْ جُفُونِى من البُكا * وإنْ زادَ عُذَّالى العِتابَ وأطْنبُوا!

ولهذا أصدر المملوك هذه المطالعةَ يدعُو لمولانا فيها ويُعزّيه، ويَنْدُب فقيدَه بألسنة الأقلام ويبكِيه، ويُبَشّره بما وعدَ الله الصابِرينَ علىٰ مثل هذه الرزيّةِ ويُسَلّيه؛ فيالها نازلةٌ فجعَتْ بغُصْنٍ رَطِيب، وقمرٍ يَرْفُلُ من الشَّبِيبة فى ثوبٍ قشِيب، وصدَعتِ القلُوبَ بفَقْدِ حبيبٍ وأىّ حَبِيب:

والمـوتُ نَقَّادٌ علىٰ كفِّه * جَواهرٌ يختارُ منها الجِياد!

وبعدُ، فالمملوك فى هذه الرزيّة مشاركةً كادتْ تُبايِن بين رُوحه والجسد، وهو المُصِيب لهذه المصيبة ماتجِدُه الوالِهةُ علىٰ فقْد الولَد؛ لايستقِرُّ به قَرار، ولا يُنْجيه من يَدِ الحُزْن فِرار؛ دأْبُه البُكاء والعوِيل، وحُزْنه العريضُ الطَّوِيل؛ فوا ضَعْفَاه عن حمل هذا المُصَاب، ووا أسَفاه علىٰ مُسافِرٍ لا يُنْتظَر له قدُومٌ ولا إياب؛ وواعجَباه لِضِدّين آجتمعا لوالده الكريم الجنَاب!

تَخُونُ المنَايا عَهْدَه فى سَلِيلِه * وتَنْصُره بيْن الفَوارس والرَّجْل!

وعلىٰ كلِّ حال فهو أجْدَر من آستعانَ علىٰ هذه الحادثة بصَبْره، وشرحَ لما قد قُدِّر فَسِيحَ صَدْره، وشكر الله علىٰ حُلْوِ القضاء ومُرّه؛ فما كان إلا أحَدَ العُمَرين فُقِد خَلْفَه عُمَر، وثانِىَ القمَرين أفَلَ فقام مَقامه هلالٌ قَدِم من سَفَر؛ وفى بقاءِ المولىٰ

مايُوجب التسليم للقَدَر والقَضَاء، والشكْرَ لله تعالىٰ فى حالتى الشِّدّة والرَّخاء، جعله الله فى حِرْز لايزالُ حَرِيزا مَكِينا ، وحِصْن علىٰ ممرّ الأيام حَصِينا .

وله : أعظَمَ اللهُ أجره ، وأطال عُمُره، وشرح صَدْره ، وأجزل صَبْره ، وسَخَّر له دَهْره .

المملوك يُنْهِى أنه آتَّصل به خَبَرٌ صدَع قَلْبه ، وسَرَق رُقاده ولُبَّه ، وضاعف أسَفَه وكَرْبه، وهو [موت] فلان تغمَّده الله برحمته ، وأهمىٰ عليه سحائبَ مَغْفرته ، وعامله بلُطْفه، وجعل الخِيرَة له فى حَتْفه، فشَقَّ ذٰلك قَلْبَه وعَظُم عليه، وقارب لشديد حُزْنه أنْ يَصل إلىٰ ماوصَل المرحومُ إليه ، لٰكِنَّه ثبَّت نفْسَــه وثَبَّطها ، ورفع يَدَه بالدعاء للمولىٰ وبَسَطها ، وسأل الله أن يُطِيلَ بقاءه ، ويُحْسِن عَزَاءَه ، ويَحْرُسه من أزَمَات الزمان، فإنه إذا سلِم كان الناسُ فى السَّلامة والأمان، ويجعلَه عن كل فائتٍ عِوَضا، كما أصاره جَوْهرا وجعل غيْرَه من الأنام عَرَضا ، ولقد جلَّت هــذه الرزيَّةُ علىٰ كلِّ جَنَاب ، ودخَل حُزْنُها إلىٰ كلِّ قلبٍ من كلِّ باب ، جعل اللهُ أجره للمولىٰ من أعظم الذَّخائر، ومنَحه الحياةَ الأبديَّةَ التى لاتَنْتهِى إلىٰ أمدٍ ولا آخِر، إن شاء الله تعالىٰ .

الضـــــرب الثـانى

(التعـــزية بالبنت)

من كلام المتقدمين :

ابن أبى الخصال المغربى :

الشيخ فلان عَزَّاه الله علىٰ آحتِسابه ، وجعــل الثوابَ المرتقَب أفضــلَ آقتنائه وآكتِسابه . مُعزِّيه عن فِلْذةِ كَبِده، ومساهِمُه فى أرَقه وسُهْده ، والفاتُّ فى عَضُــد صـبرِه الجميــلِ وجَلَده، فلان . فإنِّى كتبتُه ـ كتب اللهُ لكم خَيْرا يُذْهِب جَزَعكم،

وحَسُن مَنْجاكم بالتفدّى الجميل ومَنْزعكم- عند ماوصلَني وفاةُ ٱبنتِكم المرحومة نفعها الله بإيمانها، وتلقّاها بروْح الجنّـةِ وريْحانها؛ وهى - أعزَّك الله - وإن آلمكَ فقدُها، وأوجعكَ أن ٱستأثرها لحدُها؛ فليُعزِّك عنها مُصابنُا بنبينا عليه السلام، وعلمُك بأنّا جميعًا بمَدْرَجة الحِمام؛ أفنجد على الأرض خالدا، وقديمـًا ثكلْنا وليدًا نجيبا ووالدا، فمَنْ خُلِق للفناء، وٱختُلس بمرّ الساعاتِ والآناء، جديرٌ أن يتَّعظ بنَفْسه، ولا يَحْزَن لذَهاب من ذهب من ذَوِى أُنْسه؛ فاحمدِ الله عزّ وجلّ إذ رجَحتْ ميزانك، وضَمِنت لك يومَ المَعاد جنانَك؛ والله عز وجل يرزُقنا ٱحْتسابا جميلًا وصبْرا، ويُؤنسك وقد ٱختار لك الصِّهر قبْرا، ويعظِّم لك ثوابا جزيلًا على مُصابك وأجْرا؛ ويعُمّ فقيـدَتك بالرُّحمىٰ، ويسْكُب على جدَثها مُزْنَها الأوْكفَ الأهمىٰ، ويُؤْوِيك إلى كَنَفه الأعظم الأحمىٰ، بمنّه ورحمته، لا ربَّ غيره؛ والسلام عليك ورحمةُ الله وبركاته .

الضــــرب الثـالث

(التعــزية بالأب)

من كلام المتقدّمين :

ابن أبى الخصال معزّيا بوزير :

يا سيّدى وواحدى، ومحلَّ الآبن المبْرور، والأخِ المشْكور، عندى، أعزّك الله بالتقْوىٰ، ورَضّاك بما قضىٰ، وأمدَّك بالنُّعمىٰ، وشَملك بالحُسنىٰ؛ كتبته -أعزك الله- وقد وصلَ كتابُك الكريم بما نفذ به القَدَر الذى هو فى العِباد حتْم، وله فى كلِّ عُنُق ختْم؛ فى الوزيرِ الفقيهِ الشهيد أبيك كان، رحمه الله وأكرم مثْواه، وجعل الحُسنىٰ التى أعدّها لأوليائه مقرّه ومأْواه؛ فأسِفتُ كلَّ الأسَف لِفقْدانه، وقد كان عيْنَ زمانه،

وعُمدَةَ إخْوانه ؛ تعمَّده الله بغُفْرانه ، ونقــله إلىٰ رِضْوانه ؛ وتلك ـ أعزك الله ـ غايةُ الأحْياء، وسبيلُ الأعداء والأحِبَّاء ، كان علىٰ ربِّنا ـ جلَّ وعلا ـ حَتْماً مقْضياً، ووَعْداً مأْتيًّا ، والأسوةُ ـ أعزَّك الله ـ فى عُمْره الفَضْفاض ، وبِرِّه الفَيَّاض ، وأنه خُتِمَ له بالخير والاَنْقباض ، وكان آخرَ ذٰلك [الحسب] القَديم ، والجيلِ الكريم ؛ وقد أمرَكَ الخير فافعَلْ ما أُمِرت به وكُنْ كما ظَنِّك وقَدِّرك وترَكك ؛ وإنك بفضل الله تَسُــدّ مَسَدّه ، وتبلُغ فى كل فضيلةٍ حُضْرَه السابقَ وشَدَّه ، وتُعِدُّ للأيام من الجدِّ والاَعتزام ماأعدّه ؛ وإخْوتُك ـ أعزك الله ـ لك أظْهارٌ وأعْضاد ، وفيهــم غَزْوٌ مُضَــادّ ؛ فاَشتمِلْ عليهم ، واَرْفُق بهم ؛ فإنهــم يُنْزِلُونك منزِلةَ أبيهم ، وتَجِدُ أخلاقَه وعَوْنَه فيهم ؛ وأما ماأعتقِدُه من تكريمك ، وأراه من تفضــيلك وتقديمك ؛ فشىء تشْهَدُ به نفْسُــك ، ويُدْرِكه يقينك وحَدْسُك ؛ أشدّ به اَعتناء ، وأجمــلُ له اَستواء ، وأوفى عنك ردءا وغَنَاء ؛ جعلنــا الله من المتحابِّين فى خلاله ، والمتقلِّبين فى ظِلاله ، وأمَّننا من الزمان واَختلافِ أحوالِه ؛ بمنّه والسلام .

الضـــــرب الرابع

(التعـزيةُ بالأم)

أبو محمد بن عبد البر المغربى :

مَامات مَنْ أنتَ بَعْـدَه خَلَفٌ * والكُلُّ فى البعضِ غيرُ ممتنِـع !

كتب عبدُه القِنّ ، من الأسىٰ لأجله بعضَ ما يُجِنّ ؛ المُنْطوِى علىٰ قلبٍ تطْمَئِنّ القلوبُ سُلُوًّا ولا يطْمَئِنّ ؛ فلان : بعدَ وصول كتابه الكريم بصَدْعٍ يُصْمِى القُلُوب ، ويَقُدُّ أقوياء الجُيُوب ، ويترُكُ الأحبابَ مصرَّعين علىٰ الجُنُوب ، فوقَفَ العبدُ عليه مترقرِقَ المَدَامع ، متحرِّق الأضالِـع ، رائيًا سامعًا شجَا الأبصارِ وأسىٰ المسامع ؛ فياأسفِى

لخطْب ضَعْضَع رُكْن الجدّ وكان وَثِيقا ، وصَوَّح روضَ الفضـل وكان وَرِيقـا ؛ ونغَّص حسَنَ الصبر ولم يزَلْ صَدِيقا ، وترك العبدَ خليقًا بهذا القول ومثله معه حَقِيقا ؛ فآهٍ لدِينٍ ومروءة فُقِدا فى قَرَن ، وعلىٰ صونٍ وعَفَاف أُدْرِجا فى كَفَن ، وحَصَانٍ رَزَانٍ لا تُعرفُ بوَصْمة ولا تُزَنّ ؛ لقد أصَمَّ بها النـاعِى وإن كان أسْمَع ، وأرَّق ماشاء الفُؤادَ وأراقَ المدْمَع ؛ ولم يُبْقِ قلبا للصبْر إلا صَدَعه ، ولا أنفا للسُّلُوّ إلا جَدَعه ؛ ولا بابا للتعزِّى إلّا أَرتجه ، ولا عَقِيما للتأسُّـف إلا أَنْتجه ؛ ولو قُبِـل فى الموتِ فِدًا وصَحّ أن يؤخَذَ فيه فِداءٌ لمـا خَلَص إليكم ولا ألَمّ ، ولا عدَاكُمْ فى صُروف المنَـايَا المخيفـةِ سَـلَمْ ؛ لكن أبىٰ الله إلا أن تعُمّ الحُرْقه ، وتستولِىَ علىٰ الوقْت الفُرْقه .

الضـــــرب الخامس

(التعـــزية بالأخ)

أبو محمد بن عبد البر :

وكتبتُ والأنفُس مرتَمِضه ، والعينُ غيرُ مغتَمِضَه ؛ والانفاسُ تتصَعَّد ، والأحزانُ تتأكَّد ؛ أسَـفًا للمُصاب الذى عَمّ وغَمّ ، وأسمَعَ نعيُه فأصَمّ ؛ وقال للفرح : كُفَّ من عِنَانك ، وللتَّرح آنتظِرْ لأوَانك ؛ بوفَاة [الفرد] الذى فى رأسه نُور ، وسَدَاد الآراء المختلفة وسِـدَاد الثُّغُور ؛ والفَـذّ الذى شَهِد الرجالُ بفضله ، وعقِم النساءُ فمـا تجىء بمثله ؛ أبى فلان صِنْوكم ، السابِق الذى لايُجارىٰ ، والشارِق الذى لايُسارىٰ ؛ والغيثِ الذى عَمّ المُنِيـل والمستَنيل ، والليثِ الذى ورَدَ الفُراتَ زئيرُه والنِّيل ، فإنّا لله وإنّا إليـه راجِعُون ! تسليمًا للقدَر وإنْ ساء ، وشَمِلَ المرءُوسِين والرُّؤساء ، فياله مُصابًا ترك كلَّ رأس أميمًا ، وأودَعَ صميم كلّ فؤاد نُكْلا صَمِيما ؛ لقـد أنصَلَ السُّمْرَ اللَّهاذِم ، وأغمدَ البِيضَ الصَّوارِم ؛ وعطَّل الكتائبَ والمَقَانب ، وأوحشَ المَفاوزَ والسَّباسِب ؛ ولم يُبْقِ مَشِيد

عُلًا إلا هَدَّه، ولا مَديدَ ثناءٍ إلا صَدّه؛ ولِمَ لا وهو الشخص يموت بموته بشرٌ كثير، ويبكيه قلمٌ وحُسام ومِنْبَروسَرير؛ وعندَ الله نحتَسِبُه جميعا، ونُوسِعُه بمحْض الصَّفاء وصَفْو الثناء توْديعا وتشييعا، ونُفارِقُه فِراقَ الصَّدرِ خَلَدَه، والمُصابِ جَلَده؛ فوَاأسفىٰ لرُزْئه ما أفْظعَه مَوْقِعا! وواحَرَبا ليومه ما أظلَمَه مَطْلَعا! وواحَزَنا لنَعْيِه ما أشْنعَه مَرْأى ومَسْمَعا!!! فلئن جَرَتِ الدموعُ له دِما، وأضْمرت الضلوعُ به مُضْطَرِما؛ لما أدَّت حقَّه ولا كَرَبَتْ، ولا دانتْ بعضَ الواجب فيه ولا اقتربَتْ؛ ولولا أنَّ المنيَّةَ مَنْهَلٌ لا يُحَلَّأُ وارِدُه، ومَعْلَمٌ يُهْدىٰ إليه علىٰ أهدىٰ سَمْتٍ مُباعِدُه؛ لم يبقَ فى أُنْسٍ مَطْمَع، ولا لحُزْن مُسْتَدْفَع، ولكان الثاكلُ غيرما ترىٰ وتَسْمع؛ وما أنتم أيُّها الشيخ المكَرَّم ممن يُنَبَّه علىٰ ذُخْرٍ من العمل الصالح، يكْتسِبُه، وصبرٍ فى الرُّزْء الفادح، يحتَسِبُه، فصبْرًا فالمَنُون غايةُ المُمْسِين والمُصبِحين، والنبأ الذى يُعْلَم ذَوْقًا ولو بعد حين؛ وهو تعالىٰ المسئُول أن يرْقَع بمكانكم هذا الخَرْقَ المتَّسِع، ويصل بجنابكم ذٰلك الشَّمْلَ المنْصَدِع.

ابن ابى الخصال:

الشيخ فلانٌ أبقاه الله يتلقَّى الأرزاء بحُسْن الصبر، وجميلِ الاحْتِساب، ويتقاضىٰ بالتعزى مرتَقَب الأجر، ومُنْتَظر الثَّواب، مُعزَّيه فى أخيه الكريم علينا، العظيمِ مُصابُهُ الفادحُ لدينْا، فلان: فإنى كتبتُه - كتبَ الله لكم صَبْرًا تجِدُون ذُخْره، وأوجب لكم عَزاء تَحْمَدُون يوم القيامةِ شأْنَه وأمْرَه - عندَ ما وصل من وفاة الشيخ أبى فلانٍ أخيكم رحمه الله تعالىٰ ما كدَّر العيشَ ونغَّصه، وجَشَّم جُرَعَ الحِمام المَقْطُوعة وغُصَصه؛ فإنَّا لله وإنَّا إليه راجِعُون!! استسلامًا لقَدَره وقضائه، وأخذًا فيما يُدْنِى ويقَرِّب من إرْضائه؛ وما نحنُ إلا بنُو الأمواتِ الذين دَرَجُوا، وسَنَخْرُج من الدُّنيا كما قبْلَنا خَرَجُوا؛ جعلنا الله جميعًا ممن ينظُر لمَعاده، ويجعَلُ التقوىٰ خيرَ ما أوْعاه بجداده؛

وسلكَ بنا نَهْجَ هدايته وطريقَ رَشاده . وهو جلّ وعلا يُجْزِل لكم على مُصابكم ثوابا عَميما موفُورا، ويجعلُ فقيدكم بين أيديكم فى يومِ القيامةِ نُورا؛ ويُلقّيه فى دار الفِرْدَوْس مُلْكا كبيرا وحُبُورا؛ ولولا كذا لسِرْت إليكم لأُعَزِّيكم شِفاها ، وأحدّثكم عن ضُلوع أحرقَ هذا المصابُ حَشَاها؛ لكن آمتثالُ أمره المُطَاع ، حملَ على البِدَار إلى ماأمَرَبه والإسْراع؛ والله عزّ وجل يُديم لنا بكم الإمْتاع، بمنّه وكرمه، والسلام .

الضـــرب السادس

(التعـــزية بالزوجة)

من كلام المتقدّمين :

أبو محمد بن عبد البر :

وقد تقرَّرَ عِنْد ذَوى الألباب ، وثبَتَ ثُبوتا لا يعلّل بالارتياب ، أنّ الدنيا قنطَرةٌ دائِرة ، ومَعْبَرة إلى الآخرة ، وأنّ ساكنَها و إن طال عُمْره ، وطار فى الخافقَيْن أمْرُه ، لَديغ سَمّها ، وصريع سَهْمِها ، فما تُضْحِك إلّا لتُبْكِى ، ولا تُؤْنِس إلا لتُنْكى ؛ وقد نفَذَ القدرُ الذى ماله ردّ ، ولا منه بُدّ ، بوفاةِ فلانةَ ألحقها الله رضوانَه ، وأسكنها بفضْله المرجوّ جِنانَه ؛ فإنّا لله و إنا إليه راجعون ! ! تأسِّياً بالسّلَف الصالح ، وتسلّيا عن ماء الدّمع السّافح ، وزَنْد القلب القادِح . وعِندَ الله نحتَسِبها عقيلةً معدُومةَ المَثِيل ، مفقُودةَ الدّين والعِفّة فى هذا الجيل ، متحلّيةً من دُعاء الفُقَراء ، وثَناء الصُّلحاء ، بالغُرّة الشادخة والتّحْجِيل ، لقد ذهَبَ لذَهابها الرِّفْق والحَنان ، وعُدِم لعَدَمها الشِّيَم البَرّة والأخلاقُ الحِسَان ، و إنّ فقـدَها لحَرق لا يُرْقَع ، وغُلّة لا تُنْقَع ، وخَطْبٌ لا يَزَال الدهرَ يَتذَكّر فيَصْـدَع ، ولولا العِلمُ بأن اللَّحاقَ بها أمرٌ كائن ، وأن المخلّف فى الدُّنيا لا محالةَ عنها

بائن ، وأن التنقُّل للآخرة مالانفَكَّ نسمعه ونُعاين ، لَمَا بقِيتْ صُبابةُ دمْع إلا ٱرفضَّتْ ، ولا دِعامةُ صَبْر إلا ٱنقضَّت ، ولكانَ الحُزْن غيرماتَسْمع وترىٰ ، والوجدُ فوقَ مايَجرِى وجَرىٰ ، لٰكنْ لامعنىٰ لحُزْن لما يقَعُ فيه الاشتراك ، ولا وجْهَ لأسَف علىٰ مالايصِحُّ فيه الاستِدْراك . وما أنتم بحمد الله ممن يُذَكَّر بما هو فيه أذْكَر ، ولا ممن يُنَبَّه علىٰ ما هو بالتنبيه عليه أخلَق وأجْدَر ، ولولا أنَّ التَّعازىَ مما اطَّرد به العمَل ، وسنَّه الصالحُونَ الأُوَل ، لما سُلِك سبيلُه معكم وأنتم ممن قدَر الأُمورَ قَدْرَها ، وعلم أنَّ الحياة ولو طالت فالموتُ أثرُها ، وإذا لم يكُنْ من الموت بُدّ ، ولم يمْتَنِع منه صَدٌّ ولا سَدّ ، فالصبر خيرٌ من الجزَع ، وأدلُّ علىٰ كرم المَنْحىٰ والمَنْزَع ، وأحرىٰ بأن يكون الثوابُ جَزيلا ، والجزاء حَسَنا جميلا ، والله يبقيكم أتمَّ البقاء ، ويرَقِّيكم أتمّ الارتقاء .

ابن أبى الخصال :

الشيخ الأجلُّ فلان ــ آنس اللهُ وَحْشتَه ، وجدَّد علىٰ فَقِيدته رحمتَه . معزِّيه عن أهله الهالكة وسَكَنه ، ومساهِمُه بأوجَبِ حُزنٍ فى القلوب وأسْكَنِه . فلان : فإنا كتبْناه عن دُمُوع تَصُوب وتَنْسَرِب ، وضُلوع تخْفق من وَجيبِها وتضْطَرب ، وأُنْس يشْرُد منا ويحتَجِب ، بموت فلانة رحمها الله التى أودعَتْ فى جوانحنا من الثُّكل ماأودعَتْ ، ورضَّتْ أكبادَنا بمُصابها وصدَعت ، عزَّانا الله جميعًا فيها ، وأوْلاها نعيمًا فى الفِرْدوسِ الأعلىٰ وتَرْفيها ، وأعقبَنا من الوَحْشة أُنْسا ، وعَمَر بالرُّحمىٰ جدَثًا مباركا ورَمْسا ، وجعلَنا كُلًّا ممن يَرْدَع عن الانحطاط إلىٰ الدنيا نَفْسا ، بمنّه وكرمه .

من كلام المتأخرين :

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

لمّا علم مملوك المجلس السامى أطال اللهُ بقاءه، وأعظم أجْرَه وأحسن عَزاءه، وفاةَ السيدة المرحومةِ سَقَىٰ الله عَهْدَها عَهْدا يبُلُّ الثرىٰ ، وجعل الرحمةَ لمن نزلَتْ به لها القِرىٰ، تألَّمَ لفَقْدها غايةَ الألَمْ، ووجد حُرْقةً كَسَتْه ثوبَىْ ضَنًى وسَقَم، وحُزْنا لا يعبِّر عنه بعبارةِ بَيانِه، ولا يستوعِبُ وصفَه بلسانِ قلمِه وبَنانِه :

وَلَوْ كانَ النِّساءُ كَمَنْ فقَدْنا * لَفُضِّلتِ النِّساءُ علىٰ الرِّجالِ!

والمَوْلىٰ أَوْلىٰ من عَزَىٰ نفْسَــه، وآستحسَن رِداءَ الصبرِ ولُبْسَه ، وعلِمَ أنَّ الموت غريم لا يُنْجِى منه كثْرةُ المِطَال ، ولا يُدافَع بالأطلاب والأبْطـال، وأنه إذا طالب بذِمَّة كان ألدَّ الخِصام ، و إذا حارب فعلَ بيده ،الا تَفْعَلُه الكُماةُ بحَدِّ الحُسَام .

الضـــرب السابع

(التَّعازِى المطلَقةُ ممـا يصلُح إيرادُه فى كلِّ صِنف)

من ذلك، من ترسُّل أبى الحسين بن سعد :

مَن صَحِب الأيامَ وتقلَّب فى آنائها، آعتورتْه أحداثُها، وآختلفتْ عليه أحكامُها: بين مَسَرَّة ومَساءة يعتَقِبان، وفَرْحةٍ وتَرْحة يتَناو بانِ [وكان] فيما تأتيه من محبوبها علىٰ غير ثِقَةٍ من دوامه وآتِّصاله ،ولا أمْنٍ من تغيره وآنتقاله ،حتّىٰ تعقُب السلامةَ حَسْرة، وتستحيلَ النعمةُ مِحْنــة ؛ والسعيدُ مَنْ وُفِّق فى كلِّ حال لحظِّــه ، وأُعِين علىٰ مافيه سَلامةُ دِينه : من الشُّكرِ علىٰ المَوْهِبة، والصبرِ علىٰ النازلة ، وتقديم حقِّ الله تعالىٰ

فى حال الغِبْطة والرَّزِيَّة . ولم تكن بالفَجِيعة به مُفْرَدا عنِّى وإن كان النَّسَبُ يقرِّبه منك، والرَّحِم تَصِلهُ بك : لما كنتُ أوجبه من حقِّه، وأرعاه من مودّته، وأختصّه بالاعتداد فيه دُون أدانِى أهْلِى والثِّقة من إخوانى ؛ فمضى رحمهُ الله أقوى ما كان الأملُ فيه، وأكلَ ما كان عليه فى لُبِّه وأدبِه، واجتماع فَهْمه وكمال هَدْيه، وانتظام أسبابِ الخير وأدوات الفضْل فيه .

ومنـــه : لايُنْكَر للعبد أن يتناوَل مولاه عند وُقُوع المِحنة فى أهل خاصّته، وتَخَوُّن رَيْب المَنُون من حاشيته، بالتَّعْزِية عن مُصيبته، والإخبار عما يَخُصُّه من ألمِ فَجِيعته وعُظْم رَزِيَّته، لاسِيَّما إذا كانَ بحيثُ لايُرىٰ شخصُه فى الباكين، ولا تُسمع صَرْخته بين المتفجِّعين، ولو سعَيت علىٰ حَدَقِتى .

ومن ذلك :

إنَّ الله تعالىٰ أمرَ أهلَ طاعته، بتنزيل هذه الدنيا بمنْزِلتها من إهانته، وسوّىٰ بين البرِّ والفاجر فى رغائبها ومَصَائبها، ولم يجعل العطيَّةَ دليلًا علىٰ رِضاه، ولا الرزيَّةَ دليلًا علىٰ سُخْطه ، ولكنَّه ألزَم كلَّ واحد من أهـلِ الرِّضا والسُّخْط من نِعَمِها بنَصِيب ، وسقاهم من حوادِثها بذَنُوب : ليبتلَى أهلَ رِضاه فى أهْون الدارَيْن عليـه، ويُحسن لهم الجَزاءَ فى أكرمِهما لديْه ، ولذلك حبَّب إليهم الزَّهادةَ فى زَهِيد فائدتِها، وممنُوح زَهْرتها ، وسمَّاها لَعِبا ولَهْوا : لئلَّا يَعتَنِقوا بحُطَامِها ، وينغَمِسُوا فى آثامها ، وختمها بالموت الذى كتَبه علىٰ خَلِيقته ، وسوّى بينهم فى سَكْرته : ﴿ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ ﴾ . ويُقرِّبُهم بدار يَفْنَىٰ الموتُ ويبقَوْنَ فيها بعْده ، كما فَنُوا فى هـذه الدار وبقِى الموتُ بعدَهم ؛ فإن تأخّر الأجل فإلىٰ غايه ، وإن تطاوَلَ الأمَدُ فإلىٰ نِهايه ؛ ولابُدَّ أن يَلْحق التالِى المـاضِى، والآنف بالسالِف، وهذه حالُ نُصْبَ الأفكار، وتِلْقاءَ الأبصار، لاتحتاج أن يرتاض الصبرُ علىٰ آلامها،

والتحمل لمُعْضِلات سهامِها ، والجزَعُ عند وقوعها قادحٌ فى البصائروالأفهام ، دالٌ على الجهل بالليالى والأيَّام ؛ وقد طرق المملوكَ ناعِى فلان فهدَّ جَلَدى ، وفتَّتَ كَبِدى ، لا ٱرتياعا لحادثةٍ : لأنَّها لولم تكُن فيه لكانتْ فى المملوك ، ولو لم تتطرَّقْ إليه لتطرّقت إلى المدرك(؟) ولكن الأسفُ على عَطَل الزمان من حِلْية فضلِه ، وتعرّيه من حُلّة نُبْله ، وخلوّ ِرباعه من الأُنْس بمثله ، ومانالَ سيِّدى لفقْده ، وتحمَّله من بُعْده ؛ وإلى الله تعالى يرغَبُ المملوك أن يَرْبُطَ على قلْبه بالصبر ، ويوفِّقه لتنجُّز ماوعد به الصابرين من الأجْر ؛ إن شاء الله تعالى .

على بن خلف :

رقعــة : ليس عند المُصيبةِ ـ أطال اللهُ بقاء سيدى ـ خيرٌ من التسليم إلى الله والرِّضا بقضائه ، والصبرِ على بَلائه ؛ فإنه تعالى مَدح الصابرين فى كتابه ، ووعدَهُم بصَلواته . فقال جل قائلا : ﴿ الَّذينَ إذا أصابَتْهُمْ مُصيبَةٌ قالُوا إنَّا للهِ وإنَّا إليْهِ راجِعُون أولٰئِكَ عليهِمْ صَلَواتٌ من رَبِّهِمْ ورَحْمَةٌ وأُولٰئِكَ هُمُ المُهْتَدُونَ ﴾ . وقال جل قائلا : ﴿ وبَشِّرِ المُخْبِتِينَ الَّذينَ إذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهم والصَّابِرِينَ على ما أصابَهُمْ ﴾ . ولم تزل الأولياءُ من القُدَماء يَحُضُّون على الصبْر وهم لا يَرْجُون عليه ثوابا ، ويَنْهَوْن عن الجَزَع ولا يخافُون عليه عِقَابا ؛ ومَنْ عرفَ الأيَّام وتداوُلَها ، والأحوالَ وتحوُّلَها ، وسَّع صدْرَه للنوائب ، وصبَرَ على تجرُّع المصائِب ، ومن ٱغترَّ(1) بطول السَّلامه ، وطَمِع فى الاستمرار والإقامه .

رُقعــة : وقد ٱتَّصَلَ بالمملوكِ خبرُ الفَجيعــة بفلان ، فأُفِيضتِ المَدامع ، وتضَعْضَعت الأضالِع ، وزَفَرت الأنفاس ، وهَمَدت الحَواسّ ؛ وأذابَ الطرفُ

(1) لم يذكر فى الاصل لهذا الشرط جوابا ويمكن أخذه من المقام أى «فقد حاول محالا ، وضل فى سعيه ضلالا» أو نحو ذلك .

سَوادُه على الوَجَنات بدَلًا من الأنفاس، وخلعَتِ القلوبُ سُوَيداءَها على الأجساد، عِوضًا عن جلابيبِ الحِداد، وعُضَّت الأناملُ جَزَعا، ومُزِّقت الثيابُ تفجُّعا وتوجُّعا، وكل هذا وإنْ فارقَ حميدَ التَّماسُك، ووافق ذَميم التَّهالُك، غيرُ مُوفٍ بحقِّ ذلك الدارج الذى بلغ المَعالِىَ وهو فى مَهْده، وشدّ دعائم الفضل ولم يبلغ أوانَ رُشْده، وعلِمَ سيدى أنَّ غايةَ الجازع وإن صدعتِ المصيبةُ قلبَه، وأطاشتِ الفجيعةُ لُبَّه، الصبرُ والسُّلُوّ، وأنَّ نِهايةَ القَلِقِ وإن هجمَتْ عليه الحُرْقة بما لاتتوفَّر عليه الأضالِع، ولا تَماسَكُ معه المَدامِع، القَرارُ والهُدُوّ، واللهُ تعالى لايُرِيه بعدَ هذا الرُّزْءِ رُزْءا بفِنائه، وينقل ذلك عنه إلى حاسِديه وأعدائه.

رقعة: مَنْ علِمَ أنَّ الأقضِيَةَ لاتُخطِئ سِهامُها، والأقدارَ لاتُرَدُّ أحكامُها، سلَّم الأمرَ فى السَّرَّاء والضَّرَّاء، ورَضِى بما مَنَاه فى البَلاء والابتِلاء، ولا سيَّما فى مُصيبة الموت التى سوّى بين الخليقة فى تجرِيع صَابِها، واقتحامِ عِقابِها، وقد اتَّصل بالمملوك خبرُ الحادثِ الفاصِم لعُرَى الجَلَد، البارح[1] فى الجلد. فاستحالَتْ فى عين المملوكِ الأحوال، ومالَتْ عنه الآمال، ورأى السماءَ وقد تكدَّر جوّها، والشمسَ وقد تعكَّر ضَوْؤها، والسَّحائبَ وقد أخلف نَوْؤها، والنَّهارَ وقد أظلم، والليلَ وقد ادْلَهَمّ، والنسيمَ وقد ركَد، والمَعِينَ وقد جَمَد، والزمانَ وقد سُهِمَتْ وجنته، وسُلِبتْ حِلْيَتُه، وأفْرِجت قبضَتُه عن التماسُك، وقبَضَتْ على التهالُك، وعدلَتْ عن التجلُّد، إلى التبلُّد، ثم أفاقَ من غَمْرة فَجِيعته، وهَبِيب سِنَة رويَّته، فسلَّم لله راضيا بأقضيَتِه، راغبًا فى مَثُوبته.

(١) لعله البادح والبذح والبدح بالاهمال والاعجام الشق والمراد ظاهر.

أبو الفرج الببغاء :

إذا كان أيّده الله أهدىٰ فى النِّعم إلىٰ سُبُل الشكر، وأعرفَ فى المِحَن بطُرُق الصبر، فكيف نُحاذِرُ عليــه من المَصائِب ، ونذَكِّره التسليمَ لمحتوم النَّوائِب، والمصيبةُ بفلانٍ أعظمُ من أن نهتدى فيها إلىٰ سَلْوةٍ غيرِ مستفادةٍ منه ، أو نقتَدِى فى العَزَاء بغير ماناُخُذُه عنــه ، إذ كانتْ قلوبُنا تبَع قلْبـه ـ سرَّه الله ـ فى طُرُوق السَّراء والضَّرَّاء ، وحالَتِى الشِّـدّة والرَّخاء . وأحسن [الله] عن الفَجِيعة عَزاءه، وأجزَلَ من المثُوبةِ عطَاءَه، ولا شغَلَه عن حَلاوة شكر النِّعم بمَرارة الصبرِ علىٰ وُرُود المِحَن، وجعل مانقَل المـاضِى إليه، أنفعَ له ولسيِّدى من الجَزَع عليه .

وله فى مثـــله :

اتَّصل بى خبَرُ المصيبةِ بجَدّد الحَسْره، وسكَبَ العبْره، وأضرَمَ الحُرْقة، وضاعَفَ اللَّوعة، وكان الأسـفُ عليه، بقَدْر تشوُّف الآمالِ كانتْ إليه : فإنَّا لله وإنَّا إليــه راجعُون ! ! أخْذًا بأمْره، وتسليمًا لحُكْمه، ورِضًا بمَواقع أقضيَتِه، وأحسَنَ الله فى العزاء هِدَايته، وحرَسَ من فِتَن المَـصائب بَصيرتَه، وحَمَل عن قَلْبه ماأظلَّه من ثِقَل المصيبة وعِظَم الرزيَّة .

ولا أزالُ علىٰ جمـلةٍ من القَلَق إلىٰ أن يَرِدَ علىَّ كِتابُه ـ أيده الله ـ بما أكونُ فيه بأدَبِه مقْتدِيا ، وبهدايَتِـهِ إلىٰ سَبِيل العَزاء والصـبْرِ مُهْتدِيا ؛ فإن رأىٰ إجرائى من تشريفه بذٰلك علىٰ مشكُور العادة، فعل، إن شاء الله تعالىٰ .

وله فى مثـــله :

اشتراكُ القلوبِ فيما ألَمَّ بقلْب سيِّدى بحسَبِ تَساوِيها فى المَسرّةِ بما سَرَّه ، إذ كان لايختصُّ دُونَ أوليائه بنِعْمه ، ولا ينفَرِدُ دُونَ مؤمِّليه بحلُول مَوْهبه، والمصيبةُ بفلان

ـ وإن جَلَّ موقِعُها وعظُمت الفَجيعة [بها] ـ جَلَلٌ (١) مع سُقُوط الأقدارِ دُونَه ، وتجاوُزِها عنه ، ومُسامحتِها به ، فلا شغَلَ الله قلبه بعْدَها بمَرارة الصبْر عمَّا تُوجبه النِّعم من حَلاوةِ الشُّكر، ولا جاوره برزِيَّة فى حميم ولا نعمه .

وله فى مثـــله :

بصيرتُك إلىٰ العزَاء تَهْديك ، وٱغتباطُك بثَواب الله يُسلِّيك ، وعلمُك بقلَّة الغَنَـاء عن الجَزَع يَثْنِيك ، وجمعُنا بك فى الصبْر مقتَدُون ، ولرأيِك فى الرِّضا بمـا ٱختاره الله تعالىٰ متَّبِعُون ، فحَمَلَ الله عن قلبك ثِقْلَ المُصيبة ، وحرَسَ يَقِينَـك من ٱعتراض الشبهة ، وأحسن إلىٰ جميل الصبر هِدايَتَك ، وتولَّى من فِتَنِ المِحَن رعايَتَك ، وجعل ماثقَل المـاضى إليه ، أنفعَ لك وله من الأسَفِ عليه .

وله فى مثـــله :

ٱتَّصل بى خَبَرُ المصيبة فأضْرمَ الحَسْره ، وسكَبَ العَبْره ، وقدَح اللَّوْعه ، وٱمترَىٰ (٢) الدَّمْعه ، وكانتْ مُشارَكتِي إيَّاك فى المُصيبة به ، والفَجيعةِ لفَقْده ، بحَسَبِ ٱختصاصِ بمواهِب الله عِنْدك ، وٱغتباطِى بمِنَحه لدَيْك ؛ فإنَّا لله وإنَّا إليـه راجِعُون ! ! تسليماً لأمْره ، وٱنقيـادًا لحُكْمه ، ورضًا بمواقع أقْدارِه ، وأحسن اللهُ علىٰ العزَاء توفيقَك ، وإلىٰ السَّلْوة إرشادَك ، ولا أخْلاك فيما تطْرُقك به مصيبةٌ من مصاحَبة الصبر ، وفيما تَفِد به عليك نعمةٌ من الٱستزادةِ بالشكر ؛ وحَرَسك فى نفْسك وأحبَّتك ، وذَوِى عنايَتِك ونِعمَتِك .

(١) أى يسير هين على حد قول امرئ القيس لما قتل أبوه :

بقتل بنى أسـد ربهم ✽ ألا كل شىء سواه جلل

(٢) فى القاموس « ومرىٰ الشىء ٱستخرجه كامتراه » .

وله فى مثـــله :

قدرك أكبر، وبصيرتك أنور، وثقتك بالله تعـالى أعظم من آعتراض الشكوك عليك فيما يطرقك من عظاته بالحوادث وإن عظمت، والمحن وإن جلّت؛ آختبارا بالمصائب لصبرك، وبما يظاهره عليك من النعم لشكرك، ومثلك أيدك الله من قابل الفجيعة بفلان ـ إذ كانت من الواجب المحتوم ـ بأحسن عزاء وأفضل تسليم، غير مرتاب بما آختاره الله له ولك فيه، فعظّم الله به أجرك وحرسك وحرس فيك .

الأجوبة عن التعازى

قال فى "مواد البيـان" : أجوبة التعازى يجب أن تبنى على وقوف المعزّى على كتاب المعزّى، وأنّ إرشاده نقع غلّته، ووعظه نقع علّته، وتبصـيره سكّن أُوَاره، وتذكيره أخمد ناره، وتنبيهه أيقظ منه بحسن العزاء غافلا، وهدى إلى الصبر ذاهلا، وحسّن عنده الرزيّة بعد جهامتها، ودمّث نفسه للمصيبة بعد فدامتها، فسلّم لله تعالى متأدّبا بأدبه، وعمل بالحكم مقتديا بمذهبه، وغالب الرزء بالعزم، وأخذ فيه بالحزم؛ وسأل الله تعالى أن يحسن له العوض فى ردّه، ويجعله له خلفا ممن أصيب بفقده؛ ونحو هذا مما ينخرط فى سلكه .

جواب عن تعزية : من زهر الربيع :

أعزّ الله سيدنا وأسعده، وسهّل له طريق المسرّة ومهّده، وصان عن حوادث الأيّام حجابه، وعن طوارق الحـدثان جنـابه؛ وجعـله فى حمى عن عوارض الغير والغرر، وأصار أيّامه محسّنة لوجوه الأيّام كالغرر .

ورد الكتابُ الذى أنعمَ بإرساله ، بل المَشرَّف الذى كستْه اليدُ العاليةُ حُلّةً من حُلَل جَماله ، فوقفَ عليه وفهِمَه وتذكَّر به إحسانَه الذى لاينساه ، وتفضُّلَه الذى لايَعْرف سِواه ؛ فأما التعزيَةُ بفلان ، فإنه ردَّ بعذْبِ لفظها قُوّتَه ، وبَلَّ بماء حُسْنها غُلَّته ؛ وصبرَه على حادثته بفلان بعد أنْ عزَّ عليه العزاءُ وأعْوزَه ، وطلبَ وعْدَه من صَبْره فما أنجزه : لأنه كان وَجد لموْتِ المذكور حُزْنا ما آستطاعَ له ترْكا ، وفقَدَ لموته خِلّا مثلُه يُناح عليه ويُبْكَى ؛ وفى بقاءِ مولانا مسرّةٌ تطْرُد كلَّ حزَن ، وفى بهاء طلْعته عوضٌ عن كل منظَر حَسَن ، جعله الله سامياً على أترابه ، مقدَّما على أضرابه ؛ ماسَمتِ الأسماءُ على الأفعال ، وتقدّم الحالُ على الآستقبال .

آخر : ضاعفَ الله بقاءه وأطال عُمُره ، وشرَحَ لإسْداء المكارِم صَدْرَه ، وأنفذَ نَهْيَه وأمْرَه ، ولازالَ إلى أوليائه مُحْسِنا ، وفضلُه يحصِّل لمحِبّيه غايةَ السُّول والمُنَى ؛ ورد مشرَّفُه المعزِّى بوفاة فلان سقَى الله عهدَه عِهادَ رِضْوانه ، وأسكنه فى غُرَف غُفْرانه ، بخبَرٍ مُصابا ، وفَتح إلى الصَّبْر أبْوابا ، وهدَى إلى طريقِ الخير وقال صوَابا ، وسكَّن نَفْسَه ، وذكَّره إحسانَه الذى لم ينْسَه ، وأزال الوَحْشَةَ وزاد أُنْسَه ، بعد أنْ كان فَقْدُ المذكور قد هَدَّ رُكْنَه وفَتَّ عَضُدَه ، وأوصله إلى أمَدِ الحُزْن وضاعف على الأيام أمَدَه ؛ وألبسه رِداءَ الآكتئاب ، على تِرْبه الذى أصبح تحتَ التُّراب ، وصديقِه الموصوف بالصدق ، الذى فاق سَناه ذلك الأفُق ؛ جعله الله أصْلًا فى تحصيل المسرَّة إذا ذوَتِ الفُرُوع ، وسيفًا يقْهَر به وليُّه الحوادثَ التى تَرُوع ؛ إن شاء الله تعالى .

آخر : جعل الله أجْره عظيما كقَدْره ، والقلوبَ مجمعةً على حبِّه كإجماع الألْسنة على شُكْره .

المملوك يُعْلِمه بوُرُود كتابه الكريم المعزِّى بفلان ـ قدّس الله رُوحَه، وأمطر سحائبَ الرحمة ضَريحه ـ عليه، وعنده من شديد الحَزَن، ما أعدمه لَذيذَ الوَسَن، ومن زائدِ الاكتئاب، ما كاد يَحْرِمُه التقمُّص بثوب الثّواب، بحيث إنّه عُوِّض بالزّمن الأسودِ عن العيشِ الأخْضَر، وذاق من موجب لُبْس الأبيض طَعْمَ الموتِ الأحْمَر، وأنه ضَمّه إليـه ضَمَّ المحبوب، وابْتَهج به ابْتهـاجَ من ظَفِر بغاية السُّول والمطْلُوب، فأغمدَتِ الكآبةُ خوفًا من قلمه سَـيْفَها، وأزالتِ الدنيا الدنيَّةُ عنه حَيْفَها، وعزّى نَفْسَـه وسَلّاها، وشغله إحسانُه عن مَحاسِنَ محا الموتُ سَناها، فرفَضَ من توجُّعه مافرضَتْه حادِثتُه، وسلَكَ مَنْهجا غيرَ المَنْهج الذى فُتِّتَت فيه حَشَاه ومُهْجَته، فالله تعالىٰ يَكْفينا مانحاذِرُه فى المجلس ويَحْرُس سَنَاه، ويُديم سعْدَه وعُلَاه .

النـــوع الثـالث

(من مَقاصد المكاتَبات التّهادى والمُلاطَفة)

قال فى "موادّ البيان" : رِقاعُ التّهادى يجب أن تُودَع من الألفاظ المستحْسَنة مايُمَهِّد لقَبُول الملاطَفة والمَبَرَّة التى تُميز فى المودّة. قال : وينبغى أن يُطْرِف الكاتبُ إذا كان مُهْديا أو مستهْديا، وقد جرتِ العـادةُ أن تُودَع هـذه الرقاعُ من أوصاف الشىء المُهْدىٰ ما يحسِّـنه فى نَفْس المُهْدىٰ إليه . قال : وينبغى لمن ذَهَب هـذا المذهَب أن لايعتمِدَ تفخيمَ هدِيَّته، ولا الإشارةَ إلىٰ جَلالة خَطَرها، فإنّ ذلك يُخِلُّ بشروط المُرُوءة و يتحاماه الكُرَماء .

ثم هى علىٰ ثلاثة أضـــرب :

الضــــرب الأول

(مايُكتَب مع التَّقادم إلىٰ المُلُوك من أهل مملكَتهم
إلىٰ القائمين بإيصال التَّقْـدِمة إلىٰ المَلِك وكاتب السِّرِّ ونحوهما)

الشيخ جمال الدين بن نباتة : إلىٰ كاتبِ السرِّ بالأبواب السلطانية صحبة تَقْدِمة من نائب الشام إلىٰ السلطان :

لازالتْ أقلامُها لنتائج الفَضْل مُقدِّمه ، ولمرَاكض الكَرَم والبَأْس جياداً مُسوَّمه ، ولكَتائبِ المَلِك من كُتُبه أعلاماً بشِعارها العبَّاسىِّ مُعْلَمه ، وفى يد صاحِبها من أصحاب المَيْمَنة ، والذين كَفروا بآياتِ الله ونِعَمِها من أصحاب المَشْأمه ؛ تقبيلَ مُحِبٍّ لاتُفْسَخُ عُقُودُ وَلَائه المُحْكَمه ، ولا تُنْسَخ إلَّا فى الكُتُب عقودُ ثَنائه المنظَّمه ، ولا تطوفُ الأشواقُ ببَيْتِ قلبه إلَّا وهى من مَلَابس السُّلْوان المحرَّم مُحْرِمه .

ويُنْهِى أنه قد آختارَ من عِنايَة مَوْلانا بمَقاصِده أحسَنَ الخِيَرَ ، وبُورِكَ له فى قَصْدِها (وَمَنْ بُورِكَ لَهُ فى شَىْء فَلْيَلْزَمْه) كما جاء الخبَر ، وقد جَهَّز فلانا إلىٰ الأبواب الشريفةِ خَلَّد اللهُ سلطانَها بتَقْدِمته علىٰ العادةِ فى كلِّ سنة ، وآتَّبع سِفَارةَ مَوْلانا بين يدَي المواقِف الشريفة فاتَّبع من القَوْل أحْسَنه ؛ وسأل حُسْنَ نظر مولانا الذى إذا لاحظَ قَصْدا أعْلَنَه وسَعْدا عيَّنه ، وقد جهَّز المملوكُ برَسْم مولانا ماهو بمقتضىٰ الورَقة المجهَّزة عطْفها ، المؤمَّلة وإن كانتْ ورَقةً قطْفَها ، وسأل مقابلَتَها بالجَبْر الذى يَحْسُبُ الأملُ حِسابَه ، ويستفْتِحُ ببنانِ القلَم بابَه ، والإصغاءَ لما يُملىٰ من رَسائل الشَّوْق فإنَّها من رسائل إخْوان الصَّفا المستطابَة ، لابَرِح القاصدُون مَرِحين بأيَّام مولانا وحَقَّ لهم أن يَمْرَحُوا ، تالينَ نُسبة بيته ورُحْمىٰ الله علىٰ يَدِه : ﴿ قُلْ بفَضْل الله وبرَحْمته فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ .

وله إليه أيضا مع الجهاز الشريف السلطانى :

أمتعها الله من خيرى الدنيا والآخرة بكرم الأمرين ، وبشرف الذكرين ، وسرها بما يجهز فى الثناء والثواب من الوفرين ، وأعلى منارها المحلق إلى السماء على وكر النسرين . ولا زالت الآمال لاتبرح حتى تبلغ من تلك اليدين مجمع البحرين ؛ تقبيل مخلص فى الولاء والدعاء ، مستشهد بالخواطر الكريمة على ثبوت الادعاء ، وارد لموارد النعم قبل صدور بل قبل ورود الرعاء .

وينهى أنه ليس للملوك فيما يؤمله ويتأمله ، ويفصله من عقود المطالب ويجمله ، غير إحسان مولانا الذى لا يمل على طول الإيناس والإلباس ، وعوارف بيته المستجدة تالية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ . وقد جهز المملوك الولد فلانا بالجهاز المبارك إلى الأبواب الشريفة خلد الله سلطانها ، وملأ به جواهر حبات القلوب وريحانها ، وهو على قدر المملوك ومقداره ، لاعلى قدر مراده واختياره ، ولو أن المراد مما يحمله العبد إلى سيده ، ويقدمه من سبد الحال ولبده ، على قدر المحمول إليه ، والمقدم بين يديه ، لضعفت قوى أكثر العبيد عن ذلك ، ويئس من الرضوان جهدهم المالك ، وإنما على العبيد أن تنصب على قدرتها الحال ، وعلى السادات أن تصرف بعوامل الخبر مستقبل الأفعال . وعلم مولانا الكريم محيط بتنقل المملوك فى هذه السنين من بلد إلى بلد ، ومن أمد كلفه إلى أمد ، وبما حصل فى ذلك من التمحق فى إقطاعات كاد أن يخنى عليها الذى أخنى على لبد . وكان المملوك يود لو كان هذا المحمول من الجهاز من جواهر النجوم المنثوره ، وأخبية السعود المأثوره ، وجميع مازين للناس من الشهوات المذكوره ، أضعاف أضعافه الآن ، بل أضعاف أضعاف ماحمل الأولون من فلان وفلان ؛ كالحسن بن سهل مع الجهة المأمونية التى حلا ذكرها ، وابن طولون مع المعتضدية التى كاثر هذا الغيث قطرها ، والسامانى

وما أدراك، والسَّلْجُوقى وما أسْراك، وجميع ماتضمَّنته التواريخُ التى لو عاينَتْ تاريخَ هذه الدولةِ الشريفة عنَتْ فى الحال لَمجْده، وكان كلُّ مجلَّد منها يموتُ للهَيْبة فى جلْده : لما خلَّدته أيامُها الشريفةُ من أخبار حكْمها وخَيْرها، وكَرَمها وبِرِّها، وعَطْفها علىٰ مماليك بيتها الشريف : لتتقبَّلَ مَيْسُورَهم، وتُكمِّلَ سُرورَهم، وتملأَ بجُيُوش الاِنْشراح صُدورَهم، وتبلِّغُهم من هِمَم مطْلُوبهم، وتُقْبِل علىٰ زاهرات نجاياهم ورياحينِ قلوبهم :

ولو لم تُطعْه نِيَاتُ القلوب ٭ لَمَا قَبِل اللهُ أعمالَهَا.

والمملوك يسأل من إحسانِ مولانا الذى أَلِفَه، ومعروفِه الذى عَرَفه، ملاحظةَ الولد فلان بين يدَىِ المواقفِ الشريفة خلَّد الله سلطانها، وإقامةَ عُذْر المملوك بعبارته التى أحلَّ اللهُ سِحْرَها وبيانَها ؛ فما للمملوك فى مَقاصِده مثلُ مودّةِ مولانا الوافيةِ المُتَوافيه، ومقدّمةِ عبارتِه الكافيةِ الشافيَه ؛ والله تعالىٰ يُعين علىٰ شُكْر مِنَنه، والقيامِ بفرائض حمْده وسُنَنه ؛ والنهوضِ بأوصاف أياديه التى يُغرِّد بها قلمُ الكُتَّاب كما يُغَرِّد القُمْرِىُّ علىٰ فنَنه .

الضرب الثانى

(مايكتب مع الهدِيَّة عند بعثها)

وهو علىٰ عَشَرة أصناف :

الصنف الأوّل — مايكتَبُ مع إهداء الخيل .

علىّ بن خَلَف : فى إهداء جَوادٍ أدْهَم أغرَّ محجَّل .

وقد خدم المملوكُ رِكابَه الأكْرَم ، بجوادٍ أدْهَم مُطَهَّم ، قد سَلَبَ الليلَ غَياهِبَه وكَواكبَه ، فاشْتمَلَ بأديمه ، وتحلَّىٰ بنُجُومه ، وأطلع من غُرَّته السَّاذَجة قمراً متَّصلا

بالمجرّه ، وتحلّى من رُثْمَتِه (١) بالثُّرَيَّا أو النَّثْره ، صافى القَمِيص ، ممحُوض الفُصُوص ، حديد الناظر ، صليب الحافر ، وَثِيق القَصَب ، نقِيّ العَصَب ، قَصير المَطا ، جَعْد النَّسا ، كأنما آنتعلَتْ بالرِّياح الأَرْبَع أَرْبَعُه ، وأَصْغَىٰ لآستراق السَّمْع مَسْمَعُه ، إنْ تُرِك سارْ ، وإن غُمِز طَارْ ، وإن ثُنِيَ آنحرف ، وإن آستُوقِف وقَفْ ، أديب نَجِيب ، مَتِينٍ صَلِيب ، صَبُورٍ شَكُور ، والله تعالىٰ يجعلُ السعادةَ مطلعَ غُرَّته ، والإقبالَ مَعْقِدَ ناصيته .

من كلام المتأخرين :

كتاب عن نائب الشام إلىٰ الملك الصالح : شمس الدين صاحبِ مارِدِينَ قرِينَ خيل مُنْعَم بها إليـه ، عن السلطانِ الملكِ الصالح : عمادِ الدين إسمـاعيل بن الناصر محمد آبن قلاوُون ـ من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُبَاتَةَ ، وهو بعد الألقاب .

وأجرى بالنَّصر جِيادَه ، وبالظَّفَر مُرادَه ، وعلىٰ عوائد السَّعْد مَطالِعَ شمسه التى يُسَمِّيها عُرْفُ المملكةِ بلادَه ، ولا زالتْ مُنيرةً بسعادةِ شمسِه الأحلاك ، نَظِيمةً بدُرِّ محَامِده الأسلاك ، مائلةً خيولُ سعدهِ حتّىٰ حُمْر السَّوابق من البُروق والشُّهُب السَّوانح فى الأفلاك .

الملوكُ يقَبِّل اليدَ التى إذا بُسِطتْ فلِأَن تجُودَ وتُسْتَلَم ، وإذا قُبِضت فعلىٰ سَيْف أو قَـلَم .

ويُنْهِى بعدَولاءٍ وثناءٍ للإخلاص شارحَيْن ، وفى الضمائرِ والآفاقِ سائحِين ، وآشتياقٍ وعهدٍ كانا أحقَّ بالآنتمـاءِ لآسمه ونَعْتِه وكان أبواهما صالحَيْن ، أنَّ المرسومَ الشريفَ زاده الله تعالىٰ شرَفا ، وردَ يتضَمَّن تشريفَ مولانا علىٰ العادةِ وإعظَامَه ، وآستقْرارَ مكانته من الخواطر الشريفـةِ فى دار مُقَامه ، وآستمرار كرامتِه من الآراء المعظَّمة

(١) هى بالضم بياض فى طرف أنف الفرس . قاموس .

ولا يُنْكَر بين الصالح والصّالح استمرارُ الكَرامه ، وأنّ الصَّدَقاتِ الشريفةَ أنعمَتْ على مَوْلانا بثلاثةِ أرْؤُس من الخيل كثلاثة الراح ، إلا أنّ حَبابها عرقُ سبْقِها ، وثلاثة الشجر (؟) كما قال الطائى تساوى شَرف ثَمرها وزَهرها وعَرْفها ، ما منها إلا من[1] تقْصُر الرِّياح أن تَسْلُك بحَهُ ، والبرُوقُ أن تتْبَع نَهْجَه . ومَنْ تودُّ الثُّرَيَّا أن تكونَ لجامَه والهلالُ أن يكونَ سَرْجَه . ومَنْ يتمطّر[2] كالغَمَام ويرْكُض كالسَّيل . ومَنْ كَمُلت حِلاه ولِبس حُلَّة الفَخَار فمشى على الحالتين فى الحُلّتين مُسْبِلَ الذَّيْل . ومَنْ عُقِد بناصيته كلُّ الخير وعُقِــد له لواءُ الفَخَار على كلِّ الخَيْل : من كلِّ خَضراءَ مُعْجِبة فهى على المجاز حَدِيقه ، وكل أحمرَ سابِقٍ فهو البرْقُ على الحَقِيقه ، وكلَّ أصفرَ شَفَقٌ إلا أنَّ الرياح من مُجاراته على نَفْسِها شفِيقه . وكيف لا يُشَبَّه بالشَّفَق وهو من الأصائِل ، وكيف لا يفتَخِر العسكرىُّ بهذه الخيلِ وخَناصِرُ عَدَدِها فى الحُسْن أوائِل ، قد صُرِفَتْ وجوهُها المقبَّله ، لبابِ مولانا أحسنَ المَصَارف ، وكُتِبَتْ عوارفُ الفضل فى مَعَارفه المُسْبَله ، فناهيك منها بكتاب عَوارف المَعارف ؛ ووصل لمولانا بذلك مِثالٌ شريف ، ورسم للمملوك بتجهيزها مع مَنْ يراه ، وقد جهَّز المملوك لخدمةِ مولانا الخيلَ المذكورةَ مع المثال الشريف صحبةَ فلان ، ومولانا أذرى بنفَحات رياض الحمدِ بهذه الدِّيَم المُطِلّه ، وبالتقبيل فى الأرض التى هى سَماءُ حوافِرِ هــذه الخيل التى هى أهِلّه ، وأولى أن يَشرِّف المملوكَ بمُهِمَّاته ، ويؤنِس لحظَه بطيف اليَقَظَــة من مشرَّفاته ، والله تعــالى يجدِّد لمعاليه فى كل قصــد نُجْحا ، ويعلى لمجده[3] فى كل حال قِدْحا ، ويُروِّع الأعداءَ

---

(١) كذا فى الأصل باستعمال من فى غير العاقل .

(٢) فى الأصــل يخطر كالغمام ولعله مصحف عمــا أثبتناه يقال تمطرت الخيــل إذا جاءت مسرعة يسبق بعضها بعضا تأمل .

(٣) فى الأصل وجاد مجده تأمل .

من خَطَوات خيْله فى بلادهم بالمُغيرات صُبْحا ، ومن خَطَرات ذكْره فى قلوبهم بالمُوريات قَدْحا .

وفى معناه :

يقبِّل الباسطة الشريفة أعلى الله شأنَها ، وجمّل ببقائها زمانَها ، وضاعف على الأولياء بِرَّها وإحسانها .

وينهى : أنه ٱبتاع جَوَادًا أعجبه ، وطِرْفا ٱنتخبه ، وقدْ قدّمه لولىِّ نِعْمته ، ومالك عُهْدته : لأنَّ الكِرَامَ لا تكونُ إلا عند سيِّد الكِرَام ، والذى يصلُحُ للولى على العبد حَرَام ، فالله تعالى يجعَلُ التوفيقَ ضِياءَ غُرَّته ، واليُمْنَ مَعْقِدَ ناصيته ، والإقبالَ تحجيل أوْظِفَته ، والسعادةَ موضِعَ الجلوس من صَهْوته ؛ والمملوكُ يسأل الإنعامَ بقَبُوله ، و[أن] يبلِّغه من ذلك [غاية] مأموله ؛ مضافًا إلى ماسبَق به سابقُ إحسانه العميم ، وفضلِه الجَسِيم ؛ والله تعالى يحرُسه بعينه التى لا تنام ، آمين .

الأجوبة بوصول الخيـل

جوابٌ عن نائب الشام إلى أميراخور بالأبواب الشريفـة ، عن وُصول خيـل إليـه من الإنعـام الشريف ـ من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة ، وهو بعـد الألقـاب :

لا زالَتْ مبَشِّرةً بأعظم الخير وكِرام الخيل ، ميَسِّرة النعماء(١) بسوابِق السَّيْر كدوافِق السيل ، مُسْفِرةً عن إيجاد سوابِحَ إلا أنهـا فى الفَخَار والشِّيَة ضافِيةُ الذَّيْل ، سفيرة فى الجَوَادِ بكلِّ جَوادٍ تبتسمُ غُرَّتُه ٱبتسامَ النهار ويُدرِك طَلَبَه إدْراكَ الليل ؛ تقبيلًا يستَبِقُ ٱستِباقَ الجِياد ، ويتَّسِق على الدَّرج ٱتِّساقَ العُقود على الأجياد .

(١) النعيم والنعمة والنعمى والنعماء ما ينعم به فلعل الصواب الانعام .

وينهى بعد ثناء وولاء : هذا يهيم فى كل واد، وهذا يهيم بمثله كلُّ وادّ، وُرُود مشرَّفةِ مولانا الكريمةِ بما ملأ القلب مَسَرَّه، والعينَ قُرَّه، ودرجَ عامَ الفيل من نُجُب الخيل السيارة مستَهَلّ وغُرَّه، فقابلها المملوكُ بتقبيله، وقام لها على قدم تبجيله، ثم قام إلى الخيل الشريفة المنعَم بها عليه فقبَّل من حوافرها أهلَّةً ثم من غُرَرها نُجُوما، وتأمَّل شِياتِها البرقيَّة وآستمطر من السُّعود غُيوما، فأدنَتْ له من الإقبال أمدَ قاصيها، وظلَّ بمنزله الخيرُ المعقُودُ بنواصيها، وتضاعفتْ أدعيتُه الصالحةُ لهذه الدولة القاهرة الصالحيَّة زادها اللهُ من فضله، والوقتِ الذى ملأ الدنيا بسَحَاب جُوده ورياح جِياده ورياضِ عَدْله، والملكِ الذى لاينبغى لأحدٍ من بعده، ولولا شُهودُ العهد الشهيدىّ لقال ولا لأحدٍ من قَبْله، وأعدَّ المملوكُ هذه الثلاثةَ من الخيل ليُفْنى عليها بالقتال أهلَ التعطيلِ والتَّثليث، ويستخفَّ بها آجالَ الأعداء بين يدَىْ مالكه : فإنها من ذَواتِ العِزِّ والعزم الحَثِيث، وما هى إلّا كواكبُ سَعْد تمددها أسِنَّتُها الوَقَّاده، وزَهَراتُ حسن حَثَّتْ بها على البُعْد سِفارتُه المعتاده، لابَرِح مولانا يقلِّد بعِنايتِه وإعانتِه المِنَنَ الجِسام، وينصر بعزائمه القاطعة، وكيف لاينصُر ويقْطع وهو الحُسَام ؟ .

ولـه فى جواب وصُول أكديش وباز [وكوهية] :

لا زالَ جزيلاً سَماحُه، جميلاً من الحمد رَبَاحُه، جليلاً بِرُّه الذى يشْهد به طائرُ الخير ويمنُه وطائلُ الخيل ونَجاحُه . هذه المفاوضة تُهدِى إليه سلاماً يخفِقُ جَناحُه، وثناءً تُشرِق غُرَره وأوضاحُه، وتوَضِّح لعلمه الكريم وُرودَ مكاتبته سريعةَ الإحْتِثاث، طائرةً بيُمْن طِرْسِها وهديَّتِها بأجنحةٍ مَثْنَى وثُلاث، فحصل الوقُوفُ عليها، وتجدَّد عهدُ الإرتياح لديْها، وفهِمْنا ما لم نزَلْ نفهَمُه من وُدِّ الجناب العالى، وبِرِّه المُتعالى،

ووفاء عَهْده الذى نتلقَّاه المحامدُ بأمالى المحبّ لا بأمَالِى القَالِى ؛ ووصل الأكديش الايكر ظاهِرًا حُسْنُه ، سافِرا عن وَفْق المُراد يُمْنُه ؛ تُجمَّل به المَوَاكب ، وتُماشيه الرِّياح وبعضُها من خَلْفِه جَنائِب ؛ وكذلك وصل البازى والكُوهيَّة ، وكلاهما بديعُ الأوصاف ، سريعُ الاقتطاف لأزاهِرِ الطيرِ والاختطاف ، يَسْبِقُ الطَّرْفَ بجناحه اللَّمُوح ، ويستعجِل من الأفُق وارِدَ الرِّزق الممنوح ؛ ويُواصِلُ الخيرَ والمَيْرَ إلى المَطْبَخ ، فكأنَّ حوائج كاش تَغْدُو إليه وتروح ؛ لا برِحَ إحسانُ الجناب العالى واصِلا ، وذِكْرُه فى ضمير الاعتداد حاصِلا ، وحكْمُ سماحتِه وشجاعتِه باستِحْقاق الثناءِ فاصِلا .

جواب بوصول جَوارح :

كُتب به عن نائب الشام ، جوابًا لمطالَعة وردَتْ على نائب الشام من الصالح صاحبِ ماردِينَ من بَقايا بنى أُرْتُق ، صحبة سَناقِر ، هديَّةً للصالح إسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون : صاحب الديار المصرية . من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة :

وأيَّد هِمَمه السَّوابح ، ونِعمَه السوابغ ، وشِيَمَه التى تنتظم منها عليه دُرَرُ المحامد والمَمادح ؛ وشكرَ هَدَاياه التى منها جَوارِحُ طير تخفُق لفَرْط استِحْسانها الجَوارح . ولا زال من أجْنحة نَصْره حتّى السِّماك الرامح ؛ ومن جُنود سعده للأولياء سَعْدُ السُّعود ، وفى الأعداء سَعْدُ الذابح ؛ ومن جِياد رِكابه الشُّهبُ إلا أنها شُهبُ الأفلاك السَّوابح ؛ ولا بَرِح سلطانُ البسيطةِ مكافِئًا عملَ قلبِه الوفِىّ ، ولا يُنكَر العملُ بالقلوب بينَ الصالح والصَّالح .

المملوك يقبِّل الأرضَ التى تستمِدُّ السُّحُبُ من سَمائها ، وتستعِدُّ منازِلُ الأنجُم للتعلُّم من أنوائها ؛ تقبيلًا يُودِع ورَقَ الرسائل أزاهِرَه ، ويُطلِع فى ليالى السُّطُور زَواهِرَه ، ويدّخِرُ فى أيدى الحُروف إلى أن تَصِلَ إلى أجياد المَنابر جَواهِرَهْ .

ويُنْهى - بعد دعاء صالح، إذا جُدِّد تجدَّد، وولاءٍ ناجح، إذا انعطف تأكَّد، وثناء سائح، إذا سرى لا يتوقَّف إلا أنَّ نسيمه فى الآفاقِ يتردَّد، وآرتياح لما يَرِدُ من أخبار دياره السارَّة إذا شاقَهُ سرورُه سَمْعَ الولىِّ شهد وسَمْعَ الحاسدِ تشهَّد، حيثُ يتلقَّ ببلاده النُّجح والمقاصد، وصِلاتِ البرِّ والعوائد، ووُفودَ الآمال من كل أَوْب: فديارُ بكرٍ ديارُ زَيْد وعَمْرو وخالد - ورودَ المشرَّف الكريم، بل الغيثِ السائرِ بخصب المُقيم، على يَدِ فلان ونِعْمَ اليدُ العائلةُ لأيادى البِرِّ العَميم، ونِعم المشرَّفُ الوارد عن مَقَرٍّ: هذا للأمل كَهْف وهذا للتأميل رَقيم؛ ففَضَّه المملوك عن علامةٍ آسم لحُسْنها وُسُوم، ولها رُسُوم، وآستجلى مواقعَ تلك الأناملِ المُضيَّة وأقسم على فَضْلها بمواقع النُّجوم، وآنتهى إلى الإشاراتِ العاليه، وعلِمَ ما كان القلبُ يعلَمُهُ من ضمائر الوُدِّ الحاليَّة لا الخالية، وقابل كلَّ أمرٍ حسنٍ بما يجب من مَذاهب الوُدِّ المُتواليه، ووصلت السَّناقرُ المُنيرُ سَنَا فضلها، المُبيرُ فى مَعارك الصيد شَباَ نَصْلها، القائمةُ فى كواسر الطير مقامَ الملوك الأكاسرة إلَّا فى حُكْمِها وعَدْلها؛ لا جرمَ أنها إذا دخَلَتْ آفاقَ طيرٍ أفسدَتْها وجعلت أعِزَّة أهلها أذلَّه؛ وإذا آنقضَّتْ على سِربِ وحْشٍ جذَبَتْها من دَمِ الأوْردة بأرسانٍ حيثُ كسَتْها من قوادِمِ الأجْنحة أجِلَّه؛ لا يُسْأَلُ كاسِرُها فى الطُّيور بأىِّ ذَنْب قُتِلَتْ، ولا يحمِلُها جانب الطير والوَحْش إذا عاندَتْه فياعَجَبا لها على أيْدى البَشَر كيف حُمِلَتْ؛ تُظِلُّ الصيدَ فلا عَجَبَ أن يَفْزَع بها من ظِلِّه، وتكتُبُ علائمَ اليُمْنِ والظَّفَر بما فى لَوْنها من شَبَه الخطِّ وشَكْله، نِعْمَ الحاليةُ للخَيْر والمَيْر، والسائرةُ بما يُخيف المتصيِّداتِ وكيفَ لا؟ وعلى رُءوسها الطير، أزاهرُ حُسْنٍ لابِدْعَ أن يكون لها كمائم، وبوارِقُ العزم لاجَرَم أنَّ أجنحتَها غَمائم؛ ونواقِلُ البأس والكَرَم عن مُرْسِلها فهما جَمَعتْه الشَّجاعةُ فرَّقتْه المَكارم. آستجْلاها المملوكُ بعد ألفاظ المشرَّف الكريم فقال: (تلكَ الرياضُ وهذه السُّحُب،

وتلكَ الأنوارُ الهادِيَةُ وهذه فى أُفُقِ مَطَارِها الشُّهُب) ؛ وجهَّزَ المملوكُ المطالعةَ المُحَضَّرة للأبواب الشريفة أعلاها اللهُ وشرَّفها علىٰ يد فلان المذكور فقُوبِلَ بالإكرام والكَرَم، ومَثَلَ بالمَوَاقف الشريفة مُثُولا رقىٰ بهمّتــه إلىٰ الكواكب لا جَرَم ؛ وذكَّر بصالح بيتِ الارتقاء صالحَ بيتِ أُرتُق حتّىٰ أنشد :

فَهَلْ دَرىٰ البيتُ أَنّى بعْدَ فُرْقتِه * ما سِرْتُ من حَرَمٍ إلَّا إلىٰ حَرَم!

وقد عاد مُعْلَما من البِشْر بما يَراه مولانا عليه ، مُعْلِما بمـا تقدّمَ من نجوىٰ الإنعام بين يدَيْه ؛ حاملًا من كَرَمٍ وجاهٍ يُعَدّان للأولياء فى يومِ نُزُل وللأعداء فى يَوْمِ نِزَال ، قائلا برجاء سَعْيه المؤمَّن : (يَاصَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا) ولن تَزال ؛ واللهُ تعالىٰ يُجرى كَرَم مولانا علىٰ عوائدِ إسعاده ، ويَحْرُس بعيْنه وملائكته نَفَاسة نَفْسه وبِلادِه ، ويُدْخِله بآسْمِه ومسمّاه لدىٰ الدُّنيا والآخرةِ فى الصَّالحين من عِباده .

وله جوابٌ بوصول بازِيَيْنِ :

ولا زالَتْ بُزاةُ كرمه علىٰ الحمد مُطِلَّه ، وسحائبُه مستهِلَّه ، وهِممُه مسـتقِلَّةً بأعباء المكارم وإن كانتْ لكثيرِ مايُهْدِيه مستقِلّه . هذه المفاوضة تُهدى إليه من السلام أجَلَّه ، وتُوضّح لعلمه الكريم وُصولَ مكاتبته العاليةِ فوقَفْنا عليها ، وعوَّذناها بكلماتِ الثناء التـامَّة من خَلفها ومن بين يدَيْهـا ؛ وعلمنا مالم نزل نَعْلَمُه من مُوالاته وآلائه المُسْنَدَ فى الشكر عنها والمستندَ فى الوَلاء إليها ؛ ووصل كِلَا البازِيَيْنِ الحسَنَين المُحسِنَين كأنَّهما فرقَدَا سماءٍ قد آجتمعا ، وقمرا حُسْنٍ طَلَعا ، وعلىٰ محَاسن الصيد آطَّلَعا ؛ يَسُرَّان القلوبَ والأبصار ، ويُحْمَلُ كُلٌّ منهما علىٰ اليمين فيَحْصُـل به اليَسَار ؛ وما هما بأوّل إحسانِه الأَسْنىٰ ، وبِرِّه الأَهْنىٰ ، وأياديه التى أبىٰ الكرمُ إلا أن تَرِد مَثْنىٰ مَثْنىٰ . وعلِمَ آعتِذارُه عن الكُوهيَّة التى كان آدَّخرها فنفَقَتْ ، ولو أُقيمتْ بها أسواقُ الصيد

نَفَقت، وأرسل برواياتها تحقيقًا لدَعْوَى المكارم التى من زمانٍ تحقَّقتْ ؛ واللهُ تعالىٰ يشكُر بِرَّه، ويملأ بذِكْره بحرَ الثناء وبَرَّه .

وله جوابٌ بوُصُول كُوهِيَّتَين علىٰ يدِ شخصٍ اسْمُه باشَق :

لازالتِ المحامدُ من مَصَايدِ إنعامه، وفوائدِ أيّامه، وثمراتُ البأسِ والكَرَم من قُضُب سُيوفه وأقلامه، تقبيلَ معترفٍ بإحْسانها، مغترِفٍ من مَوارد آمتِنانها، متْحَفٍ منها بعالِى تُحَفٍ تدُلُّ علىٰ مكانِها فى الفضل وإمْكانِها .

ويُنْهِى وُرُودَ مشرَّف مولانا الكريم علىٰ يدِ الولد « باشَـق » فياله باشَـقٌ جاء بكُوهِيَّتَين جميلتَيْن، وطار للسُّرْعة وهو حاملٌ مِنَّتَيْن جليلتَيْن، وقد وصلَتَا و[كلْتا] هما حسنةُ الخُبْرِ والخَبَر، حميدةُ الوِرْد والصَّدَر، يَحْسُن مَسْرىٰ كلٍّ منهما وسَيْرُه، ويَتجمَّلُ بهما بابُ الشُّكْر خاناه وصدْرُها ويكْثُر خيرُ المَطْبخ ومَيْرُه، فمدّ المملوكُ إليهما اليَدَ المتحمِّلة الحـامِلَه، وإلىٰ المشرَّف الكريم اليَدَ المتولِّيَـةَ المُتناوِله ؛ وعلم ماتضمنه من الحُسْن والإحسان، وذِكْرِ الموالاة التى يحكُم بها القلب العالِمُ قبـل شَهادةِ اللِّسان ؛ وآعتِذارِ مَوْلانا عن تعـذُّر وُجُود الشاهين ؛ وكلُّ إحسـانِ مولانا شهِىّ كافٍ، وكلُّ مَوارد نِعَمه هَنِىٌّ صافٍ ؛ ومافاتَ مَقْصَدٌ وإنعامُ مولانا وراءَ طَلَبه وإنْ طال الأمَد، ولاقَرَّ مطلوبٌ حتّىٰ يأتِىَ به سعْدُ مولانا مقْرُونا فى صَفَد ؛ والله تعالىٰ يشكُر عوائدَ فضـله، ولا يُضْحِى[1] الآمال المتجئة [إليه] من ظِلّه .

جواب بوصول طيور، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة :

وشكَرَ هدَاياه المتقبَّله، وسَجاياه التى هى بأفواه المحامد مُقبَّله، ولا زال بدرَ سعادتِه المأمولةِ وطائرُ هديّته المتأمَّله .

(١) مراده لايحرمها ولا يخليها .

صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ الجناب العالى تُهدى إليه من السلام أتمَّه، ومن الثناء أنمَّه، وتوضِّح لعلمه الكريم وُرودَ مكاتبَته الكريمه، ومكارمِه العَميمه، وطُيور هديَّته التى كلٌّ منها فى الحُسْن بدرُ تمّ، وظهرتْ ظُهورَ البدْرِ لتَمامه فأبتْ محاسنُها أنْ تَكتِم، لحُسنَ وُرودُها، ورُعِى بفضـل التلطُّف والتودُّد مقصودُها، وأقبلت تلكَ الطيورُ التَّمِيَّة تامَّة الإنعام، دالَّةً يُمْن طائرها علىٰ بركة عامَّة وكيف لا؟ وقد جاءتْ ببضاءَ عددَ شهور العام، والله تعالىٰ يزيده من فضله، ويُجْرِى الأقدار بالسُّعود الشاملة لجمعه الجامعةِ لشَمْله، إن شاء الله تعالىٰ.

جواب فى المعنىٰ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة أيضا:

لازالتِ الجَوارحُ شاهدةً ببِرِّه، والجوانحُ حائمةَ الجَناح علىٰ شَريف ذِكْره، والحامد من مَصايدِ أقلامه ورِماحه فى السِّلْم والحَرْب: فإمَّا بقَوادم سُمْره، وإما بمَناسِر حُمْره، تقبيلًا يبعَثه علىٰ أجنحةِ أوراقِ الرَّسائل، ويتصيَّدُ به علىٰ البُعْـد مشافهةَ تلك الأنامل الجَلائل.

ويُنْهِى بعـد دعاءٍ، تُحلِّق إلىٰ السماء كلماتُه الحَسنه، وولاءٍ وثناء: هذا تَخفِق بتشوّقه أجنحةُ القلوب، وهذا تَخفِقُ بذِكْره أجنحةُ الألْسِنه ـ أنَّ كتَابَ مولانا وردَ علىٰ المملوك فأوردَ عليه المَسارّ، و[ملأ] يده بالمَبَار، ومصايدَه بالمَيْر، ومنازلَه بالخَيْر، وآماله بأمالِى الكَرَم لذى السرحات المنشرح بآية ﴿وعُلِّمْنا مَنْطقَ الطَّيْر﴾ فقابله المملوك بتقبيله، وواصلَ فضْلَ الاعتِدادِ بتفْضيله، وحصل من هَدَاياها وهُدَاها علىٰ جملة الإحسانِ وتفصِيله، وانتهىٰ إلىٰ الإشارات العاليـة التى زكَتْ علىٰ العِيَان وتأمُّله وأربتْ علىٰ الجَنَان وتأميله.

فأمّا الإنعام بالكوهيَّتين اللتين ماقذف البحرُ إلى الساحلِ أبهى من دُرَرِهما المكنونه ، وأزهَرَ من وجوهِهما المباركةِ الميمُونه ، فقد وصل كلا الطائرَيْنِ بيُمْنه ، والسابقين بمَنِّه ، والغائبين فى جَوّ السماء الآتيَيْنِ من الصُّيود بأوفى من قطَرات مَوْنه ، وآستقبل المملوكُ منهما وُجوهَ المَسارّ ، وحملَتْ يمينُه الثَّروةَ وحملَتْ على اليَسار ، وتناولتْ يدُه يدَىْ إحسانٍ يَسُرُّ الناظرين والسامعين ، وآستُخْدِمَا للشُّكْرِ خاناه ولحِفْظ مَطْبَخٍ يملأ عُيونَ المُشْبَعين والجائعين ، وقال صنْعُ الله لِصناعتهما : ائتيا بصُيُود السَّماء طَوْعا أو كَرْها (قالَتَا أتَيْنا طائِعين) . قد كتبَتْ باليُمْن فى مَطَاوِى رِيشِها أشباهَ الحُروف ، وقضَى الجُودُ لتلك الأحْرُف أن تَقْرِى ماتقترِى عَوَاصى الطيرِ له بطاقةٍ تَقيِّد السابحَ فى طَلَقه ، ويعودُ مُطْلقُها وقد ألزَمَ نجاحَ الطير طائرَه فى عُنُقه ، فشكر الله إحسانَ مولانا الذى ألحَفَ الأملَ جَناحه ، والقصدَ نَجاحه ، وبِرَّه الذى أحمَدَ فى سوانح الطيرِ وبَوارِحه مَسَاءه وصَبَاحه ، وعلم ما أشارَ مولانا إليه فى أمر فلان وأمْرُه علم الله تعالى فى الخاطِرِ حاضِر ، وما يؤخِّرُ شُغْلَه عن إهمالٍ وعائبُ الإمْهال غادِر ، وما أشار إليه فى أمْر فلان أمير شكَاره وأمير شكر المملوك ، وتقدّمَ بخلاص حقِّه ، وآستنزل بهديَّته قضاءَ الشُّغُل من أُفُقه ، لابَرِح مولانا ممتثَلَ الأوامِر ، هامىَ سُحُب البِرِّ الهَوامِر ، مجدِّدا فى كل وقتٍ نُعْمىَ ، مالئاً بهداياه قلوبَ[1] محبيه وبُيوتَهم شَحْماً ولَحْماً ، إن شاء الله تعالى .

وله جواب فى وُصُول طُيُور العَقْعَق :

لازالتْ متَّصلةً مِنَنُ إرفادِها وإرفاقِها ، نازلةً على حُكْمِها [الأشياءُ] حتّى الطَّيْرُ العاقَّة من آفاقِها ، خافقةً أعلامُ نصرها بالأجنحة مؤمِّنةً لظُنُون القاصدين من

(١) لعل المناسب « بطون » .

إخْفاقِها، تقبيلَ مُطْلِقِ لسانَ الحمدِ علىٰ عوائِدِ إطْلاقِها ، مُجْتَنِي لثمرات الإحسان من غُصُون أقلامِها وغُصُون أوْراقِها .

ويُنْهِى وُرُودَ مشرَّف مولانا العالى علىٰ يَدِ الولد فلانٍ فوقَفَ المملوك عليـه ، وعلم من جميل الآحتفالِ ماأشار إليه ، وأنه موقِّع علىٰ المقْصود من طُيور العقْعق فأوقعها من مَطَارِها ، وآستنزلهـا من أوكار أُفقِها وأُفُق أوكارِها ، وأرسلَها قرِينَ مشرَّفه الكريم ، وقلد عُنُقَ الأمل بعِقْدها النَّظِيم ، ووصلتْ سبعةً كعَدَد أيام الجُمعة الكامله ، والكواكِبِ المـائله ، والسَّـمٰواتِ لاجَرَم أن سُحُبَ يُمْنِها هامله ، حسـنةَ الشَّكْل الموصوف والوَصْـف و إن كان مع عُقُوقه المألُوف ، طائعةً لأوامرِ توقيعه فمـاعَقَّ منها شيءٌ غير تضَعُّف آسمِها المَعْروف ، لابرِحَ إحسانُ مولانا متنوِّعا ، وبِرُّه الجزيلُ متبرِّعا ، وغُصنُ قلمه بأنواع المكارمِ متفرِّعا .

وله جواب بوصول تِمـاتٍ ، و إوزٍّ صِينىٍّ ، وطلبِ إمرةِ عشرة :

حمىٰ اللهُ تلك النِّعمةَ من الغِـيَر ، وأطلَعها عليه بأيْمن الغُرَر ، ولا بَرِح طائرُ مَنِّـه كوصفه أبيضَ الخُبْرِ والخَبَر . هذه المفاوضةُ إلىٰ الجناب الكريم تُهْدِى إليه سـلامًا يَشُوق الصَّـباح ، وثناءً خفَّاقَ الجَناح ، وتُوضِّح لعلمه الكريم وُرُودَ مكاتبتـه الكريمة جميلةَ الفَوائد ، جليلةَ المَصَايد ، تمِيَّةَ البُدُور المتناوَلةِ من مَنَال الفَراقِد ، فوقفْنا بالأشواق عليها ، وعطَفْنا علىٰ العادة بتأكيد الوَلَاءِ إليها ، ووصلتْ تلك التِّمَّاتُ واضحةَ الأنوار ، لائحةً كبياض النُّوَّار ، تامَّة تمـامَ مِيقاتِ موسىٰ عليه السلام إلا أنَّها لبياضها كأربعين نهار ، وكذلك البَطُّ الصِّينىّ كأيَّام الحجِّ عشرةٌ كامله ، مفترَضا علىٰ عَشَرتها ولاءُ القلوب المتأمِّلة الآمِلَه ، صِـينِيَّةٌ مملوءةٌ بمَحاسن الألوان التى هى بغير مَثَـل مائله ، وحصل الآعتدادُ بِبرِّه ، والآزدياد لحمده وشُكْره ، وفهِمْنا ماذكره من إمرة العَشَرة التى آنحلّت

عن فلان، وقد طالَعْنا بأمرها، وعجّلنا بذكرها، ونرجو أن يعجّل بأمانيها المنتظَره، وأن يقابلَ بخوافق أعلامها خوافقُ بَطّه فتقابلَ عشرةٌ بعَشَره، والله تعالىٰ يعجّل لمَعاليه الصُّعود، ويؤكّد لمَساعيه السُّعُود، إن شاء الله تعالىٰ.

الأجوبة عن وصول الصُّيود ولحومها

جوابٌ عن نائب الشام إلىٰ نائبِ حلَبَ بوصول [لحم] طير صيد قديد وصحبته بِطّيخ أخضرُ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة . وهو بعد الألقاب :

لازالتْ تُقتنَصُ المحامدُ بعَطاياه المكرَّره، وأوابدُ الصيْد برماياه المُقتَرِرة، ورقابُ الإنس والوَحش : إمّا بسهام نِعَمه المتواتِرة، وإمّا بسِهام قِسيِّه المُوتَّره، ولا برحتْ نَفَحات مكارمه، تشهَدُ أنّ المِسْكَ بعضُ دمِ الغزال، وسَرَحات عزائمه، تمتدّ فى صَيْد الوَحْش لقِرىً نزيل أو فى صيد الأعداء لتقرير نِزال؛ تقبيلًا تنعطف أجيادُ الظِّباء لمحاولةِ عُقُوده، وتزدحمُ أفواهُ الأولياء علىٰ مشافهة وُرُوده .

ويُنهِى بعد وَلَاءٍ تقومُ الخواطرُ الكريمةُ فى دَعْواه مقامَ شُهوده، وشوقٍ لا تزال النَّسَماتُ الشَّماليَّة قاضيةً باستمرارِ وُفُوده ـ أنّ مشرَّف مولانا الكريمَ وردَ علىٰ المملوك علىٰ يد فلان وصُحبتَه الإنعامُ المتجدّد، وإن كان قديمًا فى المعنىٰ، واللحمُ القديد، وإن كان أطرىٰ من الروض النَّضير حُسْنا، والسَّمين المحبوب وإن كان كحال عِداه الذين تُقدَّد جسومهم فى الحياة قبل الممات حُزْنا، فقابل المملوكُ المشرَّفَ الكريمَ، بتقبيل أحْرُفه، والإنعامَ العميمَ، بقَبول مُسْعده ومُسْعِفه؛ وعانقَهما بجوانح آماله، وأخذ الكتَابَ والبِرَّ كما يقال بيمينه وشِماله، فيالهَا من ظباءٍ تُعْشَق وإن بليتْ محاسنُها، وغِزْلانٍ تُغازَل وإن بادَتْ عيونُها إلا أنه ما باد حُبٌّ من يعاينُها، وصُيودٍ تُوصَف وإن قصدتْها قصدُ السِّهام بطَعْن، ويُتّقى بقُرونها القتالُ والقسىُّ تالية :

﴿كَمْ أهلكنا من قَبْلِهِم مِنْ قَرْن﴾ . سلكَتْ خيولُ مولانا لقنصها المَصاعِبَ وآتَّخذها الآكلون سَهْلا ، وتَصَيَّدها من الفَلاة وآصطادَها القاعدُون من المِقْلَى ؛ ووصل معه البِطِّيخ الأخضرُ فشبهه بثِمار الجنة المشَبَّهُون ، وقيل : هكذا ترتيبُ مآكلِ الجنةِ لهم فيها فاكهةٌ ولحمُ طيْرٍ مما يَشْتَهُون ؛ لا زالتْ مِنَنُ مولانا مشروحةً مشْرُوعه ، وثمراتُ نِعَمه من الدنيا كثَمرات أهلِ الجنة غيْرَ مقْطوعة ولا ممنُوعه ؛ بمنّه وكَرَمه .

أجوبة هَدَايا الفَوَاكه وما فى معناها

الشيخ جمال الدين بن نباتة :

جوابُ وُصُول مشْمِش لُؤْلُؤِىّ ودَغْمِيشِىّ من حَمَاة .

بَسطَ الله ظِلَّها ونَدَاها ، وأطلع بايُمْنِ نُجومَ هديّتها وهُداها ؛ ولا زالتْ مواهِبُ بحرِها لُؤْلُؤيّه ، وشواهد يُمْنِها كَوْكَبِيّة ، وثمراتُ جُودها فضّيةَ الأعيان ذَهبِيّه ، تقبيلاً حلَتْ مواقعه ، وجلَّت مَطالِعُه .

وينهى بعد ولاءٍ وحمدٍ : هذا قد ثَبَتَتْ فى القلب شريعتُه وهذا قد عذُبَتْ فى السمع مشارعه ، أنَّ مشرِّفة مولانا الكريمةَ وردَتْ علىٰ المملوك لتضمَّن الحُسن والإحْسان ، ويَمينَ البِرِّ الشاملِ لكلّ إنسان ؛ وعَهْدَ المحبّة التى حكتْ فيه بعلمِها القلوب فما تحتاج إلىٰ بيّنةٍ لِسان ، فقابلها المملوكُ مقبِّلا ، وآستجلىٰ وجهَ الوُدّ والإحسان مُقْبِلا ، ووصل المِشْمِشُ الذى شفىٰ لُؤْلُؤيُّه نظرَ الناظرين ، ونوعُه الآخَر الدغميشى الذى هو الشهد بحسنه ولا يُدَغْمَش باسمه علىٰ الحاضرين ، فتناولَ المملوك عوارِفَ بِرِّه المعروفِ والمبتكَر ، وآستضاء نُجومَه المترددّة مُنْشدا قولَ المعرّى : (كَمْ دُرَرْ ، وكم دُرَنَ هذه الأُكَر) ، وقال : شكَرَ اللهُ هذه المِنَنَ الحُلْوةَ الثمرات ، المتَّصلةَ

الخَطَرات ؛ وهذه المَجَانِىَ التى طابَتْ أصولُها وفروعُها فلا أبعَدَهنَّ اللهُ من شَجرات، وحَيًّا حمـاةَ وما جلَبت، وجَنبَاتِ ذٰلك الوادى وما أنجبَتْ ؛ وحدائقَ ذٰلك العاصى الذى أطاع ببركة مولانا فأنبَت أحلىٰ وأحَلَّ ما نبَتْ ؛ وقد جهّز المملوكُ هذه الخدمةَ منْطوِيةً علىٰ وظائف الحمدِ المُستَجاده، ولطائفِ الحُبِّ المستفاده، وحَمْد المِنَنِ التى لاتزال من مولانا عادَة ومن المحبِّين شَهادَه . لابرِحتْ يدُ مولانا الكريمةُ إن بُسطت فبِعوائد إنْعامها ، وإن قُبِضتْ فعلىٰ سُيوفِها لمَصَالحِ الدُّول وأقلامِها ، وإن زهَتْ(١) فروعُ المكارم ،تساقطتْ ثمراتُ بِرِّها من زَهَرات أكمامِها .

جواب بوصول مِشْمِش وبِطِّيخ حلَبِىّ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة .

ويُنْهِى بعد ولاءٍ وثناءٍ : لهذا فى الأسماع أزهىٰ وأزهَرُ ثمَره، ولهـذا فى القلوب أرسىٰ وأرسَخُ شَجره ـ وُرودَ المشرَّف الكريم علىٰ يدِ فلان بمـا ملأ السَّـمْعَ من أخبار مولانا المرتقَبة سُرورا ، والعينَ من آثارِ يَدِه الكريمة نُورا ؛ والفمَ من هَدَايَا المشمش الحَمَوِىِّ كُئُوس لَذَّة كان مِزاجُها كافُورا ؛ فقبَّـل المملوكُ أسـطُرَه مستحلِياً مَواقِعَ رَشَـفَاته، وقابله بعَوائد المحامد مستَجْلِيًا عوائدَ آفتقاداتِه وصِلَاته، ومدّ يَدَه وفِكْرَه فالتقط النُّجومَ المُشْرِقةَ من هَدَاياه وكلِماته، وتقلّد جواهِرَ المَبرَّات الحسنة المُحسَّنه، والثمراتِ التى جاءت بدُرِّيَّةِ القُدُوم وإن كانتْ نُجوميّةَ الهيئاتِ المكوَّنه ،وآستصْوب نتائجَ الغيث فقـال : لعَلَّ هـذه بنادقُ قَوْسِ السماء المُلوَّنة، وصفَا وطاب ظاهرُها وقَلْبُهـا وكذا تكونُ صِفاتُ ذَوِى القلوبِ المُؤْمنه، والمُؤْمنُ حَلوِىٌّ لاجرَم ، والحَمَوِىُّ علىٰ عَجَمِه الخُراسانِىِّ أولىٰ بفَصَاحة الفَخَار والكَرَم ؛ لا زالتْ فَعَلاتٌ مِنَــ مولانا مستَجادَه، ونِعَمُه لاسيَّما المِشْمِشيَّة مستَزاده ؛ وآفتِقاداتُه المشهورةُ لدىٰ ممـاليـكه

(١) لعل الصواب وإن هزت ، كما لايخفى .

ومحبيه منه عادةً ومنهم شهادة، وجاءت فاكهةُ البِطّيخ الحلبيّ وقد رضع حلب الغَمام فانجب، واستوى باطنُه وظاهِرُه فى الحُسْن فأعجب من حين أعشب، واستطاب الذوقُ والشمُّ مطعمه وأنفاسه، ووُصِف بالرءوس فضمّه كلُّ متلقٍّ وقبّل راسَه، وقال: نِعمَ الهدِيّةُ السريّه، والفاكهةُ التى طلعتْ حُرز[ها] هلاليّة وثمرتها بدْريه.

جوابٌ عن وصول بِطّيخ حلبِيّ، من إنشائه أيضا، [وهو] بعد الألقاب:

وشكر سجاياه التى علَتْ، وهداياهُ التى تكرّرتْ فحَلَتْ، وافتقاداته التى طاب ظاهِرُها وباطنُها فكأنها من أخلاقه الجميلة نُقِلَتْ، أصدرناها تُهدى إليه سلامًا يتقدّم كهديته نسيمُه العاطِر، وثناءً يُنتِج أطايبَ الثمر مقدّماتُ غيثِه الماطِرْ. وتُوضِّح لعلمه الكريم أنّ مكاتبته الكريمة وردتْ فحسُنتْ بالوُدِّ مشافهتها، وأقرّتْ فى الأسماع فاكهتها ومفاكهتها، ووصل البِطّيخ فلله درُّ حَلَبه ودرُّ جلبِه، لقد حسُنَت فى ملاذِّ المطاعم طريقتُه المرضيّه، ولقد أشبه القناديلَ بتكوينه وفتيلةِ عِرْقِه فلا جرمَ أنّ قناديله عند الشكر مُضيّه، ولقد ملأ خَبَره وخُبْره عينَ البصر وأذُنَ المُصيخ، ولقد خُلِق دواءً للأجسام حتّى صحّ قولُ الحلبيين للأرمَد: دواؤُك البِطّيخ؛ فشكر اللهُ إحسان الجناب العالى، وبِرّه المُتوالِى، وعلى الوالد والولد ومن عِندهما سلامُ المحبّ المتغالى، والله تعالى يحفَظُ عليهم من الفضل ماوَهَب، ويرزُقهم بغير حساب ويرزُق الظنَّ فيهم ماحسِبَ، إن شاء الله تعالى.

وله أيضا جواب بوصول بِطّيخ حلبيّ، وهو بعد الالقاب:

وشكر إحسانَه الذى حلا مَذاقُه، وزكتْ أعراقُه، وحيّا على البُعْد تحيّةً طيّبةً نفحتْ بها أزهارُ الكتاب وأثمرتْ أوراقُه؛ هذه المفاوضة تُهدى إليه سلامًا طيّبًا كهديّته، وثناءً زاكيًا كطَويّته، وتوضِّح لعلمه الكريم ورُودَ مكاتبته الجامعة حَسَن

الأقوال والأفعال، المطلعة بوارد غمامها أطيبَ الثمر فى الحال ؛ فأحيتْ وَلاءً حاشى لوجوده من العَدَم ، وجدَّدت عهد البِشْر ـ وما بالعَهْد من قِدَم ـ ووصل البِطِّيخ الحلبىُّ أصلُه ، الحموى فضلُه ، الدِّمَشْقىُّ ضَمُّه وشَمُّه وأكلُه ، الفلكىُّ ولا سيَّما من الأهلَّة المجتمعة شَكْلُه ؛ فكَرُم مَطْلَعا ، وحَسُنَ من الأفواه مَوْقِعا ؛ وعَمَّ الحاضرين نوالا ، واشتملهم بعَطْف الإحسان اشتمالا ، وأخذ الغلامُ السكّين :

فقطَّع بالبَرْقِ شمسَ الضُّحى ° وناولَ كُلَّ هلالٍ هلالا

لابَلْ أهلَّةً كثَّر تَعْدادَها ، وكرَّر تَرْدادَها ، ورَصَد قُرْبَها ولا نقول كما يقول أصحاب الهيئة أبْعادَها ؛ فشكَر الله إحسانَ الجناب العالى حاضرًا وغائبًا ، وبرَّه الذى يُطْلِع كلَّ وقت من هَدَاياه وكُتُبه أهلَّةً وكواكبا ، ومَرْباه الذى نقل عن ملوكٍ كانتْ منازلُهم للمحامد رَوْضا وكانتْ أيديهم للكرم سحائبا ؛ إن شاء الله تعالى .

وله جوابٌ بوصول قَصَب سُكَّرٍ وأُتْرُجّ وقُلْقاس :

لازالَتْ أوصافُ شِيَمِها ، تُطْرب كما يُطْرِب القَصَب ، وألطافُ كَرَمِها ، ممـا يغذّى الجسـدَ ويُنْعِش الرُّوحَ ويَشْفِى الوَصَب ، وأصنافُ نِعَمِها من الحُلْو إلى الحامض ممـا يُغْدِى الأيدىَ المتناولة فهى على الأعداء تَنْتَصِب ؛ تقبيـلَ محبٍّ حلتْ له المِنَنُ فتناولَها ، ومواقعُ اللَّثْم فعاجَ إليها وعاجَلَها .

ويُنْهِى ورُودَ مشرَّف مولانا الكريم ، على يَدِ فلانٍ يتضمَّن الحُسْن والإحْسان ، والبرَّ المأثُورَ بكلِّ فَمٍ المشكُورَ بكلِّ لسان ، فقابله المملوكُ بمـا يجب من الخِدْمة لمثله ، ولاقاه بعوائدَ تحمَدُ عوائدَ فضـله ، ووصل قرينَه الإنعامُ الذى تنوَّع فُنونا وأفنـانا ، وملأ فَمَ الشراب حانَه سُكَّرا ويدَ المَطْبَخ إحسانا ؛ وذكَّر نباتُه الطرابُلُسىُّ عُهُودَ الديار المصْريه ، وأوقاتَ الأُنْس بخِدْمة مولانا السنِيّه ؛ سَقْيًا لها من أوقاتٍ وعُهُود ، وشُكْرا

لجود مولانا الذى هو فى كلّ وادٍ موجود ؛ ولتدبيره الشمسىّ الذى احيا اللهُ به علىٰ عباده عناصرَ هذا الوُجود، ولا برِحتْ مكارِمُه متنوِّعه، ونِعَم أياديه متفرِّعه : فمنها ماحَلا فرعُه فأصبح لكلّ حُلو أصلا ؛ ومنها ماطاب ريحه وطَعْمُه فكان للؤمن مِثْلا ؛ ومنها مالَذّ طعامُه الشهِىُّ فما هو مما يُهْجَر وإن كان مما يُقْلىٰ .

وله جواب بوصول باكورة خِيَار ومُلُوخِيَّة :

لازالتْ تَشْرَح بمكارمها الصُّـدور، وتفتَح بركاتِ الأعوامِ والشُّهور، وتمنَحُ من لَطائفِ مِنَنِها كلَّ جماعةِ السُّرور، وتلمَح فى هَـدَاياها المستبقة إلىٰ الأولياء خيارَ الأمور؛ تقبيـلَ مُحِبٍّ لاتُغيِّرولاءَه الدُّهور، ماشٍ من طريقِ المُصافاة والمُـوافاة فى نُورٍ علىٰ نُور .

ويُنْهى وُرودَ مشرَّفةِ مولانا علىٰ يدِ فـلانٍ تتضمَّن المَعْهُودَ من وَلَائه وآلائه ، والمشهودَ المشهورَ من إحسانٍ نَدَاه قبْلَ نِدائه؛ فقابلها المملوكُ مقابَلَةَ الشَّيِّق إلىٰ قُرْب الديار ، المُمْضى فى المحبّة قَلبَـه لمولاه قَبْل شَرْط الخيار ، ووصلتْ لطائفُ هديتِـه الخَضِرة النَّضِره ، وطَرائفُ الفضـل الباكرةُ كمَعانى اللفظ المبتكره ، فتنجَّز المملوكُ الفاكهةَ قبـلَ أوانها البَديع ، ورصَـدَ من أفلاك العُلَب فى ذى الحِجّة غُرَّةَ رَبيع ، وتفاءَلَ بالهدِيَّة المجمِّعة الأحباب فى أن يَعُودَ الشَّمْلُ وهو جَميع ، وقد عاد فلانٌ حاملاً من رسائلِ الشوق والشُّكر مايُؤدّيه بينْ أيْدى مولانا الكريمه ، ويجـدِّدُ بذكراه عُهودَ الأُنس القديمه ؛ لابرِحَ مولانا سابقَ الكَرَم ، مُخْضَرّ المَرابع ببِيض النِّعم .

قلت : وكتبت جوابًا لبعض الأصحاب وقد أهدىٰ لى سَمَكا :

أهْدىٰ لَنَا سَمَكًا قَدْ طابَ مَطْعَمُه ✽ أكْرِمْ به سَمَكًا لم يَسْكُنِ البِرَكا !
لاشَكَّ أنَّ له بالبَحْر شاكلةً ✽ والبحرُ عادتُه أنْ يُهْدِىَ السَّمكا!

الضـــرب الثـانى
(من كُتب التهادى الاستهداء)

وآعلم أنّ كلّ ما يُكْتَب مع إهدائه قد يُكْتَب مع آستِهْدائه ، إلا أنّ الغالب مما جَرَتْ به عادةُ الكُتَّاب فى الاِستهداء طلبُ الأشياء المستظْرَفة الخفيفةِ المِنَّـة دُونَ ما يعظُمُ خَطَرُه ، أللهـم إلا أنْ يكونَ الاستهداءُ من الملوك ونحوِهم فيطْلَب فيـه ماجلَّ وعظُم .

والذى جرت عادة الكُتَّاب بالكتابة فى آستهدائِه علىٰ أصناف :

الصنف الأول — آلاتُ الكِتابة : من الأدْوِيَة[1] والمِدَاد والأقلام :

مما تقدّم ذكره فى الإهداء .

أبو الفَرَج الببَّغاء فى آستهداء دواة :

أنفَسُ الذَّخائرِ وأشرفُ الآمال ما كان للفَضْل نَسَبا ، وللصِّناعة والحُظْوة سببا ؛ وبالدُّوِىِّ تجتنىٰ ثمرةُ الصِّناعة ، ويحتلَبُ دَرُّ الكتابة ، وقد أوحشَ الملوكَ الدَّهْرُ مما كنتُ أقتَنِيه من نفائسها ، وضايقَه فى وُجود الرِّضَىٰ علىٰ الحقيقةِ منها ، فإنْ رأىٰ مولانا أن يُمِيطَ ببعض مايستخدِمه من حالِيها أو عاطِلها سِمَةَ عُطْلة المملوك ، ويَسْمَحَ بإهدائها إلىٰ أهلِ تصْرِيفه و يقابِلَ بالنُّجح والتقبُّل رغبتَه ، فعل ، إن شاء الله تعالىٰ .

وله فى آستهداءِ مِدَاد :

التَّنافُسُ — أيدك الله — فى أدوات الكتابة وآلاتِ الصِّناعة بحسَب التَّفاخُر فى ظُهُور النعمة ، والتخيُّرُ لبَيان الإمكان والقُدْرة ، و إلا فسائرُ الدُّوِىِّ سواءٌ فيا تُصْدِره

(١) لعل الصواب من الدوىّ انظر القاموس .

الأقلام عنها ، وتستمدّه بطونُ الكتب منها؛ وأَوْلىٰ آلاتها بأن تتوفّر العنايةُ عليـه، وينصرف التّخيّرُ بالضّرورة إليـه؛ المدادُ الذى هو يَنْبُوعُ الآداب، وعَتَادُ الكُتّاب، ومادّةُ الأفهام، وشِرْب الأقلام؛ بجعلها اللهُ بواجب القضيّة والحُكْم، فى حَيّز وصْفه من الحمد والذّم؛ ومازلتَ لنفائس الأخلاق مَوْطِنا، ولنُجع الإخوان فى المَحْل مَعْدِنا؛ ولا مَعْدِلَ بى عن آستماحة خزائنك عَمَرها اللهُ المُمْكِنَ من جَيّده، فإن رأيت أن تستنقذ دَواتِى من نُحُول العُطْلة، وتُنزّه قلمى عن ظما الغُلّة، وتكشف عنها سِمَةَ النُّقْصان والخَلّة، فعلتَ، إن شاء الله تعالىٰ .

علىّ بن خلف، فى مثله :

أوْلىٰ ما أنبسط فى آستمداده، وتسمح [نفسى] فى آستماحته وآستجدائه، ما كان ناقعًا لغُلّة الأقلام، مقيّـدًا لشَوارد الأفهام، مُحبِّرًا لبرود البيان، حاليًـا فى معارض الحُسْن والإحسان، وكتبتُ هذه الشَّكْوىٰ أطال الله بقاء سيدى :

الصنف الثــانى ـــ الشّراب .

فى آستهداء مشروب .

أبو الفــرج الببغاء :

أنا ـ أيدَ اللهُ سيّدى ـ ومن ساعَنى الدّهر بزيارته من إخوانى وأوليائه، عضّدالله جمعنا ببقائه، وقوف بحيث يقف بنا آختياره : من القَبول والآنبساط، ويرتضيه لنا إيثاره : من الهمّ والسرور، لأنّ الأمر فى ذلك مما يُوليناهُ من المساعدة بالممكن من المشروب إليه، والآعتماد دونَ كلّ أحد فى آجتماع شمل المسرّة لنا به عليه، فإن رأىٰ أن يَكِلَنى إلىٰ أوْلىٰ الظّنّين به وأحقّهما بمأثور فُتُوّته، فعل .

وله فى مثـــله :

ألطَفُ المِنَن موْضعا ، وأجلُّها من الأنفُسِ مَوْقعا ، ماعَمَر أوطان المَسَرّه ، وطَرَد عوارضَ الهَمِّ والفِكرَه ، وجمعَ شَمْل المَودَّة والأُلفـة ، وأدّى إلىٰ اجتناء ثمرة اللّذّة ؛ وبذَخائِرك من المشْرُوب مع هـذه الأوصاف [ما] يسترِقُّ حُرَّ الشكر، ويُحْرِز قصَبَ السَّبْق إلىٰ الثناء وجميـلِ الذِّكْر ؛ فإنْ رأيتَ أن تُجْدِ بالممكن منه مُرُوَتى ، علىٰ قضاءِ حقِّ من أوجبَ المِنَّةَ علىَّ بزيارتى، فعلتَ .

وله فى مثـــله :

مَنْ كان للفضل نَسَبا ، ولفَلَكَ الفُتُوّة قُطْبا ، لم تَفْزَع القلوبُ من الهَمِّ إلّا إليه ، ولم تُعوِّلِ الأنفُسُ فى استِمـاحة المَسَارّ إلّا عليـه ؛ وقد طَرَقنى من إخوانى مَنْ كان الدَّهرُ يُمـاطِلُنى بزيارَته ، ويَنْفَسُ(١) علىَّ بقُرْبه ومُشاهَدته ؛ فصادَفنى من المشْرُوب مُعْسِرا ، ووجدتُ الانْبِساط فى التِمـاسه من غيْرِك علىَّ متعـذّرا ، وإلىٰ تفضّلك تَفْزَع مُرُوءتى فى الإسعافِ منه بمـا يَلُمُّ شعثَ الأُلْفة، ويجمع شَمْل المَسَرّة، ويجعلنا لك فى رِقِّ الاعتدادِ بالمِنّة، ويقضِى عنى بتَفَضُّلك حقُوقَ المودّة .

علىّ بن خلف :

قد انتَظَم لنا ـ أطال الله بقاءَ سيدى ـ مجلسٌ واقِفٌ بينَ النَّشاط والفُتُور، والكآبة والسُّرور : لغُروب نُجوم الخَمْر عن سَمائه ، وعَطَله من حُلِىِّ نُوره ولألائه ؛ وقد عوّلْنا فى إطلاقه إلىٰ إحدىٰ الجهتين عليه ، وجعَلْنا زِمامَه بيدَيْه ؛ فإن رأىٰ أنْ يُرَوِّحَ أفكارَنا بشىءٍ من راحه المُشابهةِ عَبقا وعِتْقا لأخلاقه وأعْراقه ، فعل ، إن شاء الله تعالىٰ .

(١) فى "القاموس" مادة ن ف س « ونفس به كفرح ضن وعليه بخير حسد » .

وله فى مثـله :

أفضلُ ماأهْدىٰ سيدى ماأهْدىٰ السرورَ إلىٰ أحِبَّته، ونظَم شَمْلَ المتحقّقين بخِدْمته؛ وحَسَم عنهـم هواجِسَ الفِكْر، وأعْداهم علىٰ الدَّهْر؛ وقد جَمَعَنا مجلسٌ وهَبْناه للثناء عليـه، وزُفَّتْ عرائسُ الخمر إليه، فإنْ رأىٰ إيثارَنا بمـا يُكمِّل نَشاطَنا، ويَتِمّ آنْبِساطَنا، فلْيَعْقِرْ همُومَنا بشىءٍ من عُقَاره، ويَنْظِمْ [جمعَنا] فى سِلك أياديه ومَبارّه، إن شاء الله تعالىٰ .

النـــوع الرابع
(الشَّـــفاعات والعِنَـــايات)

قال فى "موادّ البيان" : وهذه الكتُب إنما تَصْدُر عن ذَوِى الرُّتَب والأخْطار، والمَنازل والأقْدار، الذينَ يُتوسَّل بجاههم إلىٰ نَيْل المطْلُوب ودَرْك الرغائب .

قال : والملتَمس فيها ممن تُنَفَّذُ إليه أحدُ ثلاثةِ أنواع : إمَّا بَذْل مالِه ولا يبْـذُل مالَهُ إلا ذُو مُروءة يَفْرِض علىٰ نَفْسه حقًّا فيـه لقاصِدِيه؛ وإما بذْل جاهِه وفى بَذْل الجاه إراقةُ ماء الوجه والتعرُّض لموْقِف الرَّدّ؛ وإمَّا آلاسـتِنْزالُ عن سَخِيمةٍ ومَوْجِدة فى النزول عنهما كفُّ حَدّ الغَضَب وغَضُّ طَرْف الحَنَق ، وهما صَعْبان إلَّا علىٰ من فَضَل حِلْمُه، ولَطُف فهْمُه .

ثم قال : والكاتبُ يَحتاجُ إلىٰ التلَطُّف فيهما وإيداعِهما من الخطاب ما يَخْرُج به الشافعُ عن صُورة المثقِّل علىٰ المشفُوع إليه بماكلَّفه إيَّاه ، ويؤدِّى إلىٰ بلوغ غَرَض المشفُوع له ونجاح مَطْلَبه، ثم أتبع ذلك أن قال: وسبيلُ ما كان فى آستِماحة المـال، أن يُبْنَى علىٰ الإبانة عن مَوْقِع الإفضال، وفضيلة النَّوال؛ وآغتنامِ فُرَص الآقتِدار،

فى مَعُونة الأحرار، وما جارى هذا ـ وسبيلُ ما كان منهما فى طلبِ الانتفاع بالجاه أن يُبْنىٰ على هزّ الأريحيّة لاصطناع الصَّنائع، وتحمُّل المَشاقّ فى تقليد المِنَن، وادّخارِ الفعل الحَسَن، واغتنامِ الأجر والشُّكر ـ وسبيل ما كان منهما فى الاستنزال عن السَّخائم أن يُبْنىٰ على الملاطَفَة، والإشارة إلىٰ فضيلة الحِلْم والصَّفح عن الخاطئ، وما فى ذٰلك من حُسْن السُّمْعة فى العاجله، ومتوفّر المَثُوبة فى الآجله، ونحو ذٰلك.

وذكر أنّ أحسن ماقُصِد فى هذا الفنّ مَسْلَك الإيجاز والاختصار، وأن يُسْلَك به مَسْلَكَ الرِّقاع القِصار المجمَله، لاالكُتبِ الطِّوال المفَصَّله، وأنْ يُرْجَع فيما يُودَعه إلىٰ قَدْر الشافع والمشفُوع فيه، والكاتبُ إذا كان مُرتاضا ماهِرا لم يضِلَّ عن تنزيل كلّ شيء [فى] منزلته، وترتيبه فى مرتبته.

قلتُ: ومن أحسن مايطابِقُ هذا النوعَ مارأيتُه فى بعض المصنَّفات: أنَّ عمرو ابنَ مَسْعدةَ وزيرَ المأمون كتب إلىٰ المأمون فى رُقْعة:

أما بعدُ، فإنَّ فلانا سألَنى أنْ أشفَع له إلىٰ أميرِ المؤمنين، فأخبَرْته أنّى لم أبلُغ عند أمير المؤمنين مَبْلَغَ الشَّفاعة ـ فلمّا وصلَتِ الرُّقعة إلىٰ المأمون وَقَّع عليها بخطّه: قد فَهِمْنا تصرِيحَك به وتعْرِيضَك بنَفْسِك، وأجَبْناك إليهما وأتحفْناك بهما.

من كلام المتقدّمين:

الحسن بن سهل:

كتابى إليْكَ كتابُ معتنٍ بمن كَتَب له واثقٍ بمَنْ كَتَبَ إليه، ولن يَضيعَ حامله بين عناية وثِقَة، والسلام.

أبو الحَسَيْن بن سَعْد :

وقد توجَّه إليك فلانٌ بقَصْدٍ فيهِ مستَجْمِع ، وأملٍ فيما قِبَلَك مُنْبَسِط ، وايس بعدَ إصابتك عنده مَوْضعا وعندنا متحمَّلا لليَدِ الحَسَنَة إلا آفتراضُ ذلك منه ومنّاً فى أمره علىٰ يُسْر فى حاجتِه ، وتخفيفٍ من مَئُونتِه ؛ فإنْ رأيتَ أنْ تأتِىَ فى ذلك بما يشبه أمله وظَنَّه ، وتُوجِب عليه الحقَّ به ، ونشكر لك منه مايبقىٰ عندنا ، بأنك بحيثُ تأتى الفضل وتتوخَّى الصِّلَةَ ؛ [فعلت] إن شاء الله تعالىٰ .

آخــر : معْرفتى بأنك لا تتجاوَزُ فى العُقُوبة سبيلَها من مَوَاقع الأدب ، تَحْملنى علىٰ مُسَاءَلتِك ماأنت مُوجِبٌ له والذِّكْرىٰ تنفعُ المؤمنِين ، ولولا ذٰلك لآستغنىٰ صاحبُ كتابى عنه ؛ فإن كان ذَنْبُه صغيرا فالصغيرُ يُخْرجه من حَبْسه ، وإنْ كان كبيرا فالعفو يسَعُه . وكتابى متقاضٍ لك تقديمَ العَفْو علىٰ العُقُوبة ، والحسنةِ علىٰ السيِّئة ، والآستصلاحِ علىٰ القُوّة فى التأديب .

طِفَال بن شَـبَّة :

وأحقُّ من يَعْطِف علىٰ أهلِ البُيوتات ، ويجُودُ لهم بمـا يَبْقىٰ ذكْرُه ، ويَحْسُن به ذُخْرُه ، مثْلُك ؛ وقد وجَّهت إليكَ فلانا ، وهو من ذَوى قَراباتى ، وذَوِى الهيئة من أُسْرتى ، وعَرَّضْته لمعْروفك ، وأحببْتُ أن تُلْبِسه نعمتَك وتَصْرفَه إلىَّ وقد أودعْتَنى وإيَّاه ماتجِدُه باقيًا علىٰ البِشْر(١) الجميل فى الغَيْب والحَضَر .

ولغـــيره :

وقدجعلكَ اللهُ غِياثًا ، وجعل عِنْدكَ لمؤمِّليك وراجى رِفْدِك ، أبلغَ ذَرِيعةٍ من كرمك وفَضْلك ؛ وقد أصـبحْتَ مفْزَعَ كلِّ ذى هَمٍّ ، ومَلْجأَ كلِّ ذى أرَبٍ ، وموضِعَ كلِّ أمل ، وأصبحتَ ملتقىٰ السُّبُل ، ومجمعَ الأصناف المختلفةِ ، والطوائف المتصرِّفة .

(١) لعله على نشر الجميل الخ .

أبو مسلم محمد بن بحر :

قد شَهَّرتَنى باصطناعك [حتّى] تكافأ فى معرفة خبرها أهلُ بُلْدان المَشْرِق والمَغْرِب . والذين عرفُونى فصديق منهم مُغتبِط بذٰلك لى ، وشريكٌ فى النعمة به علَىَّ ، وقوىُّ الظهر بما مَنَحَنيه الله من رَأْيك ؛ وإذا نابتْ بعضَهم نائبةٌ يرجُوك لكَشْفها ولم يَكُنْ له إليك طريقٌ يُدْنيه ولا حرمةٌ تقربه وتَعطِفك عليه ، سألنى الشفاعَةَ له إليك ، ففعلْتُ ذٰلك مُدِلًّا بما أعتقده من الشُّكْر على نعمتك عِندى ، والإخلاص فى طاعتِك المفروضةِ علىّ ، واثقًا بتَسْويغك إيّاىَ مارُقِّيتُ إليه من درجة الشافع لغيره ، والسائل (؟) فى طريقه وذَوِى الحقّ عليه : لتكونَ قد أكْمَلْتَ علىّ النِّعمةَ ، ووكّدت لدَىّ العارفة ، واستممْتَ عندى الصَّنيعة .

أبو الخطّاب بن الصابى :

أَبْسطُ الشفاعة وَجْها ، وأقربُها نُجْحا ، وأوقَعُها فى القلوب ، وأسرَعُها إلى القَبُول ، ماوقَعَ من أقسام ثلاثة : من إدلال السائلِ بحُسْن الظنّ ، وارتياح المسئُول إلى فعل الخَير ، واستحقاقِ المسئول فيه لقَضاء الحقّ ؛ فإذا اجتمع لها ذٰلك كانت الثِّقةُ بها زائده ، والفُتُوّة لها رائده ، والفضلُ عليها قائما ، والنُّجْح بها قادِما ؛ وكان الشُّكْر من أقلّ موجُوداتها ، والمِنّةُ من أجلّ مَذْخُوراتها .

وله : إنْ دَلَّ المملوكُ فبصِدْق المودّة ، أو عَوَّل فعلى حُسْن النيّة ، أو استظهر فبقديم الحُرْمة ، أو استنصَر فبكريم الرِّعاية ، ووراءَ ذٰلك هِمّةٌ من مولانا بعيدةُ المَرامى ، طويلةُ المساعى ، شامخةُ الأنْف ، سابقةُ الطَّرْف ، تُوجِد الآمالَ سِراحا ، وتُوسِعُها نَجاحا ، وتأخُذُها خِماصا ، وتردُّها بِطانا ، وتُورِدُها هِزالا وتُصْدِرها سِمانا[1] ؛ وثقةٌ منّى

(١) لم يرد هذا الجمع فى كتب اللغة التى بأيدينا والقياس على بطان وسمان لا يأباه .

قد أحكم عَقْدَها الزَّمان، وأوثق شَدَّها الآمتحان، فصارتْ لأغراض المملوك رائده، وفى قُوّة نَفْســه زائده، فالمملوكُ من آجتماع هذه الأقْسام، ووُجُوب ماتقتضيه من الأحكام، بين ظَنٍّ جميلٍ لامجالَ للشكِّ عليه، ويقينٍ صحيح لاوُصولَ للآرتياب إليه .

آخــر : ولئن كانَ المملوكُ أسْرف فى مَجارى التثقيل علىٰ مولانا ، فإنَّ المملوك لم يردّ بعضا من دواعى الأمل فيه، فإنَّ المظنونَ من فُتُوّة مولانا رائدُ الثِّقة بجميلِ نيّته، ولن يعدَمَ النجاحَ من آعتمدَ علىٰ الفُتوّة والثّقة .

آخــر : ويُنْهِى أنَّ المملوكَ إن أدَلَّ، فبحقٍّ لدىٰ مولانا أكّده، أو آسترْسَل، فبفضْلٍ منه عَوَّده، وبين الدالَّة من المملوك والعادة من مولانا موضعٌ لنَجَاح الحاجة، وبلوغ الإفادة، وقد فعــل المملوكُ ماتعلَّق به واثقًا بالكرم من مولانا؛ فليَفْعَل مولانا مايتعلَّق به محقِّقا للأمَل فيه .

آخــر : وينهِى أنَّ المملوك إن آنبَســط، فمُدِلٌّ بالحرمة الوكيدة، ومعَوِّل علىٰ النية الكريمة، أو آنقبض، فلهَيْبة الإقدام علىٰ مولانا ومُراعاةِ التخفيف عنه، ولفضله فيما بين ذٰلك مَسْلَك وغلبة تسلُّط يَدْعُوان إلىٰ حُسْن الظن بمولانا، ويُوثِّقان من وُجُود النجاح لدَيْه .

آخــر : بذْلُ الجاه فى إعانةِ الضعيف ، وإغاثة الملْهُوف ، والترويح عن المضْغُوط، والتفريج عن المكروب المكْدود، كبَذْل المال فى إسعاف المُعْسر، وإسعاد المُقْتر، ومُواساةِ المحروم، والتعطُّف علىٰ المَرْحوم، وما فى الحالتين إلّا ماالدِّيانةُ له ضامِنه، والمُروءة له قائِمة، والحقُّ به مستَوْجَب، والأجْرُ به مكتَسَب، والصنيعةُ به معتَقَده، والمَثُوبة به مُدَّخَره .

آخــر: وينهى أنّ حُرمة الجوار من أوْجب الحُرُمات حقا، وأحكمها عقدا، وأخَصّها بالعنايه، وأحَقّها بالرِّعايه، وما رعَاها إلا ذُو قَـدْرٍ عظيم، وخُلُقٍ كريم، وأصلٍ عريق، وعَهْدٍ وثيق. وفلان ممن يَضْرِب بدالّتها، ويَمُتّ بوسيلتِها، ويتخفّر بذمّتها، ويتعلّق بعِصْمتِها، ويعتدّها وَزَرا مانعا، وذُخرا نافعا، وعُدّةً موجودةً عند الحاجة، وله أمْرٌ يذكره مشافَهَة، فإن رأىٰ مولانا أن يحقّق من ظَنّه ما كان جميلا، ويصـدّق من أمله ما كان فَضْلُ مولانا إليـه سَبِيلا، فهو المعهود من إحسانه، والمؤمَّل من فَضْله.

آخــر: مَنْ سافَر إلىٰ سـيّدى بأمله ورَغْبتـه، ومَتّ إلىٰ حضرته بوِفَادته وهِجْرته، فقد آستغنىٰ عن الشافع، وكُفِى أمْرَ الوسائِل والذّرائع؛ وحاملُ كتابى هذا قد تجشَّم القُدُومَ إليه، وتمسَّك بذِمام(1) الوِفَادة عليه؛ مع ما يتحقّقُ به من حَقّ المشاركة فى الصِّناعة، ويستوجبُه بفضيلة الكِفَاية والأمانة؛ وإنّما أصدر المملوكُ هذه الخدمة علىٰ يده ممهِّدة لأُنْسه، ومقوّيةً لنفسـه؛ وإذا مَثَل بحضرته، ونظَره بعَيْن نَبَاهته؛ فقد غَنِىَ عن الشفاعة وبَلَغ الإرادة.

آخــر: ويُنْهِى أنّ مايَفْرِضه مولانا لمن أمّه بالرجاء، ومَتّ له بإخلاص الحمد والثناء: من إدْرار أخْلاف الإفضال، وتحقيق الرَّغَبات والآمال، يُغْنِى قاصـدِيه عن الشَّفاعات والوسائل، ويكفى آمليه تحمُّلَ الذّرائع والمَسائِل؛ والواصلُ إليه بهذه الرُّقْعـة فلان؛ ومولانا يعْرِف حقّه علىٰ المملوك وماله من المَوَاتّ لديه؛ وقد توجّه إلىٰ حضرته، راجيًا أن يُلْحِفه من ظلّ سـعادته مايتكفّل بمصلحته، ويقضى علىٰ الزمن بإعْدائه ومَعُونته؛ ومولانا أحقُّ من توَلّاه بحسن خلافته فيه، والتفضّل علىٰ المملوك بتحقيق ما يُرجّيه.

(1) الذمام بالذال المعجمة الحق والحرمة.

آخر فى معتقل : عِلْمُ المملوكِ بأنّ مولانا لا يتعدّى فى العِقاب موضِعَ الإصلاح والتأديب ، ولا يتجاوَزُ فى الغَضَب موقِعَ التقويم والتهذيب ، عملًا بالعَدْل ، وتمسُّكا بالفضـل ، يبعَثُـه علىٰ تنبيهه لمـا أغفَله ، وآنقيادِه لمـا أصَّـله ، وفلانٌ قد تطاوَلَ آعتقالُه : فإن كان جُرْمه صغيرًا فقد ظُلِم فى القِصاص ، وإن كان كبيرًا فقد آستحَقَّ الخَلاص ، والمسئُول من إحسانه أنْ يُعاوِدَ جميـل عادتِه ، ويُراجِعَ كريمَ شيمتِـه ، فيَعْمَلَ فى أمره بالعَدْل ، إذا لم يَرَه أهْلا للفضْـل ، وإنْ كانت حقوقُه متأكِّدة ، وحرمته مؤكده ، فلا يحسن أن يُضاعَ ويُخْفَر ، ولا ينبغى أن يُجْحَد ويُنْكَر ، وهو حَرِىٌّ أن يحقِّق الظنَّ فيه ، ويقابِل هذا السُّؤال بمـا يقْتضيه .

آخـــر : علىٰ حَسَب أخطار الودائع يكونُ الإشفاقُ عليها ، والشكرُ ممن صرف رعايتَــه إليها ، وقد كان المملوكُ أودعَ كَنَفَ مُروءته ، وفِناءَ همَّته ، فلان ، وهو دُرَّة المَحاسن الفريده ، ونادرةُ الدَّهْرِ الشريده ، والجامعُ لأسبابِ المَحامدِ بفضائله ومَناقِبه ، والناظمُ لِنثار المآثر بخُلُقه وأدَبه ، مع ماخُصَّ به من المعرفة بقَدْر الصنيعة ، والتعويض بالشُّكرِ عن قليـل العارفة ، والمملوك يرجُو أن يكونَ مولانا قد أحسَنَ خِلافَتَه فيه ، ونَزَّله من حياطتِه وتولِّيه ، بما يُوجبه مكانُه من المملوك ويقتضيه ، متعوِّضا من شكر المملوك وشُكْرِه بمـا هو خليقٌ أن يطوِّق أجيادَ مَعاليه ، وينتظِمَ فى سِلْك مَساعيه .

رقعـــة — وينْهِى أن الأيّام ، إذا قعدَتْ بالكِرام ، فأنزلتْهم بعد السَّعة ضيقا ، أوجَدَتْهم إلىٰ التنقيل علىٰ من يمُتُّون إليه بسالف الخِدْمة طَرِيقا ، وممن تحدّاه الزمن بنَكَده ، وعوَّضه ببُؤسـه من رَغَده ، فلان ، وكان قد فزِع إلىٰ جماعة من الخُلّان ، واثقًا منهم بالآمتنان والإحسان ، فألفىٰ وَعْدا جميـلا ، ومَطْلا طويلا ، فعدَلَ عنهم

إلى سيدى وعزل عنهم إليه، وتوجه إليه معتمدًا بعد الله فى مقصده عليه، ثقةً بفضل غيره (١)، وحسن أثره، وتحمل عبودية المملوك هذه ذريعةً تبسط له من مولانا محياه، وتوصله إلى ما يرجوه من معروفه ونداه . وما أولى مولانا بأن يحقق ظن المملوك وظنه، ويحوز شكره وشكره، إن شاء الله تعالى .

رقعة — وينهى أن رغبة سيدى فى إسداء المعروف، وغوث الملهوف، تبعث على السفر إليه، والتقدم بالرغبات عليه، والله تعالى يواصل المنح لديه، كما وصلها من يديه، وقد سبقت له عوارف لاينساها المملوك، ولا يؤمل جزاءها إلا بمرفوع الدعاء، وكريم الثناء، حتى تقتضى ضرائرها، وتستدعى نظائرها، وحامل عبوديتى هذه، فلان، والمملوك يرضى لمولانا لسان شكره، كما يرضاه لتحمل بره، وقد ركض ظهر الأمل إلى حضرته، ووثق ببلوغ الوطر من جهته، وأن ينظم فى سلك من أسبغت عليه عوارفه، وعمته لطائفه، وعزز ذلك باستصحاب كتاب المملوك إلى بابه، وتقديمه ذريعةً فى التزام حقه وإيجابه .

رقعة — من كان سيدى شافعه انبسط فى المنى، ولم يرض بغير العلا، وقد علم مولانا أن للشفاعة أحوالًا ثلاثا، حالًا تخص الشافع، وحالا تخص المستشفع، وحالا تخص [المشفوع إليه] (٢) ولكل حد يجب الانتهاء إليه، ولا يجوز التقصير فيه، فعلى المستشفع ارتياد أخصب جناب، وأسكب سحاب، وقصد الجهة التى لا تصد عن البغية سائلا، ولا ترد عن الأمل آملا، وأن ينهض بالشكر على العارفه، ويحدث بالنعم عنه فى الأحوال الطارفه، وعلى الشافع أن يهريق ماء وجهه فى السؤال،

(١) غار الرجل يغوره و يغيره نفعه فالمراد بفضل نفعه تأمل .

(٢) فى الأصل الشفيع وهو غير مناسب .

ويجرّد رَغْبته فى تسهيل المَنَال ، ويعتقد أنّ ذلك من الدَّين المقترَض، والدَّين المفترَض ؛ ويتكفَّل بالقيام بما يستدْعى منه من المكافاه ، ويُلتمَس من العوض والمجازاه . وعلى المشفوع إليه أن يعلم أنّ الشافع والمستشفِع ما قصداه إلّا بعد الثقة بأحاديثه ، ولا اعتمداه إلّا بعد السُّكون إلى أرْيَحيّته ؛ وأنه لاينبغى أن يُخْسر مَتْجرهما، ولا يُضيع سَفَرهما ، وقد اجتمعتْ هذه الأحوالُ الثلاثُ للرئيس المشفُوع إليه، ولسيِّدى الشافع، ولخادمه المستشفِع به ؛ ولم يبق إلا عزْمةٌ منه تهزّ أفنانَ الإقبال فتَساقطُ أثمارُها، وتُنْشئُ عوارضَ الآمالِ فيتهافتُ قِطارُها .

أبو الفرج الببغاء :

ومُوصِّل كتابى هذا غَنِىٌّ عن شفاعتى له بما يَمُتُّ من حُرُمات الرَّغْبة إليك، والوقُوف دُونَ كلِّ مَقْصِدٍ عليك، وبما يشْفَع ذلك من التقدُّم فى الصِّناعة، والتوصُّل بوجيه الكفاية؛ وإنما زوّدتُه هذه الأحْرُفَ لأفتح له باب الأَنَسة، وأُسهِّل السُّبُل إلى التعلُّق بالخُلَّة ؛ وأدُلَّ بها على ما تكْشِف منه المُطاولَة والخِبرة ؛ وأنتَ أيدك الله ولِىُّ التطوُّل بالتقدّم فى إيناسه وبَسْطه فى الخِدْمة بما يستَزيد له محمودَ الأثر فيها من حُسْن النظر وجميلِ الرأى .

وله فى مثله :

ومُوصِّل كتابى فيما يؤمّله منك ويبلُغُه بك متمسِّكٌ من رجائك بأوكد ذمّة ، ومن شفاعَتِى بأوجَبِ حُرْمة، ومهما مَتَّ به بعدَ ذلك من ظهورِ كفَاية أو تقدُّم فى صناعة كان غيرَ ضائع عند رِعايَتك ، ولا مجهولٍ مع تيقُّظ عِنايتك ؛ وأرجو أن يَحُلَّ من تقبُّلك، بحيث أحلّه حسْنُ النظر تطوُّلك .

ولـه فى مثـلـه :

وفى عِلْمك ما آخُذ به نفسى ، وأروض به أخلاقِى : من الانقباضِ عن التسرّع إلىٰ مسألةٍ ، والاحتشام من الانبساط فى حاجةٍ ، مادلّك علىٰ موضع فلانٍ ومكانِه من إيثارى بواجباتِ حُقوقه ، وسالفِ موَاتّه ؛ ولذلك سمحْتُ بالكتاب له إليك ، وفارقْتُ رَسْمى بالتثقيل فى قضاء حقّه عليك ؛ وقد قصد نحْوَك بأمله ، واختارك لرجائه ، وقدّر بك بلُوغَ البُغية ، واختصر بشفاعتِى إلىٰ تفضُّلك السبيلَ إلىٰ إدراك المحبّة [(١)] ؛ فإنْ رأيت أن تأتىَ فى بابه مايُشْبِه فضلَكَ ، ويُناسِب وكيدَ ثِقَتِه بك ، وأنى أشْرَكه فى الشكر وأساهِمُه فى الاعتداد ، فعلتَ .

آخـــر :

رأيْتُ المَساكينَ قد أجْمَعُوا * علىٰ أنّكَ الوَزَرُ المعتَمَد !
فأنْتَ لِطفْلِهِـمُ والِـدٌ * وأنْتَ لشَيْخِهِمُ كالوَلَد !

السلامُ العَمِيمُ ورحمةُ الله وبركاتُه علىٰ مَنْ جعله اللهُ للمساكينِ ظِلًّا يقِيهم ، وطَلًّا يَسْقِيهم ، ونِعمةً تعُمُّهم ، ورحمةً تضُمُّهم ؛ أبوفلان ، أبقاه الله فى عِزّةٍ تالدةٍ طارِفه ، وسعادةٍ لاتزال طارقةً بكلّ عارِفه .

مَنْ أقامه اللهُ مُقَامَك أيُّها الشيخُ المبرور بالترفُّق بالفُقَراء ، والإحسانِ إلىٰ الضُّعفاء ، لم يَعْدَمْ مَرِيضا يقْصِدُه فى الشِّفاء ، ولا يَعْدَم قَيْضا يعتَمِده للاكتفاء ، لاسيَّما إذا توسَّل وَحْده ، وتشَفَّع بمن لايَضِيع عملُ عاملٍ عِنْده ، ومتحمِّلُها فلان قَصَّ الفَقْرُ جَناحَه ، وأخنىٰ عليه الدَّهْرُ واجْتاحَه ؛ ولما رأىٰ الفُقَراء ببِرّكم مرتفقين ، وعلىٰ

(١) لعله الطَّلِبــه .

شكركم متَّفقين ، أمّكم حسَنَ الظنّ بالمَنّ ، ولم يُقدِّم شفيعًا دُنيويًا ، ولا طريقًا واضحا سَـويًا ، وأنتم أيها الشيخُ الموقَّر تُنْزِلونه منزلة سِـواه ، ممّن ثوىٰ مَثْواه ، ونَوىٰ فيكم من الأجرِ والشُّكرِ ماَنَواه ، إنْ شاء الله تعالىٰ ، والسلام الكريمُ العميمُ ، يخصُّ جنابكم ورحمةُ الله وبركاتُه :

فاللهُ سُبْحانه يُبْقِيــكَ فى دَعَةٍ ° وحُسْنِ حالٍ وتيْسيرٍ وإقْبالِ !

مُقَــدَّم المجـد فى عِزٍّ وفى كَرَم * مؤمَّل النَّفع من جاهٍ ومن مالِ !

الشفاعات من كلام المتأخرين :

الشيخُ شِهاب الدين محمود الحلبي :

شــفاعةٌ فى آســتخدامِ كاتبِ دَرْج :

جعلَ اللهُ تعالىٰ دُوره رَحْبة العِراص ، وسعادَته فى الازدياد وأعاديَه فى الانْتِقاص ، والدعاءَ لإحسانه مقرُونًا بِصدْق النيَّة والإخلاص :

وهـــذا دعاءٌ لو سَكَتُّ كُفِيتُه * فإنِّى سألْتُ اللهَ فيكَ وقدْ فعَل !

صدرَتْ هذه الخِدْمةُ تستَمْطِر سَحابَ كَرَمه ، وهامِيَ دِيَمِه ، وتسألُ جميلَ شِيَمِه ، فى معْنىٰ مملوكِ المَوْلىٰ وداعِيه ، والشاكرِ لأيَادِيه ، والمُلازِم علىٰ رِوايةِ أخبارِ فضائله وبَثِّها ، ونَشْرِ تفضُّــلاته ونَثِّها ؛ فإنَّه من بيتِ كريم النِّجار ، زائد الفَخار ؛ وله علىٰ مولانا حَقُّ خِدْمة ، وهو يمُتُّ بسالف مَعْرِفة ؛ ومحبةُ المملوكِ له شَدِيده ، والصُّحبةُ بينهما قديمةٌ وشُقَّة المَودّة جَدِيده ، ولولا ذٰلك ماثقَّل علىٰ خِدْمته ، وتهجَّم علىٰ المولىٰ بمكاتَبته ، وقد توجَّه إلىٰ بابه العالى مُهاجِرا ، وناداه لسانُ جُوده فلَبَّاه وأجابه مبادرا ؛ وغرضُه أن يكونَ كاتبًا بين يدَيْه ، ومملوكًا تقع عينُ العِناية عليــه ؛ وهو من الكِرام

الكاتبين، والراغبين فى الانتظام فى سلك خدمه والمؤثرين، وصفاته بالجميل موصوفه، وفصاحته معروفه، وقلمه الذى يقلم ظفر المهمات ويكف كف الحدثان، ولسانه الذى يغنى بشباته عن حد السنان، ورأيه المقدم فى الهيجاء على شجاعة الشجعان، فإذا أنعم المولى باستخدامه، وتحقيق مرامه، كان قد وضع الشىء فى محله، وصنع المعروف مع أهله، وبيض وجه المملوك وشفاعته، وصدق الأمل فى إحسانه ومروءته، ورأيه العالى، إن شاء الله تعالى .

وله شفاعة فى استخدام جندى :

لازال بره مطلوبا، وجوده مخطوبا، وذكر إحسانه فى الملإ الأعلى مكتوبا، ولا برحت رياض جوده أزهر وأنضر من روض الربا، ويده البيضاء ترقم له فى سواد القلوب سطور حمد أحسن من نور تفتحه الصبا . هذه الخدمة صدرت على يد فلان تهدى إلى المولى سلام المملوك وتحيته، ودعاءه الصالح الذى أخلص فيه نيته، وتشفع إليه فى تنزيله فى الحلقة المنصورة واستخدامه، وترتيبه فى سلك جيشه المؤيد وانتظامه، فإنه من الأجناد الجياد، وذوى الجلد على الجلاد، وهو الغشمشم الذى لايرد، والشهم الذى لايصد، والباسل الذى لاتحصر بسالته بوصف ولا تحد، والنقيب الميمون الغرة والنقيبه، الموصوف فى الهيجاء بحزم الكهول وجهل ذوى الشبيبه . والمولى وإن كان بحمد الله غير محتاج إلى مساعد، ولا مفتقر إلى معاضد، فإن أسنته لاتحتجب عن روح محتجب، ونفسه الشريفة تقوم وحدها يوم الكفاح مقام عسكر لجب، وقلبه يغنيه عن الأطلاب والأبطال، وجيوش سطوته لاتكلفه المقام فى منازل النزال، فإن المملوك يعلم أن نفسه الشريفة تهوى تزيد عسكره وجنده، وترعى حرمة قاصده وقصده، فلهذا توسل بشفع وتر الشفاعه، وتوصل إلى إزالة

ضَرَع حاله بكثْرة الضّراعه ، فإذا أنعَم المولىٰ بقبُول شفاعة المملوك فيه ، وحقّق له من العنَاية ما يؤمّله و يرتَجيه ، كان قد شَـدّ للمشار إليه ما أضعَفَتْه العُطْلة من مُنّته ، وقلّد المملوكَ للمولىٰ جميلَ مِنّته .

شفاعة فى ردّ معزول إلىٰ وِلَايته :

يقبّل اليدَ العالية لازالتْ مقبَّله ، ولإسداءِ الخـير إلىٰ أهله مؤهَّله ، و بأياديها علىٰ الكافّة متفضّله .

وينهى ملازمتَه علىٰ شُكْر مَواهِبه ، ونشْرِ فضائله الجسيمة ومَناقِبه ، وحمْده كريمَ شِيَمه ، والاعتذارِ من تثْقيله علىٰ خِدْمة المولى بخِدَمه ، وسؤالِ إنعامه بوجُوه مكاتَبته ولِسانِ قلَمه ، وما ذاكَ إلا لِمَـا يحقّقُه من كريم نِجَاره ، وشدّة تطَلّبه لإسداء العَوارِف و إيثاره ، والموجبُ لهذه الوسيلةِ وسُؤالِ مكارِمه ، واستمطارِ سحائبِ مَراحِمه ، مابلَغه من عَزْل مملوكِ المولىٰ وعبْده ، وواصفِ جميلِ أوصافه بلسانِ شُكْره وحمْده ، فلانٌ ، أفاض اللهُ عليـه إحسانَ المولىٰ و إنعامَه ، وخلَّد لنا وله دَوْلته وأيَّامَه ، فإنه صاحبُ المملوكِ وصـديقُه ، وشريكُه فى الدُّعاء لمولانا و رَفيقُه ، وهو من العُـدُول الأُمَناء ، والثِّقات الأتقِياء ، وهو قليلُ الجِدَة كثيرُ العِيال ، لايجد حيلةً إذا بَطَل بخلاف مايُحكىٰ عن البَطّال ، وقد تشفّع بالمملوك ومكاتبته فى ملاحظةِ المولىٰ له بعيْنِ عِنَايته ، والتقدُّمِ بردِّه إلىٰ جِهـةِ وِلَايته ، فلهذا كتَبَ إليه وأكّد فى معناه السُّؤال ، وعلّق بتحصيـل أمله الآمال ، يعلم ذٰلك موفّقا .

شفاعة فى خلاص مسجون :

فسّح اللهُ فى مُدّته ، وسهّل أداءَ مايجبُ من شُكْرِ نعْمتـه ، وألزم الألسِـنةَ بحمْده والقلوبَ بمحبّته ، وجعله مفرِّجا كلَّ كرب ، ومسهّلا من المقاصد كُلَّ صَعْب .

وبعد، فإنَّ كافَّة الأُمَّة قد تحقَّقت رحمةَ قلبِ المولىٰ ورأفته، وتيقَّنتْ إحسانه ومُرُوءته، وأنه يُؤْثِر إعانةَ كلِّ عانٍ وإغاثةَ كلِّ ملْهوف، وأنه لا يُمْسك إلّا بالإحسانِ ولا يُسَرِّح إلّا بالمعْرُوف، بحيثُ سارتْ بحُسْن سيرته الرّكاب عوضًا عن الرُّكْبان، ودرأتْ مكارمُه(١) عن الأولياءِ نُوَبَ الزَّمان، وعَلَا علىٰ حاتمٍ فلو تشبَّه بكَرَمه لقُلْنا له: (مَرْعًى ولا كالسَّعْدان). وللمملوكِ من إحسانِه أوفرُ نَصيب، وهو يرفُل من جُودِه فى ثوْبٍ قَشِيب، وقد اشتهر مايُعامَلُ به من الإكْرام، وأنَّ قِسْمه من العِنَاية أوفرُ الأقسامِ، وكان يُعدُّ من جملة العَبِيد فأصبحَ مُضافا إلىٰ الأَزْام، وهذا ممـا يُوجب علىٰ المملوك أنْ يبتهِل إلىٰ الله فى تخليد دَوْلته ويتضَرَّع، وعلىٰ حِلْم مولانا أنه إذا شَفَع إليه فى مُذْنِب أن يُشفَّع، وهو يَشْفَع إليه فى مملوكه وعَبْده، والملازمِ علىٰ رفْع راياتِ مجده وتِلَاوة آيات حَمْده، فلان، رزقَه اللهُ رضا الخواطرِ الشريفه، وأسبلَ عليه حُلَّةَ عفوه المنيفة علىٰ الحُلَل بظِلَالها الكثِيفه، فإنه قد طالَتْ مدَّةُ حَبْسه، واعترف بأنه الجانى علىٰ نَفْسه، والمعترفُ بذَنْبه كمن لاذَنْب، والمُغْترِفُ من بحر جُودِه يَرْوىٰ دُونَ أن يَشْرَب، والطالبُ لبِرِّه ينال سُؤْله والمَطْلَب، فإنْ حَسُن فى رأيه العالى زاده اللهُ عَلاء، وضاعَفَ له سَناء، المشىُ علىٰ مَنارِ جُوده ومِنْهاجِه، وبُروزُ أمرِه المُطَاع بإطْلاقه وإخْراجه، اغتنَم أجرَه، وجبر كَسْره، وربح فى هـذا الشهر المبارك دُعاءه الصالحَ وشُكْره، وكان قد أنعم علىٰ المملوك بقَبُول شفاعتِه إليـه، وفعلَ مايُوجِب علىٰ كلِّ مسلم الثناءَ عليه، واللهُ الموفِّق.

شفاعة بسبب خلاصِ حقّ:

يخدُمُ المجلسَ الساميَ لاقِيَ بالتحيات مَخْدُوما، وحبلُ سَعده مَبْروما، ودُرُّ المَدائح لِجيـد جُوده منظُوما، وعدلُه بينَ الأخصام قاضِيًا فـا يَتْرُك ظالمًا ولا مظْلُوما.

(١) فى الاصلين «ودارت مكارمه على الأولياء» ويظهر أنه تصحيف من الناسخ.

ولا زالتِ الآمالُ متعلِّقةً بهمّته ، مَنُوطةً بسعيد عَزْمَته ، راجيةً خَلاصَ كلِّ حقّ ممن هو فى جِهَتِه . وتُوضِّح لعلمه أنّ فلانا أدام الله سعادتَه ، وخلّد سِيادتَه ، ذكر أنّ له دَيْناً فى جهةِ غريمٍ مُماطِلٍ مُدافع ، وخَصْمٍ مُمانِع ، وقد جعل هذه الخدمةَ ذريعةً إلىٰ خَلاص حقّه ، وخالَها إلىٰ الوصُول إلىٰ عِنايةِ المولىٰ أقربَ طُرُقه ، وهو جديرٌ بالتقدُّم بإحضار غَرِيمه ومحاقَقتِه ، وأخْذِ مالِلمملوك فى ذِمَّتِه ، وأن لا يُفْسَح له فى تأخيره ، ولا يُسْمَح بقليلِ الصبْرِ ولا كثيره ، فإنه يعلم أنّ المولىٰ المشارَ إليه واجِبُ الخِدْمه ، وافِرُ الحُرْمه ، وقد تعلّق أملُه فى خَلاص حقّه بالمولىٰ ، ولا يُجاوِبُ عن هذه الخِدْمة بلَوْ ولَوْلا ، بل يبْذُل جُهْدَه ، ويُطلِق فى تحصيل الغَرَض لسانَ الاَجتهاد ويَدَه ، ويعتمد من الاَهتمام مايليق بأمثاله ، ويبيِّض وجْهَ الشافع وسُؤاله ، موفَّقا . شعر :

ولَوْ كانَ [لى] فى حاجَتِى ألْفُ شافِع * لَمَا كانَ فِيهِمْ مِثْلُ جُودِكَ شافِعُ

شفاعة فيمن ٱسمه سراجُ الدِّين إلىٰ من ٱسمه جمالُ الدين :

الشيخ جمال الدين بن نباتة :

وينهى بعدَ ولاءٍ يَحْكُم علىٰ القُلوب شافِعُ جَمالِه ، وثناءٍ يَجُرُّ علىٰ أكمامِ الزَّهْرِ فضْلَ أذْياله : أنّ العلومَ الكريمةَ مُحِيطةٌ بإيجابِ حقّ منْ هاجَرَ إلىٰ بابها ، وشكَا غُلّةَ الفاقة إلىٰ مَنْهَلِ مُنْهَلِّ سحابها ، وأنّ المـاثِلَ بهذه الخدمة ، فلان ، ذكر ٱحتياجَه إلىٰ عاطفةٍ من عَواطفِ مولانا التى شَمِلَتْ ، وعارفةٍ من عَوارفه التى لو ٱستمدّتْ من غُررها الليالى لما أظلمتْ ولا ظلَمَتْ ، وأنّ بيده وظيفةَ شَهادةِ بيتِ لَحْم بتواقيعَ شريفةٍ نظرَتْ فى حاله ، ونشرَتْ حالَ عيالِه وأطفاله ، وأنّ ثَمَّ من ينازعه فى جِهَته المعتاده ،

ويَقْصِد نَزْعَهُ والنَّزْع عن تلك الشهادةِ المسطَّرةِ أخَفُّ من نَزْع الشَّهاده ، ومولانا أَوْلىٰ مَنْ رَحِم منه ضَعْفا ، وٱشتمل عليه عَطْفا ، وداركَ بكرمه هذا السِّراجَ قبل أن يُطْفىٰ ، ورعىٰ سيرةَ مباشرته الحسنةِ الآثار ، وٱغتنم أَدْعيتَه وأدعيةَ أولاده الذين هم كقِطَع الشِّطْرَنْج صِغارٌ وكِبار ، وكَفَّ يدَ التعرُّض إليه فى أيام عَدْله فإنها أيامٌ لاضَرَرَ فيها ولا ضِرَار ، وعلىٰ الجملة فقد تركَتْه الأيامُ قِطعةَ لحم ، فمباشرةُ بيتِ لحم أَوْلىٰ به ، ورجالُه فِرْجانية وأخواتُها أحقُّ أن يتعلَّق سببُها بأسبابه ، والله تعالىٰ ينير بمنن مولانا أحوالَ المَضْرورين فإنَّها ظَلَام ، وينصُرُهم علىٰ حَرْب الأيَّام بسُيُوفه التى هى أقلام ، ويمتّع بأيامِ عدْله وإحسانِه التى تتنافَس فيها أعمارُ الرعايا فإنهم يَبْتَعُون أيامًا بأعوام .

وله إلىٰ شخص ٱسمه شمس الدين :

ويُنْهِى بعدَ قيامٍ بوظائفِ ثناءٍ يتمَسَّك بنفَحاته [المتواليه] ، وولاءٍ يتمسَّك بحباله المتينةِ وما كلُّ شمسٍ حبالُها واهيـه : أنه يرتادُ الأوقاتَ لخطاب مولانا بالأقلام ، حيثُ حبَس البعـدُ خِطابَ الكلام ، ويتخيرُ حَمَلَةَ رسائل الشَّوْق ، وإنْ أضـعفَ عَطْفُ النَّسيم رسائلَ السَّـلام . ولمـا حضر من مكان كذا ، عارض هذه الخدْمة فلان ، وذكر توجُّهَه إلىٰ حِمىٰ حماةَ المحروسه ، وقصد كتاباً يكون فى وَحْشة الاغتراب أنيســه ، فوافق ذٰلك غرضَ المملوك ، وسَلَك طريقَ مُرادِه ولا يُنْكَر من جهةِ هذا الرجُل الصالحِ السُّلوك ، فأعلمته أنّ المَكارمَ الحمادية لاتحتاجُ غيرالحمد والأجرِ شافعًا إليها ، والمنازلَ الشمسيَّةَ لاتفتقر إلىٰ دليلٍ ينبِّه عليها ، وطالمَـا جمعتْ لقاصدِها الفعلَ والقولَ السخى ، وطالمـا قال يوسـف رحمه الله أخو مولانا أبقاه الله للقاصـد : أنا يُوسفُ وهـذا أخِى ، ولكنِ المملوكُ يذكِّر الخاطرَ الكريمَ بهـذا القادمِ فإنه من

(١) فى الأصل عند وهو تحريف من الناسخ .

أهله ، ويلقاه قبلَ ذلك بالبِشر المنشد * أُضَاحِكُ ضَيْفِى قَبْلَ إنْزَالِ رَحْلِه * فإنّه من أصحاب وليّ لله طالمَا فاضَ وَلِيُّ معروفِه ، وآستفاضتْ نِسبتُه المُرْشِديّة فكان وليًّا مُرْشِدا قامتْ صفتُه مَقام موصوفِه ؛ وإنَّ آثارَ هذه البركات على هـذا القادمِ لائحه ، وإن على يده تجارةَ ذكر وأجروهى فى سُوقِ هِمَم مولانا تجارةٌ رابحه ، والله تعالى يجعل له فى كلّ ثناءٍ وثواب نَصيبا ، ويُديم قلَمَه الكريمَ مَقْصِدَ رِفْد وجاهٍ (فطَوْرًا رِشاءً وطَوْرا قَلِيبا) .

وله : عن نائب الشامِ إلى نائب حماةَ شفاعةً فى شخص آسمه شهاب الدين، وهو بعد الألقاب :

لازالتِ الأقدارُ تُسْعِده، والملائكةُ تُنجِده، ومَواطِنُ النصر تجرِّدُ حدَّ بأسه ومَواطنُ الحِلْم تُغْمِده، والجُناةُ تلوذُ بظلِّه : فأىُّ جانى ذَنْبٍ مايعفو عنه ، وأىُّ جانى بِرٍّ مايَرِقُّ عليه ويَرْفِده، تقبيلًا يترادَفُ مَدَدُه، ولا تنتهى فى القُرْب والبُعْد مُدَده .

وينهى بعـد ولاءٍ وثناء : هـذا لايَبْلَى جَدِيدُه وهـذا لا تخفَى جدده ؛ وشوق وآرتياح كلاهمـا يُرْوىَ عن آبن شِهاب توقُّدُه ، ويحمل على يد شِهاب سَنَدُه : أنّ العلوم الكريمة محيطةٌ بمقدار الحِلْم وفضـله ، والعفو ومحلّه ، والتجاوُزِ عن هَفَوات المخطئين من القوم ،وطلبِ العفْو من الله غدًا بالعفْو عن عباده اليَوْم ،قال الله تعالى : ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ ﴾ . ولـمّـا سَمِع الصدّيقُ رضى الله عنه هـذه الآيةَ ، قال : (بلى والله إنى لَأُحبُّ أن يَغْفِرَ اللهُ لى) ثم عَفَا عمن نزلَتْ بسببه ، ومملوكُ مولانا أعزّ الله أنصاره فلان ، قد آعترف بهَفْوة بدَتْ منـه، وزَلّة نُقِلتْ عنه، ما يسَعُها إلّا عفْوُ مولانا ومَرَاحِمُه ؛ وقَدِم على المملوك فكأنّه ماخرج عن ظلِّ مولانا ولا فارقتْـه معالمُه، وسأل سُؤالَ مولانا أن يَشْمَله بالعفْو، ويتجاوَزَ له

عن السَّهْو ؛ ويَرْحَمَ كِبَرَ سِنّه وكبيرةَ جَهْله ؛ ويرعىٰ قِدَمَ هجرته لخدْمة هـذا الباب الذى نشأ عُمُرًا طويلًا فى ظِلِّه ، أهْلًا لأن تشمَلَه عواطِفُ أهله ؛ وهو ـ كما عرف المملوكُ واطَّلع عليـه حيثُ كان فى نيابة حمـاة ـ مشكورُ السِّيرة بالاعتبار ، ناهضُ الخدمة بالاختبار ؛ ملازمٌ لثرىٰ الباب بعزْمٍ ماعليـه غُبَار ؛ وله علىٰ المملوك بالأمس حَقُّ خِدْمـة وباليوم حقُّ سؤال يشفَعُ بهما فى القلوب وهى كِبَار ؛ والمسئُول من صَدَقات مولانا تجاوُزُه عن هَفْوته ، وردُّه إلىٰ أَمْنـه ووظيفته ؛ وإجراؤُه علىٰ عادة إقطاعه ، وحاشاه فى أيّام مولانا أن يُقْطَع ، بل حاشىٰ المذكورَ أن لايستخيرَ وأن لايُقْطَع ؛ واستقرارُه فى مكان خِدْمته ، وإجابةُ سؤالِ المملوك فى كل مايتعلق بنجاح هِجْرته وعَزْمته ؛ لابَرِح مولانا مأمولَ المِنَن الغائبـة والحاضره ، والمقيمةِ والسائره ، مأهُولَ الخواطرِ برَفْع ذكره وقَدْره فى الدنيا والآخره .

الشيخ جمال الدين بن نباتة :

لا زالتِ المحامدُ بذِكْرها مُتَوَّجه ، ومقدّماتُ الفضـل والفضائلِ من تِلقاء شِيَمها مُنْتِجَه ؛ ومَطالِعُ الكرمِ والإكرامِ هاديةً إلىٰ حَرَمها من اتَّجه ؛ تقبيلَ مواظِبٍ علىٰ الدعاء يرفعُـه ، والولاء يجْمعُـه ؛ والثناء يقول بَضَاعُ أرجه لا ممـا نُضَيِّعه بل ممـا نُضَوِّعه ؛ [وينهى] أن عارِضَ هذه الخِدْمةِ علىٰ عارِضِ كَرَم مولانا المُمْطِر ، وبابِه الذى هو لكَبِد الحاسد وفَمِ الوارِدِ مُفَطِّر ، فلان ؛ لقضاء تعلُّقاتٍ له أوْلُها التعلُّق بحبل رجائه المُحْصَد ، واتّقائه المُرْصَد ، والتجمُّل بقصد بابِ مولانا الذى هو المُهِمُّ المقدم علىٰ كل مَقْصَد ؛ وهو من الفضلاء الذين يعرِفُهم انتقادُ مولانا معرفةَ الخبير ، وله اتصالٌ بالأكابر الذين سُلِّمَ منهم زِمامَ المفاخرِ كُلُّ كبير ؛ وقصَدَ من المملوكِ هذه الخدمةَ لمولانا تُؤنِسُ اغترابه ، وتنشد المَقرّ الذى ماقَرَع سِنَّ الندامة مَنْ قَرع بابَه :

يا غَرِيبَ الصِّفاتِ حَقٌّ لمن كا * نَ غَريباً أنْ يَرْحَمَ الغُرَباء!

والمملوكُ يسأل من إحسانِ مولانا مُلاحظةَ المذكور بعيْنِ عِنايَتِه التى ما أغفتْ عن القاصدين ولا غفَلتْ ، وعواطِفه التى طالمَا فتحتْ أبوابَها فأثنَتْ عليها الركائبُ التى قفَلتْ ؛ والله تعالىٰ يُديم تقليدَ الأعناقِ بكَلِمه وبِرِّه ، ويمتِّع الممالكَ الساحليَّةَ بمـا قذَفَ لها من دُرَرِ بحْرِه .

النـوع الخامس

(التشـوّق)

قال فى "موادّ البيان" : وينبغى للكاتب أن يجمَع لها فِكرَه، ويُظهِر فيها صناعتَه، ويأخُذَ فى نظمها مَأْخَذا من اللَّطافة والرِّقَّة يدُلّ علىٰ تمازُج الأرواح ، وأتِلاف القلوب ، وما يَجرِى هـذا المجْرَىٰ؛ وأن يستخدمَ لهـا أعذَبَ لفظٍ وألطفَ معنًى ؛ ويذْهبَ فيها مَذهب الإيجاز والاختصار ، ويعدِلَ عن سُبُل الإطناب والإكثار ؛ لئلا يستغرق جزءا كبيرا من الكتاب فيُمِلَّ ويُضْجِر، وينتظِم فى سِلْك الملَق والتكلُّف اللذيْنِ لايعتادُهما المتُصافُون من الأصدقاء .

وهذه نسخٌ من ذلك :

أبو الفـرج الببغاء :

شوْقُ المملوك إلىٰ مَوْلانا بحسب مكانه من تفضُّله ، وحظِّه من جميلِ نظَره ، وٱختِصاصِه بإنعامه ، وٱغتباطه بشَرَف خدْمتِه ، ومكانِه من إيثاره ؛ والله يجمعُ للمملوك شَمْلَ السعادةِ بمُشاهدة حضْرته ، ويسانه(1) من الدَّهْرِ بالنظر إلىٰ غُرَّته ، علىٰ الحال السارّة فيه وبه .

(١) كذا فى الأصلين بإهمال النقط والمراد أنه يمتعه بالنظر الخ تأمل .

وله : شَوْق المملوك إليه شوقُ الظَّمآن إلىٰ القَطْر، والسَّارى إلىٰ غُرَّة الفجر .

وله : شوْقى إليـه شوْقُ مَنْ لم يَجِدْ مع بُعْده عِوضًا منه، فتقودُه الزيادةُ إلىٰ الآنصراف بالرَّغبة عنه .

وله : شوْقى إليه شوْقُ من فَقَد بالكُرْه سكَنه، وفارقَ بالضَّرورة وطَنَه .

وله : لو كان ما يُصْدِره من خِطاب ، ويُناجيـه به من متَضمَّن كتاب؛ بقـدر ما أُعانيه من ألَم الشوق إلىٰ غُرَّته، ومَضَض الفائتِ من مشاهَـدَتِه، لمَـا أحاطتْ بذكْره بَسْطةُ لسان، ولا نابَ فى إثباتِه آستخدامُ بَنَان .

وله : أمَّا الدهرُ فمـا يَستحِقُّ من إبعاد المملوك عنـه عَتْبا ، ولا يُعدّ ماجَنَاه من ذلك ذَنْبا؛ إذ كان إنمـا نَقَلَ من حِشْمة المخاطَبه، إلىٰ آنْبِساط المُكاتَبه .

وله : وقَدْره — أبقاه الله تعالىٰ — يرتَفِـع عن ذكر الشَّوْق إليه ، فالمملوكُ يعبِّر عنه بذكر الشوق إلىٰ مافارقه من تفَضُّله؛ وبعُدَ عنه من أوطان تَطَوُّله .

وله : ولولا أنَّ المملوكَ يُخمِد نارَ الآشتياق ، ويبَرِّد أُوَار الفِراق ، بالتخَيُّل المُمثِّل لمَنْ نأتْ مَحلَّته، والتفكُّر المصوِّر لمن بَعُدتْ شُقَّته ، لأُلْهِبَتْ أنفاسُـه ، وأُسْعرت حَوَاسُّه، وهمَت دمُوعُه، وأنقَضَتْ ضُلوعُه؛ والله المحمودُ علىٰ ماوفَّق له من تمازُج الأرواح ، عند تبايُن الأشْباح .

وله : ولا بُدَّ أن يُكَفَّ بالمكاتبات، من غَرْب الآشتِياق، ويستعين بأُنْس المُراسَلات، علىٰ وَحْشة الفِراق؛ فإنها ألْسُنٌ ناطقه، وعُيونٌ علىٰ البُعْد رامقه .

وله : عِنْـد المملوكِ لمولانا خَيالٌ مُقيم ، لا يبرَح ولا يرَيم ؛ يجْلُو عليـه صُورتَه ، ويُطْلِـع علىٰ عينِ فكْرته طَلْعتَـه ، إن سَهِر المملوكُ سامرَ مُعينًا علىٰ السُّهاد، أو رقَد

تصوّر معذبا طعمَ الرُّقاد، لا يمطُله بزيارته، ولا يوحشه بغيبته، كأنما تصوّر بصورته في الوفاء، وتخلّق بخُلُقه في المحافظة على الإخاء .

وله : إنْ تزايلَتِ الأشباح، فقد تواصلَتِ الأرْواح، وإن نزحتِ الأشخاصُ وبعُدتْ، فقد دنَت الأنفس وتقاربتْ، فلا تُمِضُّ الفُرْقةُ وتُؤْلِم، وتُنغِّص النَّوىٰ وتكْلِم، وقد ينالُ بتناجي الضّمائر، وتحاوُرِ السَّرائر، مالا تصلُ إليه الإشاره، ولا تدُلُّ عليه العِباره، إذ الأنفُس البسيطةُ أرقُّ مَسْرًى، وأبعَدُ من الألْسنة مَرْمًى .

التشوق من كلام المتأخرين :

نسخة كتاب من ذلك، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة، وهو بعد الصدر:

لازالَ الدَّهْرُ يقضِي خدَمَه، ويُمْضِي رأْيَه وسيْفَه وقلَمَه، ويُرْضِي الدُّولَ الشاكرةَ تقْـديمَه فيها وقدَمَه، ولا برِحت الأقدارُ المُعْرِبةُ تجزِم أمْرَه وتكسِرُ ضِـدّه وترفع علَمَه، تقبيلًا إذا لثَم التُّرْبَ التثمَه، وإذا أودعَ القلْبُ في ذلك التُّرْبِ ختَمَه .

ويُنهِي مواظبَته علىٰ ولاءٍ لا ينْسخ البُعْدُ مُحكَمَه، ودُعاءٍ يقابِلُ النُّجومَ ولا تنْقطِع من القَبُول إدْراراتُه المنجَّمَه .

ويُنهِي أنه سطّرها عن شوقٍ يعزُّ عليه أن ينُوبَ فيه سَعْيُ القلم، عن سَعْيِ القَدَم، وارْتياحٍ إلىٰ القُرْب الذي بأنسه يؤْنِسُه أنوارا علىٰ أعْلىٰ علَم؛ وتطلُّعٍ لمعاودةِ الأخبار أوْفىٰ من تطلُّع العامريّ إلىٰ مُعاودةِ أيَّامِ ذي سلَم؛ وتعَلُّلٍ بقول القائل :

بعثْتُ لكُمْ سَوادًا في بيَاضٍ ¤ لأنظُركُم بشَيْءٍ مِثْلِ عَيْني!

وهيهاتَ! أينَ نظراتُ الحُروف المرْقُومة من نَظَرات العيُون الرامِقه، وأينَ منالُ السُّلُوّ من شَجْوٍ يقول : * أُعيذُها نَظَرات منْك صادقه *

ما يَحْسُبُ المملوكُ من النظر إلّا ما يَمْلأُ العينَ من ذٰلك الوجهِ الكريم ، ولا يَلْبَس من خِلَع الأيّام إلا ماتَخيط الأهْدابُ علىٰ شَبَا ذٰلك القُرْب الرَّقيم ، وعلىٰ ذٰلك فقد جَهَّزها المملوكُ علىٰ يَد فلان ، وحَمَّله من رسائل الشَّوْق مايَرْجُو أنْ يَنْهض فيه بأعباءِ الرِّساله ، ويَسْأَلُ الإصْغَاء والمُلاحظةَ فيما تَوجَّه فيه وإنْ أدتِ الأمَالِى إلىٰ المَلَاله ، واللهُ تعالىٰ المسئُول أن يبلِّغ فى آمتدادها مولاَنا الأُمْنِيَّه ، ويمتِّع الدُّوَلَ منه بهذه البقِيَّة النقيَّه ، إن شاء الله تعالىٰ .

نسخة كتاب فى المعنىٰ عن نائب الشام ، إلىٰ القاضى عَلَاء الدين بن فضل الله ؛ كاتبِ السِّرّ بالأبواب السلطانية ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة أيضا ؛ وهو بعد الألْقاب .

لازال قَلَمُها مِفْتاحَ الرِّزْق لطالِبه ، والجاه لكاسِبه ، والظَّفَرِ لمستَنِيب كُتُبِها عن كتائبه ، والنُّجْح لرائِد مُطالبةِ الدَّهْر بعد المَطَالِ به ، ولا بَرِح البَأْس والكَرَم يتحدَّثانِ عن بَحْرِها ولا حَرجَ عن عَجائِبه ؛ تقبيلاً تغبِطُه فى مَرابِعها ، ثُغُورُ الأزاهِر ، لابل تحسُدُه فى مَطالِعها ، ثُغُور الزَّواهِر .

وينهى بعدَ دعاء أحسنَتْ فيه الألسنةُ وأخلصَتِ الضَّمائِر ، ووَلاء وثناء لهما مَصَاعدُ النَّجْمينِ إلّا أنَّ هٰذا فى القلوب واقعٌ وهٰذا فى الآفاقِ طائِر – أنه جهَّزَ هٰذه الخِدْمَةَ مُعْرِبةً عن شوقٍ يتجدَّد ، وآرتياحٍ لايتعدّىٰ ولا يتعدَّد ، ساعيةً عنه بخطوات الأقلام ، أنْ منَع الوقتُ خَطَواتِ الأقدام ، نائبةً فى تقبيلِ الأنامِلِ التى تُستَسْقَىٰ دِيَمُها علىٰ القُرْب والبُعْد ولا كَيْدَ ولا كَرامةَ للغَمام ؛ وجهَّزها علىٰ يدِ فلان بعدَ أنْ حَمَّله من رسائل الشوقِ ماإنَّ حِمْلنا من إحسانه لَيُنْضِى عقُودَ الأنجم لو تعدّدت ، ومَفاتيحَ أبوابه لتَنُوءُ بالعُصْبة أُولِى القوّة لو تجسَّدتْ ؛ وهو بين يديْه يقدِّمُ نجْواها ، ويستشهِد

بالخاطر الكريم قبل حضور دعواها ، والمسئول إصغاء السمع الكريم إليه ، والملاحظة فيما توجه فيه متكلا على الله وعليه ؛ و إذا عاد مشمولا بعناية مولانا المعهوده، مكفولا برعايته المقصورة على نجح الآمال الممدوده، فلينعم على المملوك من المشرفات الكريمة بما يسكن على جور البعد خواطره الدهشه، ويعينه على الوحشة التى حركها نحوه البعاد فهى الوحشه ، والله تعالى يشكر همم مولانا غائبا وحاضرا ، وشافعا لرسائل خدمه وناظرا؛ ويخص بابه العلوى بسلام كسلام سقيط الطل عن ورق الغصن ناضرا .

آخر من كلامه : كتب به إلى بعض رؤساء مصر .

وينهى أنه سطرها معربة عن شوق مقيم ، وعهد لا يبرح على صراطه المستقيم ؛ وارتياح لجنابه، أو لكتابه، ليتلو لإنصات نجوه : ﴿أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم﴾ . متطلعا لما يرد من أخبار مولانا السارة البارة، مرتقبا لأنبائه ارتقاب الزهيرة الفاغرة إلى ضرع الغمام الداره، ولو أن كل مايتمنى المرء يدركه ، وكل مايقترح على الدهر يملكه، لغنى بقرب المخاطبه، عن بعد المكاتبه، واستجلى كوكب الجمال المشرق وأقصر فى ليالى الانتظار عن المراقبه . وقد جهزها على يد فلان، وحمله من رسائل الشوق أوفى وأوفر من رسائل الصفا، وسأل الإصغاء والملاحظة من مولى بحاره النيل معروف المنافع والوفا؛ ولآمال المملوك بمشرفاته وأوامره جمال حين يريح وحين يسرح ،وحين يقتصر على مقترحات الأيام حين يشرح؛ فينعم مولانا بمواصلتها على هذه المقدمه، ويجعل ذلك من إدرارات صلاته المنجمه؛ والله تعالى لايعدم المملوك فى حال كرمه : إما أن يفيض فى القرب بحره وإما أن يبعث على البعد ديمه.

ولـه إلى كاتب السر :

أعلى الله أمرَ قلمها على الأقلام، وأدام بفيض أناملِه عليه بَسْطَ كلمةِ الإسلام، وراع بكتائب كُتُبه العِدَا إذا انتبهوا، فإذا أغفَوْا «سلّتْ عليهم سيوفَها الأحلام» .

ولا زالتْ تلكَ الأقلامُ العاليةُ فى تلك اليدِ الكريمةِ إن لم تكنْ من المنشئات فإنّها من المُنْشآتِ فى البحر كالأعلام ؛ تقبيلَ مُواظِب على دُعاء يطلُعُ طلوعَ طُرّة الصبح تحتَ ذٰلك الظلام ، وولاءٍ إذا آعتبر الخاطرُ الكريمُ مَسْعاه وخِدْمته : ﴿قال يابُشْراىَ هذا غُلَام﴾ .

وينهى أنه جَهَّز هـذه الخدمةَ مقصورةً على وصْف الأشواق الممْدُودة ، وجَوانح الشَّجْو المعهوده ، وأنفاسِ التذَكُّر التى لولا شَرَفُ مذكُورها لم تكُنْ عنده من الأنفاس المَعْدُوده ، فيالها مقصورةً على شوقٍ مافيها غيرَ طيور الجوانح خَفَّاقةُ الجَناح ، سَبَّاقةُ الآرتياح ، ويالهَا أنفاسَ ذكرٍ أغنتْ منادمتُها عن كَيْس كأس وآقتراح وقتِ رَاح ، ويالها ورقةً فازتْ بمشافهةِ لثْم اليـد الشريفةِ فكَرُمتْ وَصْفا ، وناتْ عن نَخَار الروض عِطْفا ، وآستطابتْ بشِفاه السُّطُور على تلك البَنانِ رَشْفا :

وَسَطَّرتُها والجِسْمُ أنْحَلُ مايُرىٰ ﴿ فياليْتنِى أصبحْتُ فى طَيِّها حَرْفا

واصلةً إلى البابِ الكريم بسلام وصلَ عبقُه قبلَ ماوصلَتْ ، واردةً على يد فلان وقد حملَ من رسائلِ الصَّفاء والوُدّ مثْلَ ماحمَلَتْ ، وحصلَتْ على القُرب ويا أسفى على ماحصَل وحصَلَتْ . والمملوكُ يسألُ الإصغاءَ إليها وإليه بفضل النظر والسَّمْع ، والإنعامَ على المُحِبّ المفارِق بمشرَّفاتٍ تجلُو عليه أيامَ جَمْع ؛ وتُعِينه على أوقاتِ وَحْشةٍ إذا وصفها المشتاقُون وأقلامُهم ولَّوْا وأعيُنُهم تَفِيضُ من الدَّمْع ؛ لابَرِح ذكْرُ مولانا عليّا ، وبِرُّه بمَلْء الآمال مليّا ، ووصفُه بالتُّقىٰ وسحاب الجُود على الحالين وليّا :

يامُنْيــةَ النّفْس ويا مَالِكِى * مُذْ غِبْتَ عَنِّى لم تَــنَمْ مُقْلتِى!
إنْ بِنْتَ عن عَيْنى بِرَغْمِى فقدْ * سَكَنْتَ فى قلْبى وفى مُهْجَتِى!

لا أوحشَ اللهُ من طَلْعتــه ، ولا أخْلىٰ من كريم مساعدَتِه ، وجمعَ شَمْــلَ الأُنس بخِدْمتـــه .

المملوكُ يشكُو من المولىٰ فِراقًا أوجب له علىٰ نَفْســه فَرَقا ، وجيْشَ صُــدُود منحه من العَزائم طوَائفَ وفِرَقا ، وداءَ صَبابةٍ كلَّمـا ترجّى الإفْرَاقَ[1] منه آزداد تلَهُّبا وحَرَقا ، ووجُوبَ قلبٍ تحتَّمَ لغَيْبتــه وجَب ، ودَمْعَ عينٍ يمحو مهْما عَبَّر عنه لسانُ قلمه أو كَتَبْ ، وقد أطال الهَجْرُ تألُّمَه وعَتَبَه ، وأطار سِنَتَه ولُبَّــه ؛ مُذْ وصل المولىٰ غيْرَه وقَطَع عنــه كُتُبه ، والمولىٰ يعلمُ أنَّ المملوكَ لفظٌ والمولىٰ معناه ، وسعْدَه شخص وأنت وجْهــه الميمُونُ ويُمْناه ؛ فيُواتر إرسالَ مكاتَباتِه ، ويُتْحِف بمأثُورِه ولُبَاناته ؛ ويُعطِّر بذكرِه الجميــلِ الأماكِنَ ويُشَنِّــف المَسَامع ، كما شَرَّف بحُلُوله فيها الأضالِــع ؛ واللهُ يُديمه ويُمدّه بالإسْعاف والإسْعاد ، وينصُره علىٰ الأضداد والحُسَّاد :

أُقاسِى منْ بِعَــادِكَ ما أُقاسِى * وقَلْبُــكَ راحِمٌ وعَلَىَّ قاسِى!
وأحْمِلُ مِن نَوَاكَ بضَعْفِ نفْسٍ * عَنَاءً يُعْجِز الشُّمَّ الرَّواسِى!
وتُبْعِــدُنِى وأمْرُكَ إنْ أتانِى * جعلْتُ مَحلَّه عيْنِى ورأسِى!

---

(١) أى البرء مصدر أفرق العليل إفراقا اذا برأ من علته . انظر اللسان ج ١٢ مادة ف رق .

قَرَّب اللهُ أوْبتَه، وعَجّل رُؤيَتَه، وحَرَس نَفْسه من الغِيَر والحادثات، وصان حِجابَه المنيعَ عن الملِمّات المُؤلِمات، وجَمّل الأيامَ بوجُوده، والأنامَ بجُوده. ولا زالتِ الدنيا به مجمَّلة، وأعناقُ أبنائها لِمِنَنه متحمِّله.

صدرتْ هـذه الخدمةُ إلىٰ خِدْمته متضمِّنةً إهداء سلامه، وشاكِيةً لغَيْبته جَوْرَ أيّامه، ومُنْهِيةً شِدّةَ أشواقهِ التى أفْنَتْ بالصَّبابة قَلْبَه، وأذهبتْ حُشاشَتَه ولُبَّه؛ وهى فى ذلك نائبةٌ مَنابَ سائرِ الخدَم، ومعبِّرةٌ عن ألْسِنَة الأقاليم بِلسانِ القلَم؛ فإنَّ الأعيُنَ متطلِّعة إلىٰ رُؤْيتِه، والقُلوبَ متعطِّشة إلىٰ قُفُوله ورَجْعتِه؛ كما تتطلّع إلى السماء عُيونُ النَّرجس، وتتعطَّش الرِّياضُ إلىٰ الوابل الغَدَق بعـد اليوم المُحِرِّ المُشْمِس؛ فالمولىٰ يجعلُ مواصلتَه بأخباره فَرْضًا لازما، ويمتنِـع من إغفاله كما يمتنِـع من لَذّة الطعام إذا كان صائمـا؛ فإنَّ المَوْلىٰ هو صورةُ الجُود ومَعْناه، وبيتَه الكريمَ فِنـاءُ الخير ومَغْناه؛ والناسُ مالم يَرَوْك أشْباه، حرسه الله وتَولّاه، وضاعفَ عُلاه، والسلام.

✣

يا أجْمَلَ النـاس سَناءً وسَـنَا ✻ جفَتْ جُفُونى لجَفاك الوَسَنَا!

ثِمـارَ آلامِ الامَ أجْتـنِى؟ ✻ يا ليْتَنِى أعلَمُ حَظّى ما جَنَـا؟

وأنتُمُ ياأهْــل بانِ لَعْلعٍ ✻ مُذْ بِنْتُم لم أرَ شَيْئًا حَسَـنا!

أقَمْــتُمُ بمُنْحَـنىٰ أضالِعِى ✻ وسِرْتُمُ ياأهلَ وادِى المُنْحَنا!

فى بُعْـدِكم مَنِيّتِى لاتَبْعُـدُوا ✻ وقُرْبُكُم غايَةُ سُؤْلِى والمُنَا!

خلّدَ الله سعادتَه، وبلّغه من العَلْياءِ إرادتَه؛ وأثّل مَجْده، وأدام سعْده، وأعذبَ مَنْهله ووِرْده.

المملوكُ يتشوّقُ إلىٰ لقائِه، ويتشوّفُ إلىٰ أنبائِه، ويصِفُ شديدَ اشواقه وصَبابته، وحنينَه إلىٰ مشاهدةِ المَوْلىٰ ومشافَهتِه، وما يجدُه لذٰلك من ألَمٍ فى جَوارحه الجَريحه، وسَـقَمٍ فى جَوانحِه الصحِيحه؛ ويلتمس مواصلتَه بكُتُبه آناءَ الليلِ وأطرافَ النهار، وأخبارِه السارّةِ ليتضاعفَ له مزيدُ الاستبشار، فإنّ القلب بنار الصَّبابة قَدْ وَقَدْ، وأما صبْرُه علىٰ [بُعْده] فقَدْ فَقَدْ؛ ومتىٰ ورد كتابُ المولىٰ شُفِى الغَليل، وأبَلَّ العَليل، ونجع طعْمُ الحياة ونَجح التأْمِيل؛ فليصَيِّرْ وَتْرَ مكاتَباتِه شَفْعا، ولا يجعَلْ لوصْلِهنّ قَطْعا؛ والله يمنح عيشَه خَفْضا ومكانَه رَفْعا، والسلام .

✦

شعر فى معنىٰ التشوّق :

قد كانَ لى شَرَفٌ يصْفُو برُؤْيتِكم * فكَدَّرَتْه يدُ الأيّامِ حينَ صَفَا

غـيره :

كتَبْتُ [1] للكتَابِ مجَـلَّدُ * علىٰ أنّهُ قَبْـلِى بلُقْياكَ يسْـعَدُ

النـوع السادس

(فى الاسـتزارة)

قال فى "مواد البيـان" : رِقاعُ الاستزارة إنمـا تشتَمِلُ علىٰ وصْفِ حالاتِ [2] الأُنس ومجالِس اللّذّات، ومَشاهد المَسَرّات . قال : ويجبُ علىٰ الكاتب أن يُودِعَها حُلْوَ الألفاظ، ومُؤْنِقَ المَعانِى وبارعَ التشبيهات، ويُبالِـغ فى تشويق المستَزار إلىٰ الحضُور، ويتلطّف فيه أحسنَ تلطُّف .

(١) بياض فى الاصل ولعله "وشوقى للكتاب الخ" .

(٢) لعله مجالات كما لا يخفى .

وهذه نسخ من ذلك :

علي بن خلف :

رُقْعتى ـ أطال اللهُ بقاءَ سيدى ـ ومجلِسى بمَنْ حلَّه من خَدَمه، ونزلَهُ من صَنائع كرمه، فلكٌ مُزَيَّنٌ بأنجمه، فإنْ رأىٰ أن يُطْلِع فيه بَدْرا بطُلُوعه وينقلَ قَدَمه إليهم، ويُكمِّلَ نقْصَهم بتَمامه، ويُضيف ذٰلك إلىٰ تليد إنعامه، فعل؛ إن شاء الله تعالىٰ .

وله فى مثـــله :

قد ٱنتظمَ لنا ـ أطال اللهُ بقاءَ سـيدى ـ مجلِسٌ رقَّتْ حَواشِيه، وتبسَّمتْ راحُه عن حَبَب، كلآلِئَ علىٰ ذَهَب، وقامتْ فيـه سُوقُ السُّرور، لا يُكسِدُها إلا تخلُّفُهُ عن الحضُور؛ فإنْ رأىٰ أن يُكمِّل جذَلَنا بإطْلاع طَلْعتِه علينا، ويصَدِّق ظنَّنا بنقل قدمه إلينا، سَرَّ وأبْهج، وتمَّم من الإحسان ماأخْدجَ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

وله : هذا ـ أطال اللهُ بقاءَ مولانا ـ يومٌ صَـفِيق الظِّلّ، رقيقُ غِلالةِ الطَّلّ؛ قد ترفَّعتْ شمسُـه ببُرج أُنْسه[1]، وٱفترَّ جَذَلا عن مَضاحك بَرْقه، وترنَّم طَرَبا بزَمجرةِ رعده، ووَشَتْ مَدارِجُ نَسِيمه، بأرَجِ شَمِيمه، وقام علىٰ منَابِر السُّرور يخطُب ٱبنةَ الكَرْم لأبناءِ الكِرام، وينادِى بأعلىٰ صَوْته : حَىَّ علىٰ المُـدَام؛ فقد وجَبَ علىٰ كلِّ موفَّقٍ لٱجتناءِ ثِمـار السُّرور، وٱلتحافِ عِطَاف الحُبُور، أنْ يلبِّىَ دعْوتَه، وينتَهِز فُرْصتَـه، ويُعوِّضَه من شمسِه الآفِله، براحٍ لإظهارِ ما ٱختفىٰ من شُـعاعها كافلَه، ويقِفَه علىٰ التَّملِّى بالكاس والنُّدْمان، ويجعلَه سِلْكا ينتَظِمُ فيه الإخْوان . ورُقْعتى هذه صادرةٌ إلىٰ مولاى وقد تهيَّأ لنا مجلِسٌ من مجالس الأُنْس، يَبْسُط تجعُّدَ النفس

(١) لعله "افقه" .

فيه بَغْم وَنَغْم ، ومِزْهر وزَهْر ، وخُلَّان قد تراضَـعُوا لِبانَ العُقَار ، وتَساهموا نَقْلَ[1] الوَقَار ، وتَجُعُوا فى معارِك الخَمَّـار ، وأَدْمَنُوا على المُماساةِ والإِبْتِكار ، إلَّا أنَّ هـذا المجْلس مع تَمـامِه مُخْدَج ، وعلى كَمالِه مختَلَج ؛ لبُعْد مولاى الحالِّ منـه محَلَّ الواسطة من النِّظام ، والأَرْواحِ من الأَجْسام ؛ فإن رأى أن يُكَمِّل منه ماانْتَقص ، ويُميط عنه [ماانَتَقَص] فليَجَمِّلْنا بالمَصير إلينا ، والطُّلُوع علينا ؛ وإعفائِنا من إضْجار الانْتظار ، معتدًّا بذٰلك فى كريم الأيادِى والمَبارّ ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

وله فى مثـــله :

هـذا اليومُ ـ أطال اللهُ بقاءَ سـيدى ـ يومٌ أعْرس فيـه الجَوُّ بالجارِيَة البيضاء تَخدُّرها ، وحَجبها بسَجْف الغَمام وسَتَّرها ، واَختالَ اَختِيالَ المعَرِّس فى مُعَرَّسه ، بمُصَنْدَله ومُمَسَّكه ومُوَرَّسه ، واتَّخـذ من ذَهَب البَوارق نِثَارا ، واَستَنْطَق من زُنَّار الرَّواعد أوتارًا ، ودعا إلى حُضُور وليمته ، والسُّرور بمَسَرَّته ؛ فإنْ رأى أن يلبِّىَ طلب[2] هذا اليومِ الصَّفِيق ، ويتمتَّع بعَيْشه الرافِـغ الرَّفِيق ؛ فليُطْلِـع علينا طَلعتَه التى تَبْهر القمرَ المُزْهِر ، وتَصْدَعُ الليلَ المعتكِر : ليُنْهِض غُرَّة الإصباح ، بغُرَّة الراح ، ويَقْطِف ثِمـارَ الأُنْس والمحاضرة ، ويتملَّى بالسَّماع والمُذاكرة ، ويأخذ بحظٍّ من لَذاذة الفَيْحَة الشبيهة بشمائله ، ويَعُدَّ ذٰلك من مَبارِّه وفواضِله ؛ [فعل] إن شاء الله تعالىٰ .

وله فى الاَستزارة فى بُسْتان :

كتبتُ ـ أطال الله بقاءَ سيِّدى ـ وقد غدوْتُ فى هذا اليومِ [إلىٰ] بُستانِى والطَّيْرُ فى الأَوْكار ، والأنداءُ تَهْبِط كالنِّثار ؛ والليلُ مشتَمِلٌ على الصَّباح ، اَشتِمال الأَدْهَمِ

(١) هو بالفتح وبالضم وبالتحريك ما يتناقل به على الشراب . أنظر اللسان ج ١٤ .

(٢) فى الأصل « أبطل » ولعله من تصحيف الناسخ .

على الأوضاح، عازماً على مشارفته ومشارفة ما استمددتُ من عمارته، لا لخلوة فيه بمعاطاة المُدام، ومؤانسة النِّدام، فحين سرَّحتُ الطَّرف في ميادينه وجداوله، وأقبلتُ على تصفُّح حلاه وحُلله، رأيتُ مناظرهُ تعلق القلوب اعتلاق الأشراك، وتعاق المستوفز عن الحَراك، وتقيم قاعد المزاج والنشاط، وتوقظ هاجد الفرح والانبساط: فمن أشجار كالأوانس، فى ريحانيّ الملابس، حالية من موشّع الزهر والثمر، بأنصع من الياقوت والجوهر، كأنما تحفّلت لاجتلاء عروس، أو معاطاة كئوس، ما بين نخيل قد نشرت عذب السندس على ذُراها، وأطلعت طلْعاً كالخناجر غشيها صداها، ونارنج يحمل أكبر العقيان، أو وجنات القيان، وأترجّ قد استعار ثمرة أشواق العشاق، إذا صالت عليهم يدُ الفراق. ومن ريضان(١) زاهية بنشرها، وقضبُها مختالة فى ملابس زهرها، ونرجسها كعين محبّ حدّق إلى الحبيب، وثنى جيده خوف الرقيب، إذا عبث به النسيم جمع بين كلّ قضيب وإلفه، وسعى بالاعتناق من شوقه وكلفه، وورْدها كمداهن ياقوت فيها نضار، وشقيقها كمدامات عقيق فيها صُوار(٢)، وبنفسجها نخدٌ تمضى فيه من القرص آثار، أو جام لُجين عليه من الندى نثار. ومن أنهار قُدّت حافاتها قدّ الأديم، وحُدّت على صراط مستقيم، بحرة مسجوره، كالسيوف المشهورة أو المهارق المنشوره، إذا خمشها الهوى خلع عليها متون المبارد، أو سلوخ الأساود، يتخرّق ذلك كلّه نسيمٌ رقيق الغلائل، حلو الشمائل، يسعى بالنميم، فى المعاطس والشميم، انصببتُ إلى مجلس فسيح البناء، ضيق الأفناء، موشّى الجدران والسماء، فى صدره شاذروان يرمى بكسر البلّور، وفى وسطه نهر ينساب ماؤه انسياب

(١) الريضان والرياض جمع الروضة .

(٢) الصوار والصوار « أى بالضم والكسر» الرائحة الطيبة والقليل من المسك أنظر ج ٦ ــ ص ١٤٧ من اللسان .

الشَّجاع المَدْنُور ، وتتوسَّطه بِرْكةٌ مُمَنْمَةٌ ينصبُّ الماء إليها بالدَّوالى إلىٰ أربع شاذَرْوانات ، ويَخْرُج عنها من أربع فطيمات ؛ يحتفُّها كلُّ شجرٍ مُثْمِر ، وروضٍ مُزْهِر. فقلت : هـذا المَرادُ الذى يحُطُّ به الرائدُ رَحْلَه ، ويُوفِدُ إليـه أهْـلَه ؛ ويدْعُو إلىٰ اختيار مَنْ يهُبُّ إلىٰ السُّرور ، ويُساعِد علىٰ الحضُـور ، للمشاركة فى التملِّى ببَهْجتِه ، والتمتّع بنَضْرته ؛ فكان مولاى أوّلَ مَنْ جَرىٰ إليه ذِكْرى ، ووقع عليه طَرْفُ فِكْرى : لأنه الساكنُ فى فُؤادِى ، الحالُّ فى محَلِّ رُقَادى ؛ فإنْ رأىٰ أراه الله ما يُقِرُّ العينَ أن يُكَمِّل مسرَّتى بنَقْل قَدَمِه إلىّ ، وإطْلاع سعدِ طَلْعته علىّ : ليتمّ محاسنَ ما وصَفْته ، ويكمل الالتذاذ بمـا شرحْتُه ؛ فعل إن شاء الله تعالىٰ .

أجوبة رقاع الاستزارة

قال فى "مواد البيان" : لايخلو المستزار من الإجابة إلىٰ الحضُور أو التثاقُل عنه ، فإنْ حضَر علىٰ الفَوْر ، فلا جوابَ لمـا نَفَذ إليـه ، وإن وعَد الحضُورَ وتلَوَّم ليقْضِىَ شُغُلا ويحضر ، فينبغى أن يَبْنِى الجوابَ علىٰ سُروره بمـا دُعِى إليه ، وحُسْنِ موْقِعِه منه ، وأنّ تَلوُّمه للعائق الذى قَطَعه عن أن يكون جوابًا عما وردَ عليه ، وأن حضُوره يَشْفَع رُقْعته . وإن أَيِس من الحضور ، وجبَ أن يبنِىَ الجوابُ علىٰ مايمهِّد عُذْرَه ، ويقرِّرُ فى نفس مستزِيره أنه لم يتأخر عن المساعدة علىٰ الأنس إلا لقَواطِعَ صدَّت عنه ، يعْلَمَ المعتذَرُ إليه صحّتَها لينحرس ما بينَهما من المودّة ، فإنّ كثيرا ماتتفاسدُ الخُلّانُ من مثل هذه الأحوال .

النـــــوع السابع

(فى ٱخْتِطاب المَوَدّة وٱفتتاح المكاتبـــة)

قال فى " موادّ البيان " : الرِّقاع الدائرةُ بين الإخْوان فى ٱختطابِ المُعاشَره، وٱنتماء المكاثَره، وطلبِ الخُلْطة والمُؤانَسة، يجب أن يقدَّر الخطابُ فيها علىٰ أن يَصل المرغوبُ فى عِشْرته إلىٰ الٱنخراط فى سلك أحبائه، والٱنحياز إلىٰ أهل وَلائه، ويبعث علىٰ قَصْـده، فى الٱلتحاق بوُدّه، ويُدلّ علىٰ المماحصه، والصَّـفاء والمخالَصه، وما جرىٰ هذا المَجْرىٰ ممـا يتعامل به أخِلّاء الصِّدق، ويجعلونه مَهْرا لمـا يلتَمِسُونه من الممـازَجه، ويرُومُونه من الٱختلاط والمواشَجَه .

قال : وينبغى أن يذهب الكاتبُ فى هذه الرِّقاع مَذْهبا لطيفا، ويُحْسِنَ التوصُّلَ إلىٰ الإفصاح عن أغراضها : ليأخُذَ بمَجامِـع القُلوب، ويُعِين علىٰ نَيْل المطْلُوب .

وهذه نسخ من ذلك :

رقعـــة : ويُنْهِى أنّ المملوكَ لم يزَلْ مُذْ وقع طَرْفُه علىٰ صُورته، ووجَ سَمْعـه بعُدْ شِيمته؛ يُناجِى نَفْسَه بافتتاح مكاتَبته ومراسلَته، وٱخْتِطاب ممازَجته ومواصلَته؛ رغبةً فى الٱعتقاد بإخائه، والٱرتشاف من مَشارع صَفَائه؛ والمقاديرُ تَطْوِى الطَّوِيّةَ علىٰ ما فيهـا، والعوائقُ تمْطُل النيّـةَ بمَجاز ماتَنْويه وتلْوِيها؛ إلىٰ أنْ أذِنَ الله تعـالىٰ بإعْراضِ الأعْراض، وٱنقباض أسـبابِ الٱنقباض؛ فأظهر المملوكُ مافى القُوّه، واثقا من مَوْلانا بحُسْن المُرُوّه؛ وأنه يوجب القَبُول بإجابته، ويُجِيب إلىٰ مساعدته؛ ويرضىٰ المملوكَ أهلا لأصطفائه، ومحلّا لإخائه؛ عالمـًا بإيجابه للحقّ، والمعرفة بالسَّبْق، وأن تُلقىٰ هذه الرغبةُ بالقَبُول، ويَسلّم إليها مفتاحُ المأمول .

رقعـة : لو كانت المودّةُ لا تحصُـل إلّا عن أُلفة تالِدَة ، ومُواصلةٍ سالفة ؛ لم يستَطْرِف المرءُ صفيًا ، ولم يستحْدِث وَلِيًا . وما زال البُعَداءُ يتقارَبُون، والمتناكِرُون يتعارَفُون ؛ ولمَّا نُمِيَ إلىٰ المملوك من أنبـاء مولانا ماتضوَّع عِطْره ، وطاب نَشْرُه، سافرَ بالأمَلِ إليه، وقدِم بالرَّغبة عليه، طالبًا الآنخراطَ فى سلك أوْليائه، والاختلاطَ بخاصَّـته وخُلَصائه، ومثلُ مولانا مَنْ أجاب السُّول ، وصَـدَّق المأمُول ؛ والمملوكُ يرجُو أن تكْشف الأيامُ لمولانا منه عن خُلَّة صادقة ، ومَوَدَّةٍ صحيحة، لاتضِيعُ معها إجابتُه، ولا تَخْسَر صَفْقتُه .

رقعـة : ويُنْهِى أنَّ المملوكَ مازال مُذْ وقع طَرْفهُ علىٰ صُورته البَدْرِيّه ، وأحاط علمًا بخلائقِه المَرْضيَّه، راغبًا فى مُواشجَته، باعثًا نَفْسه علىٰ اختطاب مودّته، وإكبَارُه يُقْعِده ، وإعظامُه يُبْعِده ، فلمَّـا تطاوَلَ يراعُ هِمَّتـه ، شجعتْ علىٰ إنفاذ عَزْمتِـه ؛ فقدّم مكاتَبَته أمامَ مشافهتِه ، فإن حظِيَ بالإجابة وتنويل الطَّلِبة ، فقدْ فاز قِدْحُه ، وتبَلَّج صُبْحُه، ونال مُناه، وبلغ رِضَاه، وصادَفَ هَناه، وَبدا موثُوقا بُودّه، مسكونا إلىٰ عَقْـده وعَهْده ، يحمَدُه عنـد الآخْتِبار ، ويعرِفُ به صحَّةَ رأيه عند الآختيار ؛ والمملوك يرجو أن يصِحَّ ماساله وكفَله ، إن شاء الله تعالىٰ .

رقعـة : ويُنْهِى أنَّ منْ عَمَر اللهُ تعالىٰ بثَنائه المَحَافِل، وعَطَّر بأنبائه الفَضائل ؛ وأقام من مَسَاعيه الكِرامِ خطيبًا يخْطُب بسُودَده وفَضْلِه ، ويُعْرِب عن شرف مَحْتِده وأصْـله ؛ تطلَّعت الآمالُ للآنتظام فى سِلْك أحبَّائه ، وتشوّفت الهِممُ إلىٰ الآمتزاج بخُلَصائه وأوْليائه : لمـا يَضْفُو علىٰ المعتَصِم بعُرىٰ مُصافاته من لِباس جَمـاله ، ويُحلَّىٰ المعتَدِى إلىٰ وَلَائه من حلِيٰ جَلَاله ؛ وأحقُّ مَنْ أسـعَفَه مولانا بالمودّة إذا خَطَبها ،

وأجابه إلى المُصافاةِ إذا طَلَبها ؛ مَنْ بدأه بالرَّغبه ، ومتّ إليه بالمحبَّه ، لا لمُرْغِب ولا مُرْهِب، وآختاره لنفسه على عِلْمٍ بكماله ، ومعرفةٍ بشَرفِ خِلاله .

وما زال المملوكُ مُذْ أطلعه الله على ماخُصَّ به مولانا من المحاسن المتعذِّرة إلَّا لديْه ، والفضائل المَمتنعة إلَّا عليه ، يحومُ على مَشارعِ ممازَجتِه ولا يَرِدُها ، ويَرُومُ مواقعَ مُواشَجتِه ولا يعتمِدُها ، إكبارا لقدره ، وإعظاماً لخطَره ، وخوفاً من تصفُّحه ونَقْده ، وإبقاءً على ماءِ وجْهه من ردِّه ؛ والمملوكُ وإن كان عالماً بأنَّ كرَم مولانا يَرْقَع الخَلَل ، وفضْلَه يُصدِّق الأمَل ؛ فإنه لايَعْدَم مذ رَغِب فى قُرْب مولانا ماعلَّه يجدُه فيه ، ممَّا يُخالِفُ مذْهبه ويُنافيه ؛ إذ كان لا يبْلغُ تَضاهيه فى اتّمام وتَوافيه ، إلى أنْ أذِنَ الله تعالى بأن أبلغ نَفْسه الأُمنِيَّه ، وأظْهر ماطُوِيتْ عليه الطَّوِيَّه ؛ فكتب هذه الرُّقعة وجعلها فيما رامهُ من الآعتلاقِ بحبْل مَودّته سَفِيرا ، وعلى ماآلتمَسه من الآنضمام إلى جُمْلته ظَهِيرا ؛ وقَدِم بها عليه وظَنُّه يترجَّحُ من الإعراض إلى القَبول ، ثقةً بقُرْب نَيْل المأمول ؛ فإن رأى أن يُجيبه إلى ماسأله ، ويُسرَّه بتنويل ماآقترَحه ، فعل ، إن شاء الله تعالى .

اختطاب المودّة ومفاتحة المكاتبة من كلام المتأخرين :

الشيخ جمال الدين بن نُباتة :

وضاعفَ للممالكِ ببقائه الآنتِفاع ، وبآرتقائه الآرتِفاع ؛ وسرَّ بمحاسن نظره وخَبَره العِيانَ والسَّماع .

ولا زال للمحبِّين من وُدِّه عَطْفُ المتلطِّف وللأعداء من بأْسه خَطْفُ الشُّجاع .
أصدرها المملوكُ منْطويةً على ماعَهِد من صِدْق المحبَّه ، ووفاءِ العُهود المستَتِبَّه ، ودُرَر

المحامد التى لا تَسْوَى[1] لديها دُرَرُ العُقود حبَّه ، مُبْـدِيةً لعلمه الكريم أنّ المودّات إذا صفَتْ ، والقلوبَ إذا تجنَّدتْ وتعارفَتْ ، حثَّت المحبِّين فى البِعاد على المفاتَحةِ بكُتُبهم ورسائِلهم ، والمخاطبةِ فى ظِلال الأوراق بألسِنة أقلامهم من لَهَواتِ أناملِهم ، إيثارًا لتجديد الأُنْس و إنْ صَحّ المِيثاق ، وتذكارا لخَواطرِ الوُدّ ، وإن رسَخَتْ منه الأُصُولُ ونَمَتِ الأَعْراق ، ولذلك فاتَح بها مخاطِبا ، وآرتقَبَ لمُنادِيها بالأخبارِ السارّةِ مُجاوِبا ، نائبةً عنه فى مشاهدةِ الوَجْه الكريم ، ومصافَحةِ اليَد فى حديثِ بِرِّها القديم ، تستطلع أخبارَه ، وتستعرِض أوطارَه ، وتُحيِّي بالسلامِ وجهَه وعَهْدَه ودِيارَه ، على يد فلان ، وقد حَمّل من المودّات والمشافَهات مايُعيـده على السَّـمْع الكريم المُنْعِم بإصْـغائه ، المُصْغى بنَعْمائه ، المتحِف بالمهِمّات التى يحصُـل فوزُ القِيام بها ، والمشرِّفات التى كلُّ أسبابِ السُّرور متصلٌ بسببها ، والله تعالى يُبْهِج من تِلْقائه سَمْعا ونظَرا ، ويُبقِي عيشَ حاسده هَشِيما وعيشَ محبِّيه نَضِرا ، ويُدِيم رياضَ ذكره تالِيةً على المسامع : ﴿فأخرَجْنا منْـه خَضِرا﴾ .

أجوبةُ آختطـابِ المَودّة

قال فى " موادّ البيان " : لايخلو مَنْ يُرام ذلك منه من أن يُجيب أو يعتَلّ ، فإنْ اجاب بنَى الجواب على وُقُوع رَغْبة المختَطب أحسنَ مواقِعِها ، وآبتهاجِ المختَطَب بها ، ومعرفتِه بقَـدْر مارآه أهلًا له ومسارعتِـه إليه ، وإن آعتلّ بنَى الجواب على أنه قد عَرَض له مايقصر عنه ، ولا ترضى نفسُه به ، وأنّ العذر [ليس] بعادةٍ له فى المُزَايلة ، وطريقةٍ فى الآنفراد والمجانَبة .

---

(١) أى لاتساوى يقال سوى درهما يسوى من باب تعب ومنعها أبو زيد . أنظر المصباح .

النـــــوع الثـامن
(فى خِطْبــة النّســاء)

قال فى "مواد البيان" : الرِّقاع فى ٱلتماس الصِّهْر والمواصَلة يجبُ أن تكونَ مبنيَّةً علىٰ وصْف المخْطُوب إليه بمـا يقتضِى الرَّغْبة ، ويدل الخاطب عن نفسه بمـا يؤدِّى إلىٰ الكِفَاية والإسعاف بالطِّلبة .

قال : وينبغى للكاتب أن يُودِعَها من ألفـاظ المعانى المنتظِمة فى هـذا البابِ أوْقَعَها فى النُّفوس ، وأعوَدَها بتقريب المَرَام ، وأدَلَّـا علىٰ صِدْق القول فيا تكفَّله من حسن معاشرةٍ، ولينِ معاملة، وأنْ يذهب بها إلىٰ الآختصار والإيجاز .

وهذه نسَخٌ من ذٰلك :

ممـا أورده أبو الحسين بن سعد فى ترسُّله .

وأفضلُ تلكَ المواهبِ مَوْقِعًا وألطَفُها وأحمدُها عاقبةً، وأرهنُها يدًا، مايؤلِّف الله به القُرُبات ، ويؤكِّد به الحُرُمات، ويوجِبُ به الصِّلات، ويجدِّدُ به المَكْرُمات، ويُحْدِثُ به الأنْساب، ويقوِّى به الأسْباب، ويكثِّر به من القِـلَّة، ويجمَعُ به من الفُرْقة، ويؤْنِسُ به من الوَحْشة، ويُزادُ به فى الحُقُوق وجُوبا، وفى المودّات ثُبُوتا، ثم لامثلَ لمـا كان لله طاعةً ورِضاء، وبأمره أخذًا وٱقتداء، وبكتابه قُدْوة وٱحتِذاء، فالله نسألُ الخِيَرَةَ فى قضائه، والبركةَ فيا يقوم(١) بناؤك عليه .

---

(١) فى الاصل فيا يعزم .

ومنـــه : تصِلُ رَحِما، وتعْقِد سبَبا، وتُحدِث نَسَبا، وتُجدِّد وُصْلة، وتؤكّد أُلْفة .

رقعـــة : مَنْ خصَّه الله تعالىٰ بما خَصَّ به سيِّدى : من طَهارة الأعْراقِ والأنسـاب ، وشَرفِ الأخْلاق والآدابِ ؛ وأفرده باجتماع خِلال الخير المتفرّقة فى الأنَام، وعَطَّر بثنائه مَلَابس الأيّام؛ رغِبَ الأحرارُ فى مُواصَلته، وهانَ عليهم بَذْلُ الوجه فى آختِطاب ممازَجَته، وآلتمـاس مُواشَجته ومناسبَتِه؛ وجديرٌ من رُغِب إليه، وطُلب ما لديْه، وآخْتير للمشابكَةَ فى الولَد والُّحْمه، والمشاركةِ فى المـال والنّعمه- أنْ يجيبَ ولا يمنَع ، ويصـلَ ولا يقْطَع ، مصدِّقًا لأملِ من أفرده بآرتياده ، وتوحَّده بآعتماده ؛ عارفًا له حقَّ آبتـدائه بالثِّقة التى لايجُوز ردٌّ من آعتقـدَها، ولا صَدٌّ من حَسَّن ظَنَّها؛ وقد علِم اللهُ تعالىٰ أن [مضىٰ] للمملوك مدّة طويلة [وهو يَبْحثُ] متطلبًا مَرْبَعا للتأهُّـل، مُؤْثِرا لِعمارة المنْزِل، راغبًا فى سَكَنٍ تطْمئنُّ النفسُ إليــه ، وتعتمِدُ فى الفَواتِح والمَصايِر عليه؛ وكُلّما عُرِض للمملوك بيتٌّ أباه ، أو ذُكِر له جَنابٌ قطع عنه رَجَاه : لعدم بعضِ الشروط التى يُرِيدُها فيه ، وتعذُّرِها عليه ؛ فلما قَرَع سَمْعَه ذكْرُ سيدِى ، علِم أنَّه الغايةُ التى لامَرْقىٰ بعدها ، والنهايةُ التى لامَطْمَحَ وراءَها، وأنه قد ظَفِر بالثِّقة، ووصـل إلىٰ الأُمْنِيَّـة، ووجد من يجمَع الخِلَال المرضِيّة ويزيد؛ ويحُوز من الفضـل الشأْوَ البَعِيد ، وكتب المملوك هـذه الرقعةَ خاطبا كريمتَه فلانة [ليكون لهـا] كالغِمْد الضامِنِ للمهنَّد ، والجِلْد الحافظ للمجلَّد؛ ويكونَ لمولانا كالوَلَد البَرِّ بأبِيه ، ولأخيها كالصِّنو الشفيق علىٰ أخِيــه ؛ فإنْ رأىٰ سيدى أن يتدَبَّر ما كتبه المملوكُ ويتَسمَّعَ من توكيد رُقْعته ما حمَلَتْه، ويجيبَه إلىٰ ماساأله فله عُلُوُّ الرأْىِ فى ذلك ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

رُقعـــة : ويُنهِى أنَّ مَوْلانا بمـا تمَّم اللهُ تعالىٰ من محَاسـنه ومَناقِبه، جديرٌ أن يَلقىٰ مَنْ خَطَب الاعتصامَ بعُرىٰ ممازجَتِه، وسعىٰ فى نَيْل عُلَقه من مُواشجته، بالقَبُول، القاضى بنَيْـل المأمُول، ودَرْكِ الرَّغَب والسُّول ؛ ولا سِيَّمـا إذا كان عارفًا من سُمُوِّ خَطَره، واعتلاءِ قَدْره، مايقْضِى عليـه بخَفْض الجَناح فى معاشَرته، وغَضِّ الطَّرْف فى معامَلتِـه، والوُقُوف دُونَ درجة المساواةِ والممـاثَلَهْ، والتزحزُح عن رُتْبة المُباراة والمُطاوَله؛ والانتظامِ فى سِلْك الأتباع والحاشِيه، والخُدَّام والغاشيه؛ وكثيرًا ماوجد المملوكُ البركةَ فى مشاركةِ مَنْ هذه صفَتُه أوفَرَ منها فى مشاركةِ النُّظَراء، وكانت العاقبةُ فى مشابَكةِ مَنْ هذه حالُه أجملَ منها فى مشابكَةِ الأكْفاء، الذين يُصادِفُون فى الحقُوق شَطَطا، ولا يغُضُّون عن يسيرِ الواجباتِ تبَسُّطا : لأنهم يرَوْن أنَّ الوُصْـلة ممَّنْ داناهم فى الرُّتْبـة والمنزلة ليستْ عائدةً عليهـم بشَرَف، ولا مُظْهِرةً لهم من خُمول .

ولأَنْ يَستخلِص مثلُ سـيِّدى من الرُّؤساء، مثلَ المملوكِ من الأوْلياء، ويختَصَّه بأثَرة الاجتباء والاصْطِفاء؛ فيكُونَ مَفخَرُه إليه منْسُوبا، وما يرقِّيه الله تعالىٰ إليه ببركَتِه من دَرَج الفضل فى نفسه محسُوبا؛ أولىٰ من طلَبِ مُماثِل يُناوِئ بقَدْره ويُطاوِل .

علىٰ أنه لو طلَبَ ذلك لطَلَب مُعْوِزا، ورام مُعْجزا : لمـا أفرده اللهُ تعـالىٰ به من السِّيادة التى لايُترامىٰ إلىٰ منْزِلتها، ولا يُتَسامىٰ إلىٰ مُطاوَلتِها ؛ وإذا كان النظيرُ معْدُوما، والكُفُؤ مفقُودا، ولو وُجِد لَمـال متَسلِّطا، ووقَع سومُه(١) منبَسِطا؛ ومَوْلانا يُطْلَبُ إليـه ولا يَطْلُب، ويُرْغَب فيما عنـده ولا يَرْغَب، فقد سَهُلت السبيلُ إلىٰ ما يرُومُه المملوك من جِهَته؛ ويُؤْثِرُه من مُواصَلته؛ واتَّسع المجَال فيما يُقْدِم عليـه من الرَّغْبـة فى تقليده شَرَف مُصاهَرته، وإضافَتِه بذلك إلىٰ بِطَانته وأهل خاصَّـته ؛ ويُخرِجه علىٰ ما يُخْرِج عليـه الوالدُ ولده، والسيِّدُ عبْـده ؛ وقد حمَّل المملوكُ موصِّلَ

(١) لعله يشير إلى المثل العربى «عرض عليه سوم عالة» يضرب لمن يعرض عليك ماأنت عنه غنيّ تأمل .

مطالعته هذه مالم تسعْ إيداعَه المكاتبة، فإنْ رأىٰ مولانا أن يُصْغِىَ إليه ويُجيبَ عبْدَه بمـا يعتمِدُه المملوكُ فى ذلك فله الفضْل، إن شاء الله تعالىٰ .

رقعــة : ويُنْهِى أنَّ لذوِى المَناجِب الطيِّبة الأنساب، والمَناجِث الزَّكيَّـة الأحسـاب ، والأخلاقِ الكريمةِ والآداب ، بين الأنام لِسانَ صِـدق يخطب لهم بالمَحاسن والمحامد، ويُعَطِّر بثنائهم الصادرَ والوارد، ويدْعُو القلوبَ إلىٰ نَيْل عُلْقه من ممـازَجتهم ، وآلتمسُّـكِ بطَرَف من مُواصـلتهم ؛ وقد جمعَ اللهُ لمولانا من كريم المُتْلَد(١) والمُطْرَف، وقَديم وحديثِ الفضـل والشَّرف ، ماتفرَّق فى السِّيادات، وتوزَّع علىٰ أهل الرياسات، وجعله فى طَهَارة المَوْلِد، وطِيبة المَحْتِد، وآستكمالِ المآثر، وآستِتْمامِ المَفَاخر، عَلَمـا ظاهِرا ، ونَجْما زاهِرا ؛ فمـا مِنْ رئيس سِوىٰ مولانا تُعْجِزه خَلَّة من خِلاَل الرياسة إلا وجدَها لدَيْه ، ولا نفيسٍ تُعْوِزُه خَصْـلةٌ من خِصال النَّفاسة إلَّا آستماحها من يدَيْه ؛ ولذلك آمتدتِ الأعناقُ إلىٰ آلتمسُّك بحبْله ، وتطلَّعتِ الهِمَمُ إلىٰ مُواشجته فى كريمِ أصْله ؛ وصار مرْغُوبا إليه لاراغبا ، ومطلوبًا لدَيْه لاطالِبا ؛ وهو جديرٌ بما وهبَهُ الله من هذا الفضل الذَّائع ، والنُّبْل الشائع ،أن يُجيب سائلَه ، ويصَدِّق آملَه ؛ ولا يتَجَهَّمَ فى وَجْه قاصِده ، ولا يردَّه عن مَقْصَده ؛ ولا سيَّما إذا كان قد أسلفَه الظنَّ الجميل ، وبدأه بالثِّقة والتأْميل ؛ وتعذَّر عليه قدرُ العارف بقَدْره ، العالِم بخَطَره ؛ المرتضى بشرائطه ، النازل علىٰ حكمه ، المتدَبِّر برأيه ؛ وقد علم اللهُ تعالىٰ أنَّ المملوك مُذْ نشأ وصَلَح للتأهُّل مرغوبٌ فيه ، مخطوبٌ إليه ؛ من عِدَةِ جهاتٍ جليلة ، وجَنَباتٍ رئيسة ؛ والمملوكُ صادٌّ عن الإجابة ، صارفٌ عن المطاوعَة : لشُذُوذ بعض الشُّروط التى يرُومُ أن تكون مجتمعةً فى النَّسب ، الذى أَعُـدّه شريكًا فى الوَلَد والنَّشَب ؛

(١) المتلد (أى كمكرم) ماولد عندك من مالك أو نتج ومال متلد قديم .

ومُفاوضًا فى الحال والسَّبَب، مرتادٌ من يقْنَع بالموافقه، ويرتض بالعِشْرة والمرافقه، حتّى أفضىٰ فى الأنتقاد إلىٰ مولانا فوجد المُرادَ علىٰ آشتراط، وألفىٰ المقصودَ علىٰ آشتطاط، فدعاه ذٰلك إلىٰ التهجُّم بعد الإحجام، وحمله علىٰ التجاسُر والإقدام، والتوسُّلِ إلىٰ مولانا بما يتوسَّل به الأحرار، إلىٰ الأخيار، وأمَّه بصادقِ الرغبة وصميم المحبة والآنبساط، فى خِطْبة كريمته فلانة، علىٰ أنْ يعاشرَها بغاية الأُنْس، ويَصْحَبَها صُحبةَ الجسد للنَّفس، ويَعْرِفَ لها من قَدْر أبوَّتها وأُمومتها ماتستحِقُّ برياستها، وقد أصدر هذه الرقعةَ نائبةً عنه فى ذٰلك، فإنْ رأىٰ مولانا أن يُتحِفَه بالقَبُول، ويجعله أهلا لإجابة السُّول، فله الفضل فى ذٰلك، إن شاء الله تعالىٰ .

ومن النادر الغريب ماذكره الشيخ شهابُ الدين محمود الحلبى فى "حُسْن التوسُّل" فى الكتابة إلىٰ شخص فى تزويج أمه، وهو :

هذه المكاتبة إلىٰ فلانٍ — جعله الله ممن يُؤْثِر دِينَه علىٰ الهوىٰ، ويَنْوِى بأفعاله الوقُوفَ مع أحكامِ الله تعالىٰ فإنما لكُلِّ آمرِئٍ ما نوىٰ، ويعلمُ أنَّ الخَيْرَ والخِيرَةَ فيما يَسَّره الله من سُنَّة نبيه صلّى الله عليه وسلم وأنَّ الشرَّ والمكروهَ فيما طوىٰ، نَعْرِض له بأمرٍ لاحرجَ عليه فى الإجابة إليه، ولا خَللَ يلْحَقُه به فى المُروءة وهل أخَلَّ بالمُروءة مَنْ فعل ماحَضَّ الشرْعُ المطَهَّرعليه؟ وأظهَرُ الناس مُروءةً من أبلغَ النفْسَ فى مَصالح حُرَمه عُذْرَها، ووَفَّى من حقُوق أخصِّهنَّ بِبِرِّه كلَّ ماعلم أنَّ فيه بِرَّها، وإذا كانت المرأة عَوْرة، فإنَّ كمالَ صَوْنها فيما جعل اللهُ فيه سَتْرَها، وصَلاحَ حالها فيما أصلحَ اللهُ به فى الحياة أمْرَها، وإذا كانتِ النساءُ شقائقَ الرجال فى باطن أمر البشَرِيَّة وظاهره، وكان الأولىٰ تعجيلَ أسباب العِصْمة فلا فرقَ بين أىِّ [وقت](١) الآحتياج [إلىٰ ذٰلك](٢)

(١) الزيادة من "حسن التوسل" ص ١١٦ .

وآخره ، وما جَدَع الحلالُ أنفَ الغَيْرة إلّا ليَزُولَ شَمَمُ الحَمِيّه ، وتتزَلَ على حكم الله فيما شرَعَ لعباده النُّفوسُ الأبِيّه ، ويُعْلَم أنّ الفضلَ فى الآنقياد لأمرِ الله لافى آتّباع الهوى بعَضْل الوليّة ، وإذا كان بِرُّ الوالدة أتمّ ، وحقُّها أعمّ ، والنظرُ فى صَلاح حالها أهمّ ، تعيّنت الإجابةُ إلى مايصْلُح به حالُها ، ويسكُنُ إليه بالُها ، ويتوفّر به مالُها ، ويعمر به فِنَاؤُها ، ويحصُل به عن تقلّد المِنَن آستِغْناؤُها ، وتُحمل به كُلْفة خَدَمها عنها ، وتُدفَع به ضَروراتٌ لابُدّ لذوات الحِجاب والجمالِ منها ، ويَضْفُو به سِترُ الإحصانِ والحَصَانة عليها ، ويظْهَر به سرُّ ماأوجبه الله لها من تتبّع مَواقعِ الإحسانِ إليها .

وقد تقدّمَ من ساداتِ السَّلَف مَنْ تولّى ذلك لوالدته بنَفْسه ، وآعتدّه من أسباب بِرّ يومِه الذى قابل به ماأسلفتْه إليه فى أمْسِه ، عِلْما منهم أنّ آستكمال البِرّ مما يُعْلى قدْرَ المرءِ ويُغْلِى ، وقد أجاب زيدُ بنُ زينِ العابدين هِشامًا لمّا سأله : لِمَ زوّجت أُمّك بعدَ أبيك؟ فقال : لتبشّر بآخرَ مثلى ، لاسيّما والراغبُ [إلى المولى](١) فى ذلك ممن يُرْغَب فى قُربه ، ويُغْبَط على مالَدَيْه من نِعَم ربّه ، ويعظُم لآجتماع دُنْياه ودِينه ، ويُكْرَم ليُمْن نَقيبتِه وجُود يمينه ، ويعْلَمُ أنّ العقيلة تَحُلّ منه فى أمْنع حَرَم ، وتستظلُّ من ذَراه بأضْفى سُتور الكَرَم ، مع آرتفاع حَسَبه ، وآشتهارِ نَسَبه ، وعلوّ قدْره فى مَنْصبه وحالِه وسبَبِه ، وأنه ممن يُحسِنُ أن يَحُلّ من المولى محلّ والدِه ، وأنْ يتجمّل من ذُرّيته بمن يكون فى المُلمّات بَنانًا ليَده وعَضُدا لساعِده ؛ فإنّ المرءَ كثيرٌ بأخيه ، وإذا أُطْلِق عليه بحكم المَجاز لفظُ العُمُومة ، فإنّ عمّ الرجل صِنْوُ أبيه ؛ وأنا أتوقّع من المولى الجوابَ بما يَجمع شَمْل التُّقى ، ويُعْلَمُ به أنه تخيّر من البِرّ أفضلَ مايُنْتَقى ؛ ويَتحقّق بفعْله أنّ مثلَه لايُهمِل واجِبًا ، ولأمرٍ مّا قال الأحنفُ وقد وُصِف بالأناة : لكِنّى أتعجّلُ أنْ لا أردَّ كُفْؤا خاطِبًا .

(١) الزيادة من "حسن التوسل" .

النـــوعُ التـاسعُ

(فى الاِسترضاء والاِستعطاف والاِعتذار)

قال فى "موادّ البيان" : المكاتبةُ فى ٱستِعطافِ الرُّؤساء ، ومُلاطَفة الكبراء ، تحتاج إلىٰ حُسْن تأتٍّ : لما تشتمِلُ عليه من إيجاب حُقُوق الخدمة ، وما أسلَفُوه من مَرْعىّ الخِدَم ، وما يتْبع هذا من التنصُّل والاِعتِذار الذى يسُلُّ السخائمَ من القُلوب ، ويستنزِلُ الأوْغار من الصُّدور ، ويُطْلِع الأُنْس وقد غَرَب ، ولها موْقع فى تأليف الكلام .

قال : وينبغى للكاتبِ أنْ يستعمِلَ فيها فِكْرَه ، ويُوفِّيَها حقَّها من جَوْدة الترتيب ، وٱستيفاءِ المعانى ، وأنْ يذهبَ إلىٰ ٱستعمالِ الألفاظ الجامعةِ لمعانى العُذْر ، الملوَّحة بالبَراءة مما قُرِف به (١) ؛ ولا يُخْرِج لفظَه مُخْرَج من يقيم الحجةَ علىٰ براءةِ الساحة مما رُمِى به ، فإنَّ ذٰلك مما يكْرهه الرؤساء : لأنَّ عادتَهم جاريةٌ بإيثار ٱعترافِ الخُدّام لهم بالتقصير والتفريط والإخلالِ بالفُروض : ليكونَ لهم فى العَفْو عند الإقرار عارفةٌ توجبُ شكرا مستأْنَفا ؛ فأما إذا أقام التابعُ الحجةَ علىٰ براءته وسلامته مما رُفع عنه ، فلا يُوضَع الإحسان إلا إليه فى إقراره علىٰ منْزِلته (٢) ، والرِّضا عنه والاِستعطاف ، بل ذٰلك واجبٌ له ، فى منْعِه منه ظُلْمٌ .

(١) فى الاصلين «مما قرب منه» وهو تصحيف من الناسخ .

(٢) المراد أن إقراره والرضا عنه ليس من الاحسان بل من الواجب تأمل .

وهذه نسخٌ من ذٰلك :

لأبى الحســين بن سعد :

فإن رأيتَ أن تنْظرَ فى أمرى نظرا يُشْبِه أخلاقَك المرضِيَّة ويكونُ لحسن ظَنِّى بك مصَدِّقا، ولعظيم أمَلِى [فيك] محقِّقا، ولِمَا لم تزل تعـدُنيه مُنْجزا، ولِحقِّ حُرْمَتِى بك وقديم ٱتِّصالى بأسبابك قاضيا، فعلت ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

ومنـــه : لسليمانَ بنِ وَهْب .

مَنِ ٱنصرَفَ فى الٱحتجاج إلىٰ الإقرار بمـا يَلْزَمه وإن لم يكن لازما، فقد لَطَّف الٱستعْطاف، وٱستوجب المسامحةَ والإنْصاف .

ومنـــه : وقد نالَنِي من جَفْوة الأمير بعـدَ الذى كنْتُ أتعَرَّف من بِرِّه وألطافه أمْرٌ أحلَّنِي محَلَّ المُذْنِب فى نَفْسى مع البَراءة من الذَّنْب ، وألزَمنِي الإساءةَ مع الخُروج من التقصـير ، وزاده عِنْدى عِظَما وشِدّة أنِّى حاولْت الخُروجَ منـه بالٱعتِذار، فلم أجِدْلى إلىٰ الأمير ذَنْبا أعتذر منـه ، ولا علىَّ فيما ألزمَنِي من مَعْتَبَته حجةٌ أُحاوِلُ دَفْعها والتخلُّصَ منها؛ فأصبحْتُ أُعالِجُ من ذٰلك داءً قد خَفِىَ دَواؤُه، وأُحاوِلُ صلاحَ أمْرٍ لم أَجْنِ فَسادَه؛ فإن رأيتَ أن تفْـعل كذا وكذا فتصِـلَ قَدِيم ماأصبحَ عنـدى من معْروفِك بحديثه ، فليس عِنْدى فى مطالبةٍ حجَّةٌ أنجحُ من التوجُّه إلىٰ الأمير بنَفْسه ، والثقةِ عنده بفَضْله، فإن كنتُ مُذْنِبا عَفَا، وإن كنتُ بَرِيئا راجع .

ومنـــه : لأبى علىّ البصير .

وأنا أحدُ منْ أسكنْتَه ظِلَّك، وأعلَقْتَـه حَبْلك ، وحَبَوْتَه بلطيف بِرِّك ، وخاصِّ عنَايَتِك، وٱنتصفَ بك من الزَّمان، وٱستغنىٰ بإخائك عن الإخْوان ؛ فهو لايَرْغَبُ

إلّا إليك ، ولا يعتَمِد إلّا علَيْك ، ولا يستَنْجِح طَلَبه إلّا بك ؛ وقد كان فَرَط منّى قولٌ : إن تأوَّلته لى ، أراكَ أوجهَ عُذْرى ، وقام عنـدك بحُجّتى ، فأغْنانى عن توكيد الأَيْمان علىٰ حُسْن نِيّتى ، وإن تأوَّلته علَىَّ ، أحاقَ(١) بى لائمتَك وحبسنى علىٰ [أسوإ] حال عندك ؛ وقد أتيتُـك معترِفا بالزَّلّة ، مستكينا للمَوْجِدة ، عائذًا بالصَّفْح والإقالة ، فإن رأيت أن تُقِرّ عيناً قَرَّت بنعمتِك عندى ، ولا تَسْلُبَنى منها ماالبَسْتَنى ، وأن تقتصرَ من عقوبتى علىٰ المكْروه الذى نالَنى بسَبَب عَتْبـك علَىّ ، وتأمُرَ بتعريفى رأيك بما يُطامِنُ هَلَعى ، وتسْكُن إليه نَفْسى ، ويأْمَن به رُوعِى ، فعلتَ ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

ومنــه : لأبى الحُسَين بن أبى البغل .

نُبُوّ الطَّرْف من الوزير دليلٌ علىٰ تغيُّر الحال عِنْـده ، والجفاءُ ممن عَوّد الله البِرَّ منه شديدٌ ، وقد آستدللتُ بإزالة الوزيرِ إيّاىَ النَّحْلَ الذى كان نَحلَنِيه بتطَوُّله ، علَى ما سُوِّت له ظَنًّـا بنَفْسِى ، وما أخافُ عَتْبا : لأنى لم أجْنِ ذَنْبا ؛ فإن رأىٰ الوزيرُ أنْ يُقَوِّمَنى لنفسى ، ويَدُلَّنى علىٰ مايُرِيده منّى ، فعل ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

ومنــه : لأبى الرَّبيع .

أصدقُ المَقَال ، ماحقَّقه الفَعَال ، وأفضلُ الخَبَر ، ماصدَّقه الأثَر .

ومنــه : لمولانا سِيرةٌ فى الفضْـل والإحْسان ما أمَّلها آمِل إلّا جادتْ وسَحَتْ ومَنَحَتْ ، وعوائدُ فى العَـفْو مارجَاها راجٍ إلّا صفَحَتْ وسَمَحَتْ ؛ وأحَقُّ مَنْ تَلَقَّاه عند العِثَار ، بالإقَالةِ والاغْتِفار ، ووَقَف به عندَ حدّ التقويم والإصْلاح ، ولم يُعَرِّضْه

(١) فى الاصل "على ما أحاق" تأمل .

لنقيصة الإقصاء والاطّراح، مَنْ شفَع الهَفْوة بالاعتذار، وخطبَ التغمّد بلسان الإقرار، ودلّت التجاربُ منه على حَسْم الأضرار، وكان له من سالف الخدَم وسائلُ وذرائع، ومن صحيح الإخلاص ممهِّد وشافع، فلا عَجَب أنّ المملوكَ يهفُو فيعفُو، ويَظْلِم فيكْظِم، ويجهَل فيَحْلُم، ويُخْطِئ فيُصيب، ويدْعُو متنصِّلا فيُجيب، وقد جعل الله سَهْمَه المعلَّى، ويَدَه الطُّولى، وألهمه التفضُّل بالإنعام، والتغميضَ عن زَلّات الكِرام، وقد حصل للملوكِ فى هذه النَّبْوة من إزْرائه على عقله، وتقبيحه لفِعْله، أعظمُ تجرِبة، وأكبرُ مأدَبة، والمملوكُ يسألُ إحسانَ سيِّدى أن يُعيدَه إلى رضاه ولُطْفه، ويُؤْنِس منه مستوحِشَ إقبالِه وعَطْفه، ويصدِّق رجاءَه فيه، ويُجْزِلَ ثوابَ وِفادتِه عليه، إن شاء الله تعالى.

رقعة: المملوكُ يخْطُب صَفْحَ سيِّده وإقالتَه بلسان الاغتفار، ويستعيدُ ماعَرَف من رِضاه وعاطِفتِه بوَسائِل الاعتِذار: ليكونَ المتفضِّلَ فى كلّ الحالات، والمنعِمَ من كلّ الجهات، وقد عرفَ السَّهْوَ والنِّسيان، المعْتَرِضين للإنسان، وأنّهما يحُولانِ بينَهُ وبينَ قَلْبه، ويُزَوِّرانِ عليه خَطَاه فى صُورة صوابِه، فيتورّطُ فى السَّقَط غيرَ عامد، ويتهوّرُ فى الغَلَط غيرَ قاصِد، وقد قال الله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾. وما أولى مولانا بأن يحْفَظ على المملوكِ جميلَ آرائه، ولا يَسْلُبَه ماشمَله من ظِلِّ آلائه، ولا يَسِمَه بمِيسَم العُقُوق فإنه يجدُ نفْسَه بخلاف ذلك فى طاعَتِه، ومرتبَتَها بغير هذه الرتبة فى خِدْمته.

فصل: وقد آوىٰ سيدى المملوكَ من ظله، وأعْلَقَه من حَبْله، وأسبغ عليه من فَضْله، ماأنصفَه به من الزّمان، وأغْناه عن الإخْوان، ووَقَف رَغَباته عليه، وصَرَف آمالَهُ إليه، ونَزَّله منْزِلةَ مَنْ لايشُكُّ فى اعتقاده، ولا يستَريبُ بوِداده، وكان

المملوكُ أرسل لفظًا على سبيلِ الإشفاق ذهَب به الحاسدُ إلى غير معْناه ، وخالف في تفسيرِه حقيقةَ مَغْزاه ، وأحاله عن بِنْيته ، وعَرَضه عليه على غَيْر صُورَته : ليُوحِش محلَّ المملوك المأنوسَ من رِعايَتِه ، ويُنَفِّر سِرْبَه المطمئنَّ بملاحظتِه وعِنايَتِه ؛ وقد أرسل المملوكُ هذه العُبوديَّةَ سائلا في مَحْو إظلام مَوْجِدته ، وأن يُعيدَ المملوك إلى مَكانه من حَضْرته ، إن شاء الله تعالى .

✣

لا أتوَسَّلُ إليْك إلَّا بك ، ولا آتيكَ إلا مِنْ بابِك ؛ ولا أستشْفِعُ إليك بسِواك ، ولا أَكِلُ رَجْعةَ هَوَاك إلَّا إلى هوَاك ؛ ولا أنتظِرُ إلَّا عَطْفَتَك التي لاتقُودُها زَخارِفُ الأموال ، ولا تُعيدُها شفاعاتُ الرجال :

إذا أنتَ لم تَعْطِفْكَ إلَّاشفاعةٌ ✻ فلا خَيْرَ في وُدٍّ يكونُ بشَافِعِ

شعر في معنىٰ ذلك :

هَبْـــنِي تخطَّيتُ إلى زَلَّـــةٍ ✻ ولم أكُنْ اذنَبْتُ فيما مَضَى !
ألَيْسَ لي مِنْ قَبلِها خِدْمةٌ ✻ تُوجِبُ لي منْكَ سَبِيلَ الرِّضَى !

غـــيره :

وَحقِّـكَ ماهَجَرْتُكَ مِنْ مَلالٍ ✻ وَلَا أعْرضْتُ إلَّاخَوْفَ مَقْتِ !
لِأنَّ طَبائِعَ الإنْسانِ ليْستْ ✻ على وَفْقِ الإرادَة كُلَّ وَقْتِ !

اعتذار عن التأخر ، من ترسل أبي الحسين بن سعد .

إنْ لم يكُنْ في تأخرِي عنك عُذْرٌ تقبلُه ، فاجعلْه ذَنْبا تَغْفره .

على بن خلف :

الأعذارُ ـ أطال اللهُ بقاء سَيِّدى ـ تَنْأَىٰ علىٰ الامتناع ، وتَضيق علىٰ الاتِّساع ؛ وذلك بحسَبِ ماتُصادِفُه من قَبُول وردّ، ومسامحةٍ ونَقْـد ، وأنا أحمَـدُ اللهَ علىٰ أن جعلَ عُذْرى إلىٰ من يَتَمَحَّل العُذْر للمُعْتَذِر ، ويصْفَح صَفْح المـالك المقْتَدِر، كأنّمـا ائتمَّ بقول الشاعر :

إذا ماأتَتْ من صاحِبٍ لك زَلَّةٌ * فكُنْ أنتَ مُحتالًا لزلَّتِــه عُذْرا

ولم يجعـلْه إلىٰ من يُغَلِّب هاجِسَ الظُّنون ، علىٰ واضحِ الحُجَّـة ، ومعتَلَّ الشكِّ علىٰ صحيحِ اليَقِـين . ونُمِىَ إلىَّ أنَّ غابطا لمكَانى من حَضْرته ، حسَـدَنِى علىٰ محلِّى من مودّته ، وزور ماينكشِفُ عن الإفك والبُهْتان ، ودَلّس الكذِبَ فى صُورة البُرْهان ؛ فلمـا جَلّاه فى مَعارِض زَخارِفه أظهر لسيدى عُوارَه ، وأبدىٰ لطَرْفه شُوارَه (١) ؛ فشَلَّ سَمْعه عن وَعْيِـه ، وطَرَف طَرْفَه عن رَعْيـه ؛ وآستَمَّ عَلَائمَ شيمتِه ، فى حُسْن الظنِّ بأحبَّته ؛ فقدّمتُ من الاعتذار مايُقدِّمُه المذنبُ نُزُولا علىٰ طاعتِه ، وتأدُّبًا فى خِدْمته ، وشفعتُه من الشُّكْر بمـا يقتضيه إحسانُه ويوجبه .

أبو الفـــرج الببغاء :

أحقُّ المَعاذِير بالتقبُّل وأَوْلاها بسَعَة القلوب ماصدَرَ عن آستِكانة الأقْدار ، ودَلَّ علىٰ حَسْم موادّ الأضْرار ، وصَفَا من كَدَر الاحتجاجات ، وتنزّه عن تمحُّل الشُّبُهات : ليَخْلُص به مِلْكُ العفو ، وتتكامَلَ نِعمةُ التَّجاوُز . ولستُ أكْرَه شرَفَ تأديبه ، ونُبْلَ تثقيفه وتهذيبه ، مالم يتجاوَزْ فى العـقُوبة والتقويمِ إلىٰ مُؤْلِمِ الإعْراض ، ومَضيض

(١) أى عيبه وشل سمعه أى طرده والمراد أنه لم يصغ اليه .

التنكر والانقباض، ولا أخطب الإقالة من تفضله إلا بلسان الثقة وشافع الخدمة، هاربًا إلى سعة كرمه مما دفعتني المحبة إليه، وأشفى بي عدم التوفيق عليه، فإن رأى أن يكون عند أحسن ظني به في الصفح، كما هو عند أصدق أملي فيه بالإنعام، فعل.

ولـه في مثـلـه :

ليس يخلو الإغراق في التنصل والمبالغة في الاعتذار من إقامة حجة، أو تمسك باعتراض شبهة، وأنا أجل ما أخطبه من عظيم عفوه، وأكبر ما أحاوله من نعمة تجاوزه، عن المقابلة بعين الاعتراف بالزلل وبعد الاستحقاق من الصفح، مالم يوجب لي بسعة تأوله، ويعد علي فيه بعادات تفضله : لتصفو منه الأعضاء، وتلزمني واجبات الشكر والثناء، غير ممتنع مع ذلك من التبرى إليه مما أنكره من تجاوز السهو إلى العمل، والتوجه إلى مافرط بالاختيار والقصد اللذين يغفر تجنبهما مذموم الأفعال، ويتغمد سيئ الأعمال، فإن رأى أن يحمل أمري فيما قصدتني الأيام بتوجه الظنون فيه على غير النية لاظاهر الفعل، إذ كانت صفات الإنسان بالأشهر من أخلاقه والأكثر من أفعاله، ولا صفة لي أعرف بها وأنسب إليها غير الاعتراف بإنعامه، والتطاول من اصطناعه، آخذًا من كل حال بالفضل، ومشفعا بسطة الرياسة والنبل.

ولـه في مثـلـه :

لست أخلو في المدة التي تجاوز الدهر لي عنها في خدمته من توصل بفرط الاجتهاد، إلى ماوصل من رأيه إلى رتبة التقبل والإحماد، وليس يحبط ماأتيته من مرضي الخدمة بالنية والعمد بما لعله فرط من غير مراد، إذ كان ـ أيده الله بفائض

طَوْله، ومأثور فَضْله ـ آخذًا من آداب الله بما احا كمه منه (١) : ﴿ إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ . و[لو] لاإيثارى مفتَرَض (٢) الطاعة وٱستكانةَ الاعتداد، وأن لاأخْطُب رضاه بلسان الاحتجاج، ولا ألتمس عفْوَه بوجُوب الاستحقاق : لتسلَّم له صِفاتُ التفضُّل، ولى مَوَاتُّ الاعتراف بسالِف التطَوُّل، لبرهَنْتُ علىٰ سَلامتى مما قُصِر علىٰ بتوجُّه الظُّنون وٱعتراض الأوهام، ولا أقول بشَعَثِ النيّـة وفَساد الرأى، فإن رأىٰ أن يحفَظَ ما ٱبتدأه مُخْتارا من ٱصْطناعى بمـا يصُونُه عن التنكُّر، ويَصُونَ عادتى فى شكر ذٰلك والاعتدادِ به عن الفُتُور والتغيُّر، فعل .

أجوبة الاسترضاء والاستعطاف

قال فى "مواد البيان" : لايخلُو المعتذَرُ إليـه من أمرين : أحدُهمـا أن يقبَل العذْرَ، والآخر أنْ يستمرَّ علىٰ المَوْجِدَة ويرفُضَ مايأتى به من حُجَّة، فإن كان قد قَبِل العُذْرَ، وجب أن يبنىٰ الجوابُ علىٰ وُصُول الكتاب، والوُقُوف عليه، والتقبُّل لمـا تضمَّنه، وتبرئةِ المعتـذِر عن الحاجة إلىٰ الاعتِذار، والانقياد إلىٰ الاعتراف بالجُرْم والإقْرار، إكرامًا لخُلَّتـه عن التُّهمة، وللمودّةِ عن الظِّنَّـة : فإن الأمر الذى أوجب العُـذرَ لو صدر منـه، لاقتضىٰ ودادُه التأوّلَ له بأنّه ما صـدر إلا عن باطِنٍ سليم ومصلحةٍ أوجبتـه . قال : وليس هـذا المعنىٰ هو الذى يُجاب به مَنْ قُبِل عُذْره فقط : لأنه يجوز أن يجيب بأنه قد قَبِل العُذْر، وصفَح عن الجُرْم، علىٰ أنْ لايعود إلىٰ مثله . وإن ٱستمرَّ علىٰ القصـد (٣)، بنى الجوابُ علىٰ إبطال العُذْر ومعارضته بمـا

(١) كذا فى الاصل ولعله « إليه » .

(٢) فى الأصول «ولا ايثارى على مفترض ... ... الا أخطب الخ» .

(٣) أى قصد الصدّ وبقى على هجره ولم يقبل الاعتذار .

يقتضيه ؛ والدلالة على خطإ المعتَذِر ، وأنه مما لايسُوغُ الصفحُ عنه ، ولا يليق بالحَزْم إقالتُه .

قال : وهذانِ معنيانِ يَحْمِلان من العبارة مالا يكادُ ينحصرُ فى قول مشرُوح مبسوط ؛ فضلا عن قولٍ مجمَلٍ مُوجَز ، إلّا أن المتدرِّب بالصناعة إذا مرَّت به هذه الأصول أمكنه التفريعُ عليها .

النـــوع العاشر

(فى الشكوى ـ أعاذنا الله تعالى منها)

قال فى "مواد البيان" : رِقاعُ الشَّكْوى ـ عصَمَنا الله من مُوجِباتها ـ يجبُ أن تكون مبنيَّةً من صِفَة الحال المُشْكِية ، على مايُوجب المشاركة فيها ويقْضى بالمساعَدة إن ٱستُدْعِيتْ عليها ، من غير إغْراقٍ يُفْضى إلى تَظْليم الأقْدار وإحْباط الأَجْر ، وشَكْوى المبتَلِي بالخيرْ والشرِّ سبحانه وتعالى ، ويدلُّ على التهالك بالجَزَع ، وضعف التماسُك وقُوّة الهَلَع ؛ بٱستيلاء القُنُوط والإيَاس ، وأن يشْفَع الشكْوى بِذِكْر الثقة بالله سبحانه ، والتسليم إليه ، والرِّضا بأحكامه ، وتوقُّع الفَرَج من عِنْده ، وتلقِّى ٱختبارِه بالصبر ، كما نتلقَّى نعمُه بالشكر ؛ ونحو هذا مما يليق به ويجرى مجْراه . قال : وقد يكتُبُ الأتباعُ للرؤساء رِقاعاً بشِكاية الأحوال ومساءَلة النظر ؛ ثم ذكر أنَّ سبيل هذه الرِّقاع أن يُعْدَل بها عن التصريح بالشَّكْوى إلى لَفْظ الشُّكر ومَعْناه ، وطلب الزيادةِ والإلحاق بالنُّظَراء فى الإحسان : لما فى إطْلاق الشكاية ، والتصريح بها من التعريض بإخلال الرئيس بما يلزمُه النظرُ فيه من أحوال خاصَّتهم وتعهُّد مَرافِقهم من الكفاية .

وهذه نسخٌ من ذٰلك :

رُقعـة شكوىٰ هُموم :

كتب المملوكُ هذا الكتابَ وهو رَهينُ فِكْرٍ وغَمّ، وقَلَقٍ وهَمّ، وحَليفُ جوًى قد سكَنَ القلب، وخوفٍ قد أطار اللُّبّ؛ وبالله العِياذ، وهو المَلاذ؛ وبيده تُحَلّ العُقَده، وبأمره تزُول الشّدّه؛ وقد ألهم اللهُ سبحانَه المملوكَ صَبْرا يَسّر أمْره، وأمَلاً فى الفَرَج خفّف ضُرّه؛ وليس بآيِسٍ من عَطْفته، ولا قانِطٍ من نِعْمتِه .

رقعـة فى معنىٰ ذٰلك :

كتب المملوكُ وهو شاكٍ لتجاهُل الأيام، وَقِيذٌ من مواقِع سِهامها الرَّغيبة الكِلَام؛ مَنْهومٌ بهُمُومٍ تُضْعِف الجَليد، وتَسُوء الوَدِيد، وتَسُرّ الحَسُود، لاقٍ من قَسْوة الدهر وفَظَاظتـه، ونَبْوة العَيْش ونُفْرته؛ ما يردُّ الجفُونَ عن الهُجُوع، ويُغْـرق العيونَ بالدُّمُوع؛ ولله تعالىٰ فى عباده أقضـيةٌ يَقْضِيها، وأقدارٌ يُمْضيها؛ واللهَ أسألُ حسنَ العاقبة والخِتَام، وتمحيصَ الأوزارِ والآثام .

رقعـة : كتبَ المملوكُ وجِسْـمُه صَحيح، وقلْبُـه قَرِيح، وجَنانُه سَليم، وجَنَابه سَقِيم : لمـا يَتَبادر إليه من نِكَاياتٍ تَقْدَح وتَقْرَح، وحادثاتٍ تَكْلِم وتَجْرَح؛ ونُوَبٍ تَهُضّ، وتَهْدِم وتَرُضّ، وخطوبٍ تُخاطِب شِفَاها، وتُوصِل من اليَدِ إلىٰ اليد أذَاها؛ إلّا أنّ اللهَ يُهِبُّ رِيحَ المِنَح، وقد تداكَتِ المِحَنُ فينْسِفُها، ويشقّ عمودَ الفَرَج؛ وقد ادْلهمّت فيَكْشِفُها؛ وظنُّ المملوكِ بالله تعالىٰ جميل، وله فى صُنْعه ولُطْفه تأْمِيل .

رقعـة : ويُنْهِى أنه قد كتب هذه العُبودِيّة بيدٍ قد أرعشَتْها الآلام، يُمْلى عليها قلْبٌ قد قلَبَته الأسْـقام؛ بجِسمُه ناحل، وجَسَده بعـد النَّضْرة قاحل؛ وقُواه قد

وهَنَتْ، وجَلَادتُه قد وهَتْ؛ وصبْره قد تخلّىٰ وٱضْطَرب، وتحمُّله قد نأىٰ وٱقتَربْ؛ وعاد شَبَحا من الأشْباح، وهَباءً تَذْرُوه الرِّياح؛ فلو ٱعتلَق بشَعْرة لم تَنْصَرِم، أو وَلَج خَرْتَ إبرةِ خيَّاط لم تنْفَصِم؛ ولولَا الثِّقةُ باللهِ وأنه يَتْبَع السُّقْم بالصِّحَّه، ويَشْفَع المِحْنَة بالمِنْحه؛ لذَهَب مابَقِيَ من ذَمائه، وأطَلَّ علىٰ شَـفَا شَقَائه؛ والمملوكُ يستشرِف منه تعالىٰ لُطْفا يُعيد الكَليل حَدِيدا، والمُخْلَق جَدِيدا .

رقعـــة : ويُنْهِى أنه قد كَتَب هــذه الرُّقْعة، وقد ساءَ أثرُ الأيَّام عليــه، وقَبُح صُنْعُها لدَيْه؛ وٱبتلتْه بمُؤْلِم البَلْوىٰ، وأنطقَتْه بلسان الشَّكْوىٰ؛ فهو محترقٌ بنارِ الغَيْظ، يدْعُو علىٰ نَفْسه بالقَيْظ؛ إن لم يكن فرَجٌ يفرِّجُ بين الأضْداد، ولُطفٌ يُرِيح من هذا الجِهَاد؛ وكُلَّما طلبَ المُزايلةَ عوِّق، أو طلَبَ الفِكَاكَ ٱعتلَقْ؛ فهو قاطنٌ فى صُورة الظَّاعِن، وحالٌ فى حالِ الراحِل، واللهُ يمنُّ بالمَخْرَج، ويأتِى بالفَرَج .

رقعـــة : وقد سَطَّر المملوك هذه العبُودِيَّة، وقد ٱنجلَتْ هذه النَّبْوه، عن البَلَاء والشِّقْوه، ونَفَادِ المـال، وٱستِحالةِ الحال، وٱستيلاءِ العدُوّ، وٱستِعْلاء السُّو، وكذا الدهْرُ خَدُوع غَرُور، خَئُون غَدُور؛ إنْ وهبَ ٱرتجَع، وإنْ ألبَسَ ٱنتزَع؛ وإن أعْطىٰ أعطىٰ قَليلا وقلَع؛ وإنْ أحلىٰ أمرّ، وإن نَفَع ضَرّ؛ وإن أبْرَم نقَض، وإنْ رفَع خفَض؛ وإن أقبَـلَ أعْرَض، وإن وعَدَ أمْرَض؛ فنِعَمُه مقرونةٌ بالزَّوال، ومِنَحُه معرَّضة للاَنتقال؛ وصفْوُه مَشُوبٌ بالكَدَر، وعيْشُـه ممزُوجٌ بالغِيَر؛ ما أجَنَّ الا أوجدَ خَلَلا، ولا أمَّن إلا أتبَع الأمْنَ جَلَلا؛ والمملوكُ يحمَدُ الله تعالىٰ علىٰ أن أوسعَه فى حال البَلَاء شُكْرا، وفى حال الاَبتلاء صَبْرا .

أجوبةُ رِقاع الشكوىٰ

قال فى "موادّ البيان" : يجبُ أن تبنىٰ أجوبةُ هذه الرِّقاع علىٰ الآرتماض فى الحال المُشْكِيةِ، والتوجُّع منها، وبَذْلِ الوُسْعِ فى المعُونة عليها، والمشاركةِ فيها، وما يجْرِى هذا المَجْرىٰ مما يليقُ به .

النوع الحادى عَشَر

(فى آستماحةِ الحوائج)

قال فى "موادّ البيان" : ورقاعُ الآستماحةِ يُختار أن تكونَ مُودَعةً من الألفاظ ما يُحرِّك قُوىٰ السَّماح ، ويبعثُ دَواعِيَ الآرتياح ؛ ويُوجِب حُرمةَ الفضل المسَهِّلة بَذْلَ المال الصَّعْبِ بذْلُه ، إلَّا علىٰ من وَفَّر اللهُ مُروءَته ، وأرخص عليه أثمانَ المحامِد وإن غلَتْ .

قال : وينبغى للكاتب أن يتلطَّف فيها التلطُّفَ الذى يعُود بنَجاح المَرام ، ويؤمِّنُ من الحصُول علىٰ إراقة [ماء] الوجْه ، والخيبة بالردّ عن البُغْية ، ويعْدِلَ عن التثقيل والإلحافِ المُضْجرَيْن ولا يضَيِّق العُذْر علىٰ السَّماح إلا أن يتمكَّن للثقة به ، ويعْلَم المشاركةَ فى الحال .

وهذه نسخٌ من ذٰلك :

من كتاب [أبى] الحسين بن سعد .

أفضلُ القول أصدَقُه ، وأهنىٰ المعروفِ أعجَلُه ، وأبلغُ الشُّكرِ أظهرُه .

ومنـــه : إن حضرَتْك نيَّةٌ فى قضاء حاجةٍ فعجِّلْها ، فإنَّ أهنى المعروفِ ماعُجِّل ، وأنْكَده ماتنازعته العِلل ، وآعترضَتْه كثرةُ الاقتِضاء .

ومنـــه : أنتَ أعزَّك اللهُ واجدُ السبيلِ إلى آصْطِناع المعروفِ وآكتسابِ الثَّواب ، وأنتَ أعرَفُ بمـا فى آستِنْقاذِ أسيرٍ من أسْرىٰ المسلمين ، من وارد الأَسْر ، وعَرْصة الكُفْر ، وآنتِياشه من الذِّلّة والفاقة ، والبَلاءِ والمشقَّة ، من جزيلِ ثوابِ الله وكريم جزائِه [وأجَلُّ] من أن تُخاطَب فى ذلك مخاطبَةَ من يَحتاجُ إلى زيادةٍ فى بصيرته ، وتقويةٍ لنِيَّته ، وبالله توفيقُك وعَوْنُك .

علىّ بن خلف :

قد تمسَّكَ أمَلى بضَمانك ، وتطلَّع رجائى إلى إحْسانِك ، وكَفَل لى النجاحَ مشهورُ كرمِك ، ورَغْبَتُك فى رَبِّ نِعَمِك ، ولِى من فضْلِك نَسيب أعتزِى إليه ، ومن شُكْرى شفيعٌ أعتمدُ عليه .

وله : المَواعيدُ ـ أطال اللهُ بقاءَ مولاىَ ـ غُرُوس ، حُلْو ثمرِها الإنجازُ والتعْجيل ، ومُرُّه المَطْلُ والتطويل ؛ وقد شامَ أمَلى من سَحائبِ فضـله ، حقيقًا بأن ينْهمِر ويَهْمِى ، وآرتاد من روض نُبْـله ؛ جديرًا بأن يَزيدَ ويَنْمِى ، فإن كانتْ هـذه المَخِيلة صادِقَه ، فلْتَكُنْ منه هِمَّةٌ للرجاء محقِّقه ، إن شاء الله تعالىٰ .

وله : همَمتُ أنْ أستصْحِب إلى مولاى ذَرِيعةً تحجُبُ مَطْلى ، وتكونُ حِجابا علىٰ وَجْهِى فى المطالعة بأَرَبِى ، فلَاحَ لى من أسارِيرِه بَرْقٌ أوضَح مَقْصِدى ، ومن أخلاقِهِ آنبساطُ آمَالَ تجعُّدى ، ولستُ مع معرِفَته بحقِّ نعمة الله تعالىٰ وحقِّ مؤمِّله ، محتاجًا عنده إلىٰ ذَريعة ولا مفتقرًا إلىٰ وَسيلة .

وله : ولا يحلُنى مولاىَ علىٰ ظاهرِ تجمُّلى ، وجميلِ توكُّلى ، علىٰ[1] حالٍ قد أحالَتْها العُطْلة ، وتخلَّلتها الخلَّة ؛ وإنما أُبقى بالتجمُّل علىٰ ديباجة هِمَّتى ، وأصونُ بالتخفيف عن الصديق مُروَّتى ؛ ولولا أنَّ الشكوىٰ تخفِّف متحمَّل البَلْوىٰ ، لأضربْتُ عن مُساءلته ، وأمسكتُ عن تذْكيره ، ولكنْ لابدَّ للوَصيب الشاكى ، من ذِكْر حاله للطبيب الشافى ؛ وقد كان برَق لى من سحَاب وَعْده ما هو جديرٌ بالانْهمار ، وأوْرق من نمائه ما هو حقيقٌ بالإثمار ؛ فإنْ رأىٰ أن يَسِم وجْهَ التأْميل ، بعد الإنجاز والتعْجيل ، فعل .

وله : ما حامَتْ آمالى ـ أطال اللهُ بقاءه ـ إلَّا وقعَتْ بحضْرته ، ولا صَعُبتْ علَىّ جوانبُ الرَّجاء إلا سَهُلتْ من جِهَته ؛ ولا كذَبَتْنى الظُّنونُ إلَّا صدَقها بعلُوِّهمَّته ؛ فلذلك أعْتلِق فى المُهِمّ بحبْله ، وأعتَصِم فى المُلِمّ بظِلّه ؛ وقد عرَض لى كذا وعليه فيه المُعوَّل ، وهو المرجُوُّ والمؤمَّل ؛ وما أوْلاه بالجَرْى علىٰ عادته فى رَيْش جَناحى ، والمعُونة علىٰ صَلاحى .

فى طلب كسوة ، من كلام المتأخرين :

أَلَا أَيُّها المَوْلىٰ الَّذى نَهْرُ جُودِه * يَزِيدُ وعَاصِى أَمْرِه الدَّهْرَ يَنْقُص!
إلَيْكَ ٱشْتِكَائى من دِمَشْقَ وبَرْدِها * وما أَنَا فِيه مِنْ أُمُورٍ تُنَغِّص!
وإنِّىَ فى عُرْسٍ من البَرْدِ دائِم * تُصَفِّقُ أَسْنانِى وقَلْبِى يَرْقُص!

المملوكُ يُنْهِى بعد الابْتهال إلىٰ الله تعالىٰ فى إدامة نِعْمته ، وإدالة دَوْلته ، أنَّه ماأَلِفَ من إحسانِه إلا أنَّه يُضاعِفُ رَسْم الإنْعام ، ويُواتِرُ إرْسالَه علىٰ مَمَرِّ الأيّام والأعوام ؛ وللمملوك فى خِزَانته الشريفةِ فى كلِّ عامٍ تَشْرِيفٌ يُفيضه علىٰ جَسَده ،

(١) كذا فى الأصول والظاهر "بل أنا على" الخ .

ويُسَرّ به قلوبَ أوليائه ويفُتّ أكبادَ حُسَّده، ويتّقى به سَوْرة الشتاء وقُرّه، ويجعله قُرّة ويحمِلُ به من الدَّعة وِقْره، وقد دَرَس رسمُه، وفُقِد من الدِّيوان المعمورِ اسْمُه، وهو يسأل بُروزَ الأمرِ العالى بإجرائه علىٰ عادتِه المستمِرّه، وقاعدتِه السالفةِ المستقِرّه، بتشريفِه بأخْذ التشريف ولُبْسه: ليدْفَع بذلك شِدّةَ البَرْد وأليمَ مَسّه، ويتذكَّر بها فى يومه مايُوجِب حمدَ المولىٰ وذَمّ أمْسه، ورأيُه العالى .

وله فى طلب ورق :

يا أسْمَحَ الناسِ ويامَنْ غَدَا * جَبينُه يُخْجِل ضَوْءَ الشَّفق!
جُودُك بالوَرْق(١) عميمٌ [فلِمْ] * أخّرتَ يامَوْلاىَ بَعْثَ الوَرَق؟

وله فى طلب رَسْم :

رَسْمِى يامَوْلاىَ غَدَا * مُؤَخَّرًا ولو حَضَرْ!
ولَوْ أرادَ سيِّدى * إحْضارَه، كانَ أمَرْ!
فقَدْ مَضىٰ مُحَرَّمٌ * وراحَتِى مِنه صَفَرْ!

وكتب كاتبٌ إلىٰ مخدومه، وقد تأخّر صرفُ معلومه :

وتَعْلَمُ أنّى كثيرُ العِيَال * قَلِيلُ الجِرايةِ والواجِبِ!
فلَسْتُ علىٰ ظَمَإٍ قانِعًا * بوِرْدٍ من الوَشَلِ الناضِبِ!
ولا شَكَّ فى أنَّنِى هارِبٌ * [ف]قَدِّرْ لنفسك فى كاتِبِ!

(١) الورق مثلثة وككتف وجبل الدراهم المضروبة اه من القاموس .

قلت : وكتبتُ نظمًا لأمير المؤمنين المستعين بالله أبى الفضل العبّاس : خليفة العَصْر، أستميحه حاجةً فى مجْلس كان فيه هو وولَدُه يحيىٰ وأخَواه داودُ و يعقوبُ ماصـــورته :

إذا رُمْتَ أن تَحْظىٰ بنَيْــل مآربٍ ❊ فبادِرْ إلىٰ العبّاس مِنْ آلِ عبّاس!
إمامٌ به ثغْــرُ الخــلافة باســمٌ ❊ وعِرْنِينُها يَسْمُو علىٰ قِمّــة الراسِ!
أبِى الفضْــلُ إلاّ أن يَكُونَ لِأهْلِه ❊ [دواما]وأنْ يُدْعىٰ أبا الفَضْل فى الناسِ!
فللمستعِينِ ٱقْصِــدْ تَجِدْ خَيْرَ مُنْجِدٍ ❊ حريصٍ علىٰ المَعْروف برًّا بإيناسِ!
فيَحْيا له يَحْــيىٰ وداوُدُ صِــنْوُه ❊ ويعقوبُ أعْضادًا وحصْنًا من البَاسِ!

✦✦✦

وكتبت لقاضى القُضاة شيخ الإسلام جلالِ الدِّين عبد الرحمن ٱبن شيخ الإسلامِ عُمر البُلْقِينى- أستميحُه حاجة أيضا :

أيَا شَيْخ إسْلام وقاضِى قُضاتِه ❊ ومَنْ قد سَما فى الناسِ عِلْمًا ومَنْصِبا!
لقَــدْ عَمَّ نَوْءٌ منك كلَّ مُؤمِّلٍ ❊ وحاشىٰ لبَرْقٍ شِمْتُ يظْهَرُ خُلَّبا!
أأُحْرَمُ معْروفًا له كُنْتُ أرْتجِى ❊ ويَحْجُبُ ذُو بُعْدٍ من القومِ أقْرَبا!
وما زِلْتُ أرجُو فى زَمانِك رِفْعةً ❊ ولكِنْ جَوادُ الحَظِّ بالبُعْدِ قدْ كَبَا!
ولَنْ يَسْتعِيضَ الخَفْضَ بالرَّفع ماجدٌ ❊ خُصوصًا ومَنْ أحْرَتَ ما نالَ مَطْلَبا!
ولَسْتَ تَرىٰ مِنّى إليْكَ وَسِيلةً ❊ سِواكَ وحَسْبى بٱعْتِلاك تقَرُّبا!

✣

وكتبت لقاضى القُضاة جمالِ الدين محمود القَيْسَرانى(١)، وهو يومئذٍ قاضى قُضاة الحنفيـة وناظِرُ الجُيوش المنصورة، أذْكُرُ بِطالةً عرَضَتْ لى من وظيفةِ مباشرةٍ كانتْ بيدى :

إلىٰ اللهِ أشْكُو مِنْ زَمانِى بَوارَهُ * فأمسيْتُ فى الحِرْمانِ بِى يُضْرَبُ المَثَلْ!
تَمادَيْتُ بَطَّالًا وأَعْوَزَتْ حِيـلةً * ولم يَبْرَحِ البَطَّالُ تُعْرَفُ له الحِيَـلْ!
فلا مُلْتَجىً جاهٍ ولا عِزُّ صاحِبٍ * ولا مالُكَ يَحْنُو فيـاقَوْمِ ما ٱلعَمَلْ؟
ولٰكِنَّ (محمـودَ) العَواقِبِ أرْتَجِى * ومَنْ يَحْمَدُ العُقْبىٰ علىٰ القَصْدِ قدْحَصَلْ!

✣

وكتبت للقاضى شمسِ الدين العُمَرىّ كاتب الدَّسْت الشريف فى حاجةٍ نَجَّزها :

إنْ لَّا أرىٰ عُمَرًا حَتَّى أُلِـمَّ بِهِ * أَلْفَيْتُ من نَسْلِهِ مَنْ كانَ لِى عُمَرا.
لم يَغْفُ عن حاجَتِى حَتَّى أُنَبِّهَـــه * وكَيْفَ يَغْفُو وفى المَعْروفِ كَمْ سَهِرا؟
جَعَلْتُه مبتَـــدًا فى رَفْعِـــه خَبَرِى * وعادةُ المبتَـــدا أنْ يَرْفَعَ الخَبَرا!

أجوبة ٱستماحة الحوائج

قال فى "موادّ البيان" : لايخلُو المستماح والمكلَّف حاجةً من أن يُسْعِف أو يمنَعَ، فإن أسعَفَ فقد غَنِىَ عن الجواب، وربما أجاب المُسْعِفُ بجواب مبنىّ علىٰ حُسْنِ موْقِعِ ٱنبِساطِ المستميح، والاعتذار عن التقصيرِ فى حَقِّه وإن كان قد بلَغَ به فوْقَ

(١) نسبة إلى قيسارية على غير قياس .

ما يجبُ له ـ تكرُّما وتفضُّلا ، وإن منع فربَّما أجاب بعُذْرٍ فى الوقت الحاضرِ أو عُذْر فى المستأْنفِ ، وربما أخَلَّ بالجواب تغافُلًا .

✣

وهـذه نسخة جواب بالإسعاف بالمقصُود ، كُتِب بها فى جوابٍ لكاتبِ السرِّ عن نائب الشام ، فى طَلَبِ إقطاع ، من إنشاء الشيخ جمـالِ الدين بن نُباتةَ إجابةً للطلوب ، وهى :

لازال قلمُها يَمُدُّ على الإسلامِ ظِلًّا ظَليلا ، ويستَجِدُّ صُنْعا جميلا ، ويأخُذُ بأمْرِ الله أعداءَ دِينه أخْذًا وَبِيلا ، ويقومُ باجتهادِه فى مَصالح المُلْك النَّهارَكُلَّه والليْلَ إلَّاقليلا ؛ تقبيـلَ مُواظِبٍ على ولاءٍ لا يجِدُ له تبْـدِيلا ، وثناءٍ لو سمِعَه المُحِبُّ فشَاقَهَ الأحبابَ إذًا لاتخَذُوه خليلا .

ويُنهِى ورُودَ مشرِّفة مولانا القديم فضْلُها ، الكريم وصلُها وأصلها ، فوقف المملوكُ عليها ، وأصْغى بجملتِه إليْها ، وعلِم مارَسَم به مولانا ، وأشار إليـه تبْيانا ؛ وكذٰلك بلَّغه مملوكُه الولدُ فلان المشافهة الكريمة مُحبِّذًا من صاحب السِّرِّ إسرارا وإعلانا ؛ وشكر لها مشرِّفةً ومشافهةً أوردا الإحسانَ مَثْنَى مَثْنىٰ ، وسرًّا سمعه المملوكُ لفْظا واستهداه مَعْنىٰ ؛ فما مِنْهما فى الإحسان إلَّا زائده ، ولا فى الصِّلات إلا عائده ، لا جَرَمَ أنَّ المملوكَ أقبل على قَبِيلهما بسمْعِه وناظِره ، وقلْبِه وخاطِره ، وجُمْلته وسائِره ، وآمتثل الإشارةَ العاليةَ التى من حقِّها أن تُقدِّم على كلِّ مهمٍّ يرِدُ عليه ، وأمْرٍ يتوجَّه إليـه ، ويدُ الزمان مشكورةٌ يأخُذُها منه بكلْتا يدَيْه ؛ وعيَّن المملوكُ لوقته الإقطاعَ المطلُوبَ ، وتقدّم بكتابةِ مربَّعته حَسَبَ مارَسَم مَنْ تجرى السعادةُ مِنْ سَطْره تحتَ مكتُوب ؛ وجهَّزها قرينَ هـذه الخدمة ومَنْ ذا يُقارِنُ سبْقَ ذٰلك البِرِّ المـديد ، وكيف تُوازى

المربّعة كتّابا هو بالإحسان للعُنُق تقليد، لا برحتْ مراسِمُ مولانا معدودةً من رُسُوم نِعَمه، ومشرّفاتُه محسوبةً من تشريفاته التى يَخْلَعُها على أبناءِ محبّيه وخَدَمِه .

النـــوع الثانى عشر

(فى الشــكر)

قال فى "موادّ البيان" : رقاعُ الشكر يجبُ أن تكونَ مُودَعةً من الاعتراف بأقدار المَوَاهب، وكِفاية الاستقلال بحُقُوق النعم، والاضْطِلاع بحملِ الأيادى ، والنُّهوض بأعباء الصنائع ، مايَشْحَذ الهِمَمَ فى الزيادة منها، ويُوثِّق المصطَنِع بإفاضة الصُّنْع ، ويعربُ عن كريم سجيّةِ المحسِنِ إليه .

قال : وينبغى للكاتب أن يِفتَنَّ فيها، ويقرّب مَعَانيها، وينتحلَ لها من ألفاظ الشكر أنوطَها بالقلوب: لتستيْقِنَ نفسُ المتفضِّل أنه قد اجتنى ثمرةَ تفضُّله، وحصل من الشكر على أضعافِ مابذَلَه من مالِه أو جاهِه، إلّا أنّه ينبغى أنها إذا كانتْ صادرةً من الأتباع إلى رُؤسائهم ، ومَنْ يرجع إلى اختصاصٍ وأثَرة، أنْ لاتبنى على الإغراق فى الشكر: لأن الإغراق فى الشكر يحمل هذه الطبقةَ على التملُّق الذى لايليقُ إلّا بالأباعد الذين يقصِدُون الدَّلالة على استقلالهم بحقُوق ما أُسْدِىَ إليهم ؛ فأما من صَفَا عليه من النعم مايدْفَع الشكَّ فى اعترافه بالذّل لديه ، فإنه يَغْنَى عن المبالغة فى الشكر والاعتداد ؛ ثم قال : وإنما يجب أن يذهبَ فيما يكتب عن هؤلاء من هذا الفنِّ مذْهَبَ الاختصار، والإتيان بالألفاظ الوجيزة الجامعة لمعَانى الشكر، دون مَذْهَب الغُلُوِّ والإفراط، وذُو الطبع السليم، والفكر المستقيم؛ يكتفى بيسير التمثيل .

وهذه نسخٌ من ذلك :

أبو الفرج الببغاء، فى شكر تابع لمتبوع :

أنا فى شُكْرِه ـ أيده الله ـ مُبَرْهِنٌ عن مَواقِعِ إحسانه إلىّ، وتظاهُرِ إنعامه علىّ، لامقـدّرٌ أنّى مع المبالغةِ والإسْهاب ، والإطالةِ والإطْناب ، أجازى عفْوَ تفضُّله ، ولا أجامِلُ أيسَرَ تطوُّله ؛ وقد وَسَمنى أيده الله من شَرَف اصْطِناعه ، بمـا بوّأنى به أرفَعَ منازِل خَدَمه وأتْباعه ؛ وإلى الله أرغبُ فى توفيقٍ من مقابلة ذلك بالاجتهـاد فى خِدْمته، والمبالغةِ فى طاعتِه ـ لِمَـا أكونُ به للمزيد مستوْجِبا، وللحُظْوة مستحِقّا .

وله فى شكر قريب :

فَرْضُ الشكر ـ أعزّك الله ـ لايَسْقُط بقرب الأنساب، ولذلك لا أستجيزُ إغفالَ الواجبِ علىّ منه، ولا أجدُ عُدُولا فى التسامح فيـه والإضرابِ عنْـه، وإن كنتَ غنيًّا عن الإفاضة فيما أعتقدُه من ذلك وأُضْمِره، وأُبْدِيه وأُظْهِره، بالمتعالَم من خُلُوص النيةِ وصحة الاعتقاد ، فلا أخلاكَ [الله] من جميلٍ تُسْدِيه، وتفضُّل تُولِيه؛ يمترِى لك المزِيدَ من سوابِغ النِّعم وفوائدِ الشكر .

وله : قد استنفَد مادّةَ شُكْرِى ، ووُسْعَ اعتِـدادِى ونَشْرى ؛ تتابعُ تفضُّـلِك ، وتوالِى تَطوُّلك ؛ ولستُ أقـدِرُ على النُّهوض بشكر مِنَّـةٍ حتّى تطرُقَنى منك مِنَّـه، ولا أُحاوِلُ مجازاةَ نِعمةٍ حتّى تَفِدَ علىّ مِنْـك نِعمه؛ فبأىِّ عَوارِفك أعترِف، أم بأىِّ أياديك بالثّناء أنتَصِف ؛ فقـد فزِعتُ إلى الإقْرار بالعجْز عمّـا يلزَمُ من فُروضك، وواجباتِ حقُوقِك؛ وانصرفتُ إلى سُؤال الله جلّ اسمه بإزاءِ شُكْرِ ماوهبَ منك، والتّجاوُزِ للمكارم والفضل عَنْك .

وله : وقد شكرتُ بِرَّكَ الجليلَ موْقِعه ، اللطيفَ موْضِعه ، الخفيفَ مَحْمَلُه ، العَذْبَ مَنْهَلُه ، وشافهتُكَ من ذلك بما آتّسعتْ له القُدْرةُ لا ما تقتضيه حقُوقُ المِنَّة .

وله : أنا فى الشكر بين نعمةٍ تُنْطقنِى ، وعَجْزٍ عما يجبُ لك يُخْرِسُنِى ؛ ولستُ أفْزَعُ إلىٰ غير تجاوُزِك ، ولا أعتمدُ علىٰ غير مسامحتِك ؛ ولا أتطاوَلُ إلا بمكانِى منك ، ولا أُفاخر إلا بمَوْقعى من إيثارك ؛ فالحمدُ لله الذى جعلَنِى بوَلائك مشهُورا ، وفى شكرك مقْصُورا .

على بن خلف :

رقعة : وينهِى أنَّ الله تعالىٰ لَمَّا ألْهَمَ مولانا البِرَّ ، ألْهم المملوكَ الشُّكْرَ ؛ فهو لايَزالُ يُوسِع فى البِرِّ ويَزِيد ، والمملوكُ لايَزالُ يُبْدِى فى الشكر ويُعِيد ، ولٰكِنْ شتَّانَ بين فاعلٍ وقائِل ، ومُعْطٍ وقابِل ، وواهبٍ وسائِل ، ورافدٍ وحامِد ، وشاكرٍ وشاكِدٍ ؛ وآلمملوك يحمَدُ الله تعالىٰ إذ جعل يدَه الطُّولى ، وحظَّه الأعلىٰ .

رقعة : وصل بِرُّ مولانا وقد أحالت الخَلَّةُ من المملوك حالَه ، وأمالَتْ آمالَه ؛ فلأَمَتْ ماصَدَعه الدهرُ من مَرْوَته ، وجدَّدَتْ ما أخلقه من فَرْوته ، فكفَّ المملوك يديه [عن] آمتحان الخُلَّان ، وقبضَ لسانَه عن شِكاية الزَّمان ، وأقرَّ ماءَ وجْهه فى قَرَارته ، وحفِظ علىٰ جاهِه لِباسَ وَجَاهته ؛ فيالَهُ من بِرٍّ وقَع من الفقر ، مَوْقِعَ القَطْر من القَفْر ، ولم يتقدَّمْه من قدامة الوَعْد ، ما يتقدَّم القَطْرَ من جَهامة الرَّعْد ؛ وكلُّ مَعْروفٍ وإن فاضتْ ينابِيعُه ، وطالتْ فُروعه ، قاصرٌ عن الأمل فى كرمه ، واقعٌ دُونَ غاياتِ هممه ؛ كما أنَّ الشكر ولو وَاكبَ النَّجْم ، وساكبَ السَّجْم ، قاصرٌ عن مكافاة تفضُّله ، ومُجازاة تطوُّله ؛ والمملوكُ يسأل اللهَ تعالىٰ الذى جعله قُدْوة

الكرام، وحسنَةَ الأيّام، وربِّ الإنعام، وواحدَ الأنام، أن يُلهم المملوك من حَمْده، بقدر ما أسبغه عليه من رِفْده .

رقعـة شكر : عِنـد المملوك لسيِّدى أيادٍ وصلَتْ سابقـةً هَواديها ، وظلّتْ لاحقةً تَواليها ، فصارتْ صُـدورُها نسبا أعتزِى إليـه ، وأعجازُها [سببًا أعوّل فى الملمّـات عليه] .

رقعـة : لولا أنّ الله تعالىٰ جعل الشُّـكر ثمرةَ البِرّ، والحمـدَ جزاءَ الرِّفْد، وأراد إقرارَهما علىٰ أهلهما من الغابِرين ، وأن يجعَـلَ لهم منّا لسانَ صِـدْقٍ فى الآخِرين ، لكان الذى غَمَر به مولانا من الإنْعام ، يُحـدِّثُ عنـه تحدُّثَ الرِّياح بآثارِ الغَمام ، ويُكْفىٰ المملوكُ بالإشاره، مَئُونةَ العِباره، والمملوكُ وإنْ رام تأديةَ ما يلزَمُه من شُكره، قاصرٌ عن غاية بِرّه، ولو آستَخْدَم ألسِـنَةَ الأقلام ، وآستغْرقَ أمَدىِ النَّثار والنِّظام، ومولانا جديرٌ بقَبُول اليَسِـير ، الذى لا تُمكِنُ الزِّيادة عليه، والصَّفْح عن التقصِـير، الذى تَقُودُ الضرورَةُ إليه، إن شاء الله تعالىٰ .

رقعـــة : لو أنّ هذه العارِفةَ بِكْرُ عوارِفه ، وباكُورةُ لطائفِه ، لعجزْتُ عن شُكْرها ، وقَصَّرت عن نَشْرها ، فكيفَ وقد سـبَقَها قرائنُ ونظائر، وتقدّمها أترابٌ وضَرائر، [مِمـا] أثقَل من المملوك كاهلَه ،وبَسَط به يَدَىْ أمله ،فما يَعْدَم شيئًا فيُرَجّيه، ولا يَفْقده فيَرْغَب فيـه ، والذى تَرُبُّهُ من المملوك جوارِحُه، وتَحْوِيه جوانحُه، علمُه بأنه لايُجارِى أياديه ، ولا يُجازِى مَسَاعيه ، والله تعـالىٰ يخصُّه من الفضائل ، بمثل ماتبرّع به من الفَواضل .

رقعة : ومثل مولانا من [ذوى الشرف] (١) والسودد من حسن مخضره، وطاب مخبره، وكرم غيبه ومشهده، وصح على تغاير الأحوال عقده ووده، وقد اتصل بالمملوك ماأعاره له مولانا من أوصافه، وجرى فيه على عادة فضله وإنصافه، فطفق لفضله شاكرا، ولطوله ناشرا، وأضاف ذلك إلى توالد إحسانه، ونظمه فى عقد امتنانه .

رقعة : قد طوق مولانا [مملوكه] من فضله طوقا كأطواق الحمائم لاينزع ، وألبسه بردا من بره لايخلع، وأولاه من مزيده ما قصرت الهمة عن تمنيه، ولم تهتد القريحة إليه فتستدعيه، ولو وجد المملوك جزاء على عارفته ، وكفاء لمثوبته ، غير الموالاة الصريحه، وعقد الضمائر على المودة الصحيحه ، واللهج بالشكر، فى السر والجهر، لرمى من وراء عنايته، ولا استبعد طول شقته ، ولكن المملوك عادم لما يقابل به يده الغراء ، عاجز عما يقضى به حق موهبته الزهراء، مالم يحسن كرمه أمره، ويقبل منه على التقصير شكره، ويضف ذلك إلى لطائفه، وينظمه فى سلك عوارفه، إن شاء الله تعالى .

رقعة : واجتهاد المملوك فى نشر أياديه وشكرها ، كاجتهاد مولانا فى كتمانها وسترها، فكلما أبديتها بالثناء أخفاها، أو نشرتها بالإشادة طواها، وهيهات أن يخفى عرف كعرف المسك نشرا ، ومن كالروضة نورا والغزالة نورا ، ولو كان المملوك والعياذ بالله ستر هذا العرف بكفر ، واغتمصه مانعا لشكر ، لنم عليه حسنه نموم الصباح ، وتوقد توقد المصباح ، فكيف وللمملوك مقول لايسامى [يعجم سواد] (٢) الليالى بالإحماد ، ويرقم صفحات النهار بالاعتداد .

---

(١) بياض فى الاصول والتصحيح من المقام .

(٢) فى الاصول « ولا يسامى الليالى » الخ وزدنا مايقتضيه المقام ويتم الكلام تأمل .

الأجوبة عن رقاع الشكر

قال فى "مواد البيان" : [ان كانت] هذه الرِّقاع من المرءُوسين إلى الرُّؤساء فلا جوابَ لها . وإن كانتْ من النَّظير فالواجبُ أن يُستعمل فى أجوبتها مندُوبُ التناصُف والتفاوض .

جواب عن فعل المعروف والشكر عليه من كلام المتأخرين :

من ذلك، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة ، وهو بعد الصدر :

خلَّد اللهُ على الممالك نِعَمَه ، وعلى المماليك دِيَمَه ، وحرَّم ببقائه ذَمَّ الزمان وأوجب ذِممه ، ولا برح نحوُ المحامد يُنادى يومَ الكرم مُفْرَده ويومَ الهِياج عَلَمَه . تقبيلا يسحَبُ فى الفَخَار بُروده المُعْلَمه ، ويتذكَّر بالقرب فلا يزال الشوقُ يُنْتِجه حيثُ كلا التَّذْكارِ والعهد مُقَدِّمه .

وينهى ورُودَ المثال العالى بما ملأ القلبَ خيْرا واليدَ برّا ، والسمعَ بِشارةً والوجهَ بِشْرا ، حتى تنافستِ الأعضاءُ على تقبيله ، والجوارحُ على تأميله ؛ فاليَدُ تسابق إلى مِنّته بالامتداد ، والقلبُ يسابِقُ إلى كَرَم عَهْده بالاعتداد ، والوجهُ يقلِّب ناظره فى سماء مَواقع القلَم ، والسمعُ ينْعَم بما تقُصّ عليه المَسارُّ من أخْبار جيرة العَلَم ؛ حتى كاد المملوكُ يمحو بالتقبيل أسْطُره ، ويشتغلُ بذلك عن استجلاء ماذكره المُنْعِم لاعدِم المملوك فى مصر والشام تكرُّره ؛ وفهم ما أشار مولانا إليه من الفضلِ الذى مولانا أهْلُه ، وكرمِ العهد الذى لا يُنْكَر من مثله وأين مِثْلُه ، وقابل المملوكُ جميع ذلك بجَهْده من الأدْعِية الصالحه ، وبسَماحة الحمد المُتفاوحه ، والاعتداد بنعمة مولانا التى لولا [مُوالاتُها](١) كلَّ وقتٍ لقيلَ فيها «ما أشبهَ الليلةَ بالبارِحه» وتضاعفَ

(١) بياض فى الأصل والتصحيح من المقام .

نُهوضَ المملوك علىٰ قَدَم المُوالاة التى [يستشْهِد] فى دَعْواها بشَهادة الخاطر الشريف ، ويتقدَّم بها تقدُّما تحتَ لواء الولاءِ وتأتى بقيَّة الأولياء فى اللَّفيف ، والله تعالىٰ يُوزِع المملوكَ شُكرَ هذه النِّعَم المتصلِ مدَدُها ، والمِنَنِ التى لا يَعْدَمُها ولا يعُدُّها ، ويطيلُ بقاء مولانا لحمدٍ يجْتَليه ويجْتَنيه ، وشرفِ دنيا وأخرىٰ يهدِمُ وَفْره وعُمُره ويبْتَنيه .

النوع الثالث عشر
(العِتاب)

قال فى "موادّ البيان" : المكاتبةُ بالمعاتَبة علىٰ التحوُّل عن المودّة والآستخفاف بحقُوق الخُلَّة من المكاتبات التى يجبُ أن تُستوفىٰ شروطُها ، وتكمَّل أقسامُها : لأن ترخيصَ الصَّديق لصَديقه فى المقاطَعَة والمُصارَمة دالٌّ علىٰ ضَعْف الآعتِقاد ، وآستحالة الوِداد .

من كلام المتقدّمين :

إنَّنى ما أحدثتُ نَبْوه ، إلَّا بعد أن أحدَثْتَ جَفْوه ، ولا أبديتُ هَجْرا ، إلَّا بعدَ أن أبديْتَ غَدْرا ، ولا لَوَيْتُ وَجْها عن الصِّلة ، إلَّا بعد أن ثنَيْت عِطْفا إلىٰ القَطيعة ، والأوّلُ مِنَّا جان ، والثانى حانٍ ، والمتقدّمُ مُؤْثِر ، والمتأخّر مُضْطَر ، وكم بين فعل المختارِ والمُكْرَه ، والمبتَدِع والمتَّبِع .

آخــر : إنْ أمْسكْتُ ياسيدى عن عِتابِك ، مُرْخِيا من عِنانك ، كنتُ بين قَطْع لحَبْلك ، ورِضًا بفِعْلك ، أو آقتصرتُ فيه علىٰ التَّلْويح به لم يُغْنِ ذاكَ مع كثرة جُمُوحك ، وشدّة جُنُوحك ، وما آرتكبْته من رائك ، وآستخرجْته من جَفائك .

رقعة عتاب : لمولانا لدىٰ المملوك عوارِفُ لا يهتدى إلىٰ معرفتها فيوفّيها كُنْهَ المُراد، وأيادٍ لا يبلُغ ماتستحقُّه من الإحماد ؛ ولو عَضَّدتْه خُطباءُ إيَاد، أجلُّها فى نَفْسه خَطرا، وأحسَنُها عليه أثَرا، ما يَفرِضُه له من بِرِّه و إكرامه، وتعهُّده وٱهتمامه ؛ وقد غيَّر مولانا عادَتَه، ونَقَضَ شيمتَه ؛ وبَدَّل المملوكَ من الانعطاف بالإعراض، ومن الانبساط بالانقباض ؛ وحَمَّله من ذٰلك ما أوهىٰ قُوىٰ صبْره، وأظلَمَ بصائرَ فِكْره ؛ فإنْ يكُنْ ذٰلك لخطإٍ واقَعه المملوكُ ساهيًا، وجُرْم ٱجترَمه لاهِيًا ؛ فمِثْلُ مولانا لا يُطالِب إلَّا بالقَصْد، ولا يُعاقِب إلَّا علىٰ العَمْد، إذ كان المملوكُ لا يُعْصَم من زَلَل، ولا يَسْلَم من خَلَل ؛ اللَّهمَّ إلا أن يكونَ مولانا أرادَ من المملوك تَقْويمَه وتأديبَه، وإصلاحَه وتهذيبَه : ليُحْسِنَ أثرَه فى خِدْمته، ويَسْلُكَ السبيلَ الواضحَ فى تِباعته، فلا أعدَمَ اللهُ المملوكَ تثقيفَه، ولا سلَبَه تبْصيره وتعريفَه ؛ و إنْ كان ذٰلك لشَكٍّ عَرَضَ من المملوك فى وِدَاده(١)، وٱرتيابٍ خامَرَ فى حُسْن ٱعتقاده ؛ فأُعيذُه بالله من القَطْع بالشُّبُهات، والعمَلِ بمُنْغِل(٢) السِّعايات ؛ ومولانا خليقٌ بأن يُطْلِع من أُنْس المملوك ماغَرَب، ويُنْبِط من سُروره مانَضَب ؛ ويُعيدَه لرِضاه، ويُجْرِيَه علىٰ ما أحمدُه منه وأرْضاه .

رقعة : ليس المملوكُ يَرْفَع مَوْلانا فى إعراضه، إلَّا إلىٰ فَضْله، ولا يُحاكمُه علىٰ ٱنقباضه، إلَّا إلىٰ عَدْله ؛ ولا يَستعينُ عليه إلَّا بما يستَمْليه من آدابه، ولا يناظرُه إلا بما أخذه عنه من مُحافظته و إيجابه ؛ إذ كان المملوكُ مُذْ وصلَتْه السعادةُ بحباله، ناسجًا علىٰ مِنْواله ؛ متقبِّلا شرائفَ خِلاله . وما عهِدتُه عَمَر اللهُ مَعاهدَه، وكَبَت

(١) لعـله لولىٰ .

(٢) يقال أنغلهم حديثا سمعه ثم إليهم به أنظر اللسان ج ١٤ ص ١٩٤ .

حاسده ؛ يغضبُ تقليدًا قبل الاختبار ، ويُحْوِج البرىءَ إلى مَوْقِف الاعتذار ؛ ولا سيّما إذا كان المظنونُ به عالمًا بشروط الكرم ، عارفًا بمواقع النِّعم ؛ لاينسخ الشكرَ بالكُفْر ، ولا يتعوَّض عن الحَمْد بالجَحْد ، وقد عرف مولانا شاءَ المملوك على تفضاله ، ووقف على بَلائه لأعماله ؛ وهو وفيٌّ بِربِّ عوارفه وصنائعه ، وتميز مارَهن لدَيْه من وَدائعه ؛ وتنزيهِ سَمْعه عن الإصغاءِ إلى مايختلقُه حاسد ، ويصُوغُه كائد ؛ وقد حكّم المملوكُ على نفسه نَقْدَه الذى لايُبهْرَجُ عليه ولا يدلَّس ، وكَشْفَه الذى لايُغَطّى عليه ولا يُلَبَّس ؛ فليَحُكَّ أفعالَ المملوك على مَحَكّ بصيرته ، وليُجِلْ فى تأمُّل مقاصِده طَرْفَ فكْرته ؛ فإنه ممن لاتُحيلُه الأحوال ولا تُحوّله ، ولا تُغيّره الغِيَر ولا تُبدّله ؛ إن شاء الله تعالى .

رقعـــة : أفعالُ شكرِ[1] المملوك فى الحِلْم والغَضَب ، والرِّضا والسَّخَط ، إذا لم يقتض الحزمُ إيقاعها مَوْقِع الفضل ، واقعةٌ مَوْقِعَ الإنصاف والعَدْل ؛ ولا يُغلِّبُ هواه على رَأْيه ، ولا بادرتَه على أناته ؛ وقد جانَبَ مع المملوك عادتَه ، وبايَن فيه شِيمتَه ؛ ونالَهُ من إعْراضه ، وجفَائِه وانقباضه ، وتغيُّر رأْيه ، ماوَسَمَ المملوكَ فيه بالذَّنْب ولم يُذْنِبه ، وحمله على الجُرْم ولم يَحْتَقِبْه ؛ وأوقفه لدَيْه مَوْقِفَ الاعتذار ، وأحْوجه إلى الاستقالة والاستغفار ؛ وليس المملوكُ يُحاكِمُه إلّا إليه ، ولا يُعوّل فى الانتصاف إلّا عليه ؛ وما أَوْلاه بأن يُعيد المملوكَ إلى محلّه من رضاه ، فإنه لم يُواقِعْ فى خدْمته إلا مايَرْضاه ؛ وحسبُه شاهدًا بذلك مايعلَمُ من المملوك من سَلامة غَيْبه ، وطهارة جَيْبه ؛ وفَضْل وُدّه ، وصحّة معتقده ؛ إن شاء الله تعالى .

(١) كذا فى غير أصل ولعله " أفعال شيم المولى " ليستقيم الكلام بعد .

رقعـة بمعاتبة على[١] :

كلُّ مانعٍ مالَدَيْه مَنْ رَغِبه ، دافعٍ عمّا عنده مَنْ طَلَبه ، مستغنٍ عنه إلّا الله تعالى المُبتدِئ بالنِّعم ، العوّادُ بالكَرَم ، ولو عَرَف مَوْلانا بطَعْم شجرةِ[٢] المعْرُوف ، لأسرعَ إلى آحتِذائها ، ولو علم مالله تعالى عليه من الحُقُوق فى ماله وجاهه ، لم يُقصِّر عن أدائها ، غيرَ أنه ظَنّ أنّ الفوزَ بالوُجْد ، غايةُ المَجْد ، وأنه إذا أَحْمدَ النَّسَبَ غنىٌّ عن الحَمْد ، وأنّ النعمةَ تُرتَبَط بالرَّبْط عليها ، وتَنصرف بالتّصرُّف فيها ؛ وما ساء المملوكَ أن تنزّه عن تقلُّد مِنّة لئيم ، وحُرِم مَحْمَدةً من كريم ؛ وهذا الحِرمانُ أحسنُ والله فى عين المملوكِ من النّوال ، وهذا الإكداءُ أبرُّ لديه من بُلُوغ الآمَال ، وسينْشُر المملوكُ مَذْهبه فى كلّ ناد ، ويكُفّ عنه أمانىّ القُصّاد ، ويكفيه مُؤُونةَ الاعتذار ، ويصُونُه عن أن تُبْذَل إليه وُجُوهُ الأحْرار : ليعلَمَ أنّ المملوكَ على مَنْعه لم يُقصِّر فى بُلُوغ أوْطارِه ، والسَّعيِ فى إيثارِه ، إن شاء الله تعالى .

رقعـة فى المعنى : ماردّ المملوكُ بِرَّ مولانا مستنْزِرا لقليله ، ولا لائمًا لنفسه على تأميله ، لكنّه آنتجعه آنتِجاعَ من ظَنّه عارفًا بقَدْره ، راغبًا فى شُكْره ؛ فلو أعطى المملوكُ منه على الاطّراح لأمْره ، لاستدلّ منه على قِصَر الهِمّة ، وظَنّ أنه قوّمه بدُون القِيمة ؛ لاسيّما وهو يَقْرِض لمن لا يُجارِى المملوكَ فى مِضْمار ، ولا يُساويه فى مِقْدار ، من غير قَصْد بتأميلٍ ورَجاء ، وتقديمِ ذريعةٍ من تَقْريظ وثَناء ، ماتَضيق عنه الهِمَمُ الفِسَاح ، ولا يَصل إليه الاقتراح .

---

(١) بياض فى الأصل ولعله « على منع عطاء » .

(٢) لعله « ثمرة المعروف ... ... الى اجتنائها » تأمل .

رقعةُ عتاب، علىٰ تقصير فى خطاب :

حُوشِىَ مولاىَ أن يجُرَّ الذَّيْلَ علىٰ آثارِ فَضْـلِه ، ويُميتَ من غُرُوس إحسانه ماهو جديرٌ أن يَتعهَّده بوَبْله ؛ ويُعفِّىَ مِنِّى رُسُومَ كَرَمه، ويَصْدَعَ بمجانبة الإنْصاف صَفاةَ صفاته وصفَائه، ويُنْطِقَ الألْسُنَ بعتابه، ويُصْلِت سيفَ التأنِيبِ من قِرابه ؛ بما آستحسَنَه من مستقبَح المُصارَمَة فى المخاطبه، وآستَوْطاه من جامح التَّرْبِيث فى المُكاتَبه ؛ ولا سِيَّما وهو يعـلَمُ أنَّ موْقِع الإكرام من الكِرام ، ألطفُ من موْقع الإنْعام ؛ وأن مَحَلَّ القال، أفضلُ من محلِّ النَّوال، وأن تغيُّر العادة فى البِرّ، مُقَوِّض لمَعَاهِد الشُّكْر، وسبيح (؟) السنة فى الإنْصاف، قاضٍ بالإنْصراف بعد الإنْعطاف، وقد كان المملوكُ أزمَعَ أن يتحمَّل تقصيرَه به ، وأن يفُـلَّ من غَرْبه ، غيرَ مطاوِعٍ لحميَّة ، ولا مُنْقادٍ لنفس العَصَبية، ولا يقْرَعَ سَمْعه بعتَاب ، ولا يُورِدَ عليه مُمِضَّ خطاب ؛ ثم رأىٰ المملوكُ أن يُرشِدَه إلىٰ الأزْيَن ، ويبعَثَه علىٰ آعتمادِ الأحْسَن ؛ ويَحُضَّه علىٰ مُراجعةِ الأفضل، ومُعاودةِ الأجْمَل : ليتحَفَّظ مع سِواه، ولا يجْرِىَ مَجْراه ؛ فليس كلُّ أحدٍ يتحَمَّله، ويرضىٰ رِضَا المملوكِ بما يفْعَلُه ؛ فمولانا حبَّب الله إليه الرَّشَد، ووفَّقه إلىٰ المَنْهَج الأسَدّ، هل هو من شيءٍ سوىٰ بَشَر ؛ فما هذا التِّيهُ والبَطَر ؟ ولِمَ هذا الأزَلُ والأَشَر ؟ وما فِعل الرئيس إلى مايصْغُر عنه قَدر ؛ ولا يَيْأَس من نَيْله عمر ؛ ولا مضَتْ أقلامُك فى الأقاليم ، ولا أُشيرَ إليك ببَنان التعظيم ؛ ولا فُوِّضتْ إليك الوزارةُ والرِّدافَة ، ولا تأمَّرْتَ علىٰ الكافَه ؛ ولا طاوَلْتَ الأكفاءَ فطُلْتَ، ولا ناضَلْت القُرناءَ فنضَلْت ؛ وإنما سَرَق إليك الحظُّ من ثِمَاده وَشلا مُصَرَّدا ، وأدرَّ لك الدَّهْرُ من أخلافه مُجَدَّدا ، فافتتحتَ المعامَلَة بظُلْم الإخْوان ، ونَسْخ شرائع الإحْسان، كذَبَتْك نفْسُك، وغَرَّك حَدْسُك، كيف بك غدًا إذا آستَرَدَّ الزمنُ ماخَوَّلَك ، وآسترجَعَ مانَوَّلَك ؛ وصَحَوْتَ بالعزْل من سَكْرة

الوِلَايه، وتقرقرت(١) بعـد طَلَب الغايه ، وعُدْتَ إلىٰ إخوانك فوجدْتَ أوطانَ أُنْسِهم بك نابِيَه ، ونُفُوسَهم للإقبال عليك آبِيَه ؛ ولو كان الزمنُ أمكنَكَ من رَقَبتى ، وطرّقَ لك الطريقَ إلىٰ إيداع عُرْفك فى جِهَتى ؛ لقَبُح بك أن تَطُول بطَوْلك ، وتدَّعى الفضلَ بفَضْلك ، ولم يحسُنْ أن تُبـدِّل الإنْعام ، وتَضِنَّ بالالتزام ؛ فإن كنت تفخَر بسَلَفك وأبُوَّتك ، وتُطاوِلُ بأوَّلِيَّتك وأُسْرتك ؛ فلو كان أبوك كِسْرىٰ ، لما جَبرَ منك كَسْرا ، ولو كان جَدُّك بُخْتَ نَصَّر ، لما آنتفعت به فى مُظاهَرة ولا نَصْر ، فدَعْ أكْثرَ مافات ، ولا تُعَوِّلْ علىٰ العِظَام الرُّفَات ، فما آستَنَدَ إليها إلّا عارٍ من الفضـل عاطِلٍ من الحِلىٰ . علىٰ أنك لو فاخرْتَنا بها لفخَرْناك ، وتقدَّمْنا وأخَّرْناك ؛ وإن كنتَ تستَنِد إلىٰ دِيانتـك ، وتعتمِدُ علىٰ نُسُكك وأمانَتك ؛ فهـذه خالصُ حالٍ لا تخْلُص مرتَبَتُهـا ولا تتِمُّ فضـيلتُها إلا بآستِشْعار التَّواضُـع ، والأخْذِ بمكارم الأخلاق لدىٰ التنازُع ؛ فارْجِعْ هِدْيَتَك(٢) إلىٰ الأجَلّ ، وآعمَلْ بالأفضـل ، وقِفْ بحيثُ رُتْبَتك ؛ ولا تتشـوّفْ إلىٰ غير دَرَجَتـك ؛ وإن أبيتَ ذاكَ فاقْطَع المراسَـلَه ، وأعْفِهـا من المواصَله ، والسلام .

رقعة عتاب علىٰ تأخر المكاتبة :

من حُكْم الوِدَاد ـ أطال اللهُ بقاءَ سيدى ـ الزيارةُ عند المُقارَبة ، والمكاتَبةُ عند المُباعدة ؛ وإن كانت المودّةُ الصريحةُ لا يُغيِّرها آجْتناب ، إلا أنَّ الكُتُب ألْسُنُ البِعَاد ، والأعيُنُ التى تنظُر حقائِقَ الوِدَاد ، ولها فى القُلُوب تأْثير ، وموقِعُها فيها أثِير ؛ وحُوشِىَ مولانا أن أهُزَّ أرْيَحِيَّته لما يؤَكِّد الثقةَ بإخائه ؛ ويشْهَد بوَفَائه ؛ ولا سِيَّما وهو يَفْرِضُ ذلك لأحِبَّته ، وقولُه واجبٌ فى شرع مَوَدّته .

(١) لعـله « وتقهقرت » . (٢) فى الأصل « عديتك » .

رقعـة فى معناه :

إن ٱبتـدأ المملوكُ مولانا لم يُجب ، وإنْ سأله الإبتـداءَ لم يُوجب ؛ فلا حَقّ الإجابة تُؤدِّيه ، ولا ناجِزَ المسألة تَقْضيه ؛ فإنْ كان إذا شخَصَ غابَتْ عن فِكره أشخاصُ أحبّته ، وإذا بَعُد عاملَهُم بتجافيه وجَفْوته ، فقد كان ينبغى أن يتكلّف ويتجمَّل ، ويتصنَّع ويتعمَّل : فإنه لو علَّل مشوبا بالآنتظار ، أو ٱعتـذر ممرِّضًا بالآعتذار ، لأقمتُ ذلك مُقامَ المكاتبه ، وصُنْته عن مَحْض المُعَاتبه ، لكنّه مال مع المَلَال ، ورضِىَ الإِطِّراحَ والإهمـال ، ودلّ علىٰ أنه مستقِلٌّ بالإخوان ، متَنقِّلٌ مع الزمان ، وأرجو أن تَصْدُقَ المَخيله ، ويَرْجعَ إلىٰ العادةِ الجميله .

رقعة معاتبةِ رجل كريمِ الأصل لئيمِ الفِعل :

قد عَرَف مولانا وَفّقه الله ووقَفه علىٰ مَنْهج الرَّشاد ، أنَّ جنايةَ الغضب الذّميم ، تقْـدَح فى كَرَم إِلحنْث[1] الكريم ، وأنَّ قَبيحَ الصَّلَف ، ينْسَخ تَليـدَ الشَّرَف ، وخبيثَ الذُّرِّيه ، يُعَفِّى علىٰ طِيبِ المَناحتِ الزَّكيّـه ؛ وأنه ليس لمن تحَلّىٰ بالظُّـلم والجَوْر ، وتلبَّس بالنَّكْث والغَـدْر ، وسامَح نفْسَه باطِّراح الحُقُوق ، وٱستِيطاء العُقُوق ؛ إلّا إضاعةُ الحُرَم ، وإخْفارُ الذِّمم .

المعاتبة من كلام المتأخرين :

الشيخُ شِهاب الدين محمود الحلبى :

يُقَبِّل الأرضَ ويُنْهِى أنه قد صار يَرىٰ قُرْبَه ٱزْوِرَارا ، وطويلَ سَلامه ٱخْتِصارا ، ويُغالِطُ فى ذلك حتّى شاهده عِيـانًا مِرارا ؛ هـذا وبِكْرُ الوَلَاء ، صَقيلةُ الجِلْباب ،

(١) جنث الانسان أصله · ووقع فى الأصل "الحديث" وهو تصحيف ·

وعَروسُ الثناء، جميلةُ البِزّة حسنةُ الشَّباب، وهو لايفتأ من المُوالاة فى صَعَد وقَدْرُه فى صَبَب ؛ فكُلّما مكّن وَتَدَ الاستعطاف يرجو عدمَ تخلخُله فُصل بأيْسَرِ سَبَب ؛ بحيثُ أطفأ الإهمـالُ نارَ المُساعَفَة والمُساعَدَه، وانتقل توهُّمُ عدمِ العِناية إلىٰ تيقّن وُجوده بالمشاهَدَه ؛ وقدكان يُرْفَع قدره نخُفِض، وعُوِّض فى الحال عن الرَّفع بالابتداء، أنه مُفْرَد ويُنْصَب كالنكرة فى النِّداء، وأُهْمِل حتّى صار كالحُروف لا تُسْنَد ولا يُسْنَد إليهـا ، وأُلْغِيَ حتّى شابَهَ ظننْتُ إذا وقعتْ متأخّرةً عن مفعُولَيْها ؛ ومتىٰ يقْلَقْ لأمرٍ، أنشد نفسه * ما فى وُقُوفكَ ساعةً من باسِ *

وكان يَغْشىٰ مجْلِسَه الكريمَ خدمةً وأداءً للواجب ، وطلبًا لعادةٍ أكّدها إحسانُه حتّى صارتْ ضربَةَ لازِب ؛ فلا يخلُو مجلِسٌ من إظهار تغـيُّرِ عادةٍ وَطَّد الجُودُ أساسَها، وانتقاضِ قاعدةٍ أبْرَم الكَرَمُ أمْراسَها؛ فينقطِع سُـلوكًا للأدب وتخفِيفًا عن الخَواطِر ، ويتلقّىٰ مايصْـدُرُ بقلبٍ شاكٍ ولسانٍ شاكِر ؛ فإنْ كان قد عَزَم مولاه علىٰ طَرْده، وعوَّضه عن مِنْحة القُرْب المِحنَةَ ببُعْدِه؛ فإنه يأبىٰ ذلك جُودُه ولُطْفُه، ومعرفه يشْكُر ويزيدُ لا يمكنُ صَرْفُه؛ ولو جاز الصَّرفُ لمجرّد (١) بالعُبُودية لمَنَعه العدْلُ من سيِّده، والحِلمُ الذى عُرِف من كريم محْتِـده؛ فكان المملوكُ يستحْسَن فى جبْره وسـبْره ، ويعوِّضُ عن مقابلتـه بجَبْره ؛ فقد صار سمينُه غثًّا وشحمُه ورمًا، وحديثُه رثًّا وسهله علَما :

وعَيْنُ الرِّضـا عَنْ كُلِّ عيبٍ كَليلةٌ * كما أنَّ عينَ السُّخط تُبْدِى المَساوِيَا

وما تمّ بحمـد الله مايُوجِب ذلك ولا بعْضَه ، ولا يُحْدِثُ ذمَّ المملوك وبُغْضَـه ؛ ولو بَدَا منه زَلَل، أو لمَح منه خَطَل؛ فمكارمُ مولانا أوسَعُ من إبقاء ذلك فى صُدُور الصُّدور، و[أحرىٰ بـ]ـمَحْوِ آياتِ السيّئات فإنه لَمِنْ عَزْمِ الأُمور .

(١) بياض بالأصل ولعله « لمجرد الشك بالعبودية » .

* * *

وله : يخدم بدعائه، وصادق ولائه، وينهى أنه انكسر خاطره، وأرق جفنه وناظره، وتضاعف بلباله، وتزايدت فى النقص أحواله، منذ تأخرت الأمثلة الكرام، وانقطعت عنه بانقطاعها المنن الجسام، وهو يسأل العفو عن ذنب وقع، وتشريفه بمثال يرفع من قدره ما وضع، واستعمال الصفح عنه كسائر عاداته، وإجراءه على اللطف الذى ألفه من تفضلاته، فقد ضعف صبر المملوك وجنانه، وتفرق للفراق جفنه وإنسانه، وصغر قدره، وأهمل جانبه وممن أمر بإهانته نحره، ولهذا ضاقت عليه المسالك، وكان لسان حاله [ينشد] فى ذلك :

وأهنتنى فأهنت نفسى عامدا * ما من يهون عليك ممن يكرم!

والمملوك معترف بأنه مازال يجهل مايجب عليه من الخدم، ومقر بتقصيره عن القيام بحمل مايواصل به من النعم، لكنه ألف من مولانا أن يقابل إساءته بالإحسان، وجهله بصفح لايقوم بشكره اللسان، بل جميع الجثمان، فإن كان ذنب من المملوك هو الذى أوجب اطراحه، وأوجد أسفه وأذهب أفراحه، وكان أيسر مما تقدمه من جهله وإساءته، فحلمك جدير أن يلحقه بإخوته، وإن كان قد تزايد مقداره، فالمولى قد تضاعف على العفو اقتداره، وإذا كبرت الخطيئة كثر أجر غفرانها، وعلت المجاوزة عنها على أقرانها، وعلى كلا الأمرين فقد استحق المملوك المغفرة بكل طريق، وأن يقابل رجاؤه بالتحقيق، وأمله بالتصديق .

* * *

وله : وينهى أنه ما زال يتلو آيات محاسنه وحمده، ويرفع رايات إحسانه ومجده، ويتولاه ولا يتولى عن محبته، ويكثر الثناء على ألمعى فطنته وجزيل

مُرُوءته ، وقد صار يُشاهد من المولىٰ مَلالًا وصُدودا ، وإعراضًا يَغيظ به صـديقًا ويَسُرّ به حَسُودا ، واطّراحا أوْهَمه أنه ألِفُ وَصْلٍ دُرجتْ ، أو لفظةُ هُجْرٍ لُفِظت ، ولا يعرف له ذَنْبا يُوجب إبْعاده ، ولا جُرْما يستوجِبُ به أن ينقضَ حبلَ وَصْله ويرفُض وِدادَه ، ولا يعلمُ سببا يُوجِب سَبَّه ، ولا شيْئا يُحْدث عَتْبه ، مع أنّ الملوكَ أحقُّ أن يَبْدأ بالإعْراض ، ويَرْفُل من إغفال مَوَدّته فى الثَّوب الفَضْفاض ، فإنّ المولىٰ آلمَـه بالقَوْل مِرارا ، وجعل سَحابةَ حَيْفه تَهْمِى علـيه مِدْرارا ، وهو يحتمل الأذىٰ ، ويُغْضِى علىٰ القَـذىٰ ، ولا يُظْهِر إلا محبّـة ، ولا يُبْطِن له إلا مَوَدّة ، فإن شاهد المولىٰ بعد إعراضِه إعراضا فليَلُمْ نفْسَه ، أو أحْرقه لَهَبُ نار الجفاء فلا يشكو مَسّه ، يُحيطُ بذلك علما ، ورأيه العالى .

شـــعر فى العتاب :

مَوْلاىَ قَدْ طالَ التَّبـاعُدُ بيْنَنا * أوَما سَئِمْتَ قَطيعتِي ومَـلالِي !

إنْ لَمْ تَرِقَّ لِحالَتِي ياهَاجِرِي * مَوْلاى قُلْ لِي مَنْ يَرِقُّ لِحالِي !

غـــيره :

يُباعِدُنِي عَنْ قُرْبِهِ ولِقائِهِ * فلمّا أذابَ الجِسْمَ مِنِّي تعطّفَا

غـــيره :

إنْ كانَ هِجْرانُنَا يَطيبُ لَكُمْ * فَلَيْسَ للوَصْل عندَنا ثَمَنُ

غـــيره :

شَمَّتَّ بِي الأعْداءَ حِينَ هَجَرْتَنِي * والمَوْتُ دُونَ شَماتَةِ الأَعْداء !

غـــيره :

تَنَـامُ عَيْناكَ وتَشْـكُو الهَوىٰ * لَوْ كُنْتَ صَبًّا لم تَكُنْ نائِمَـا !

ولبعضهم : سيدى بادأنى[(١)] بلُطف من غير خِبْره، وأعقبنى جَفاءً من غير ذَنْب، فأطْمَعنى أوّلُه فى إخائه، وآيَسَنى آخِرُه من وفائه، فسُبْحانَ من لو شاءَ لكَشَف بإيضاحِ المُبْهَم عن عَزيمةِ الرأى فيه، والمملوكُ يقول :

عَجِبْتُ لقلبِكَ كيفَ آنقلَبْ * وصَفْوِ وِدادِكَ أنّى ذَهَبْ
وأعْجَبُ مِنْ ذا وذا أنّنى * أراكَ بعَيْنِ الرِّضا فى الغَضَبْ

أجوبة رقاع العِتاب

قال فى "مواد البيان" : حكم أجوبةِ هذه الرِّقاع حكمُ رِقاع أجوبةِ الاعتذار إلّا أنها لا تخلو من الإجابة بالإعتاب أو الإصرار على العِتاب . قال : ويجبُ أن يسلُك فيها المجيبُ مذْهَب المجيبِ عن رقاع الاعتذار .

زهر الآداب :

فى جواب العَتْب على تأخّر مكاتبة .

وعلم المملوكُ ما أشارَ به من العَتْب بسبب تأخّر خِدَمِه عن جنَابه ، وما توهَّمه من آشتغالِ المملوكِ بأهله وأصحابِه، وحاشاه أن يتوهَّمَ فى المملوك غيرَ الوَلاء، والمُلازمة على الحمدِ والثَّناء، فهو لا يعتمِدُ ذلك إلّا تخفيفًا عن خاطِره ، ووُثوقا بما يتحقّقه المولىٰ من خالص مودَّته فى باطنه وظاهِره، حرسهُ الله ووفّقه، وفتح له بابَ السعادة ولا أغلقه، بمنّه وكرمه .

(١) ضمنه جواب عبد الله بن معاوية فى العتاب .

زهر الربيـع :

جواب عتاب :

زاد اللهُ جَنَابه حَنَانا، وأسبغَ عليه إنعامًا و إحْسانا، وخلّد له علىٰ كلّ عدوّ سلطانا.

ولا زالت هِمَّتُه سماءً لمناكِبِ الكَوَاكب، وأياديه تَفِيضُ علىٰ الأولياءِ غرائبَ الرَّغائب، ولا بَرِحَتْ سحائبُ إنعامه هامِيه، وقُطوفُ إحسانِه دائمةً دانِيَه، وشرائعُ مِياه جُودِه تُجفِّف جُفُونا من الفاقةِ دَامِيه .

المملوك يجدّدُ خِدْمته، ويُواتِرُ للولىٰ أدْعِيَتَه، ويعترِف بمِنَنه التى أقرّتْ بها ألسِنةُ جوارِحه فلا يَستطيعُ أن يُنْكِرَها، ويغترِفُ بيد تضرّعه من بِحار جُوده التى تَثْعَبُ الوَلِىّ من سَحَابها إلىٰ كل وَلِىّ وتَقْذف له جَواهِرَها .

وينهى وُرودَ المكاتبـة والعلْمَ بمضْمُونها، والاَحتِواءَ علىٰ سائر مَعانى فُنُونِها؛ وما أشار إليـه من العَتْب الذى يرْجُو به بقاءَ الوِداد، واَستِصحابَ حالِ التَّواصُل من غير نَقَاد؛ والمملوك فلا يُنكِرُ ذَنْبه، ولا يتنصّل ولا يتوصّل بل يعترِفُ بجُرْمه وقلّةِ خِدَمِه؛ ويَستمْسك بالعُروة الوُثْقىٰ من إحسانه وحِلْمِه، ويسألُ مَكارمَه إجراءَه علىٰ عادته بالصَّفح عنه ورَسْمِه؛ وهو يرجُو أنّ أمّ هذه الهَفْوةِ لاتَلِد لهـا أُخْتا، وأنه لايعتمِدُ إلّا مايَزِيدُه إلىٰ المَوْلىٰ مِقةً ويُزِيل مَقْتا؛ فإنَّ معاتبـةَ مولانا قد وعَتْها أُذُنٌ واعيه، ومَراضِيَه لاتَخفىٰ علىٰ المملوك بعدَ ذٰلك منها خافِيَه؛ إن شاء الله تعالىٰ .

آخـــر : أسعدَ اللهُ المجْلِسَ وعَطَف للأوْلياءِ قلْبَه ، ونَصر كَتائبَه وأنفذَ كُتُبه ؛ وأرهَفَ فى نُصْرة الإسلام سِنانَه وعَضْبه ؛ وألْهَمَ حبَّـةَ قلب الزمان حُبَّه ؛ وأقدَره علىٰ الحِلْم الزائد حتّىٰ يغفرَ به لكلّ مُذْنب ذَنْبه .

[وينهى] وُرودَ الكتابِ الذى أعدَّتْه يدُ مولانا فصار كَريما، وكسَتْه عبارتُه ثَوْبَ بَرَاعتِه فأصبحَ مَنْظَرُه وَسِيما، وآستنشق عَرْفَ نَسِيمه المبارك فطاب شَمِيما؛ وعلم المملوكُ منه شِدّةَ عَتْبه، ومُرَّ التجنِّى الذى ظَهر من حُلو لفْظه وعَذْبه؛ ولم يَعْرف لعتْبه مُوجبا، ولا لتغيُّر مودّته سَبَبا؛ فإنه ماحادَ عن طريقِ وَلَائه ولا حال، ولا زَلَّت قدَمُه عنه ولا زال؛ ولا مادَ عن مَنْهج المودّةِ ولا مال؛ وما فَتِئَ لمحاسنه ناشرا، ولإحْسانه شاكرا؛ فإن كان قد نُقِل عنه إلى مولانا شىءٌ أزْعَجَه، وأخرجه عن عادةِ حِلْمه وأحْرَجه؛ فإن الوُشاةَ قد آختلَقُوا قوْلَهم ونَقْلهم، وقصَدُوا تشتيتَ المُصاحبةِ شَتَّت اللهُ شَمْلهم :

وقد نَقلوا عَنِّى الَّذِى لَمْ أَفُهْ بِهِ * وَما آفَةُ الأَخْبارِ إلَّا رُواتُها!

آخــر : وردت المشرَّفة العالية أعلى اللهُ نَجْمَ مُرْسِلها؛ وأسبغ أياديَه وشكر جسِيمَ تفضُّلِها؛ فابتهجتِ الأنفُس بحُلُولها وحُلَل جَمالها، وعُوملتْ بما يَجب من إكرامها وإجْلالها.وفُضَّ خِتامُها ففاحَ منها أرَجُ العَبِيرِ والعَنْبَر، وتُلِيتْ ألفاظُها التى هى أبهى من الرِّياضِ وأحْلى من السُّكَّر؛ فأغنَتْ كُئُوسُ فَصَاحتِها عن المُدَام، وأزال ماؤُها الزُّلالُ الباردُ حَرَّ الأُوَام؛ وأعربَ مُنْشيها عمَّا فى ضميره من العَتْب، والضيقِ الذى حَصَل فى ذلك الصَّدر الرَّحْب؛ وهو يُقْسِم بنِعْمته، وبصادقِ محبَّته؛ أنه لم يَبْدُ منه مايُوجب عليه عَتْبا، ولا آنثنَى عن الثَّناء على [مَحاسِنه](١) التى شغفَتْه حُبّا؛ فإن كان المولى قد توهَّم شيئا أحْرجَه وأقلقَه، وإلى أليم العَتْب شوَّقه؛ فلْيُزِل ذلك الوَهْمَ من خاطِره، ولْيَثِق بما تحقَّق من مُوالاته فى باطِنه وظاهِره؛ ورأيه العالى .

(١) بياض فى الأصل والتصحيح من المقام .

آخـر : أعزّ الله عزَماته، وشكَرَ جسيمَ تفضّلاته .

ولا زالتْ نِعمتُه باقِيـه، وقدَمُه إلىٰ دَرج المَعالى راقِيـه؛ وهِمّتُه إلى السُّمُوّ علىٰ الكوا كب ساميه، وسماءُ جُوده علىٰ العُفاة هاميه، وعَزْمتُه لثُغُور الإسلامِ حاميه، عبْدُ نِعَمه، وغَرْس كَرَمه، يُعلِمُه بِصِدْق وُدِّه، والمداومةِ علىٰ شُكْره وحَمْـدِه؛ وأنه وقَف علىٰ مُشَرَّفه وفَهِمه، وشاهَدَ منه عَتْبه وعَلِمَـه؛ وهو لا يَشْكُو من المولىٰ جَفَاءً ولا يَعِيب، و[عن] طريق المُصافاةِ والمُخالَصةِ فلا يغيب؛ بل يقول :

أنْتَ البَرِيءُ مِنَ الإسَاءَةِ كُلِّها * ولَكَ الرِّضَا وأنا المُسِيءُ المُذْنِبُ

والمرجوُّ من لَطَافة أخلاقه، وطَهارةِ أعْرَاقه، أنْ يصْفَح عن زَلّته، ويعْفُوَ عن ذنبه وإساءَته :

فأنتَ الّذى تُرْجىٰ لتَخْفِيف زَلّتِي * وتَحْقِيق آمالِي ونَيْـل مآربِي!
وقُرْبُك مقْصُودِى وبابُكَ كَعْبتِي * ورُؤْياكَ ياسُؤْلِى أعزُّ مَطَالِبِي!

قلت : وكتبتُ إلىٰ المولىٰ شِهاب الدين الدُّنَيْسرى٭ وقد بلغَنِي عنه مُساعدةُ بعضِ الجُهّال علىّ فى بعض الأمور :

عَهِدْتُ شِهابَ الفَضْلِ يَرْمِي بِسَهْمِهِ * شَيَاطِينَ جَهْلٍ أنْ تُدانِي جَنابَه!
فَمَا بالُ مولانَا علىٰ فَرْط فَضْـلِه * يُعَرِّفُ شَـيطانَ الجَهَـالةِ بَابَهُ ؟

النـــوع الرابع عشر
(العِيادةُ والسُّؤال عن حالِ المريض)

رُقعـــة عيادة :

ويُنْهِى أنه آتَّصــل بالمملوك مِنْ أَلَمِ مَوْلانا ــ أطال الله بقاءه ، وحَرس حَوْباءه ــ ما أهمىٰ مَدَامعه ، وأحمىٰ أضالعـه ، ومَزَّق جِلْده ، وحَرَّق خَلَده ، وأطار الوَسَن عن عَيْنه ، ونفَّر الهُدُوءَ عن مَضْجَعِه ، حتّى تداركَ الله تعالىٰ بكتابه الناطق بإقلاع الْمُلِمّ ، المُعْرِب عن دِفَاع المُهِمّ ، فَرَقأ من دُموعى ما آرفَضّ ، وجَبَر من ضُلُوعِ المملوك ما آرتَضّ ، والتأم من جِلْده ما تفَطَّر ، وبَرُد من خَلَده ما توَقَّد(١) ، وجَثَم ماطار من وَسَنِه وآنَس من الهُدُوء ما نفَر عنه ، والتأمتِ الآمالُ بعد آنْثِلامها ، وبرزَتْ ثِمارُ الأمانىّ من أكمامها ، وطَلَع من الرجاء آفِلُه ، ورَوِى من السُّرور ماحِلُه ، وتجدَّد من السُّؤدَد طامِسُه ، وضَحِك من الزمان عابِسُه ، والله تعالىٰ يَغُضّ طَرْفَ الحَدَثانِ ، عن مُهْجَته ، ويَصْرِف صُروفَ الزمان ، عن ساحَتِه ، ويهنّيه بمـا أعاده إليه من الإبْلال ، ويُمَلّيه بمـا أفاضه عليه من الاستِقْلال ، بمنّه وكرمِه ، إن شاء الله تعالىٰ .

رقعـــة : ويُنْهِى أن ماخامَرَه من قَلَق وجَزَع ، وفَرَقٍ وهَلَع ، بسبَب مابلَغَه من شَكْوىٰ مولانا لاتَحْصُره الأوْهام ، ولا تُسَطِّره الأقْلام ، ولولا ثِقةُ المملوكِ بالله تعالىٰ لَوهَتْ عُقَد صَبْره ، ولَا نْخلع فُؤَادُه من صَدْره ، وقد علم الله تعالىٰ أنّ هــذا الأَلَم لو نُقِل إلىٰ المملوك لَمَـا ثَقُل عليـه ، وكيف يستَثْقِل مايخَفِّف عن مولانا وَصَبه ويُحْسِـمُه ، ويُعَجِّل له سِـلْكَ الشِّفاء ويَنْظِمُه ، والله تعـالىٰ يجعَلُه فى أمانٍ من كِفَايته ، وضَمانٍ من حِيَاطتِه ، إن شاء الله تعالىٰ .

(١) فى الأصل "توفر" بالفاء والراء وهو لايناسب المعنى .

أجوبة كُتُب الشفاعات[1] والعِنايات

قال فى "موادّ البيان" : هذه الكتُبُ إذا أُجيب الملتمِسُ إلىٰ حاجته فينبغى أن تُبنَىٰ أجوبتُها علىٰ شُكر مَقْصد الشافع ، والإدلالِ والاْسترسالِ وإنالةِ المشفوع له وَطَرَه إيجابا لحقِّ الشافع ؛ وإن وقع الاْمتناعُ والتوقُّف عن الإجابة إلىٰ الملتَمس ؛ فالواجب أن تُبنَىٰ علىٰ إقامة العُذْر لاغير .

زهر الربيع :

جوابُ شفاعةٍ فى حقّ كاتب :

جدّدَ الله [له] السعادةَ وخلَّدها ، وأصارها له شِعارًا وأبَّدها ؛ ووطَّد به الممالكَ ومهَّدها ؛ وعضَّد به طائفةَ الإسلام وأيَّدها ؛ وشكَر له صنائعَ يعُدُّ منها وَلِيٌّ ولا كُلُّ يستطيعُ أن يعدِّدها .

المملوكُ يقبِّل اليدَ الشريفةَ أداءً للفرضِ اللازم ، وشُكرًا لما أوْلتْه من الأيادِى والمَكارم ؛ وحمدًا لألطافِهِ التى أطمعَتْه بالتميز فأصبحَ برَفْع قدرِه كالجازِم .

وينهى ورُودَ المشرِّف الذى نَزَّه ناظِرَه ، وجبَر قلبَه بحُسْن ألفاظه وخاطِرَه ؛ والعِلْمَ بما أمَرَ به ، وشَفَع إلىٰ المملوكِ بسَببه ؛ وهو الكاتبُ الذى أشارَ إليه ، وقد ركَن إلىٰ ماشكَرَه به المَوْلىٰ وأثنىٰ به عليه ؛ واعتَقد يُمْنَ إغارة[2] الشافع فعقَد علىٰ المشفُوع فيه خِنْصِرَه ، وتَقَدّم بتَرتيبه فى ديوان إنْشائه ، وجعله من جُمْلة خَواصّه وخُلَصائه ؛ وفعل ذٰلك كلَّه اتِّباعًا لإشارته ، وقَبولا لشَفَاعته ؛ فالمولىٰ يواصل بمراسِمه وأمثلتِه ، فإنّها تَرِدُ علىٰ مُرْتَسِم ممتثِل .

---

(١) حق هذه الأجوبة أن تكون تابعة للنوع الرابع فهى مؤخرة من تقديم فتنبه .

(٢) لعله إشارة الشافع .

ومنـــه : جواب شفاعةٍ فى ٱستخدام جُنْدىّ :

ضاعفَ اللهُ تعالى نِعَمَه ، وأرْهفَ فى نُصْرة الإسلام سَيْفه وقَلَمه ، ولا بَرِحتْ أَلسِنةُ الأنام ناطقةً بولائه ، وأيْدى ذَوِى الرجاء مملوءةً من فَوَاضل نَعْمائه .

المملوك يُواصل بأدْعِيَته الصالحه ، ويستَنْشِق رُوحانىَّ رِيحِكم فيسكُن منـه بلَذِيذ تلكَ الرائحـه ؛ ويشكُرُله ما منحَه من المكَارم ، ويباهى بعزَماته اللُّيوثَ الضَّراغم ؛ فلا يجد مُضاهِيًا لتلكَ العزَائم .

وينهِى ورُودَ المِثَـال الذى أشرقَتِ الوُجُوه بنوره ، وٱبتهجت الأنفُس ببـلاغة مُنْشِيه ووَشْىِ سُطُوره ، وعلم إشارةَ المولىٰ فى مَعنىٰ فلان : أدام اللهُ سعدَه ، وأعذَبَ مَنْهَلَه ووِرْدَه ، والتوصيَة بأمرِه ، وما أبداه من حَمْده وشُكْرِه ، وأن يُقْطع إقطاعًا يليق بأمثاله ، ويتفيَّأ من خراجها ضافِىَ ظِلاله ، وعند مثُول مِثاله العـالِى ٱمتُثِلَ وٱلتُثِمْ ، وٱستخْدَم المشارَ إليه لإشارته وخَدَم ، وهذا بعضُ مايجب من قَبُول أمرِه ، وتعظيم كتَابه وتبْجيل قَدْرِه ، فيواصلُ بمراسِمِه فإنهـا تُقابَل بالٱرتِسَام ، ومشرِّفاتِه فإنها تُعامَلُ بوافِرِ الإكرام .

جوابُ شـــفاعة فى الجمـلة :

قُلْ ما تَشاءُ فإنَّنِى لَكَ طائِعٌ * ماأنْتَ عِنْدى شافِعٌ بل آمِرُ !

جعله اللهُ لكلِّ خيرٍ سبَبًا ، وحقَّق به لأوليائِهِ ظُنُونا وحَصَّل أَرَبا ؛ ووَفَّرله من أجرِشفاعتِه الحسَنةِ نَصيبا ، وأدامه عن كلِّ شرٍّ بعيدًا وإلىٰ كلِّ خيرٍ قريبا .

المملوكُ ينهِى تألُّمَــه لِفراقه ، وما يجِدُه من صَـبَابتِه وشِدّةِ أشْواقه ، ويُعانيه من حَنِينه وأتْواقه ، وأنه ورَد عليه كتَابُه فاسـتلَمه ولَثَمه ، وبجَّله وعَظَّمه ؛ وعلِم ما أشار

إليه، وأخَذَ أمْرَ المشفُوع فيه بكِلْتا يدَيْه، وجعل قَضاءَ أرَبِه أمرًا لازما، وما قَنِئَ علىٰ ساقِ الاَجتهادِ قائمـا، إلىٰ أنْ حصَّلَ غَرَضَه، وأدّىٰ من حُسْن القيام بأمره ما أوْجبَه مُشرِّفُه العالى وآفترَضه؛ والمَوْلىٰ آمِرٌ غيرُ شَـفيع، ومَهْما وَرَدَ من جهتِـه علىٰ المملُوك فوارِدٌ علىٰ سَميعٍ مُطيع؛ فيوَاصل من مَراسِمه بما سَنَح، ومن أخباره بمـا تأرَّج طِيبُ عَرْفه ونَفَح؛ ورأيُه فى ذلك العالى .

آخــر: شكَرَ اللهُ عَوارِفَها، وتالدَ جُودِها وطارِفَها، ووافرَ ظِلالهـا ووارِفَها؛ وينهى ثناءَه على مَعَاليه، وملازمَته ومُداومتَه علىٰ بَثِّ محـاسنِه ونَثِّ أياديه؛ وحمـدِ عواقبِ إحسانه ومَباديه، وشِـدّةَ أشواقه إلىٰ جَنـابه، ولذيذِ مشاهدته وخِطابِه؛ وما يُعانيه من غَرامٍ لازَمه مُلازمةَ الغَرِيم، وداءِ صـبابةٍ يُضاعِفُ شوْقَه إلىٰ رؤية وجْهه الوَسـيم؛ ومُداومتَهُ علىٰ التعوُّض بشُكْرِ محاسِـنه عن المُدامة والنَّـديم؛ ونَظْمِ جواهرِ مَدْحه لِجيد جُوده، وحمْـدِ المولىٰ علىٰ ذلك التنظيم؛ وأنه ورد عليه مشرِّفُه العالى فقَبَّله، ودعا لمُرْسِله دُعاءً يرجُو من الله تعالىٰ أن يستجِيبَه ويتقبَّله؛ وحصَل له بوصولِه آبتهاجٌ عظيم، وقال لمن حضر وُرودَه ﴿يٰأيُّها المَلَأُ إنِّى أُلْقِىَ إلَىَّ كتابٌ كريم﴾ وفَهِم مضمُونَه وفَحْوَاه، وعلم معْناه وما أظهره فيـه وأبْداه : من الوصيّة بفلان وما يُؤْثره من تسهيل مَطَالبه، وتيْسيرِ مآرِبه؛ ووصـل المشارُ إليه وحصَلَ الأُنْس برُؤْيته، وتمتَّعت النَّواظرُ والمَسامعُ بمشاهَدته ومشافهَته؛ وقام المملوكُ فى أمْره قيامًا تامًّا، وجعـل عينَ آجتهادِه فى مصلَحته متيقِّظةً لاتعْرِف منَاما؛ وشمَّر عن ساق الاَجتهاد، فى تحصيلِ المَرام والمُراد، إلىٰ أنْ حصَل له الفوْزُ بنَيْل أمَلِه، وعاد راتِعًا من العَيْش فى أخْضَره وأخْضَـله؛ رافلًا من السُّرور فى أبْهىٰ حُلَله، فيُحيط علمُه بذٰلك، والله تعالىٰ يعضِّدُ به الدُّوَلَ والممالك؛ إن شاء الله تعالىٰ .

آخـــر : جعــله اللهُ مِفْتاحا لكلِّ بابٍ مُرْتَجٍ، وصَــدَّق به [أملَ] كلِّ آمل وحقَّق رجاءَ كلِّ مُرْتَجٍ ، ولا زالتْ سحائبُ جُودِه هاميــةً بالوَسْمِيِّ والوَلِيِّ[1] ، ماطرةً بوَبْلِها وطَلِّها على الوَلِيِّ .

المملوكُ يخْدُم بتحيَّة أرَقَّ من النَّسيم ، وسلامٍ أطْيَبَ عَرْفا من بانِ النَّقا إذا تحمَّلتْ عَرْفَه رِيحُ الصَّرِيم .

وينهِي إلىٰ علمِــه الكريمِ وُرُودَ مشرَّفته وأنه أحاطَ بمضْمُونها عِلْما، وشاهدَ منها فى حال طَيِّها مكارِمَ أصارَتْ تفضيلَه علىٰ حاتِمٍ الطائىِّ حَتْما، ووقَفَ منها علىٰ دُرِّ لفْظ قذَفَه بحرُ خاطرِه نثْرا ونَظْما؛ وبراعةِ عبارةٍ زادتْ قَلْبَ مُواليه غَراما وأنْفَ مُناويه رَغْمــا، وفصاحةٍ عرَّفتْه قولَه صلّى الله عليه وسلم « إنَّ مِنَ البَيانِ لَسِحْرًا وإنَّ من الشِّــعر لَحُكْمًا[2] » وفَهِم عنايتَه بفلان نفعَ اللهُ بعلمه وعَمَلِه ، وقَرَّب له من الخــير مالا يُطْمِعُه به بعيدُ أمَلِه ؛ وإشارتَه بسبَب التنبيه والإرشادِ علىٰ جُمَل فضائله، ومفَصَّل مناقِبه المشهورةِ فى البِلاد، وإيضاحِ كِفايتِه فى وَجيزِ تلك الفُصُول الصِّحاحِ الإسْناد، فحــالَ قُدومِ المذكــورِ وحلُولِه ، ووُرودِ مشرَّفه ووُصُوله ؛ أنهىٰ المملوكُ أمْرَه إلىٰ مخْدُومِه ، وطالَع به شريفَ عُلُومِه ؛ ولا زال يُحْسِن سعْيَه ، ويَعتمِدُ علىٰ مشيئةِ الله ولا يَتْرُكُ حِرْصَه ومَشْيَه ؛ إلىٰ أنْ حقَّق قصــدَه بقضاء شُغْلِه ، وقرَّب له أمَدَ أمَلِه ، وكتبَ توقيعَــه ولم يُرِد الله تَعْويقَه ، ونجع طعمُ قصده وأنْجَحَ اللهُ طريقَه ؛وقد عاد مصحُوبًا بالسَّلامه، معروفًا بتحصيل هذا القَصْد بأنه (طَلَّاع الثَّنايا) من غيرِ وضْع العِمامه، حسَبَ إشارةِ المولىٰ وأمْرِه، والله تعالىٰ يُمِدُّه بصوْنِه ونَصْره .

(١) الولى المطر الذى يأتى بعد الوسمىّ ووقع فى الأصول "الوبل" وهو تحريف واضح .

(٢) هو بضم الحاء وسكون الكاف العلم والفقه أى إن فى الشعر كلاما نافعا يمنع من الجهل والسفه...... ويروى إن من الشعر لحكمة وهو بمعنى الحكم . انظر اللسان ج ١٥ ص ٣٠ .

آخـــر : فى آستخلاص حق .

شكَرَ اللهُ إحسانَه وإنعامَه، وحصَّل به لكل ولىٍّ مَرامه، وحمِدَ تطوُّلَه وتفضُّله، وأنال به لكلِّ آملٍ أمله، وخلَّد دولتَه، وأدام نِعْمتَه، وأنفذ كلمتَه؛ ولا زال فضلُه كاملا، وإحسانُه إلى الأولياء واصِلًا؛ ونوالُه لبنى الآمالِ شاملا .

المملوك يخدُمُ بدعاء أحسنَ من نَوْر الرُّبا، وثناءٍ ألطفَ من ريح الصَّبا؛ وسلامٍ أطيبَ بمُروره من تذكُّر أيّام الصِّبا .

وينهى وُرُودَ الكتابِ الذى طابَ بالمولى مَحْتِدُه ونِجارُه، وزاد على كتائبِ الكُتُب نَخارُه، وأنه وقَف عليـه وُقُوفَ مشتاقٍ إلى مُرْسِلِه، شاكرٍ أنعُمَ فضلِه وجسيمَ تفضُّلِه، فأسكرَتْه تلكَ الفَصاحةُ بِشَذَاها الأَرِجِ، ونزَّهتْ لحظَه فى دُرِّ لفظِها البَهِج؛ فظنَّها لمَّا آستنْشَق رائحتَها راحًا قَرْقَفًا، ولمَّا أبهجَه لفظُها بألفاظ تُزْهى على الرِّياض رَوْضةً أُنُفا، وعلِمَ الإشارةَ الكريمةَ فى معنى فلان والوصيَّةَ بخدمته، وما أمَرَ به من مُساعدته ومُساعَفته؛ وعنـد وُصُول مشرِّف المولى وقَبْـل وَضْعه من يَدِه، نوى المملوكُ مساعدةَ المذكورِ على مَقْصَده، فتقـدَّم بإحضار غريمه فوجده عن البـلد غائبا، فانتظَره إلى أن عادَ آئبا؛ فعند وصوله طلبَـه وأحضَرَه، وسأله عمَّـا يدَّعيه عليه خصْمُه فأنكَرَه؛ وطلب الحضُورَ إلى القاضى، وحثَّ على ذلك حتّى أوهَمَ أنه المُتقاضى؛ فلمَّـا رأى المملوكُ أنّ حُجّة المشفُوع فيه لاتقوم بصدْق دعواه وحُجج، ولا يظهَر بها على غريمه إلا من طريقٍ حَرِج؛ بذَلَ فى مُصالحتهما جُهْدَ الآجتهاد، وما زال يُرشِدُهما إلى طريقِ الرَّشاد؛ ويدُلُّهما على سبيل السَّداد، ويعرِّفهما أن التضارُرَ ضَيْر، وأنَّ الصُّلح خَيْر، فكل منهما يهِيم فى وادٍ، ويسْلُق خصْمَه بألسنةٍ حداد؛ إلى أنْ تراضَيا وتوافقا، وسلَكا طريقَ الرِّفق وترافقا؛ وصـدَّق الخصمُ

خَصْمَه فتصادَقا ، وانفصلا وكلٌّ منهما قد أرْضىٰ خِدْنه ، وعن المحاكمة والمحاقَقة أغْضىٰ جفْنه .

آخر : أيدَّ الله سعدَ المولىٰ وأبَّده ، وأثّل مَجْده ومَجَّده ، وأعانه علىٰ إسْداء العَوارف وعَضَّده ، وأمدَّه من المسَرَّات بما يُزِيل عن الأيَّام أبَدَه(١) ، وأناله سَعْدا لاتبلُغ الأنامُ أمَدَه ، ولا زال بُرْدُ جَدّه من السعادة جَديدا ، ونجمُ عَدُوّه آفِلا ونجمُه سَعيدا .

الذى نُحيط به علْمَه الكريم أنَّ كتابه ورد فسَرَّى هَمَّ الأنفس وسَرَّها ، وضاعف بما ضاعَ من نَشْره بِشْرَها ، وفاحَ منه شَذًا عند إقْباله ، فقيل : قد هبَّتِ القَبُول ، ورنَّح الأولياءَ ، فقيل : قد هَبَّتْ ريحُ الشَّمال وأُدِيرتِ الرَّاحُ الشَّمُول ؛ وأنَّ المملوكَ وقَفَ منه علىٰ ألفاظ سقَتْه كُئُوسَ سُرُورٍ لا كُئُوسَ مُدَام ، وروتْ له أخبارَ حِلْم لو أُسنِدَتْ إلىٰ سِواه لتُوهِّمتْ أضغَاثَ أحْلام ؛ وروتْ أكبادًا أضرّ بها لغَيْبته حَرُّ ظَمَإٍ وأُوَام ؛ وبيَّنَتْ سِحْرَ البَيان ، وأعربَتْ بلسان حُسْنها عمَّا لمُنْشِيها بل مُوَشِّيها من الإحْسان ، وأغربَتْ فى الفَصاحة فخِلْنا كلَّ كلمة تَنطِقُ عن سَحْبانَ بلِسان ؛ وزهتْ بيانعِ ثِمارِ فضْلِها فنزَّهتْ كلَّ عين فى بُسْتان ؛ وعلم إشارةَ المولىٰ فى معْنىٰ فلان ، وما أبداه من العِناية فى حقِّه ، والإيثارِ لصِلةِ رِزْقه ؛ وأنه من الألْزام ؛ والذين تَجِب معاملتُهم بالإكرامِ والاحترام التام ؛ وعند ماشاهدَ المملوكُ كتابَ من شرَّفه ، وسَمِع ألفاظَه التى بلُطْفها أتحفَه ؛ بل بِردائها علىٰ البَرْد ألحفه ، تقدّم بإجابةِ سُؤاله ، وترتيبِه فى جهةٍ تليق بأمثالِه ؛ وقمَّصه من العناية قميصًا لايَبْلىٰ ، وجمع لخاطِره والدَّعة شَمْلا ؛ وهذا حسَب إشارةِ المولىٰ التى لاتُخالَف ، وأمرِه الذى يقِفُ كلُّ أحدٍ عنده ولا يَستَوْقفُ ولا يُواقِف(٢) .

(١) أى غضبه فهو مصدر أبد عليه كفرح اذا غضب .

(٢) هذا آخر ماحقه التقديم بعد النوع الرابع وقبل الخامس فتنبه .

كتاب إلىٰ مريض بالسؤال عنه من كلام المتأخرين :

حَاشىٰ مِزاجَكَ مِنْ أذًى * وكريمِ جِسْمِكَ من وَصَبْ !
يا غايةَ المَأْمُولِ والْـمَرْجُوِّ يا كُلَّ الطَّلَبْ !
مُذْ غِبْتَ عَنِّى لَمْ أزَلْ * مِنْ بَعْدِ بُعْدِكَ فى نَصَبْ !
جَفْنِى غَرِيقٌ بالدُّمُو * عِ وماءُ صَبْرِى قد نَضَبْ !
واللهِ مالِى فى البَقا * ءِ وأنْتَ ناءٍ مِنْ أرَبْ !
فَتُرىٰ أُبَشَّرُ(١) سيِّدِى * أنَّ اللِّقاءَ قَدِ اقْتَرَبْ !

حرَسَ اللهُ مِزاجَ المولىٰ! وأصار العافيَةَ له شِعَارا، والصِّحَّةَ له دِثَارا؛ ولا زالَتْ ساكنةً فى جوانِحِه، مقيمةً حَشْوَ أعضائه المباركةِ وجوارِحه .

أصدرها المملوكُ تُعْرِب عن شوْقٍ يكِلُّ عن وصْفِه اللِّسان، وتَوَقٍ لا يُحْسِن وَصْفَه البَنان، ولاعِجٍ يَعْجز عن حملِ بعضِه الجَنَان، ملتمِسا المواصلةَ بأخباره، وواصفًا مايجِدُه القلبُ من ألَمِ الشوق وناره، وشاكِيًا من جَوْر أيَّام الفِراق، وراجيًا أن يُبَشَّر بالإبْلال من مَرَضه والإفْراق ؛ وداعيًا إلىٰ الله بتعجيلِ أيَّام التَّلاق . ومع ذٰلك فلو رُمت أنْ أشرح كلَّ ماأجِدُه من الصَّبابة لأسأمْتُ وأسْهَبْت، بل لو ذكرتُ ماأُعانيه لألَمَه لثقُلتْ علىٰ خاطِره وشَوَّشْتُ(٢)، لكن خاطِرُ المَوْلىٰ شاهدٌ بوَجْدى، وعارِفٌ بما تحمَّلتُه من الكآبَة التى لم يحمِلْها أحدٌ قبْلى ولا تُحمَلُ بعْدى؛ فيُواصِلُ بأخبارِه، والله يحرُسُه آناءَ ليلِه وأطرافَ نهارِه، إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) مراده فتى أبشر . ولعله تصحيف من الكاتب .

(٢) نقل هـذا الفعل الفارابى وتبعه الجوهرى وٱستعمله كاتب هذه الرسالة وأنكره بعض الحذاق وقال الصواب هوّشت .

في معنـــاه :

يامَنْ شكا فشكا فؤادى حُرْقَةً * لاتَنْطفى وصَبابةٌ لا تَبْرَحُ !
وغَدَا سَقِيمَ الجسْمِ يومًا واحِدًا * فتَرَحْتُ دَمْعا للمَدامِعِ يجْرَحُ !
وآزداد شَوْقِى نَحْوَ طلعتِه الّتى * أبدًا يُيَمِّنِ بَهائها أستَنْجِح !
لا زِلْتَ فى عِزٍّ وسَعْدٍ دائمٍ * أيّامُنـا ببقـائِهِ تتَبَجَّح !
وبَقِيتَ ما بَقِيَ الزّمانُ مُؤيَّدا * تُمْسِى قَرِيرَ العيْنِ فيه وتُصْبِح !

كمّل اللهُ عافيَـةَ المَوْلىٰ وحَرَسَـه ، ولا سَلَبه ثوبَ الصّحّة بل قمّصه إيّاه وألْبَسه ، وأخدَمَه الأيّامَ فلا تستَطِيعُ مخالَفَـةَ أمْرِه ولا الخُروجَ عن حُكْمِه ، ورزَقَه أن يَملِكَ الدُّنيا بحذافيرِها وهذا يحصُلُ بعافِيَةِ جِسْمِه .

المملوكُ ينهى أنه آتّصل به تألُّمُه فشقّ ذلك عليه ، ووصلَ من القَلَق إلىٰ حَدٍّ لم يَصِلِ المَوْلىٰ والحمدُ لله إليه ، وآبتهلَ إلىٰ اللهِ فى مُعافاة جَسَدِه ، وأن يُعضِّدَه ببقاء والدِه وولَدِه ، ويُضاعفَ تسهيلَ مآرِبه ومَقاصِــدِه ، ويرفَعَ كلمتَه وقدْرَه علىٰ رَغْم مَعْطِس شانِيهِ الأبْتَرِ وحاسِدِه ، إن شاء الله تعالىٰ .

جوابٌ إلىٰ من قَنْطَرَه[1] فرسُه :

ثبّتَ اللهُ قواعِدَ مَجْدِه ، وبلّغه سَـعْدا لاتبْلُغه الآمالُ لبُعْـده ، وأهمىٰ علىٰ محبّيه سحائبَ جُودِه ورِفْده .

(١) جارىٰ فى هذا الفعل اللغة العامية والصواب قطره قال الشاعر :

قد علمت سلمى وجاراتها * ماقطر الفارس الا أنا

أنظر اللسان ج ٦ ص ٤١٨ .

المملوكُ يَخْدُم بتحيَّة أرقَّ من النَّسِـيم ، ويشْكُرُ مواهبَه التى مازالتْ تَحنُو عليه حُنُوَّ المُرْضعات على الفَطِيم .

ويُنْهِى ورُودَ الخبر بأنه كَبَا به جوادُه عنـد مازلَّت قوائمُه، وأثقلَتْه فضائلُ المولى ومكارِمُه، فانْزعَج لذلك وتألَّم ، وكاد قلبُـه لولا المبَشِّر بسلامتِـه أنْ يتكلَّم، وجَوادُ المَوْلى لاسبِيلَ إلى ذَمِّه ، فإنه أسْمحُ جَواد ، ولا ٱتِّهـامِه بالعَجْز، فإنَّه عُرِفَ بإتْهام وإنْجـاد :

لكِنَّه نَظَرَ الأفلاكَ ساجدةً * إلى عُلاك فلَمْ تَثْبُتْ قوائمُه!

والمَوْلى أولى مَنْ قابل عُذْر طرْفه بطَرْف القَبُول ، وٱعتمد عليـه دُونَ سائِرِ الخُيُول : فإنَّ المولى ولله الحمدُ فى صحةٍ دائمه ، وسـلامةٍ ملازمه، وهـذا هو القَصْدُ والمُراد، والاستبشارُ الذى تفْتَرُّ له ثُغورُ الثُّغور وتعْمُرُ به البِلاد، جعله اللهُ فى سعدٍ ماله فَراغٌ ولا نَفَاد، ورزقه مادعا به العِمادُ الفاضل والفاضِلُ العِماد، إن شاء الله تعالى .

أجوبة كُتُب العيادة

قال فى "موادّ البيان" : يجب أن تبنى هذه الأجوبةُ على وُصُول الرُّقعـة، وما صادفت المريضَ عليه من المَرَض، وأنها أهدتْ رَوْحَ الهُدُوء، وأركدت رِياحَ السُّوء، وأقبلتْ بنَسيم الإبلال ، وتضوَّعَتْ بأرَج الاسـتقْلال، وبَشَّرت بالعـافيةِ والسَّلامه، وآذنَتْ بالصَّلاح والاستِقَامه، وأشباه هذا .

ابن نباتة المِصْرى :

شكَرَ اللهُ ٱفتِقـادَها وأُنْسها ، وقلَمَها وطِرْسَها ، وحمىٰ مِنْ عارض الخَطْبِ لامِنْ عارض الخِصْب شَمْسَها، ولا أعدمَ الأولياءَ قصْدَها الجميل ،ووُدَّها الجليل ،وإحسانَ

رسائلها التى كُرُمَتْ فما صَوْبُ الغَمَام لها رَسِيل ، وأَمْتع الممالك بيُمْنِها التى صَحَّت بتدبيره فليس غَيْرَ النَّسِيم عَلِيل .

و يُنْهِى وُرُودَ المشرَّف الكريم فتلقَّاه المملوكُ حَيِيا وارِدًا ، وطبِيبًا بإحسانه وللجسد عائدا ، وفَهِم المملوكُ ما ٱنْطوىٰ عليه من الصَّدَقات التى ما زالَتْ فى فَهْمه ، والمحبةِ الصادقةِ التى ما عَزَبَتْ عن عِلْمه ، وما تضَمَّن من فصولٍ كانَتْ أنفعَ من فُصُول أَبِقْراط لمعالجة جِسْمِه ، وأَيْنَ أَبِقْراطُ من بركاتِ كتاب مولانا الذى طالَعَ منه كتابَ الشِّفاء علىٰ الحقيقه ، والنَّجاةَ من عُرْوة الباس الوَثِيقه ، وأَدْنىٰ وَرَقَته الحمراءَ لرأسه تبرُّكا و إكْراما وقال : نِعْمَ الجُلَّنارةُ المُعَوِّذَةُ من الشَّقِيقه ، وٱستطَبَّ حُروفَها فإنها عن أَيْدِى الكريم والكِرَامات ، ولثَم العلامةَ وتمسَّك بالسُّطور فإنها من أسبابِ الصِّحَّة والعَلَامات ، ووافقتْ عِيادةُ مولانا مبادِىَ العافية وآذنَتْ بالزِّياده ، وصلَح خطُّه الكريمُ عائدا وما كلُّ خطٍّ يصلُحُ للعِيَاده ، وما تِلكَ الجارحةُ المتألِّمةُ إلا يَدٌ أثقلَتْها مِنَنُ مولانا فأعْيَتْ وتألَّمت ، ثم أعانَتْها بركتُه هى والقدمُ بالحمل العظيم وتقدَّمَتْ ، وما بقِيَّةُ الجَوارِحِ إلا عيونٌ كانَتْ تنتظِر لُطْفَ الله تعالىٰ و بركته وقد قدِمَتْ ، فشكرًا لها من بركاتٍ تَنْعَمُ بها قبلَ الجُسوم أرواحُها ، وأدْويةٍ قلبيَّةٍ تُعالَجُ بها ذواتُ النُّفُوس فكيف أشباحُها ، لا بَرِح جوْهَرُ كلماتِ مولانا يُؤْذِن بالشِّفاء من العَرَض ، وسِهام أقلامه إذا كتبَتْ عائدةً أو جائدةً أصابت الغرَضَ وفوْقَ الغَرَض .

وله : تقبَّلَ اللهُ منه وفيه صالحَ الأدْعيه ، وملأ بمَحَاسن ذكره وبرِّه الآفاقَ والأنْديه ، وشكر هِباتِه و بركاتِه التى تنْزِل بعارِض الغيثِ قبل الاستمطار وترفَعُ عارضَ الألَم قبلَ الأدْويه ، تقبيلَ معترِف بسابق النِّعم ، مقيمٍ علىٰ صحَّة العُبُودية والولاء فى حالَتَى الصِّحَّة والسَّقَم .

وينهى وُرُودَ مشرِّف مولانا الكريم على يد فلان عائدًا من جهة العِياده ، وعائدًا من جهةِ الصِّـلات المعتاده ، ومُفْتقِدًا لاعَدِم الأولياءُ فى الشِّـدّة والرَّخاء ٱفتقادَه ، ما كان إلّا رَيْثَمَا نَشِقَ العليـلُ نَسماتِه الصحيحه ، وتناولَ كأسَ ألفاظه الصَّريحه ؛ وإذا بقانُون المِزَاج قد هَمَّ باعتِدَاله ، وكتابِ الشفاءِ والنجاةِ قد تسنَّتْ فوائدُ إقبالِه ؛ فتميَّز حال الصحّة من المَرَض ؛ وٱستعمل جَوْهَرَ الألفاظ فعَزَم على زَواله العَرَض ؛ وبلّغ الولدُ فلان المشافَهةَ وكلُّ مَقاصِد مولانا مبتَدَأة مبْتَدَعة ، والمملوكُ(١) جوابَها وكلُّ أجوبته مُنَوَّلةٌ منَوَّعه ؛ شكَر اللهُ عوارِفَ مولانا المتَّصِـله ، ورُسَلَ ٱفتقاده التى منها العائدُ ومنها الصِّله .

وله : فى جواب كتاب عِيادة وارد فى يومِ عِيد على يد من ٱسمه جمالالدين محمود .

شكَر اللهُ مِنَنَهـا التى إذا أبْدتْ أعادَتْ ، وإذا جادَتْ أجادت ؛ وإذا كَرَّرتْ الٱفتقـادَ حَلَا وإذا تصـدَّتْ لمَوَدّات القلوب صادَتْ ؛ تقبيـلَ مخلِصٍ فى وَلَائه وٱبتهاله ، مُقِيم على صحة العهدِ والحمد فى صِحَّته وٱعتِلاله .

وينهى وُرُودَ مشرِّفة مولانا الكريمةِ على يدِ الولدِ جمـال الدين محمود متفقِّدا على العـاده، مكرِّرا لعيادة الإحسانِ وإحسانِ العِياده؛ فقابل المملوكُ بالحمد واردَها، وبعوائد الٱعتِدادِ عائدَها؛ وفَهِم ماتضمَّنته من تألُّم قلب المـالك على ضَعْف المملُوك، وقَلَقِ خاطره على بَدَن كَبْتَ(٢) العُروض مَنْهُوك؛ وأنه كان ٱبتدأ ضَعْفُ المملوك فتألَّم، ثم تَلَا خبرُ الصحة فتـلَا : ولكنّ اللهَ سَـلَّم ؛ ثم بلغه أنَّ آلامًا تراجعَتْ ، ومَوادَّ واصلَتْ بعد ما قاطعَتْ ؛ فحمَلتْه خواطِرُ الإشفاقِ علىّ على تكريرِ العِياده، وارتقابِ فَعَلاتِ الشفاء المستَجاده؛ جاريًا من إحسانه وٱفتقادِه على أجمل معْهُود، باعثا مشرِّفته

(١) مراده وناول أى أوصل المملوك الخ تأمل .

(٢) فى الأصول "كئيب" وهو تصحيف من الناسخ .

وحاملها وكلاهما حسنُ الحال محمود ، فعند ماوصلا أوصلا كمالَ العافيه ، وحقَّقتْ أخيلةَ البُرءِ الشافيه ، وما كان المشكوُّ إلا مادَّة يسيرةً وزالتْ ، وبقيَّةَ ضَعْف تولَّت بحمد الله وبركة مولانا وما توالَتْ ؛ وما عيَّدَ المملوكُ إلا وشفاءُ الجسد فى آزْدِياد ، والنفس بالوقتِ وبالمشرَّفة فى عيدَيْن قائمَيْنِ بأعياد ، لا زالتْ مِنَنُ مولانا إزاءَ اللَّحْظ حيثُ دار ، ووُدُّه وحِماه جامعين فَضْلَ الجارِ والدَّار .

زهر الربيع :

لازالَ محروسَ الشِّيَم ، هاطِلةً سحائبُه بالدِّيَم ، مشكورًا بلسانَيِ الإنسانِ والقلَم .

المملوكُ يقبِّل يَدَه الشريفةَ مُؤدِّيًا للواجب ، ويواصِلُ بدعاءٍ صالحٍ أصاره إنعامُه ضَرْبَةَ لازِب .

وينهى إلىٰ كريم علمه وُرُودَ مشرَّفه الذى أبهَجَ الأنفُسَ وضاعفَ الصَّبابه ، وأفنىٰ الصبْرَ عن مُحيَّاه وإنْ كان ماأفناه أيْسَرَ صُبَابه ، وأنَّه عَلِم منه إنعامَه وتشوُّفَه إلىٰ المملوك وإلىٰ سَماعِ أخبارِه ، وما أبْداه من شَفَقةٍ أُلِفَت من إحسانه وعُرِفَتْ من كريم نِجَاره ، وتُحُقِّقَتْ من شِيَمِه علىٰ من يَنْأىٰ عن بابه العالى وداره ، فالله يحرُس هٰـذه الأخلاقَ التى هى أرَقُّ من الماء الزُّلال ، والشمائلَ التى تفعَل بلُطْفها فِعْلَ الجِرْيال ؛ والمملوكُ فوالله لايُحصى شَوْقَه إلىٰ الخِدْمة العاليـة ولا يَحْصُره ، ولا يَقْدِر علىٰ وصف مايُسِرُّه من الأشْواق ويُظْهِره ؛ إنمـا الاعتمادُ فى ذٰلك علىٰ شاهِدَىْ عدْلٍ من خاطره وقَلْبه ، وهما يُغْنِيان المملوكَ عن شَرْحِ وَلَائه بألسنة أقلامه ووُجوه كُتُبه ؛ وأما السؤال عن أخبار مِزَاج المملوك فإنه كان فى أَلَمٍ دائمٍ ، وسُقْمٍ مُلازِم : لشـدّة المَرَض ، الذى كاد يحتوى علىٰ جَوْهَر جسمه والعَرَض ؛ فمـذْ وردَ كتابُ المولىٰ آنتعشَتْ قُوَّته ، وآشْتدَتْ مُنَّته ، وصدَقَتْ فى طلب تناوُل الغِذاء شَهوتُه ، وترجَّى

الشفاءَ بعدَ أن كان علىٰ شفَا التّلَف ، وكان له كالطبيبِ الآسِى فى إزالة مَرَض الأَسَا والأَسَف . وقد حصلت للملوك مَسَرّتان بكتاب المولىٰ وعافيتـه ، وفَرْحتانِ بمـا أهداه إليه من عَفْوِ إنعامه ومَحْوِ أثَرِ الألم وتعْفيَتِه ، وكُلّ ذٰلك بسعادته .

ومنـــه : ورد المُشَرَّفُ العالى لا زال قَدْرُ مُرْسِله شريفا ، وشَرَفُه الباذِخُ يجعل كلَّ شريفٍ مشْرُوفا ، وسحائبُ جُوده تُهْدى إلىٰ الأولياءِ من مكارمه تَليدا وطَرِيفا ، وقواضِـبُه تَرُدّ [طَرْف] حوادثِ الأيّام عنه مَطْرُوفا ، وأياديه تبعثُ لمحبيـه تُحَفا ، وهيبتُه تُهْدى إلىٰ الأعداء خَوْفا ، والدهْرُ بخدمةِ جَنابه العالى مشْغُوفًا ، فوقفَ عليه وُقوفَ مشتاقٍ إلىٰ مُسطَّرِه ، متنَزّه فى ربيع ألفاظِه وحُسْن أسْـطُرِه ، وعَرَف منـه إحسانًا ماقَتِئَ يعْرِفه ، وتفضُّـلا مازال المَوْلىٰ بمثـله يُتْحِفُه ، وما أشار إليه من شِدّة إيثارِه ، لرُؤْية المملوك وسماعِ أخباره ، والذى يُنْهِيه أنّ جسده كان قد تَضَاعف ضَعْفُه ، حتّى أتعبَ الألســنةَ وصْفُه ، فلمـا وقَفَ من مشرَّف المولىٰ علىٰ خَطٍّ هو الوَشْىُ المنمنَم ، وألفـاظٍ هى الرَّحيق المُخَتَّم بل الدُّرّ المنَظَّم ، وسحرٍ هو محلّل وكُلّ سحرٍ مُحرَّم ، أبَلّ المملوكُ وبَرَدتْ غُلّتـه ، وبَرَأَتْ عِلّتـه ، وكان كمن آستوفىٰ نصيبَه من النَّصَب ، وأخذ قِسْمَه من السُّقْم والوَصَب ، فسَقَاه مشرَّفُه الصحةَ فى كاس ، وأفاضَ عليه من العافية أفخرَ لباس .

آخـــر :

وَرَدَ الكتابُ فَعَمّتِ الأفْراحُ * وأضَاءَ فى لَيْلِ الأسَا الإصْباحُ !
وٱفْـتَرّ ثغرُ للزّمان بفَرْحةٍ * ولِلفْظه طَرِبتْ رُبًى وبِطاحُ !
وتَضَوّعَتْ أرْواحُ طِيبِ عَرْفُها * تحْيـا به الأجْسامُ والأرْوَاحُ !
وسَقىٰ سُلافَ فَصاحةٍ وبَلاغةٍ * ما ٱلمِسْكُ عندَ شَمِيمِها ما ٱلرّاحُ !

شكر الله مِننه، وأخدمه زَمَنَه، ومنَحه من العَيْش أغضَّه واحْسَنه، وشَرَّف ببقائه الدهْر وشنَّف بمَدْحه أُذُنَه .

المملوك يُنْهِى إلىٰ علمه وُصـولَ مشرِّفه الذى تنزَّهت الأعيُنُ فى حُسْـن مَنْظَره، ويانِـع ثمـارِ لفظه البديع ووَشْي أسْـطُره، وأنه آستَنْشق من رِيحه أطيَبَ نَفْحه، وتَقَمَّص منه ثَوْبَىْ دَعةٍ وصِحَّه، فشفىٰ داءً شَفَّ منه جِسْمُه، وزاد لُوروده سُرورُه وزال هَمُّه، وعلِم إنعامَ المولىٰ الذى لا يُشَكُّ فيـه، وإحسانَه الذى لا يَحْصُره لسانُ مادح ولا يُحْصِيه، وما ذكره من الألَمَ المُلِمِّ به وآشتغالِ خاطِرِه الكريم لمـا أَلَمَّ بجِسْمه، والمرضُ بسعادة المَوْلىٰ قد بَقِىَ منه قُلُّه، وتقلَّص بعدَ ما آمتدّ ظلُّه، والعافيةُ تتكمَّل إن شاء الله تعالىٰ برُؤْية مُحَيَّاه الكريم ومشاهـدَتِه، والمُثُول بين يديْه العاليتين فى خدْمتـــه .

النـــوع الخامس عشر
(فى الذّم)

ذَمٌّ بخيل: لأحمد بن يوسف :

كأنَّ البُخْلَ والشُّؤْم صارا معًا فى سَهْمه، وكانا قبْـلَ ذلك فى قِسْـمه، فحازَهُـما بالوِراثه، وآستحَقَّ ما آستَمْلك منهما بالشُّفْعة، وأشهَدَ علىٰ حِيازتِهما أهلَ الدِّين والأمانة، حتّى خَلَصا له من كلّ مانع، وسَلِما له من تَبِعةِ كلِّ مُنَازع، فهو لا يُصيب إلَّا مُخْطِيا، ولا يُحْسِن إلَّا ناسِيا، ولا يُنْفِق إلَّا كارِها، ولا يُنْصِف إلَّا صاغِرا .

وفى مثـله : وصلَ كتابُك فرأيْنـاك قد حَلَّيته بزَخَارف أوْصافك، وأخلَيْتَه من حقائقِ إنْصافك، وأكثَرْتَ فيـه الدَّعاوىٰ علىٰ خَصْمك، من غير بُرْهانٍ أتيْتَ به علىٰ دَعْواك وزَعْمِك .

ومنـــه : ولو أراد غيرَ ذلك من الأخلاقِ السَّنيَّه، الشريفةِ الهَنيَّة، لاستَوْحَش فى سُبُلهـا ، ووقع فى مَضَّة منها ، ولن يجِدَ من سَلَفه ولا نفْسه دليلًا عليهـا ، ولا هاديًا إليها .

ومنـــه : لأبى العَيْناء :

أما بعـــدُ ، فلا أَعْلَمُ للمعروف طريقًا أحْذَرَ ولا أوْعَرَ من طَرِيقه إليـك ، ولا مستَوْدَعا أقَلَّ زكاءً ولا أبعَـدَ ثمرةَ خيْرٍ من مكانه عِنْـدك : لأنه يحصُلُ منك فى حَسَبٍ دَنِىٍّ، ولسان بَذِىٍّ، ونَسَبٍ قَصِىٍّ، وجهْلٍ قد ملَكَ طِبَاعَك ، فالمعروفُ لدَيْك ضائـع ، والشُّكرُ عنـدك مَهْجور ، و إنمـا غايتُكَ فى المعروف [أنْ] تُحْرِزه ، وفى وَلِيِّه أن تكْفُرَ به .

ومنـــه : لمحمد بن الليث :

بكم عَلَن الظُّـلْمُ ، وظهرتِ البِدَع ، وٱنْدفَن الحقُّ ، وعَزَّ الفاجر ، وظَهر الكافر ، وفَشَتِ الآثام ، ونُقِضَت الأحْكام ، وٱتُّخِذ عبـادُ الله خَوَلا ، وأمْوالُه دُوَلا ، ودِينُه دَخَلا .

ومنـــه : لأبى علىّ البصير :

عَدُوُّك مُنْعزِل عَنْك ، وصديقُك علىٰ وَجَل منك ؛ إن شاهدْتَه عاقَّك ، و إن غِبتَ عنه حاقَّك ؛ تسالُه فوقَ الطاقه ، وتَرْهَقُه عنـد الفاقه ؛ و إن ٱعتذَر إليكَ لم تَعْذُره ، و إن ٱستنْصَرَك لم تَنْصُره ؛ و إنْ أنعَمَ عليك لم تَشْكُره ؛ ولا يَزِيدُك السِّنُّ إلا نَقْصا ، ولا يُفِيدك الغِنىٰ إلا حِرْصا ؛ تَسْمُو إلىٰ الكبير ، بقَـدْر الصغير ؛ وتَشِفُّ للتَّطْفِيف لاللتخْفِيف ؛ تعتَرِض الناس بالسُّؤال ، غيرَ مُحْتَشِم من الإمْلال ، ولا كارِهٍ لأن يُنْظَر إليكَ بعين الاستقلال ؛ حتّى لقد أخرجْتَ الأضْغان ، وقَبَّحْتَ الإحْسان ، وزهَّدت

فى ٱصطِناعِ المعرُوف، و إغاثةِ الملْهُوف، والنـاسُ منك بينَ أسرارٍ تُفْشىٰ، وبوائِقَ تُخْشىٰ، وشَناعاتٍ وارِدَه، ونَوادِرَ بارِدَه، وُدُّكَ تَخَلُّق، وشكُرُكَ تَملُّق .

ومنـه : لسعيد بن حميد :

رجلٌ يَعْنُف بالنِّعَم عُنْفَ من قد ساءَته مُجاوَرَتُها، و يستَخِفُّ بحقِّها ٱستِخْفافَ من لايَخِفُّ عليه مَحْمَلُها، ويُقَصِّر فى شُكْرِها تقصيرَ مَنْ لايعلَمُ أنَّ الشكرَ يرتَبِطُها، ومن كانتْ هذه حالَهُ فى ٱختيارِه لنَفْسه، فكيف أرجو حُسْنَ ٱختيـارِه لى ؟ ومَنْ كان فى مُدّة من ٱبتلاءِ الله بعيدةِ مابينَ الطَّرَفَيْن لاأدرى أينفُـذُ بى الأجلُ إلىٰ أقصاها، أم يُقَصِّر بى فى أدْناها، فكيف يتَّسع الصـدْرُ للصبْر عليه ، إنَّ الله لايخافُ الفوتَ فهو يُمْهِله ، و إنه إنْ ماتَ لم يخْرُجْ من سلطان الله جلَّ وعزَّ إلىٰ سلطان غيره فيعُاجِلَه، وأنا علىٰ خوفٍ من إعجال المَدىٰ عن بلُوغِ [مناى فأذهب](١) حرِجًا صدْرى، وعلىٰ ثقةٍ من الشُّغُلِ فى الآخرة بنَفْسى عن التَّشفِّى من أهل عَداوتى وتِرَتى ؛ وأحمدُ الله علىٰ المِحْنة ، وأسأله تعجِيلَ رَوْح النِّعمة، وفُسحةَ العافية .

النـــوع السادس عشر
(فى الأخبـــار)

قال فى "موادّ البيان" : كُتُب الأخبار و إن كانت من الكُتُب الكثيرة الدَّوَرانِ فى الٱستعمال فليسَتْ ممـا يُمكِن تمثيلُه ، ولا حصْرُ المعانى الوامقة(٢) فيه برُسُوم تشتمل عليها، نعَمْ ولا أن تقدّم له مقدّمةٌ تكون توطئةً لمـا بعدها، كما يجرِى الأمْرُ فى سائرِ فُنُون المكاتبات الأُخَرِ التى لاتخلُو من مقدّمات تحُلُّ منها محلَّ الأَساس من البُنْيان،

(١) هذه الزيادة يقتضيها المقام .

(٢) مراده الواقعة فيه ولعله مصحف عنه تأمل .

والرأس من الجُثمان ، لكن المقدّماتُ التى تُوضَعُ فى الكتب من شرْطها أن تكون مشتقّةً من نفس معنىٰ الكتاب، ومُنْهِى الخبر لا يمكنه أن يَسْتنبط من كل خبرٍ ينهيه مقدّمةً تكون بساطا له ؛ وإنما يقول : كتبت من موضع كذا يومَ كذا، والذى أنهيه كذا ؛ بل الذى يلزمه أن يتحدّاه بطاقتِه، ويتحرّاه بجهده، أن يبيّنَ مايطالِعُ به من الأخبار ، ويكشِفَه ويوضّحَه ويُفْصِح عنه ، ولا يقِفَ منه إلّا عند الشفاء والإقناع لتتقرّر صورتُه فى نفس من يُنْهِيه إليه ؛ اللهم إلا أن يكون الخبر مما يوجب الأدبُ العُدولَ عن لفظه الخاصّ به ، والإخبارَ عنه بألفاظٍ تؤدّى معناه، ولا يهجُم علىٰ المُخْبَر بما يَسُوء سماعُه ، كأن يكون خبرا يرفَعُه إلىٰ سلطانٍ عن عبدٍ له قد أَطْلَق فيه ما يَضَع منه ويُسْقِط مَهَابته ، أو نحو من ذلك مما يثْقُل علىٰ السلطان المنغص منه ، فإنه ينبغى أنْ يُعدَل فى هذا وأمثاله عن التصريح إلىٰ التعريض ، ومن التصحيح إلىٰ التَّمْريض ، وعن المكاشَفَة إلىٰ التَّوْرِية ، وأن يأتِىَ بألفاظ تدُلُّ علىٰ معانِى مايرُوم إبداءه ، ويحْرِص [علىٰ] صورة منْزِلة السلطان وتوقيره عن قَرْع سمعه بما يكْرَهه ولا تجوزُ مقابلتُه به ؛ وأن يقصد إلىٰ استعمال الإيجاز والإطناب فى المواضع التى تحتمل كلّا منهما ، فهذا ما يمكن أن يُتعرَّف من رسوم هذا الباب .

قال : ومن نَفَذ فهمُه وخاطرُه فى الصناعة وتدرَّب فيها ، يكتفِى بهذه اللُّمْعة ولا يحتاج إلىٰ زيادةٍ عليها .

فى الإخبار بوُقُوع مطر وسَيْل

من ترسُّل أبى الحسين بن سعد :

فالمــاءُ منه يَفيضُ علىٰ العُمْران ، بعد أنْ ضاقَتْ به المَغايِضُ والغُدْران ، فأتَىٰ علىٰ كثير من التِّلال والرَّوابِى ، فضلا عن الرَّساتِيقِ والقُرىٰ ؛ وصار الوادى علىٰ آتِّساع

عَرْضه، وآمتدادِ طُوله، وَسَعة مَصَبِّه، وفُسْحة مَغيضه، لايَفِى بِهَضْمه، ولا يقُوم بحَمْله؛ ففاضَ منه ماعَطَّل العُمْران ونَسَف الدُّور ومَحَق الزُّروع، فعَظُم به البَلَاء، وكَثُر له الجَلَاء، وشمِل الفَسَاد، وعَظُم الخَراب .

صدر كتاب بإخبارٍ عن الخليفة :

كتبتُ، ومولانا أميرُ المؤمنين فى توطُّد من خِلَافته، وتمهُّد من دَوْلته، وعُلُوّ من رَأْيه، ونَفاذٍ من كلمته، وعِزٍّ من سلطانه، وآرتفاعٍ مِنْ شَانه، ونِعَم سابغةٍ عليه وعلىٰ أهل طاعتـه، قالصةٍ عن أعدائه وأهـل مخالَفتِه، وآستقامةٍ من أطرافِه وثُغُوره، وآستِتبابٍ من أحوالِه وأمُوره، والحمـدُ لله علىٰ إحسانه حمدًا لايَقِف دُونَ رضاه، ولا يُحيط بِمقداره سِواه .

صدر بإخبارٍ عن الوزير :

كتبتُ، وحضرةُ الوِزَارةِ الساميةِ فى نِعَمٍ مُخْصِبةُ الأَكْناف، بَعِيدةُ الأطْراف، سادِرةُ الوَيْل، ساحِبةُ الذَّيْل، وما أنظُرُ فيـه من أمرِ دَوْلتـه منتظِم، وأُراعِيه من أحوال رَعِيَّتـه مُلْتئِم، وقد وَطَّأ اللهُ له أَوْعارَ السِّياسـة والتَّدْبير، ووَقَفه علىٰ جَوَادِّ المصلحة فى التقـديم والتأْخير، والحمدُ لله حمـدًا يستقِلُّ بحقِّه فيَقْضيه، وبواجِبـه فيؤدِّيه، ويَنْتهى إليه عزُّ سلطانه فيُرْضيه .

صدر بإخبارٍ عن أمير :

كتبتُ، والأميرُ فى عُلُوٍّ من سلطانه، وآرتفاعٍ من شانِه، وظَفَرٍ يُواكِبُ ألوِيَتَه، ونَصْرٍ يُصاحِب دَوْلتَه، ووافىٰ علىَّ من ظِلِّه، وشَمِلنى من فَضْله، ماسَبغ لباسُه، وطابتْ أَغْراسُه، والحمدُ لله آعترافًا بنعمتِه، حمدًا يُوجب شُمولَ منّته، ويستدْعِى الشكرَ عليها، ويقْضى بمَزيدٍ منها .

صدر باخبارٍ عن عافيةِ المكتوب عنه :

كتبتُ ، وأنا صالحُ الحال ، وقد مَنّ اللهُ تعالىٰ بالعافيةِ والإنعاش ، والإقالة والا (١) اش ، وأعاد إلىٰ الصحةَ بعد نَبْوِها وذَهابها ، والسلامةَ بعد تَجَعُّها وإغرابها ؛ وأسبلَ النِّعمةَ بعد الإنذار ، والتحذيرِ من الاغْترار ؛ ممحِّصًا بما أَلَمَّ من الآلام عَصبَ الأيّام ؛ والحمدُ لله أولىٰ ماتُليتْ به النِّعم ، وطُرِّز به المفْتتح والمختَتَم ؛ حمدًا يؤمِّن من التغييرِ والتبديل ، ويُعيذ من الانتقال والتَّحويل .

ابن أبي الخصال ، في الإخبار عن زَلْزلَة عظيمةٍ وقعتْ بمدينةِ قُرْطُبةَ من الأندلس .

الشيخُ الأجلّ ، الولىُّ الأكرمُ الأفضل ؛ أبو فلان ، الذى أطْرفَهُ اللهُ تعالىٰ بعجائبِ الأخبار ، وأذهبَ به فى مَسْلَك الاتِّعاظ ومَنْهج الادِّكار ؛ أبقاه اللهُ آخذًا فى سَنَن الانْزِعاج ونَهْج الازْدِجار . المخلِصُ له المَحْضَ الناصعَ من الوَلاء ، ومَعْرفة غَريبِ الآثار وعَجيبِ الأنْباء ؛ فلان .

سلامٌ عليكم ورحمةُ الله وبركاتُه .

أمّا بعدَ حمدِ الله الذى جعل عِبَرَه أنْواعا متلوِّنةً وصُنُوفا ، وأرسلَ الآياتِ ﴿وما نُرْسِلُ بالآياتِ إلّا تَخْوِيفا﴾ . والصلاةِ علىٰ سيدنا محمدٍ المصطفىٰ صلاةً طيِّبةً تعْبَق تَأْرِيجًا وتَضُوعُ تَعْرِيفا ؛ وعلىٰ آله وأصحابِه الطاهرِين الذين حَضَرُوا حُرُوبا وشَهِدُوا زُحُوفا ؛ والدعاءِ لسيدنا الإمامِ أمير المؤمنين فى نَصْرٍ عزيزٍ يُونَّس مَذْعورا ويُؤَمِّن مَخُوفا ؛ فإنى كتبتُه ـ كتبَ اللهُ لكم دَعةً حافظةً وأمانا ، وتصديقًا بآياتِ اللهِ البيِّنة وبُرْهانا ـ من موضع كذا ، عندَ ماطَرَأ علينا ماكَحَل العُيونَ بقَذاها ، ومَنَعها لَذيذَ كَرَاها ، وأخْفقَ الضُّلوعَ الحانيةَ وأقْلق مَضارِبَ حَشاها : وهو أنّ اللهَ عزّ وجلّ

---

(١) بيض فى الأصول لهذا الحرف .

ذَكَّر عباده إنْ نفعت الذِّكرى، ونبّههم إنْ تنبّهوا ولم يأمَنوا منه كَيْدًا مُبِيرا ولا مكرًا، وذلك بزَلْزال قضىٰ به علىٰ قُرطُبة وبعض أعمالها، وملأ نُفُوس ساكنيها من رَوْعاتها وأوجالها، وحالَتْ لذلك فى الخَوْف(١) والارتفاع أقبح حالها، حتى نحَوْا إلىٰ الاستكانة والضَّراعه، وأطاعَ اللهَ مَنْ لم يكُنْ له قبلَ ذلك طاعهْ، وخشوا بل كانوا يوقنون أنّها زَلزلةُ الساعه. وكان من عظيم آثارها، وكَرِيهِ إيرادها وإصدارها، انْهِدامُ القُبّة العُظمىٰ فى المسجد الجامع صانَهُ الله، وكانتْ قُبّةً أُسِّس علىٰ التَّقوىٰ بناؤُها، وذهب فى المَشارق والمَغارب ذِكْرُها العاطِرُ وثَناؤُها، وتهدّمتْ بسبب ذلك الهدْم ديارٌ كثيره، وحدَثَ به حوادثُ مُبيره. وأما تلوكة من أعمالها، وكان فيها مَبْنىً من مَبَانى الرُّوم، فإنه غادرَها قاعًا صَفْصَفًا، وقرًّا نَفْنَفًا، واضْطَرَّ ذلك الخَطْبُ القادحُ، والرِّيحُ القادح، إلىٰ أنْ خرج السيِّدُ أبو إسحاق وكافَّةُ أهل قُرطُبةَ من ديارهم، وفرُّوا من الموت بأقواتِهم وأصحابِهم؛ ثم إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ تداركَ بالرُّحْمىٰ، وكشفَ تلك الغُمّىٰ، جعل الله ذلك صَقْلًا لقُلوبنا، وتوبةً عما سبَق من ذُنوبنا؛ وعَصَمنا من جُرْمنا المُوبِق وحُوبِنا، وأوْلانا وإيّاكم أمْنًا من الغِيَر، وازْدِجارًا بما ظَهر من العِبَرْ، وجعل كِلانا(٢) جميلَ الحوادثِ طيِّبَ الخبر، بمَنِّه؛ والسلامُ الطيبُ المبارَك ورحمةُ الله وبركاتُه.

من كلام المتأخرين فى الإخبار بقدوم نائبٍ إلىٰ نيابة.

من ذلك نسخة كتاب عن نائب الشام إلىٰ كافل الممالك الإسلامية مُخْبِرًا له بوُصُوله إلىٰ دِمَشْق، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة. وهو بعد الألقاب:

(١) لعله فى الخفض.

(٢) جرى الكاتب فى كلا على لغة من يعربها اعراب المقصور على حد قوله:

نعم الفتى عمدت إليه مطيتى * فى حين جدّ بنا المسير كلانا — شرح الأشمونى

لازالتْ آفاقُ الممالك مُضيئةً بأنوارِ شمسه، هَنيّةً بأُنْس سعادتِهِ وسَعادةِ أُنسه؛ سَنِيّةَ المَقاصد التى قام فى كَفَالتها بنَفَاسة نَفْسه؛ ولا بَرِح يستثمر من خيْرِ الدُّنيا والآخرةِ ماقدَّم صُنْعُه الجميلُ من غَرْسه. تقبيلًا يُشافِه به القلمُ القِرْطاس، ويودّ المملوكُ لو شافَهَ به الخِدَم ساعيًا سعْيَ القَلَمِ على الرّأس. ويُنهِى قيامَه بوظائِفِ دُعاء يُنِـير الحَلَك، وولَاءٍ يدُورُ بكَواكب الإخْلاص إدارةَ الفَلَك، وحمْـدٍ تذْهب به صَفحاتُ الصُّحُف حيثُ ذَهب وتَسْـلُك عُقُودُ الأفلاك حيث سَلَك، وأنّه خدم بهـذه العُبُوديَّة عند وُرُوده إلى دِمَشْق المحروسةِ لنيابةٍ كانتْ عنايةُ مولانا سـفيرةَ أمْرِها، ومميِّزةَ بِرِّها، يوم كذا، وسـعادةُ مولانا السلطان ـ خلّد اللهُ مُلْكَه ـ تُعلّمه وتُعْلِمه، والغيثُ ببركاتِ الدولة القـاهرة يُسايِره ويَقْدُمه، وثَغْرُ المطر يسابِقُ ثغرَ المملوك إلى مشافَهـة الثَّرى ويَلْثِمُه، والرعيَّة منه آمنـةٌ فى سِرْبهـا، وادعةٌ بظِلَال الأبواب الشريفةِ مع بُعْـدها دَعَةَ الصَّوارِم فى قُرُبِها، وباكَر المملوكُ يومَ الاثنين الذى بُورِك فيه: فى الخميسَيْنِ من يوم وجَيْش، وانتصب لمُهِـمَّاتٍ على مثلها فى الخِـدْمة يَطيب أن يَرْفُع لِينُ العَيْش؛ مجتهِدا فيما هو بصَدَدِه، مستمِدًّا من ربّه عز وجل وسعادةِ سلطانه برُشْده، معتدًّا نِعَمَ مولانا فيما يأتى[فى] ذلك من أوفَى وأوفَرِ عُدَده ومَدَده، والله تعـالى يُعين المملوكَ على شُكْرِمِنَن مولانا الباطنـة والظاهره، والغائبةِ والحاضره، والمُقيمةِ والمسافِره، ويصِلُ نَفْع المملوك بولَائه فى الدنيا والآخِره، ويُقيم الرَّعايا بالأمْن فى كَفَالته التى مابَرِحتْ بعُيون الأعداء فإذاهُم بالسَّاهره.

الأجوبة عن كتب الأخبار

قال فى "مواد البيان": الأخبارُ على أكثر الأحوال لاأجْوبةَ لهـا، وإنمـا هى مُطالَعاتٌ بأمور يُنْهِيها الخُـدَّام، وأصحابُ البُرُد إلى السلاطين، ممـا تخرُج أوامرُهم

إلى الوُلاة بما تضمَّنته : مما يقتضيه كلُّ خبر ينهى من سياسة عامّة ، أو مصلحة تامّة . قال : فأما ما يستعمله الإخوانُ فى المكاتبة بالأخبار التى يكل بعضُهم إلى بعض الإخبارَ بها ، فمنها مايقتضى الجوابَ ، ومنها مالا يقتضيه . قال : وأجوبةُ مايقتضى الجوابَ منها تُفْتَنُّ بحسَبِ افتنان الأخبار والأغراض التى يجيب المُجيبُ بها ، وهو أيضا مما لا يعبَّر عنه بقولٍ جامعٍ ولا يرسم رَسْم كُلّىّ ، وإنما يرجعُ فيه إلى الأمور التى يبتدأُ بها ويُجاب عنها .

النـــوع السابع عشر
(المُداعبـــةُ)

قال فى "مواد البيان" : ومعانى المُداعباتِ التى يستعْملها الإخوانُ غيرُ مُتناهيه ، والأغراضُ التى ينتظمُها المِزاح وتُعدُّ من طَلاقة النفس لا تقِف عند قاصيه : لأنها مستَمْلاةٌ من أحوالٍ متباينه ، ومأخوذةٌ من أُمور غير معيَّنه ، وحصْرُها فى رُسومٍ جامعةٍ يستحيلُ ، وتمثيلُها غيرُ مُفيد : لأنه لاتعلُّق لبعضها ببعْض ، ولا نِسبةَ بينَ الواحِد والآخر ، ثم قال : والأحسنُ بأهل الوِداد والصَّفاء ، والأليقُ بذوى المخالَصة والوَفاء ، أن يتنزَّهوا فى المُداعَبة الدائرةِ بينهم عن بذىء اللفظ ومُفْحِشه ، ومؤلِم الخطاب ومُقْذِعه ، ويكُفُّوا اللسانَ واليَدَ عن الانطلاقِ بما يدُل على خفَّة الأحلام ، والرِّضا بالرَّذْل من الكلام اللائقِ بسُفَهاء العوامّ ، ويتحرَّجُوا من إرسالِ قولٍ يَبْقى وَصْمةً على [مَدَى الأيّام] إذ لافرقَ بين جَرْح اللسانِ وجَرْح اليَد ، وقد نطَقَ بهذا المَثَلُ : لما فى ذلك من الترفُّع عن دنَايَا الأُمور التى لايتنازَلُ إليها الكرماء ، والتنزُّه عن المَساقط التى لايستعمِلُها الأُدَباء ، وصيانةِ المروءة عما يَشينها ويَخدشُها ، وتَوقيرها

عما يَنْقُصها ، والأَمْنِ من الجواب الذى رُبَّما قَدَح فى النفس وأثَّر ، وأحمىٰ الصدْرَ وأوْغَر ، ونَقَل عن التَّوادُد إلىٰ التَّضادُد ، وعن التَّدانى إلىٰ التَّباعُد ، وقد أشارَ إلىٰ ذٰلك أميرُ المؤمنين علىّ كَرَّم اللهُ وجْهَه بقوله من أبياته المنسوبة إليه :

فَـرُبَّ كَلامٍ يَمُضُّ الحَشَـا * وَفِيهِ من الضَّحْك ما يُستَطاب

مع مُراعاةِ السلامةِ من المُداخَلة المُنْطوِيَة علىٰ الغِلّ ، والمُراآة المبنيَّة علىٰ المكْر ، إذا لم يكُنْ للمقابَلةِ علىٰ الآبتـداء المُمِضّ بالجواب المريض ، وغير ذٰلك مما لا تُؤْمَن عاقبتُه ، ولا تَحْسُن عائدتُه . قال : ويكون المستعْمَل فى هذا الفَنّ ماخَفَّ موْقِعُه ، ولَطُف مَوْضِـعُه ، وهَشَّ له سامِعُه ، وتلَقّاه الواردُ عليه مستَحْليا لِثمـارِه ، مستَدْعياً لأنْظاره ، ولا يُعْـدَل به عن سَمْت الصِّدْق ، وطريق الحَقّ ، ومَذْهب التحرُّز من المَذْق ، ويُقتَصر فيه علىٰ النادرة المستطْرَفه ، والنُّكتة المُستَظْرَفه ، واللُّمْعة المستحْسَنَة ، والفِقْرة المستَغْربة ، دُونَ الإطالة المُمِلَّة ، ولا يجعل المَزْحَ غالباً علىٰ الكلام ، مُداخلاً لجميع الأقسام : فإنَّ ذٰلك يُفْسِد معانِىَ المكاتبـه ، ويُحِيل نِظامَ المخاطَبـه ، ويَضَع من مَعْناها وإنْ كان شَرِيفا ، ويُوخِمُ لَفْظَها وإن كان لَطِيفا ، ويَذْهَبُ بجِـدِّها فى مَذْهب الهَزْل ويُميله عن القَصْد ، وإلىٰ ذٰلك يُشير بعضُهم بقوله :

أَفِدْ طَبْعَكَ المَكْدُودَ بالجِدِّ راحةً * بلَهْوٍ وعَلِّلْهُ بِشَىْءٍ من المَزْح!

ولٰكِنْ إذا أعْطَيْتَهُ المَزْحَ فلْيَكُنْ * بمِقْدارِ ما يُعْطَىٰ الطَّعامُ من المِلْح!

وأنْ يَقْتَصِد مع ذٰلك . ثم قال : وينبغى أن يَقْصِد إلىٰ آستِعْمال الدَّعابة فى المواضع اللائقة بهـا ، والأحوالِ المشابِهة لهـا ، ولا يُودِعَ باباً من الأبْواب ، مالا يحتَمِلُه من الخطاب : فإنَّ القصْدَ فى هذا النَّوْع من المكاتبات إنمـا هو الإعْرابُ عن الظَّرْف والبَرَاعة ، والإبانَةُ عن طَلاقة النَّفْس ، والآنسلاخُ من تعبيس الفَـدامة

والجَهَامة ؛ ثم عقَّب ذلك بأن قال : ومَنْ وَقَف من ذلك عند الحدّ الكافى ، ولَزِم فيـه الأدبَ اللائق بأهْلِ التَّصافى ، دلَّ علىٰ ما ذكرناه ، وشهد لمستعْمله بإحراز ما وصَفْناه ؛ ومَنْ تعدّىٰ ذلك عُدَّ من المُجون والمُلاعبـة ، وحُسِب من رَذَالة الطبع ونَذَالة الخِيم وسَـفَه اللسان ، وغير ذلك من الأمور التى لاتليقُ بالكاتبين الكِرام ، الذين هم خِيَارُ الأَنَام ، ووُلاةُ النقض والإبْرام . وختم ذلك بأن قال : والكاتب إذا كان مهيَّأ الطبع للانطبـاع برسوم الصِّناعة ومُناسـبةِ أوضاعها ، أغناه الوُقوفُ علىٰ هذا القول المجمَل فى آستعمال مايقع فى هذا البابِ عن تمثيلٍ مفصَّل . ولم يذكر له مِثَـالا .

ابن أبى الخصال :

سـيِّدى وواحدى الذى أجْمَل ذكْرَه ، وأُوالِى شُكْرَه ، لا زال مَغْنَاكَ رَحِيبا ، وزَمانُك خَصيبا ، ولا زِلْتَ تأخُذ لأُخْراك نصيبا ، عبدُك فلان مؤدِّيـا ينتجع الكِرام ، ويُبارِى فى جَرْيها الأَيَّام : فتارة يجْمع ، وأخرىٰ يفرِّق ، وطورًا يُغرِّب ، وطورًا يُشرِّق ، وأمّ الحضْرة ـ وصل اللهُ حِراستَها ، وأدام بهجَتها ونَفاستها ـ والمُلْك بهـا غضُّ الشَّـباب ، أخضرُ الجِلْباب ، وإحسانُك إحسانُك ، ومكانُكَ من المُرُوءة مكانُك ، فأَوْسِعه قِرَى ، وآمْلأ عينَيْه علىٰ الشِّـبع كَرىٰ ، أستغفِر الله ، بل أَنْجِدْه تِبْنا وعَلَفا ، وأرْكِبْه حَزْنا من الأرض ظَلَفا(١) ، ودُونَكه لم يقلِّب أرضَه بَيْطار ، ولا لجنايةٍ به جَبَّـار ، وجُرْحُه جُبَار ، وعنـده كما علمت دعاءٌ مُباح ، وثنـاءٌ فى الشكر مَساءً وصَبَاح ، والسلام .

(١) الظلف بالتحريك ماغلظ من الارض فلم يؤد [أى لم يظهـر] أثرا . انظر اللسـان ج ١١ ص ١٣٤ .

من كلام المتأخرين :

كتب بعضهم إلى كمال الدين بن الأثير ، وقد جاء إليه فى بستانه فلم يجده ولا وجد من أنصفه .

حضر المملوك البستان ، مستدنيا قطوف الإنعام والإحسان ، واستمطر سحائب فضله ، وهز إليه بجذع نخله ، فلم تتساقط عليه رطبا جنيا ، فعلم أنه قد جاء شيئا فريا ، فثبت نفسه مع تصاعد الأنفاس ، والطمع ينشده :

* ما فى وقوفك ساعة من باس *

فانطلق حتى أتى القرية مستطعما أهلها فأبوا أن يضيفوه ، مستعطفا حاشيته الرقيقة فأبوا[1] حاشيته أن يستعطفوه ، وقال كل منهم : تطالب بالقرى كما تطالب بدينك ! ارجع حيث شئت هذا فراق بيني وبينك ! وعلم أنه لو أقام بها جدارا لما أعطى عليه أجرا ، ولو حاول قرى لسمع من التوبيخ مالم يستطع عليه صبرا ، فرجع بخفى حنين ، بعد مشاق جرعت كاسات الحين ، فأين هذه المعاملة مما نشيعه عنه من كريم الخلال ، وكيف نشكو نقص حظ وله كمال الإحسان وإحسان الكمال .

الأجوبة عن رقاع المداعبة

قال فى "مواد البيان" : ينبغى للمجيب عن المداعبة أن يشتق من نفس الابتداء جوابا مناسبا لها ، وأن يبنيه متى أحب الأخذ بالفضل على المسامحة ، واطراح المناقشة ، والإغضاء عما يمض إبقاء على المودة ، وتحسينا لقبح الصديق ، وتعودا لعادة الحلم والاحتمال ، وأن يذهب فى الجواب مذهب الاختصار ، وإيراد النكت الرائعة كما فى الابتداء ، على ما تقدم .

(١) كذا فى النسخ وهو على لغة يتعاقبون فيكم ملائكة .

الفصـــل الثـامن(١)

(فى إخفاء ما فى الكُتُب من السِّرّ)

وهو مما تَمَسُّ الحاجةُ إليـه عند آعتراض معترِض من عدوّ ونحوه يحُولُ بين المكتوبِ عنه والمكتوبِ إليه : من مَلِكين أو غيرهما حيث لم تُفِد المَلْطَفات لضرر الرَّصْد وزيادة الفَحْص عن الكُتُب الواردةِ من الجانبَيْن، وهو علىٰ نوعين :

النـــوع الأوّل

(مايتعلّق بالكتابة، وهو علىٰ ضربين)

الضـــرب الأوّل

(مايتعـــلّق بالمكتـــوب به)

وذٰلك بأنْ يُكتَب بشيْء لايظْهَر فى الحال، فإذا وصـل إلىٰ المكتوب إليه فعل فيـه فِعْلا يكونُ مقرَّرا بين المتكاتبين من إلقاء شىْء علىٰ الكتابة، أو مَسْحه بشىء، أو عَرْضِه علىٰ النار ونحو ذٰلك .

وقد ذكروا لذٰلك طُرُقا :

منهـا — أن يُكْتَب فى الوَرَق بلَبَنٍ حلِيبٍ قد خُلِط به نُوشَادِر فإنه لاتُرىٰ فيـه صورةُ الكتابة، فإذا قُرِّب من النار ظهرتِ الكتابةُ .

ومنهـا — أن يُكتَب فى الورق أيضا بمـاءِ البَصَل المُعْتَصَر منه فلا تُرىٰ الكتابةُ فإذا قُرِّب من النار أيضا ظَهَرت الكتابةُ .

---

(١) أى من الباب الثانى من المقالة الرابعة وهو آخر فصولها فهى ثمانية لاستة وتقدم فى ج ٦ ص ٣٦٥ أنها ستة موافقة للأصول فتنبه .

ومنها — انه يكتُب فيما أراد من وَرَق او غيره بماءٍ قد خُلِط فيه زاجٌ، فلا تظْهر الكتابةُ، فإذا مُسِح بمـاءٍ قد خُلِط فيه العفْص المدقُوق، ظهرتِ الكتابةُ .

ومنها — أن يَكْتُب فى الورق غيرِ المُنَشّى بالشّبِّ المحلُول بمـاء المطر، ثم يُلْقيه فى المـاء أو يَمْسَحُه به، فإنه إذا جَفَّ ظهرتْ فيه الكتابةُ .

ومنها — أن يكْتُبَ بمَرارة السُّلَحْفاة فإنَّ الكتابة بهـا تُرىٰ فى الليـل ولا تُرىٰ فى النهـار .

ومنها — أن تأخُذَ الليمونَ الأسـودَ وعُروقَ الحَنْظل المقْلُوّةَ بزيتِ الزيتونِ جزْأين مُتساوِيَيْنِ وتَسْحقَهما ناعمًا، ثم تُضيفَ إليهما دُهْنَ صَفَار البَيْض وتكْتُبَ به علىٰ جسد من شئْتَ، فإنه يَنْبُتُ الشَّعْرُ مكانَ الكتابة، وهو من الأسْرار العَجِيبة؛ فإذا أُريد إرسالُ شخصٍ بكتابٍ إلىٰ مكانٍ بعيدٍ، فُعِل به ذٰلك، فإنه إذا نبتَ الشّعر قُرِئت الكتابةُ .

الضـــرب الثـانى

(ما يتعـلق بالخَـطِّ المكتُوب)

بأن تكون الكتابةُ بقَلَمٍ اصطَلَح عليه المُرْسِلُ والمُرْسَـل إليـه لايعرِفُه غيرُهمـا ممن لعَلَّه يقِف عليه، ويسمَّى التعمية، وأهـلُ زمانِنا يعبِّرون عنه بحَلِّ المُتَرْجَم، وفيه نظر: فإنَّ الترجمةَ عبارةٌ عن كَشْف المُعَمّى، ومنه سُمّى المعَبِّر لغيره عن لُغَة لايعرِفُها بلُغةٍ يَعْرِفُها بالتَّرْجُمان؛ وإليـه يَحُلُّ لفظُ الحلِّ أيضا؛ إذ المرادُ من الحلِّ إزالةُ العَقْد فيصيرُ المرادُ بحلِّ المُتَرْجَم ترجمـةَ المترْجَم أو حَلَّ الحل، ولو عُبِّر عنه بكَشْف المُعمّى لكان أوفَقَ للغرض المطلُوب .

ثم مبنىٰ ذلك علىٰ قاعدتين :

القاعدةُ الأُولىٰ — كيفية التعمية .

اعلم أنَّ التعميةَ بالنِّسبة إلىٰ كلِّ واحد من الناس باعتبار ما يجهلُه من الخُطُوط ، فيَعْمَى علىٰ العربىِّ فى اللغــةِ العربيَّة بالخُطُوط غير العربيــة ، كالرُّوميَّة والعِبْرانيَّــة ونحوهما ، إذا كانت حروفُ تلكَ اللغةِ تُوافِقُ لغةَ العرب ، أو بقلمٍ مصطلَح عليه علىٰ وَفْق حُروف العربيــة ؛ وكذٰلك يعمَى علىٰ غير العربىِّ من الرُّومى ونحوه ممن يجهلُ الخطَّ العربىَّ بالقلم العربىّ ، وعلىٰ ذٰلك .

ثم للناس فى التعمية مَذْهبانِ :

المَذْهَبُ الأوَّلُ — أن يُكتَبَ بالأقلام القديمة التى ليستْ بمتداوَلةٍ بين النــاس ممــا لايَعْرِفُه إلَّا الآحادُ ، إذا وافق ذٰلك القلمُ اللغةَ التى تُرِيد الكتابة [بها] .

وقد ذكر ابنُ الدُّرَيْهِم أنَّ أقلَّ اللُّغات المُغْل وهو سبعَةَ عشَرَ حرفا ، وأطولهَـا الأَرْمنىُّ ، وهو ستةٌ وثلاثون[(1)] حرفا . ثم قال : والتركىُّ عشرون[(2)] حرفاً ، وكذلك الفارسىّ إلا أنَّ فى الفارسىّ ثلاثةَ أحرف ليستْ فى التُّركى ، وهى الهاءُ والفاءُ والدالُ . وفى التركىّ ثلاثة ليست فى الفارسى : وهى الصادُ والطاءُ المهملتانِ والقافُ ، والعِبْرانىّ والسُّريانىّ آثنان وعشرون حرفا [من أول أبجد إلىٰ آخر قرَشَتْ . واليُونانىُّ والرومىّ القديمُ أربعةٌ وعشرون حرفا[(3)]] ولهم قلمٌ آخر ثلاثون حَرْفا ؛ والقِبْطىُّ آثنان وثلاثون حَرْفا ؛ وذكر أنَّ جميع الأقلام مقطَّعةُ الحروف علىٰ آصطلاح أبجــد ، خلا العربِىَّ والمُغْلىّ

(١) فى هذا الحصر مخالفة لمــا تقدّم فى ج ٣ ص ١٩ من هذا المؤلف فراجعه وحرر .

(٢) قد تقدم أنه من أربعة وعشرين الى ستة وعشرين حرفا فتنبه .

(٣) زائد فى بعض النسخ .

والسُّريانى؛ فإنّ حروفها تُوصَل وتُقْطَع، وقطع السريانى كالعربى، وأقلامُ المتقدّمين المُقَرّرة : كالرُّومى والفَرَنجى وغيرهما معلومةٌ لاحاجة إلىٰ التمثيل بشىء منها.

المذهب الثانى — أنْ يَصْطَلح الإنسانُ مع نَفْسه علىٰ قلم يبْتكِره وحُروف يُصَوّرها؛ وقد ذكر ٱبن الدُّرَيْهِم أنّ الناس ٱختلفتْ مقاصدُهم فى ذلك :

فمنهم — من يصطلح علىٰ إبدال حرفٍ معيَّن بحرفٍ آخَرمعيَّن حيثُ وقع فى القلم المعروف بالقُمّى، وهو أنهم جعلُوا مكان كلِّ حرف من حروف العربية حرفًا آخرمن حروفها، فجعلوا الكافَ ميما و بالعكس، والألفَ واوًا و بالعكس، والدَّال المهملة راءً مهملة و بالعكس، والسينَ المهملةَ عينا مهملة و بالعكس، والفاءَ ياءً مثناة تحتيةً و بالعكس،فيكتب محمد «كطكر» وعلى «سهف» ومسعود «كعسار» وعلىٰ ذلك، وقد نظم بعضهم ذلك فى بيتٍ واحد ذكر فيه كلَّ حرف تلو مايُبْدَل به، وهو :

كَمْ أَوْ حَيط صِلاَ لَهُ دَرْ سَعُ * فى بَزْ خَيش غَضّ ثج تَذفق

قال : ومنهم — مَنْ يعكِسُ حروفَ الكلمة فيكتُب محمد «دمحم» وعلى «يلع» .

ومنهـم — من يُبـدِل الحرفَ الأوّلَ من الكلمـة بثانيهِ مُطْلقا فى سائرالكلام فيكتب محمد أخو على «حمدم خا عو يل» إلىٰ غيرذلك من التمييزات .

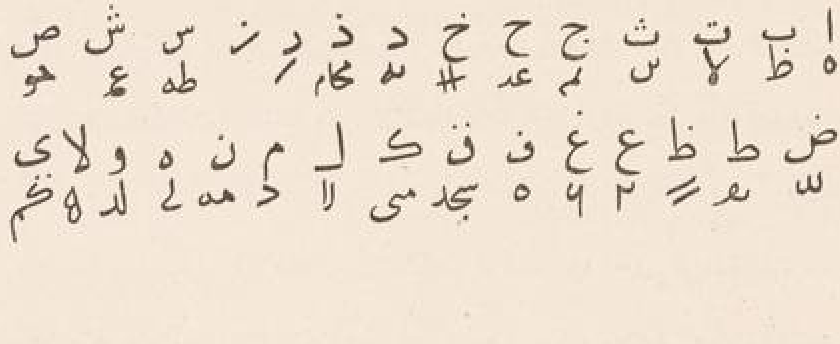
ومنهـم — مَنْ يُبْـدِل الحروفَ بأعدادها فى الجُمَّـل ؛ فيكْتب محمد أربعون، وثمـانية، وأربعون، وأربعة، وتعمل التعميةُ صفةَ محاسَبة .

ومنهـم — من يكتُب عِوضَ عدَد الحرف حُرُوفا وهو ابلغُ فى التعمِيَة؛ فيكتب محمد «لى بو لى اج» لأنّ اللام واليـاء بأربعين وهى عدد ماللميم الأولىٰ، والبـاء

والواو بثمانية وهى عدد ما للحاء، واللام والياء أيضا بأربعين وهى عدد ما للميم الثانية، والألف والجيم بأربعة وهى عدد ماللدال، فكأنه قال : م ح م د . وإن شاء أتىٰ بغير هذه الحروف مما يتضمن هذه الأعداد .

ومنهـم — من يجعَلُ لكلّ حرفٍ آسمَ رجل أو غيره .

ومنهـم — من يَضَع الحروفَ علىٰ منازل القمر الثمانيـة والعشرين علىٰ ترتيبها علىٰ حروف أبجد : فيجعل الألف للشُّرَطين ، والباء للبَطِين ، والجيم للثُّرَيَّا ، وهكذا إلىٰ آخرها ، فيكون بطنُ الحوت للغين من ضـظغ . وربمـا آصطُلِح علىٰ الترتيب علىٰ أسماء البُلْدان أو الفواكه أو الأشجار أو غير ذلك ، أو صُوَر الطير وغيره من الحيوانات ، إلىٰ غير ذلك من ضروب التّعامِى التى لا يأخُذُها حَصْر . وأكثَرُ أهل هذا الفنّ علىٰ أن يرسُم الحروفَ أشـكالا يختَرِعها قلَمـا له مقطَّعـة علىٰ ترتيب حروف المعجم . والطريق فى ذلك أن يُثْبِت حروف المعجم ثم يُرتِّب تحتَ كل واحد شكلا لا يمـاثِلُ الآخَر ، فكلما جاءه فى اللفظ ذلك الحرف كتبه بحيث لا يقعُ عليـه غلطٌ ، ثم يفصل بين كلّ كلمتين : إما بخط أو بنقط أو ببياض أو دائرة أو غير ذلك ؛ وأكثَرُ المتقدِّمين يجعلون الحرفَ المشدّدَ بحرفين ، والمتأخرون يجعلونه حرفًا واحدا ، وهذه صور حروفِ مترجَمٍ كان قد وصل إلىٰ الأبوابِ السلطانية من مُناصحِينَ فى بغداد يُقَاس عليه



القاعدة الثانية — حلُّ المعمَّى، وهو مقصودُ الباب ونتيجتُه .

ويحتاج المتصدِّى لذلك مع جَوْدة الحَدْس وذَكاء الفطرة أن يعرفَ اللغـةَ التى يروم حلَّ مترجَمِها ممـا وَقَع به التعميةُ فيها، ومِقدارَ عدد حُروفِها؛ ولا خفاءَ فى أن حروفَ العربية ثمـانيةٌ وعِشْرون حرفًا، ويجب أنْ يعرِفَ الحروفَ التى تدخُل كلَّ لغة والحُروفَ الممتنعةَ الوُقُوعِ فيها كما تقدّم .

ثم المَعَوَّل عليـه، والمنصَبُّ القول إليـه، فيما هو متعارَف فى هذه المملكة لغـةُ العرب التى [هى] أشرفُ اللغات وأبْذَخُها .

والناظِرُ فى حَلِّ مترجَمِها يحتاجُ إلىٰ أصلين :

الأصلُ الأوّلُ — معرفة الأُسّ الذى يترتَّب عليه الحَلُّ ؛ والذى تمسُّ إليـه الحاجةُ من ذٰلك سبعةُ أُمُور :

أحدها — أن يعرف مَقادير الحروفِ التى تتركَّب منها الكلمة .

وٱعلَمْ أنَّ كلام العرب منـه ما يُبْنَىٰ علىٰ حرفٍ واحدٍ مثـل «ق» من الامر بالوِقَاية، و «ع» من الأمر بالوَعْيِ؛ ومنه مايبنىٰ علىٰ حرفَيْنِ من الأفعال مثل «قُمْ» فى الأمر بالقيام، و «كُلْ» فى الأمر بالأكل؛ ومن الحروف نحو : مِنْ فِى رُبَّ هَـلْ بَلْ وما أشبه ذٰلك ؛ ومن الأسمـاءِ المبنيَّة نحو : ذِى ذَا مَنْ كَمْ ؛ ومن الضـمير مع حروف الجرّ نحو : بِكَ لَهُ ؛ ومنـه مايُبنىٰ علىٰ ثلاثةِ أحْرُفٍ وأربعـةٍ وخمسـةٍ فى الحُرُوف والأفعـال والأسمـاء ، ثم تدْخُل فيه أحرف الزيادةِ العشرةِ ، وهى « هَوِيت السِّمانَ » وثلاثةُ أحْرُفٍ أُخَر ، وهى الفاءُ وباءُ الجرِّ وكافُ التشبيه

وكافُ الخطاب إلى أنْ تبلُغَ الكلمةُ على اصطلاح الكُتّاب [أربعةَ] عشرَ حرْفا ، كقولك مخاطباً لرجلين [أنشا] جُنَينةً : أَفَلِمُسْتَنْزَهاتِكُمَا أعددتماها .

قال ابن الدُّرَيْهِم : وليس فى كلامِ العربِ كلمةٌ رُباعيَّةُ الأصل أو خُماسيَّةُ الأصل ليس فيها حَرْف من الحُروف الذَّلَقِيَّة كاللام والنون والواو، والشَّفَوِيَّة كالفاءِ والميم والباء إلا ماشَذَّ مثل «عَسْجَد» من أسماء الذَّهَب .

قال : ونهايةُ الأسماءِ العربيَّة قبل الزِّيادة خمسةٌ، وشَذَّ(؟) مثلُ عَنْدَليب ، والأفعالِ قبل الزيادةِ أربعةٌ، وليس فى القرءان كلمة خُماسيَّةُ الأصل سِوى الأسماءِ الأعجميةِ مثل إبراهيم ، ولا يمكنُ أن يتكرَّر حرفٌ [فى] كلمةٍ واحدةٍ أكثَرَ من خمسة كقول القائل مارأينا [كُككا ككُككَككُمْ(١)] جمع كُكَّة وهو المركب الكبير مثل عُكَّة وعُكَك ، وأربع كافات فى قولك (٢) وكَكَعْكَك .

الثانى — أن يعرِفَ الحروفَ التى لا يُقارِبُ بعضُها بعضا بمعنَى أنها لا تجتمع فى كلمةٍ واحــدة .

واعلم أنَّ فى الأحرف مالا يُقارب بعضُه بعضا مطلقا بتقْديم ولا تأخير كالثاء المثلَّثة ، فإنها لاتقارِب الذالَ المعجمة والزاىَ المعجمةَ والسينَ والصادَ المهملتين والضاد المعجمةَ، وكذلك الجيم لاتُقارب الطاء المهملة ولا الظاءَ المعجمة ولا الغينَ

---

(١) بيض له فى الاصول وقد صححناه من المقام ، ولكن لم نعثر على هــذا البناء فى كتب اللغــة ولعله عامىّ تأمــل .

(٢) بياض فى الاصل .

المعجمةَ ولا القافَ ولا الكافَ، وما وقع من ذلك فى الكلام نحو : نُغْجَة و بَرْجَق وجُرْمُوق وجَوْلَق وجُلَاهِق ومَنْجَنِيق وجَوْقة وجَوْسَق وصَنْجَق وسَنْجَق وجَرْدَق ونحو ذلك فليست عربيـةً : لأنه لا يجتمع فى كلام العرب جيم وقاف فى كلمةٍ واحدة ؛ وكذلك الدال المهـملةُ لا تقارنُ الظـاءَ المعجمة والذالُ المعجمة لا تُقارن الزاى المعجمةَ والصادَ والضادَ والطاءَ والظـاءَ ، وما وقع فى الكلام من ذلك فليس بعربىّ ، مثل طبرزد فارسىّ والزُّطُّ نبطىّ ، ولا تقارن السينُ المهملةُ الصادَ المهملةَ والضادَ المعجمةَ والظاء المعجمةَ ؛ ولا تقارن الصادُ المهملة الضادَ المعجمةَ ولا الظاء المعجمةَ ؛ ولا تقارن الضادُ المعجمةُ الشـينَ والظاء المعجمتين ؛ ولا تقارن الطـاءُ المهملةُ الظاء المعجمةَ ؛ ولا تقارن القاف الغين المعجمةَ[(١)] ولا الكافَ فى كلمةٍ أصلية ، وشـذَّ نَغق الغُرابُ وناقة نَغِيق ؛ ولا تقارن الكافُ الخاءَ المعجمةَ فى كلمة أصلية ، ولا تقارن الميمُ البـاءَ الموحَّدة والفاءَ فى كلمة أصليةٍ إلا فى فَمٍ وأصـله فَوَه ، وأما بَمٌّ لأحدِ أوتار العُود فليس بعربىّ ؛ والحروفُ الحَلْقيَّة لا يُقارن بعضُها بعضًا خَلَا الهاءَ فإنها تَعْقُبها زائدة ، كهاءِ الضمير وهاء التأنيث ، وتعقب العيْنَ أصليةٌ كالعَهْد والعَهْر وعَهِر ؛ وليس فى كلمةٍ أصـلية حرفانِ حلْقِيَّان سِوىٰ ما تقدّم من الهـاء ، وقد تعقُب بواسـطةٍ كغَيْهَب وعَبْهر ؛ أما حَيْهل فمركَّبة ، ولا يجتمع حرفان من هـذه الخمسة : وهى الهاءُ والطاءُ المهملة(؟) والعينُ والغينُ والخاء المعجمةُ فى أوّل كلمة سِوىٰ ما ذكر ، ولا فى أثناء الكلمةِ إلَّا الهاء مع العين كهَلَع والهاء مع الغين كأَهْيَغ ، والخاء مع الغين كأَخْيغ[(٢)] ، والهاء مع الخـاء المعجمة فى كلمة واحدة وهى هَبَيَّخَة ؛ ولا تجتمع الهـاءُ

(١) فى الأصول العين المهملة وهو غير مستقيم . وفى كتب اللغة ناقة نغيق «أى باعجام الغين» اذا كانت تبغم مرة بعد مرة .

(٢) لم توجد فى كتب اللغة التى بأيدينا .

الأصليةُ مع الخاءِ المعجمةِ ، ولا الحاءُ المهملةُ والعينُ المهملةُ إلا أن تكون مركّبة مثل هرقصع (؟) والحَيْعَلة .

الثالث — أن يعرِف الحُروفَ التي لا تُقارن بعضَ الحروف فى الكلمات إلّا قليلا، كمقارنة السِّين المهملة للشِّين المعجمة فى شِسْع والشين مع الزاى كشَزْر والراء مع اللام كوَرَل .

[واعلم] أنّ الحرفَ الواحدَ يتكرر فى الكلمة الواحدةِ كثيرًا مثل دَهْدَه وتَهْتَه ونَهْنَه وحَصْحَص وحَبْحَب وحَمْحَم وجَلْجَل وخَلْخَال وشَعْشَعة وزَعْزَع ودَغْدَغ وبَغْبَغ ونَعْنَع وعَسْعَس وزُعَازِع وغَوْغَاء وضَحْضَاح وخَوْخ وما أشبه ذلك .

الرابع — أن يعرف ما يجوز تقديمُه علىٰ غيره من الحروف وما يمتنِع ، فالثاء لا تتقدّم الشِّينَ المعجمة ، والدالُ المهملة لا تتقدّم علىٰ زاى[1] ولا صادٍ مهملة ولا طاءٍ مهملة بدليل أنهم لما عرَّبوا مُهَنْدِز ، أبدلوا الزاى سينا فقالوا مُهَنْدِس وهَنْدَسة ، والذالُ المعجمة لا تتقدّم الجيمَ ولا السِّينَ المهملةَ ولا الشينَ المعجمةَ ولا العينَ المهملةَ ، ومن هنا لمَّا عرَّبوا الفالُوذَج من الفارسىّ قالوا فالُوذَق ، والشين المعجمة لا تتقدّمُها الزاىُ المعجمةُ ولا السينُ المهملةُ ولا الصادُ المهملةُ ، والطاء المهملةُ لا تتقدّم الكافَ فى كلمة أصلية ، والسين المهملة لاتتقدّم علىٰ الدال المهملة إلّا قليلا كسَدَاب[2] ، والذالُ المعجمة لا تتقدّم علىٰ الدال المهملة إلا قليلا كقولك فى الأمر ذُدِ الغَنَمَ .

(١) فى الأصل " علىٰ نون " وهو غير مستقيم كما لا يخفىٰ .

(٢) أورده القاموس بالذال المعجمة وتكلم عليه شارحه ثم قال ويوجد فى بعض كتب النبات بالدال المهملة .

الخامس — أن يَعْرِف ما لايقَع فى أوّل الكلمات من الحروف كالجيم لا تقع بعدها التـاء المثناةُ فوق ولا الصادُ المهملة ولا الضادُ المعجمةُ ولا الغين المعجمةُ؛ أما الجِصّ فمعَرَّب .

السادس — أن يعرِفَ أنه لايتكرَّر حرفٌ فى أوّل كلمة إلّا من هذه العَشْرة الأحرِف وهى : الكافُ واللامُ والميمُ والنونُ والتـاءُ المثناة فوقُ والألفُ والبـاءُ الموحَّدة والواوُ والقافُ واليـاءُ المثناة تحتُ ويجمعها قولك «كلُّ مَنْ تابَ وُقِى» وأقلُّها وقوعا كذلك الياءُ .

السابع — أن يعرِف أكثَرَ الحروف دَوَرَانا فى اللُّغة، ثم الذى يليه من الحُروف فى الكَثْرة إلى أقلِّها دَوَرَانا .

وآعلم أنَّ كلامَ العرب أكثَرُ مايقَع فيـه علىٰ ما دلَّ عليـه آستقراءُ القرءانِ الكريم الألفُ ثم اللامُ ثم الميمُ ثم اليـاءُ المثناة تحتُ ثم الواوُ ثم النُّون ثم الهـاءُ ثم الراءُ المهـملةُ ثم الفـاءُ ثم القافُ ثم الدالُ المهـملةُ ثم الذالُ المعجمةُ ثم اللامُ ألف ثم الحاء المهملةُ ثم الجيمُ ثم الصادُ المهملة ثم الخـاء المعجمةُ ثم الشـينُ المعجمة ثم الضادُ المعجمة ثم الزاىُ المعجمة ثم الثـاءُ المثلَّثة ثم الطاءُ المهملة ثم الغينُ المعجمةُ ثم الظاء المعجمةُ؛ وقد جمع بعضهم أحرفَ الكَثْرة فى قوله (اليمونه) و بعضهم يجمعها فى قوله (اليوم هن) وجمع الحروفَ المتوسطةَ فى قوله (رعفت بكدس[1] نخج) وجمع أحرفَ القلّة فى قوله (طظغ صخذز قش) .

(١) تأمل هذا المثال وما بعده وحررهما .

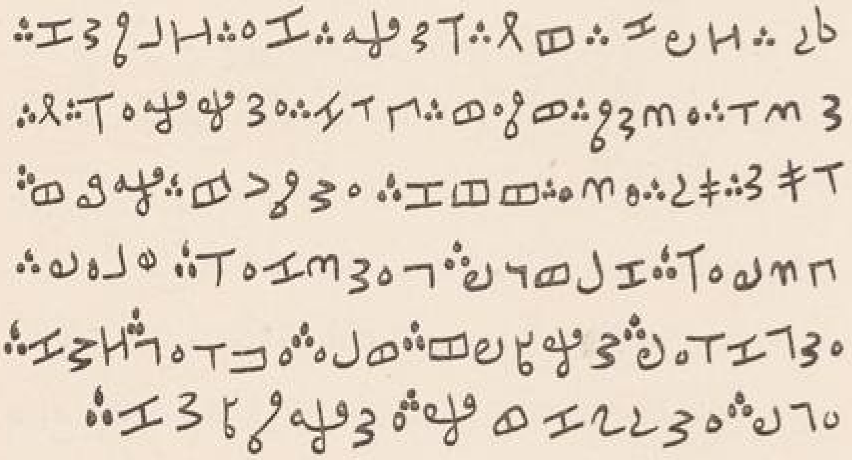
قال ٱبن الدُّرَيْهِم : وقد يقع فى لَفْظ غير القُرءان على خلاف ذلك كما يتعمَّدون النَّظْم والنثر بغير ألف أو بغير نقط أو بغير عاطل الحروف أو ألفاظ قليلة، وقد يكون الكلام ألفاظا قلائلَ لاتستوعِبُ الحروف .

الأصل الثانى – كيفيةُ التوصُّل بالحَدْس إلى حَلّ المترْجَم :

قال ٱبن الدُّرَيْهِم : إذا أردْتَ حلَّ ماتُرْجِم لك، فٱبدَأْ أوّلا بعدد الحروف، وكم تكرَّر كلُّ شكلٍ منها مرةً فأثبِته أوّلا فأوّلا . قال : وأوّلُ ماتستخرج الفاصلةَ إن كان الذى عمّى قد بالغ فى التعمِيَة، يعنى بإخفاء الفاصلةِ فى ضِمْن الحروف، وذلك أنك تأخذ حرفا فتظُنُّ أنّ الفاصلةَ تكون الثانى فتُجْريه على ماتقرر من الكلمات من المقادير على ماتقدم، فإنْ وافق وإلا أخذتَ الثالثَ، فإن وافقَ وإلَّا الرابع وهكذا حتّى يصحَّ لك انفصالُ الكلماتِ، ثم تنظر أكثرَ الحروف دَوَرانا فى الكلام فتُقاربُه من الترتيب المتقدّم فى أكثر الحُرُوف دَوَرانا على ماتقدم، فإذا رأيت حرفًا قد وقع فى الكلام أكثرَ من سائر الحروف فتظنُّ أنه الألف، ثم الأكثر وُقُوعا بعده فتظُنُّ أنه اللام، ويؤيد صحةَ ظنك أن اللام يُدَار فى أكثر ٱستعمالاته تابعًا للالف، ثم تنظر إن كان فى الكلام حرف مفرد فتظن أنه اللام ألف، ثم أول ماتلفَّق من الكلام الثنائيةَ بتقريب حُرُوفها حتّى يصحَّ معك شىءٌ منها فتنظر أشكالَها وترقُمُ عليها، وتُجْرِى الكلامَ فى الثُّلاثيَّات حتّى يصحَّ معك شىءٌ منها فترقُم نظائره، ثم يجرى الكلام فى الرُّباعيَّات والخُماسيَّات على الوزن المتقدم، وكلُّ ماٱشتبه فاحتمل ٱحتمالين أو ثلاثةً أو أكثر تُثْبِتُه إلى حين يتعيَّن من كلمة أخرى، فما ٱنتظم لك من ذلك

فتُثبِت الباقيَ عليـه ؛ و إذا رأيت حرفًا قد تقدّم الألف واللام فى أوّل الكلمة فتظن أنه إما باء واحدة و إما فاء و إما كاف غالبا .

قال : وينبغى أن يكتب للمبتدئ أوّلا كلَّ كلمة على حدتها منفصلةً ، وأن يكتب له الشِّـعْر دُون النثر، فإنّ الوزن يساعده على ظُهور بعض الحُروف ، كهاء التأنيث وتاء التأنيث الساكنة وتاء المتكلِّم والساكن الذى لايمكن أن يكونَ إلا أحد حروف العلةِ الدائرةِ فى الكلام وأمثالِ ذلك ؛ ثم ضرب لذلك مثلا بأنك إذا رأيت هـذه الأسطر مكتوبةً بهذا القلم



قال : فينبغى قبلَ كلِّ شيء أن يبدأ فيرقُمَ تحت كلِّ شكلٍ من هذه الأشكال كم تكرر مرّة أوّلًا فأوّلًا على هذا المثال



فيجد قد تكرَّرَ معه هذا الشكل ه أكثر من كلِّ الأشكال بكثيرٍ، فيعلم أنَّه الألفُ فيرْقُم عليه فى مواضعه، ثم المكرَّر بعده أكثرَ من باقى الأشكال هـذا الشكل  فيظُنُّ أنه اللامُ ويحقِّق ظنَّه كونُه تابعًا للألف فى سبعةِ مواضِعَ من الكلام، ثم ينظُر فيجِدُ فيـه حرفًا واحدا كلمةً فيظُنُّ أنهـا اللامُ ألف، ثم يجد الكلمة الثالثـة ثُنائيَّة ثانيها اللام ألف فيمكن أن تكون إحدىٰ هذه : بلا تلا جلا حلا خلا سلا علا غلا فلا كلا هلا ولا، ثم يجد هذا الشكل  الذى مع اللام ألف قد ورد مكررا فى أوّل كلمـة آمتنع أن يكون جيا أو حاء أو خاء أو سينا أو عينا أو غينا أو هاء فلم يبق معنا سوىٰ بلا تلا فلا كلا ولا ، ثم يجد الكلمةَ الخامسةَ ثُنائيَّة ثانيها ألف فيمكن أن تكون إحدىٰ هذه با جا دا ذا سا شا ضا فا ما نا يا، ثم يترجَّح أنهـا ما أو يا لأن هذا الشكل  قد تكرر أكثر من باقى الحروف فيكون إمَّا الميمَ أو اليـاء وإن قاربهما النون لكنْ ما ويا أكثر وقعًا فى الكلام من نا فإنها غريبةُ الوقوع، ثم رأينا هـذا الشكلَ المتقدّم قد تلا الشكلَ الذى مع اللام ألف الذى ظننا أنه أحد هـذه ه ب ت ف ك وفى الكلمة الثلاثيـة المكرر أوّلهـا  فجـرَّبنا الحروف مع المـيم فظهر منها لفظة «ففى» لاغير، ثم نظرنا هذا الحرف  فوجدناه وقع فى أربعة مواضع فى الكلام لاغير، فقلنا إنه الفاءُ : لأن الياء بنسبة هذا الكلام تقع أكثرَ من ذلك غالبا، فصَحَّ معنا أنَّ الكلمةَ الثالثـةَ «فلا» والكلمة الخامسة «يا» والحرفَ المفرد «لا» والكلمة الخامسة منـه هى رايد ذلك أنَّا وجدْنا الكلمةَ الحـاديةَ عشرةَ قد تكرر [فيها] بعد الألف واللام حرفان تلاهما ألف بعده حرف آخر، ولا يمكن أن يتكرَّر حرف فى مثل هذا المكان سوىٰ الميم إذا جَرَّبته علىٰ جميع الحروف، فقلنا : المَمَات

المَاح المَار المَاس المَاع ، ورأينا هذا الشكل الذى هو آخر الكلمة قد تكرر أكثرَ من باقى الحروف بعد الألف واللام والباء ، فبقى أن تكون هـذه ر س ت ع لأن الميم قد صح معنا ولم يكن النونَ فعلّمنا علىٰ الميم فى مواضعه ، ونظرنا فرأينا هـذا الشكل أولَ الكلمة الرابعـة الثُلاثيَّة وقد صح ثانيها اللام وثالثها الميم فجـرَّبناها علىٰ هذه الحروف فسقطتِ الراءُ وبقى أحد هذه : سلم تلم علم ؛ ثم نظرنا الكلمة المجارِية للمات المماع المماس ، فرأينا قبـل الألف واللام حرفا يكون أحد هذه ب ل و : لأن الفاء علّمناها ، ونظرنا هذا الحرف قد تبع الألف واللام قبل الياء ، ووجدناه بين البين فى كلمة ثلاثية تكون إحدىٰ هـذه أبا أذا أسا أنا ، فجرَّبنـا الكلمة علىٰ البـاء والدال والسـين والنون علىٰ أن يكون الحرف الآخر السين فلم يتفق منه لفظ فسقط « سـلم » ثم جرَّبناها علىٰ أن تكون العين فحصل منه بعدَ الحرف الأول البياع ؛ ثم علىٰ أن تكون تاء فحصل منه الثبات السيات فسقط وبقى أبا أسا أنا ؛ ثم نظرنا الكلمة السابعة وهى ثلاثية أوّلُها اللامُ وثانيها هـذا الحرف الذى قبل الياء وثالثها هذا الدائر بين العين والتاء قلنا يقوم منها « لست » وسقط الباء والنون ، وإنمـا لم يقم منه « كسع » لأنه لمـا سقطت البـاء سقطت العين من البياع ، فصح أن تلك « السيئات » ونظيرها « المـات » والثلاثية « تلم » وسـقط علم ، فرقمنا علىٰ التاء فى مواضعها وعلىٰ السين فى مواضعها ، فصارت الثلاثية « أسا » فقد صح معنا من الكلمات : « فلا تَلُمْ يا لسْتُ المماتِ لا أسَا فتى » وبقىَ الحرف الذى قبلَ السيئات ؛ ثم نظرنا الكلمة العاشرة الثُلاثية فيها ت ى فجرَّبناها علىٰ الحروف فظهر منها « حتّى » لايشارِكُها شىء فعلّمنا علىٰ الحاء فى مواضـعها ؛ ثم نظرنا كلمـةً خماسيةً قد بقى منهـا الحرفُ

الوسطُ، فجرَّبناها علىٰ الحروف فقام من ذلك : «حَسَرات حسكات حَسَنات» فعلمنا أنه حسنات : لأن هـذا الشكل  تكرر أكثرَ من باقى الحروف بعـد الألِف واللامِ واليـاء والتاء، وقد صَحَّ الميم فأثبتنا النُّون فى موضعها؛ ثم نظرنا هذا الشكل  فى أول كلمتين ثُلاثِيَّتين وقد صح من إحداهما ن ى ومن الأُخرىٰ ل ى، فجرَّبنا الحرف فوجدناه إمَّا عينا أو واوا، فيقوم منهما عنى على وبى ولى فتعين أن يكون عينا لقلة الحرف عن مرتبـة الواو ؛ ثم نظرنا كلمة سُباعيَّة قد بقى منها حرف مجهول، جَرَّبناها علىٰ الحروف فصحت «البَيَانُ» لايشاركها لفظةٌ أخرىٰ، وللحرف هذا الشكل  الذى قبلَ السيِّئات فتعيَّنت الباء فى مواضعها؛ ثم نظرنا كلمةً سُداسيَّة ثالثُها حرفٌ مجهول، فجرَّبناها فظهر منها «الكتّاب»؛ ثم نظرنا كلمة خُماسِيَّةقبل التى قبل «هذه» قد بقىَ حرفُ الوَسَط [منها] مجهولا، فجرَّبناها علىٰ الحروف فقـام لمحيف لمدنف لمصنف فتعينت «لمصنف» بسبب سياق الكلام بلفظ «الكتّاب» ورقمنا علىٰ الصاد؛ ثم نظرنا الكلمة الأخيرة قد بقِىَ منها رابعُها مجهولا، فجربناها علىٰ الحروف فصَحَّت «المَوْصل» وصحَّت الكلمة التى بعد لست أنها «أسلو» فرقمنا علىٰ الواو ؛ ثم نظرنا الكلمة الأولىٰ وهى ثنائيـة أوّلها ص فجرَّبناها فصحت صَدَّ، وإنما كناأخَّرناها لقِلَّة وَقْع حروفها، ثم علَّمنا علىٰ الدال فوجدنا كلمةً ثنائية آخرها «د» فجرَّبناها علىٰ باقى الحروف التى لم تظهر، فقام منها جد حد قد هد؛ ثم نظرنا كلمة ثلاثية فصح أوّلها ت وآخرها ل وسطها هذا الحرف  الذى قبل الدال فى الثُّنائيـة، فجرَّبناها علىٰ الجيم والحاء والقاف والهاء، فسقطت الهـاء وبقى تجل تقل تحل؛ ونظرنا فرأينا سياق الكلام يدل علىٰ أن الكلمة قبل أسا «قد» والثلاثية «تَقُلْ» فانتظم الكلام «لاتَقُلْ قَدْ أَسَا» ثم نظرنا الكلمة السادسة قد بقى منهـا

ثانيها مجهولا ، فجربناها على باقى الحـروف فصحت « عَذُولى » ، فرقمنا على الذال فى مواضعه؛ ثم نظرنا الكلمة الثلاثية التى بين «لمصنف» وبين «الكتاب» أوّلها هذا الشكل ◐ وقدصح منها «ذا» فعلمنا أنّها «هذا» ورقمنا على الهاء؛ ثم نظرنا الكلمة الخُمَاسيَّة التى بين «ففى» وبين «منه» قد بقى رابعُها ، فجرَّبناها على باقى الحروف فصحت « الوجه» ؛ ثم نظرنا الكلمة السباعية التى قبل الأخيرة وقد بقى منها رابعُها مجهولًا، فجرَّبناها فظهر منها الدُّرَيْهِم، فتكمل الحلُّ وظهر الكلام :

صُدَّ عَنِّى فلا تَـلُمْ يا عَذُولِى * لَستُ أسْلُو هَوَاهُ حتَّى المَمَات

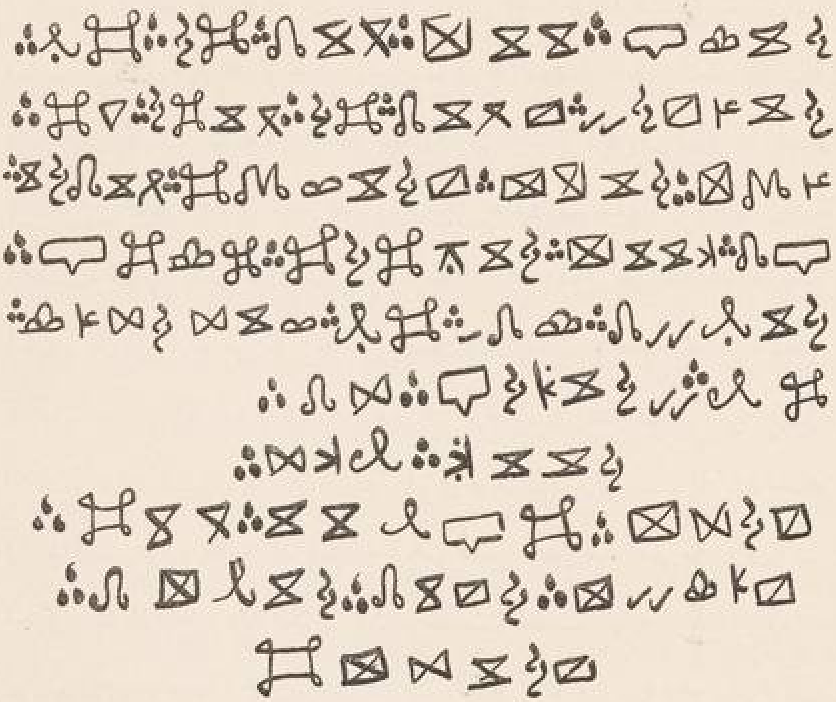
لا تَقُلْ قَدْ أسا فَفِى الوَجْهِ منه * حَسَناتٌ يَذْهَبْنَ بالسَّيِّئات

هذا البيانُ لمصنِّف هذا الكتاب، عَلِىِّ بن الدُّرَيْهِم المَوْصِلىِّ .

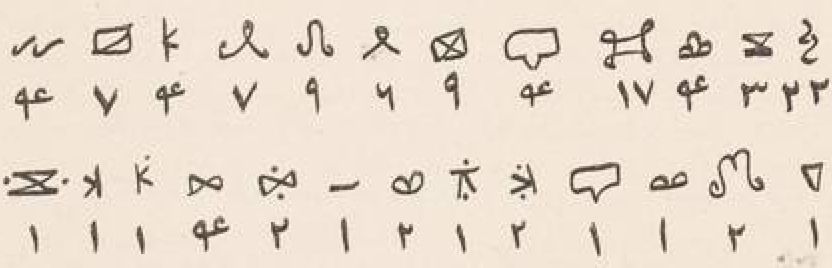
وعلى مثل هــذا المِنوال يَجْرِى الحلُّ ؛ ثم انظر إلى حروف هـذا الكلامِ كيف جاءَتْ أحدًا وعِشرين حرفًا ، ونقص منه ثمـانيةٌ لم تُوجَد فيـه ، فإذا نظرتَ إلى ما قرّرتُ لك من ترتيب وَقْع الحروف كما جاءت فى الكتاب العزيز، رأيتَ الثمـانية الناقصة هى آخِرُ الترتيب سواء لم يختلط منها شىء بتقديم أو تأخير، وهـذا اتفاقٌ : لأنه قد يَقَع الحرف قريبا من رُتْبته كما تقدّم ؛ وكما تقدّمت الياء على الميم فى هـذا الكلام، والفاءُ على المِيم والنُّون، وتقدمت الهاءُ على الميم أيضا؛ لكن الأصل معرِفةُ وَقْع الحروف بالتقريب وتجربةُ الكلمات ، ومقارَبةُ ما دَلَّ عليه سِياقُ الكلام .

ولْنَضْرب مثالا آخَرَ : لتتضح أنواعُ الحَلّ .

وهذا مثال آخر أورده ابن الدُّرَيْهِم، وهو :



فتعدد المكررات من الأشكال كما مرّ وترقمها على هذه الصفة .



فتنظر فإذا أكثرها وقعا ثم ثم ثم هذين ثم هذين ثم هذا ثم هذه فتظن أن هذا الشكل الألف، وهذا اللام : لكونهما أكثر وقعا

من الجميع فلم يوافق : لأنه قد تقرر أن اللام تكون تابعة للألف فى أكثر المواضع ولم نجده تبعه البتة ، بل وجدنا العكس فعلمنا أن هـذا  هو الألف وهـذا  هو اللام ، ورقمنا عليهما فى مواضعهما فإذا الكلمة الثانية الثُّلاثية فيها لامان، بقى حرف آخرها مجهول، فجربناها على الحروف فظهرت الهاء لايمكن غيرها، فعلمنا أنها « لِلّه » ورقمنا على الهاء فى مواضعها، ثم وجدنا الكلمة الخُماسِيَّة قد بقِىَ رابعُها مجهُولا ؛ فجرَّبناها فظهر الهما الهجا ألها الهنا ، ووجدنا الحرف قد تكرر أكثر من كلِّ الحروفِ بعـدَ الألِفِ واللام ؛ فظننا أنه الميمُ، لكنه يحتمل أن يكون النون ، وسقط الباء والجيم فوجدناه فى الثنائيات فى كلمتين قبل الألف؛ فعلمنا أنها « ما » فرقمنا على الميم فى مواضعها، ثم رأينا الميم قد تبعه فى الثُّنائيَّات حرف يحتمل أن يكون مد مر مس مص مط مع من ، ورأينا الحرف كثير الوقوع ، وقد تكررتْ ثلاث لفظات؛ فعلمنا أنها « من » ورقمنا على النون فى مواضعه ، ثم رأينا هذا الشكل  أكثر من غيره وهو قبل الألف واللام وفى أوائل الكلمات فقلنا إنه الواو ، ثم رأينا آخر كلمة قد بقى منها رابعها مجهولا ، فجرَّبناها فظهر والبهم والتهم والجهم والدهم والسهم والشهم والفهم واليهم ؛ ثم وجدنا هـذا الحرف  الذى فيها قد جاء قبل حرف فى الثُّنائيَّات وذلك أكثرُ ما وقع بعـد الألف واللام والميم، فيحتمل أن يكون الياء ، ووجدنا قد بقى من كلمةٍ هذا الحرف فصَحَّ أن يكون النُّهىٰ وأُخرىٰ أُولى ، فعلمنا أنها الياء ، فجربنا الحرف معها؛ فظهر بى نى، ووجدنا كلمة خُماسِيَّة هـذا الحرف  رابعُها وبعدُ حرفٌ آخر، جربناها على الياء والفاء فظهر اللبث اللبـد اللبس اللبط اللبك اللفت اللفج اللفح اللفظ اللفق؛ ثم وجدنا هذا الحرفَ الآخر  أولَ كلمة بعده لامان وهاء، فجربناها فظهر منها الحرف الثالث مجهولا ، جرَّبناها ظهر

التَّمام الحَمَام الذِّمام الشمام الغَمَام الكمام ؛ فرأينا سياق الكلام يدُلّ علىٰ أنه «ظَلّلَ الغَمَام» وتعينت تلك اللفظة والأخرى الفَهْم والثنائيـة، فرقمنا علىٰ الفـاء؛ ثم رأينا الكلمة الثالثة الثُّلاثيَّة ثانيها لام وآخرُها ياءٌ وبعدها «ما ألْهَمَا» فدل سياقُ الكلام علىٰ أنها «علىٰ» فرقمنا علىٰ العين، فرأينا الرُّباعِيَّة التى بعـد «وآله» قد بقى ثالثُها مجهولا ؛ فجرَّبناها فظهرتْ مَعْجِن مَعْدِن فتعين مَعْدِن والثنائية التى بعدها؛ وقيل «علم كل» فرقمنـا علىٰ الدال فى مواضعه ورأينا الكلمة الأولىٰ قد بقى وسطها مجهُولا ؛ فجرَّبناها وظهرت الثمد الحمد الصمد، فدلَّ سياقُ الكلام أنها الحمْدُ : لأن بعدها «لله علىٰ ما ألها» فرقمنا علىٰ الحـاء فى مواضعها، ورأينا الثالث مـن الرُّباعِيَّة التى بين علىٰ وظَلّله، فجرّبناها فظهرت « الذى » ورأينا الكلمة الخُماسِيَّة التى بعد «مُحَمَّد» قد بقى رابعها [مجهولا] ، فجرَّبناها فظهرت «النبي» فرقمنا علىٰ الياء فى مواضعها ورأينا قد بقى ثالثُ السُّداسـيَّة التى بعدَ «من» هـذا الشكل  وهو ثالثُ رُباعيـَّة أوّلهـا الألفُ وثانيها فاء وآخرها حاء، وثانِى خماسيَّة أوّلُها واو وثالثها حاء ورابعها باء وخامسها هاء؛ فتعينت الصاد، فالأولىٰ « الصَّواب » والأُخْرىٰ «أنصح» والأخرىٰ «وصَحْبه» وتعينت الثنائيـة التى هى أول البيت الثـانى بعدَ السـطر الأولِ « ثم » والتى تليها « صلاة » وتعين السين فى السـلام ؛ فصار، «ثُمَّ صلاةُ اللهِ والسَّلامُ» وكلمـا تمرّن الإنسان فى ذلٰك ظهر له أسْرَع بكثرة المباشرة، ثم تعين رابع السُّداسِيَّة التى بعد أفصح مَنْ أنه الضاد، وتعيـن بسياق الكلام أن بعد بالضاد « فى اللَّفْظِ نَطَق » فرقمنا علىٰ القاف فرأينا مجاريها الثلاثية من رأس المِصْراع « خَلَق » فرقمنا علىٰ الخاء، وتعينت الكلمة التى قبـل « مَنْ خُلِق » أنها « خير » فتكملت الأبياتُ وظهر أنهـا :

الحَمْدُ لِلّٰهِ عَلىٰ ما أَلْهَما * مِنَ الصَّوابِ وعلىٰ ما عَلَّما
ثُمَّ صَلاةُ اللهِ والسَّلامُ * علىٰ الَّذى ظَلَّلَهُ الغَمامُ
محمدِ النبيِّ خيرِ مَنْ خَلَقْ * أفْصحِ مَنْ بالضادِ فى اللَّفظ نَطَقْ
وآلِهِ مَعْدِنِ كلِّ عِلْمِ * وَصَحْبِهِ أُولِى النُّهىٰ والفَهْمِ

قلت : ومما يلتحق بتعمية الخَطِّ المتقدِّمةِ الذِّكْرِ ما حكاه آبْنُ شيث فى مَعالِمِ الكِتَابة : أنَّ بعض الملوك أمر كاتِبَه أن يكتُب عنه كتاباً إلىٰ بعض أتْباعه يُطَمِّنه فيه لِيَقْبِضَ عليه عند آنتهازِ فُرْصةٍ له فى ذٰلك ؛ وكان بينَ الكاتِب والمكتوبِ إليه صَداقةٌ فكتب الكتابَ علىٰ ما أَمَر به من غير خُروج عن شيْءٍ من رَسْمه، إلا أنه حين كتب فى آخره « إنْ شاء الله تعالىٰ » جعل علىٰ النُّون صورةَ شَدّة ، فلما قرأه المكتوبُ إليه، عَرَف أنَّ ذٰلك لم يكن سُدًى من الكاتب فأخذ فى التأويل والحَدْس فوقع فى ذِهنه أنه يُشير بذٰلك إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ المَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ . فأخذ حِذْره، وآحترز علىٰ نَفْسه، وبلغ المِلكَ آحترازُه علىٰ نفسه فاتَّهم الكاتبَ فى أنه ألحَقَ فى الكتابِ شيئا نَبَّهه به علىٰ قَصْد المِلك ، فأحضره وسأله عن ذٰلك، وأمره بأن يكتُب الكتابَ علىٰ صُورة ما كتَبَ به من غير خُروج عن شيْءٍ منه ، فكتبه ولم يغيِّر شيئا من رَسْمه حتّىٰ إنه أثبتَ صُورةَ الشدّة علىٰ النُّون ، فلما قرأه المِلكُ ونظر إلىٰ صورة الشدّة أنكرها عليه، وقال : ما الّذى أردتَ بذٰلك ؟ قال : أردت قوله تعالىٰ : ﴿إِنَ المَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ . فأُعْجِب بذلك وعفا عنه لصِدْقه إيّاه .

النـــوع الثـانى

(الرُّموزُ والإشاراتُ التى لاتعلُّق لها بالخطِّ والكتابة)

وهى التى يعبِّر عنها أهلُ المَعانى والبيان بالاستعارة بالكِناية «بالنون بعد الكاف» وقد يَعبَّر عنها بالوحْىِ والإشارة .

ومن غريبِ ما وقع فى ذلك ما حكاه العَسْكرىّ فى "الصناعتين" : أنّ رجلا من بَنِى العَنْبَر أُسِرَ فى بَنِى حَنْظلةَ ، وفَهِم عنهم أنهم يَقْصِدون الغارةَ علىٰ قومه بَنى العَنْبر ، فقال لبنى حنْظلةَ : إنَّ لى حاجةً عنـد أهلى وأُرِيد رسولًا من قومكم أُرْسِـله فيها ، فأجابُوه إلىٰ ذلك بشرْط أنْ يخاطِبَه فى حاجتـه بحُضُورهم ، فأحضروا له رجُلا فى الليل وقدْ أوقدتِ العربُ نِيرانَهـا ، فأقبل علىٰ الذى أتَوْه به وقال له : أتَعْقِل ؟ قال : إنِّى لعاقلٌ . فقـال : انظر إلىٰ السماء ونجومِها ، فنَظَر ، ثم قال : انظُرْ إلىٰ نيرانِ العرب ، فنظر ، فقال له : ما أكْثَرُ ؟ نجومُ السماء أو نيران العرب؟ فقال : إنَّ كلًّا منها لكثير ، قال : إنك إذًا لعاقِل ، ثم دفع إليـه حنظلةً وصُرّةً فيها رَمْل وصُرّةً فيها شَـوْك ، وقال اذهبْ إلىٰ قومى فادفَعْ إليهم هـذه الحنظلةَ وهاتَيْنِ الصُّرَّتَيْن ، وقُلْ لهم يَعْرُوا ناقتِى الحَمْراء ، ويُرْحِلوا جَملِى الأوْرَق ، وسَلُوا أخِى الأعورَ يُخْبِرْكم الخَبَر . فقال الحاضرون : ليس فى هـذا ما يُنْكَر، اذهَبْ فى حاجته ، فذهب إلىٰ بنى العَنْبر ودفع إليهم ذلك وقَصَّ عليهم القِصَّـةَ ورجع ، فبعث القومُ إلىٰ أخيه الأعْورِ فحضر ، فأخبروه الخبَر . فقـال إنه يقول : أتاكُمْ بنُو حنظَلةَ فى عدَدِ الشَّوْك والرَّمْل ، وإنَّ نيرانَ العرب تُعادُّ نُجُومَ السماء ، ويأمُرُكم أن تَرْحَلُوا عن الدَّهْناء وانزِلُوا مكان كذا ، ففعلوا ورحَلُوا لوقتهم فصَبَّحهم بنُو حنظلةَ فلم يُدْرِكوا منهم أحدا .

وفى معنىٰ ذلك ماحكاه المَقَرّ الشّهابىّ بنُ فضل الله فى كتابه "التعريف" : فى الكلام علىٰ المكاتبة إلىٰ الأدفونش مَلِك الفَرَنج بطُلَيْطُلَة من بلاد الأندَلُس ؛ كان خبيثَ النيـة ، سَيِّئَ المقاصد لأهل الإسلام ؛ وأنه أرسل مَرّة إلىٰ الملكِ الناصر محمدِ بن قلاوون : صاحب الديار المِصْرية هـديةً فيها سَيْفٌ وثوبٌ بُنْدُقِيٌّ وطارقةٌ مستطِيلة تُشْبِه النَّعش كأنه يقول : أقتُلك بهذا السَّيف ، وأُكَفِّنك فى هذا الثوب ، وأحمِلك علىٰ هذا النَّعْش . قال : وكان الجوابُ أنْ أرسل إليه حَبْلا أسودَ وحَجرا ، أى إنه كلب يُرمىٰ بهذا الحَجر أو يُرْبَط فى هذا الحبل .

قلت : وممـا وقع من ذلك فى زماننا أنه فى الدولةِ الظاهِريّة «بَرْقوق» وتمرلنك يومئذ ببلاد العِراق يُغاوِر الممـالكَ الشامية لقصد الاستيلاء عليها وردَ عليه كتابٌ من المملكة الحَلَبية فيـه : أنه وقع بتلك البلادِ سَيْلٌ عظيم ساقَ جملةً من الأُسْد والنُّمورة والحَيّات ، وأنه دَفَع حيَّة عظيمةً سَـعةُ رأسها بقَدْر قَوْس ، وقرئ الكتابُ بحضرة السلطان ، وحملُوا ذلك علىٰ ظاهره : من أنّ المراد حقيقةُ السيل ، وأنه لقوّته ساقَ تلكَ الحيّةَ والسِّباع وغيرها ، وشاع ذلك بينَ الكافّة من الأمراء وأهل الدولةِ وسائر الرعِيّـة ، ومضىٰ الأمر علىٰ ذلك ؛ ثم ظهر أنّ المقصودَ بذلك السيلِ وما فيـه هو تَمُرْلَنْك وعساكره ؛ وأنه كُنِيَ بالحيـة العظيمة عنه نَفْسِـه ، و بالسِّباع والحيّات عن عساكره .

ومن لطيف ماوقع فى ذلك أنه ورد علىٰ السلطان الملكِ الناصر «فَرَج بن بَرْقُوق» فى أواخر دولته كتابٌ عن صاحب تُونُس من بلاد المَغْرِب فى آخره خطابا للسلطان (وعلىٰ إحسانِكم المُعَوّل ، و بيتُ الطُّغرائىّ فى لاميّـة العجم لايُتأوّل) فسألنى بعضُ أعيان ديوانِ الإنشاء عن المراد من ذلك ولم يكن الكتاب متضمِّنا لغير الوصية

على حُجّاج المَغاربة ، وكان رَكْب المغاربة قبلَ تلك الحَجّة قد عرَض لهم عارضٌ من عَرَب دَرْب الحجاز آجتاحُوهم فيه ، وقتلوا منهم خَلْقا كثيرا ، ونهبُوا منهم أموالا جَمّةً ، فعرضتُ ذلك على أبيات اللامية ، فلاح لى أنه يُشير إلى قوله فيها :

فقُلْتُ أرْجُوكَ للجُلّى لتَنْصُرَنِى ⁂ وأنتَ تَخْذُلُنِى فى الحادِثِ الجَلَلِ

والجُلّى بضم الجيم هى الأمرُ الجليل العظيمُ ، والجَلَل بفتح الجيم فى اللُّغة من أسماء الأضدادِ ، يقع على الشىء الجليل وعلى الشىء الحقير ، كأنه يقول : أنا كنتُ أرجُوك للأمور العِظام لتنصُرَنى فيها فخذَلْتنى فى هـذا الأمر الخَسِيس ، وهو الأخذُ بثأر حُجّاج بِلادى ممن آعتَدى عليهـم من عرب بِلادِك : فخاب ظَنّى فيما كنتُ أرجُوه فيـك ، وأؤمِّله منـك ، وأشار بقوله لايُتأوّلُ إلى أنه لايحملُ الجَلَل فى قول الطُّغرائىّ على الشىء الجليل كما قال الصَّلاحُ الصفدىُّ فى شرح اللاميـة ، بل على الأمر الخَسِيس : لأنه هو اللائقُ بالمَقام .

وآعلم أنّ مثل هذه الأمورِ تحتاجُ إلى قوة ذكاء وآحتـدام قريحة من الذى يَقَع منـه الرمزُ ، وإلى قوة حَدْس من الذى يحاولُ إدْراكَ المَقْصَد من تلك [المعَامى] كما يقع فى الألغاز والأحاجىّ للُغز ، والمتصدّى لحَلّ ألغازه والجواب عنه ، والله تعالى هو الهادى إلى سبيل الصَّواب .

المقالة الخامســـة

في الوِلَايات ، وفيها [أربعـــة][(١)] أبوابٍ

البـاب الأوّل

في بيـان طَبَقاتها وما يقعُ به التفاوُتُ ، وفيـــه ثلاثةُ فصول

الفصـــل الأوّل

في بيان طَبَقات الوِلَايات، وهي على ثلاثِ طَبَقات

الطبقةُ الأُولىٰ — الخِلَافة ؛ ولِمَا يكتب في وِلَايتها طريقان : إمّا عهدٌ من الخليفة الأوّل، وإما بَيْعةٌ من أهْل الحَلّ والعَقْد إن لم يُوجَدْ عهـدٌ من الخليفة قَبْلَه علىٰ ماسيأتي بيانُه إن شاء الله تعالىٰ .

الطبقة الثانية — السَّلْطنة ؛ ولِمَا يكتَبُ في ولايتها طريقان : أحدُهما العهْـدُ من الخليفة، والثاني العهْدُ من السلطان قَبْلَه . قال في " التعريف " : أمّا مَنْ قام من المُلُوك بغيْر عهْد، فلم تجر العادةُ أن تُكتَبَ له مبايَعةٌ .

الطبقة الثالثةُ — الولاياتُ عن الخلفاء والمُلُوك وما يُكتَبُ عن السلطان بالديار المصريّة في أقطار المملكةِ بمصرَ والشامِ والحِجازِ : مما يكتَبُ من ديوان الإنشاء الشريف بالأبواب السلطانية .

وهي علىٰ خمســة أنواع :

(١) بياض في الأصل والتصحيح مما تقدم في ج ١ ص ٢٤ من هذا المؤلف .

النـــــوع الأوّلُ

(ولاياتُ أربابِ السُّيوف ، وهم على ثلاثة أصناف)

الصِّنف الأوّل — النُّوّاب من الأمراء وغيرهم من أرباب الوظائف ، وغالبُ مَنْ يكتَب له منهم بالبلاد الشاميـة ومُضافاتِها ، كنُوّابِ السلطنة بدِمَشْق وحَلَب وطَرابُلُس وحَماة وصَـفَد والكَرَك ، ومُقَدَّمى العسكر بغَزّة وسِيس ، ونُوّابِ القِلاع بالمُدُن العِظام ذواتِ القِلاع الرفيعةِ القَـدْر : كالنائب بقلعة دِمَشْق ، والنائب بقَلْعة حَلَب ، والنائبِ بقَلْعة صَـفَد . أمّا طرابُلُسُ وحَمَـاةُ ، فليس بهما قلعـة ، وكذلك النِّيابات الصِّغارُ المُضافةُ إلى القواعد الكِبار : كالقُدْس الشريف وحِمْص ومِصْياف من مُضَافات دِمَشْق ، وقلعةِ المسلمين والرَّحبة والبِـيرة والرُّها وشَيْزَر وعَيْنتاب وبَهَسْنَى ومَلَطْيَة وآياس والأَبُلُسْتَيْن وأَذَنَة وطَرَسُوس من مضافات حلَب ، واللّاذقيّة وحِصْـن عَكّار من مضافات طرابُلُس وما يجرى مَجْرَى ذلك ، على ما سيأتى بيانُه مفصلا فى مواضِعِه ، إن شاء الله تعالى .

أمّا مادُونَها من النِّيابات فإنّ نُوّاب السلطنة بالمملكة يستقِلّون بالتولية فيها .

قلت : والضابِطُ فى ذلك أنّ كلّ نيابةٍ كان نائبُها تَقْدِمةَ ألف فوِلايتُها عن السلطان بمرسوم شريف من ديوان الإنشاء بالأبواب الســلطانية ، وكلّ وِلايةٍ كان نائبُها جُنْديًّا أو مقــدَّمَ حَلْقة فوِلايتها عن نائب السلطنة بالمملكة التى هى مُضافةٌ إليها بتوقيع كريم من ديوان الإنشاء بهـا ، وكلّ نيابةٍ كان نائبُها أميرَ طَبْلخاناه أو عشرة ربّمـا وَلّى فيها السلطانُ وربما ولّى فيها نائبُ السلطنة ، إلا أنّ توليةَ السلطان لنُوّاب الطبلخاناه أغلَبُ ، وتوليةَ نُوّاب السلطنة لنُوّاب العشرة أغلَبُ .

أمّا الديارُ المِصريةُ فإنه كان يُكتَبُ فيها أوّلاً لوُلاة الوجهين : القبلىّ والبَحْرىّ جَرْيا علىٰ ما كان الأمرُ عليه فى زمَن الخُلَفاء الفاطميِّين، وكذٰلك والى الإسكَنْدريّة قبل أن تستقِرّ نيابةً ، ووالِيَا الوُلاة بالوجهين قبل أن يستقِرّا نيابتَيْن ، فى جماعةٍ أُخرىٰ من أرباب الوظائف : كالنائب الكافل وأتابك الجُيُوش كإسْتادار وأميراخُور ومقدَّم المماليك ووالِيَىْ مصر والقاهرة؛ ثم صارت الكتابةُ لذَوِى الوظائفِ من أرباب السُّيوف قاصرةً علىٰ النائب الكافل إذا كان موجُودا والنُّوّاب المستَجدّين بالإسكندرية والوجهين : القبلىّ والبحرىّ؛ وبطل ماعَدَا ذٰلك مما كان يُكتَب، وكأنَّ المعنىٰ فيه القُربُ من مَقَرّة السلطان؛ والكتابةُ إنما تقَع فى الغالب مع البُعْد : لتكونَ حجةً للمتولِّى علىٰ بُعْد المَدىٰ ، ولا ينتقضُ ذٰلك بما يُكتَب للخلفاء والملُوك فى الحضرة، فإنّ ذٰلك من الأمور العامّة التى يُخافُ ٱنتقاضُها أو جُحودُها، إذ مثلُ ذٰلك لايجوز فى الولايات عن السلطان : لأنه متىٰ شاء عزَلَ مَنْ ولّاه .

الصِّنف الثانى — ولايةُ أُمَراء العُرْبان، وهٰؤلاء لاحظَّ لهم فى الكتابة بالولاية بالديار المِصريّة الآنَ؛ وربّما يُكتَب لأمرائهم بالمملكة الشامية : كأميرِ آلِ فَضْل، وأميرِ آلِ مِرا ، وأميرِ آل علىّ ، ومُقَدَّم جَرْم ، وكذٰلك أميرُ مكةَ المشرَّفة ، وأميرُ المدينة النبويّة علىٰ ساكنها أفضلُ الصلاة والسلام ، والتحية والإكرام ، والنائبُ باليَنْبُع من البلاد الحجازيّة . والمعنىٰ فى ٱختصاص مَنْ بَعُد منهم ماتقدّم فى الكلام علىٰ أرباب السُّيوف مع ضَعْف شأن عَرَب الديار المِصْريّة وعدمِ الاهتمام بأمْرهم .

الصنف الثالث — ولاية المُقَدَّمين علىٰ الطَّوائف : كمقدَّمى التّركمان، والأكْراد، والجَبَليّة بالبلاد الشامية، وأتابكِ طائفةِ الإسماعيلية بقِلاع الدَّعْوة ، وحاكمِ البُنْدُق

ونحوهم ؛ وهذه الطوائفُ ممّن يكتَبُ له إلى الآنَ ، أما حاكم البُنْدُق ، فإنه لم يُعْهَد له كِتَابةٌ من ديوان الإنشاء بمصر والشام . على أنّ المقَرّ الشهابيّ بنَ فضل الله قد ذكر وصيّته فى " التعريف " ولعلّه ممن كان يكتَب [له] فى زمانه أو قبلَه ثم تُرِك ، وإنما يكون ذلك بحسَب آعتناءِ السلطان بشأن البُنْدُق وعدمِه كما فى لباس الفُتوّة ، وأنه رُبّما آعتنى به بعضُ الملوك فكتب له ثم تُرِك .

النوع الثانى

(ولايةُ أرباب الأقلام ، وهم صنفان)

الصنف الأول

(أربابُ الوظائف الدينيّة ، وهم على ثمانيةِ أضْرُب)

الضرب الأول — أكابِرُ القُضاة بأقطار المملكة : كقُضاة القُضاة بالحَضْرة السلطانية بالدِّيار المِصرية وثَغْر الإسكَنْدرية ، وكذلك قُضاة القُضاة بدِمَشْق وحَلَب وطرابُلُس وحَماةَ وصَفَد والكَرَك ، وقُضاةُ العَسْكر بالديار المِصْرية ؛ أما القُضَاة بالنّيابات الصّغار المضافاتِ إلى دمشق وحلَب ونحوهما فولايتُهم إلى قُضاة القُضاة بها ، وقُضاةُ العسكر بدِمَشْق وحلَب ومافى معناهما إلى النُّوّاب بتلك الممالك .

الضرب الثانى — المُفْتُون بدار العَدْل بالديار المصرية ؛ أما المُفْتُون بدار العدل بالممالك الشاميّة فولايتُهم إلى نائبِها .

الضرب الثالث — أكابرُ المحتَسِبين : كمحتَسِبَىْ مصر والقاهرةِ ؛ أما الممالك الشاميّةُ فلا يُولَّى فيها إلا نُوّابُها .

الضرب الرابع — أكابر المدَرِّسين فى عامّة العُلوم بأماكنَ مخصوصةٍ : كالزّاوية الخَشّابِيّة بالجامع العَتِيق بمصر ، والمدرسةِ الصَّلاحية بتُرْبة الإمام الشافعىّ بالقَرافة ، ونحو ذلك بأقطار المملكةِ من مُدَرِّسى الفِقْه والحديثِ والتفسيرِ وغير ذلك من العلوم الدِّينيّــة .

الضرب الخامس — أكابرُ الخُطَباء بجوامعَ مخصوصــةٍ بأقطار المملكة : كجامع الناصِرىّ بقلعة الجَبَل ، والجامع الأُمَوىّ بالشام ونحوِهما .

الضرب السادس — وُكَلاءُ بيتِ المـال بالدِّيار المِصرية وغيرها .

الضرب السابع — المتحدِّثون على الوظائف المعتَبَرة : كنِقَابة الأشراف ، ومَشْيَخة الشُّيوخ ، فما كان بالدِّيار المِصرية فولايتُه من السلطان ، وتوقيعُه من ديوان الإنشاء ، وما كان منها بالممالك الشاميّة فوِلايتُها إلى نُوّاب السَّلْطنة بها .

الضرب الثامن — المتحدِّثون على جِهات البِرّ العامّة المصلحةِ : كنظر الأَحْباس وأنظار البِيمارِسْتانات ونحوها : فما كان منها بالدِّيار المصريّة : كنَظَر الأحْباس والبِيمارِسْتانِ المنصُورىّ وما أشبه ذلك فتوليتُه[1] إلى نُوّابها ، مالم يكن لها ناظرٌ خاصٌّ فيكون ذلك مختصًّا به .

---

(١) لعله فتوليته من السلطان ، وتوقيعه من ديوان الانشاء ، وما كان منها بالممالك الشامية فتوليته الخ كما لايخفى تأمل .

الصـــنف الثانى

(أرباب الوظائف الدّيوانيـــة)

ودَواوِينُها على ثلاثة أضـــرُب :

الضرب الأوّل — دَواوِينُ المـال؛ وأربابُ الخِدَم بها ممن تُكتَب وِلاياتُهم من ديوان الإنشاء : إمّا ناظِر، أو وَزِير، أو صاحبُ دِيوان، أو شهادةٌ، أو آستيفاءٌ؛ فأمّا الوِزارة فلا يُصَرَّح بها إلّا للوزِير بالأبواب السُّلطانية، وربما صُرّح بهـا لوَزِير دمشْقَ إذا وليها من آرتفعَتْ مرتَبتُه، وإلّا عُبِّر عنه بناظِر المملكة .

وأما النَّظَر، فكنظر الدَّواوين المعبَّر عنـه بنظَر الدَّوْلة، ونَظَر الخـاصّ، ونَظَر الخِزَانة الكُبرى، ونظَر البُيُوت « الحاشِيَة » ونظر بيْتِ المـال، ونظر الإصْطَبْلات السلطانية، ونظرِ دار الضِّيافة والأَسْواق ، ونظر خَزائنِ السِّـلاح ، ونظر البَهـار والكارِميّ ، ونظـر الأَهْراء، ونظر المَوَاريث الحَشْرِيَّة، ونظر ثَغْر الإسـكَنْدرِيَّة المحروس، وغير ذلك من وظائف الأنظار بالديار المصرية . وكذلك نظرُ المملكة بدِمَشْقَ إذا لم يُصَرَّح لمتولِّيه بالوِزَارة، ونظر المملكة بحلَب، ونظر المملكة بطَرَابُلُس، ونظر المملكة بحَمَاة ، ونظر المملكة بصَفَد ، ونظر المملكة بِسيس، ونظر المملكة بغَزَّة، ونظر المملكة بالكَرَك .

وأمّا صَحَابةُ الدِّيوان، فكصَحَابة دِيوان الجَيْش وصَحابة ديوان الخاصّ ، ونحو ذلك .

وأمّا الشَّهادة ، فكشَهادة الخِزَانة الكُبرى، وشهادة خِزانة الخاصّ ونحوهما .

وأمّا الاستيفاء ، فكاستيفاء الصُّحْبة ، واستيفاءِ الدَّوْلة ، واستيفاءِ الخاصّ، ونحو ذلك . ولاحَظّ لغير النُّظّار من دَواوين الأموال بالممالك الشاميّة : من صاحب ديوانٍ ولا شاهدٍ ولا مستَوْفٍ، فى الكتابة بالوِلاية من ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية ؛ بل وِلايتُها من نُوّاب الممالك الشامية بتواقيعَ من دَواوِين الإنشاءِ بها .

الضرب الثانى — دَواوينُ الجُيوش بالديار المصرية وغيرِها من الممالك الشاميّة. وأربابُ الخِدَم بها لايَخْرُجُون عن ناظرٍ ، وصاحبِ ديوانٍ، وشاهدٍ ، ومستَوْفٍ .

والذين يُوَلَّوْنَ عن السلطان منهم [و] تُكْتَبُ تَوَاقِيعُهم من ديوان الإنشاءِ الشريف ناظرُ الجيش بالأبوابِ السلطانية، وناظرُ الجيش بدِمَشْقَ، وناظرُ الجيش بحلَبَ ، وناظرُ الجيش بطرابُلُسَ، وناظرُ الجيش بحَماةَ، وناظرُ الجيش بصَفَدَ ، وناظرُ الجيش بغَزَّةَ ، وناظرُ الجيش بسِيسَ ، وناظرُ الجيش بالكَرَك ، وصاحبُ ديوان الجيش بالأبواب السلطانية ، والشُّهودُ،والمستوفُون بها ، أمّا مَنْ عدا هٰؤلاء: من نُظّار الجيش وأصحابِ الدواوين والشُّهود بالممالك الشامية، فوِلايتُهم إلى نوّاب السلطنة بها .

الضرب الثالثُ — دَواوينُ الإنشاء ، وأربابُ الخِدَم بها لايَخرُجُون عن كاتبِ سِرٍّ، وكاتب دَسْتٍ، وكاتبِ دَرْج .

والذين يُوَلَّوْن عن السلطان من كُتّاب هذه الدَّواوين وتكْتَب تواقيعُهم من ديوان الإنشاء السلطانىّ صاحبُ ديوانِ الإنشاء بالأبوابِ السلطانية، وصاحبُ دِيوان الإنشاء بدِمَشْقَ ، وصاحبُ ديوان المكاتبات بحلَبَ ، وصاحبُ ديوان المكاتَبَات

بطرابُلُس ، وصاحب ديوان المكاتَبات بحَماة ، وصاحبُ ديوان المُكاتَبات بصَفَد ، وكاتبُ الدَّرْج بِسِيس ، وكاتبُ الدَّرْج بغزَّة ، وكاتبُ الدَّرْج بالكَرَك ، وكاتبُ الدَّرْج بالإسكَنْدرِيَّة ، وكُتَّابُ الدَّسْت وكُتَّاب الدرج بالأبواب السلطانيـة ؛ أما كُتَّاب الدَّسْت وكُتَّاب الدَّرْج بالممالك الشاميـة فإلىٰ نُوّابها بتواقيعَ من دَواوين الإنشاءِ بهـا .

النـــوع الثـالث

(وِلاياتُ أربابِ الوظائف الصِّـناعيَّة)

كالأَطِبَّاء ، والكَحَّالين ، والجرائحِيَّة ، ومَنْ جرىٰ مَجْراهم من سائرِ أربابِ الوظائف التى هى من تَتِمَّة نظام المُلْك ؛ فما كان منها بالأبوابِ السلطانية فوِلايتُه عن السلطان بتَوْقيع من ديوان الإنشاءِ السـلطانى ؛ وما كان منها بالممالك الشامية فولايته إلىٰ نُوَّاب السلطنة بها .

النـــوع الرابع

(ولاياتُ زُعَماء أهل الذِّمَّة . وهى ضربان)

الضرب الأوَّلُ — وِلايةُ بَطارِكة النَّصارىٰ من اليَعاقِبة والمَلِكانِيَّة[1] .

الضرب الثانى — وِلايةُ رئيس اليهود الحاكم علىٰ طوائفِهم .

(١) لم ينص على من له توليتهما .

النـــوع الخامس

(ما لا يَخْتَصّ بطائفة ولا يندرِج تحت نَوْع)

كصغار الأُمُور التى يُكتَب فيها لكلّ فَرْدٍ فَرْد : إما ٱبتـداءً ، وإما بالحمل علىٰ ما بِيَدِه من ولايةٍ سابقةٍ : من نائبٍ أو قاضٍ أو ناظرِ وقْف أو غير ذٰلك ، مما لا ينحصِرُ كثْرةً .

قلت : وربّما وَلّىٰ السلطان فى بعض الوظائف بالممالك الشاميّة مما تختصّ توليتُه بنُوّاب السلطنة إذا كانتِ الوظيفةُ وضيعةَ المَنْزِلة وأدركتِ المُوَلّىٰ عِنَايتُه ، وربّما وَلّىٰ بعضُ نُوّابِ السلطنة ما تَختصّ توليتُه بالسلطان إذا عظُمتْ رتبةُ النائب وٱرتفعتْ منْزِلتُه ، خصوصًا إذا كان نِظامُ المملكة محلُولا وأمرُها مضْطَرِبا .

الفصل الثانى

من الباب الأوّل من المقالة الخامسة

(فى بيان ماتجبُ علىٰ الكاتب مراعاتُه فى كتابة الوِلايات علىٰ سبيل الإجمال)

قال الشيخ شِهابُ الدين محمودٌ الحلبىّ رحمه الله فى "حُسْن التوسل": يجبُ علىٰ الكاتب أن يُراعِىَ فى ذلك أمورًا .

منها — بَرَاعةُ الاَستهلال بذكر الرُّتْبــة ، أو الحـال ، أو قدرِ النِّعمة ، أو لَقَب صاحب الولاية ، أو آسْمِه ، بحيثُ لايكونُ المطّلِع أجنبيًا من هذه الأحوال ، ولا بعيدًا منها ، ولا مبايِنًا لهـا ؛ ثم يستصحِبُ مايناسب الغرضَ و يوافق القَصْـد من أوّل الخُطْبة إلىٰ آخرها .

ومنها — أن يراعِىَ المناسَبة وما تقتضيه الحـالُ : فلا يُعْطِى أحدا فوقَ حَقّه ، ولا يصِفُه بأكثرَ مما يُراد من مثله ؛ و يراعى أيضا مقدارَ النعمة والرُّتبة فيكون وصْفُ المِنّة بها علىٰ مِقْدار ذلك .

ومنهـا — أن لا يصفَ المتولِّىَ بمـا [يكونُ](١) فيـه تعريضٌ بذَمّ المعْزُول [وتَنْقِيصٌ له](١) ؛ فإنّ ذلك ممـا يُوغِر الصُّـدور ، ويُورِث الضَّغائن فى القلوب ، ويدلُّ علىٰ ضَعْف الآراء فى آختيار الأوّل ، مع إمكانِ وصْف الثانى بمـا يحصُل به المقصُود من غير تعريض بالأوّل .

ومنها — أن يتخيَّرَ الكلامَ والمعانِىَ فإنه ممـا يَشِيع ويَذِيع ، ولا يُعْذَر المقصِّر فى ذلك بعَجَلة ولا ضِـيقِ وقت ، فإنّ مَجَال الكلام متّسع ، والبـلاغة تَظْهَر فى القليل والكثير .

---

(١) الزيادة من "حسن التوسل" ص ١١٠ .

قلت : ومنها أن يَحْرِص الكاتبُ علىٰ أن تكون نهايةُ السجعة الأُولىٰ فى السَّطْر الأوّل أو الثانى ولا يُؤَخِّرُها عن ذٰلك . ومما كان يراعىٰ فى ذٰلك أن تكون الخطبةُ من أوّلها إلىٰ آخرها علىٰ رَوِىّ واحدٍ فى السَّجْع ، وكذٰلك الدعاءُ فى أوّل صِغَار التواقيع والمَرَاسِيمِ المبتدأةِ بلفظ « رُسِم » بخلاف مابعد ذٰلك إلىٰ آخر ما يكتب ، فإنه يتَّفق فيه روىُّ السجعتين والثَّلاثِ فما حولَهَا ، ثم يخالَفُ رويُّها إلىٰ غيره ؛ ولا يكَلَّف الكاتبُ الإتيانَ بجميعها علىٰ روىٍّ واحد ؛ وعلىٰ ذٰلك كانت طريقة فُحُول الكُتَّاب بالدولة التركية ، كالقاضى محيى الدِّين بن عبد الظاهر ، والشيخ شهابِ الدين محمود الحلبى ، والمقرِّ الشهابىِّ بن فضل الله ، ومَنْ عاصرهم إلّا فى القليل النادر ، فإنه رُبَّما وقع لبعضهم مخالفةُ رَوِىّ الخطبة ؛ وإلىٰ هذا قد جنَح غالب كُتَّاب ديوان الإنشاء فى زماننا ومالُوا إليه : لما فى الْتِزام الرَّوِىِّ الواحد فى جميع الخُطْبة من التكلُّف وعُسْر التلفيق علىٰ مَنْ يتعاناه .

ثُمَّ الكلامُ فيما يُكتَب فى الولاية قد يكون جميعُه بلفظ الغَيْبة ، مثل أن يقال : عَهِد إليه بكذا ، أو قلَّده كذا ، أو فوّضَ إليه كذا ، أو أنْ يستقرَّ فى كذا ، ونحو ذلك ، ثم يقال : وأَمَره بكذا ، أو ونحن نُوصِيه بكذا ، أو فعَلَيْه بكذا ، وما أشبه ذٰلك ؛ وقد يكون جميعُه بلفظ الخِطاب ، مثل أن يقال : وقد عهِدَ إليكَ بكذا ، أو قلَّدك كذا ، أو فوّضَ إليك كذا ثم يقال : ونحن نُوصيكَ بكذا ، أو فعليكَ بكذا ، ونحوه ؛ وقد يُصَدَّر بلفظ الغَيْبة ثم يُلتفَت منها إلىٰ الخطاب ؛ وقد يُصَدَّر بلفظ الخطاب ثم يُلتفَتُ منه إلىٰ الغيبة بحسَبِ ما يُؤْثِره الكاتب وتُؤدِّى إليه بلاغتُه مما ستَقِفُ علىٰ تنويعه فى خِلَال كلامهم فى أصناف الوِلَايات الآتية فى هذا الكتاب ، إن شاء الله تعالىٰ .

الفصـــل الثالث

من البـابِ الأوّلِ من المقالة الخامسة

(فى بيان مايقَعُ به التفاوُتُ فى رُتَب الولايات، وذلك من سبعةِ أوجُه)

الوجــــه الأول

(الألقـابُ، وهى عـلىٰ ثلاثة أنواع)

النـــوع الأول

(ألقابُ الخُلَفـــاء)

وسبيلُها الاختصارُ دونَ البَسْط، اكتفاءً بمـا هو ظاهِرٌ من أُبَّهة الخِلافة، وعُلُوّ مَقَام الإمامة، إذ هى الزَّعامة العُظمىٰ، والرتبةُ التى هى أعلىٰ الرُّتَب وأسمىٰ.

وهى صنفان :

الصنفُ الأوّل — ألقابُ الخلفاء أنفُسهم، وغايةُ مايُنعَتُ به الإمام وأميرُ المؤمنين.

الصنف الثانى — ألقابُ أولياءِ العَهْد بالخلافة، وألقابُهم نحوُ السيِّد الجليل وذَخيرة الدِّين، ونحو ذلك علىٰ ماسيأتى بيانُه فى عهود الخلفاء عن الخُلَفاء.

النـــوع الثـانى

(ألقابُ المُلوك، وهى صنفان أيضا)

الصنفُ الأوّلُ — ألقابُ السلطان نفسِه، والكُتّابُ تارة يبتدئُونها بالسلطان، وتارة يبتدئُونها بالمَقَام، ولكلٍّ منهما نعوتٌ تخصُّه، وسيأتى الكلامُ علىٰ ذلك مستوفًى فى الكلام علىٰ عُهُود الملوك عن الخلفاء، إن شاء الله تعالىٰ.

الصنف الثانى — ألقابُ أولياء العهْد بالمُلْك ، والملوكِ المنفَردين بولايةِ صِغَار البُلْدان عن السلطان الأعظم ، وهى لاتُفْتَتح إلّا بالمَقَام ليس إلّا ، ولها نعوتٌ تخصُّها يأتى الكلامُ عليها فى الكلام على عهودهم أيضا .

النـــوع الثـالث

(ألقـابُ ذَوى الولاياتِ الصادرات عن السلطان : من أرباب الوظائفِ الواقعةِ فى هـذه المملكة)

وقد تقدّمَ فى الكلام على الألقـاب فى مقدّمة الكِتاب أنّ أصولَ الألقاب المستعملةِ فى ذٰلك خمسةُ ألقاب على الترتيب : وهى المَقَرّ، ثم الجَنَاب، ثم المَجْلِس، ثم مجْلس مضـافا : كمجلس الأمير، ومجلس القاضى ، ومجلِس الشيـخ ، ومجلس الصَّدْر، ثم الاقتصارُ على المضاف إليه وحذفُ المضاف : كالأميرِ والقاضى والشيخ والصَّـدْر ، ويلتحق بذٰلك لأهل الذّمّة الحَضْرة ، وحَضْرة الشيـخ ، والشيخ مجرّدًا عن حَضْرة ، وتقدّم فى الفصل الأوّل من هـذا الباب أنّ أربابَ الولايات خمسةُ أنواع : أربابُ السُّيُوف ، وأربابُ الأقلام ، وأربابُ الوظائف الصِّناعية ، وزُعَماء أهل الذمّة ، ومَنْ لايختص بطائفةٍ لِصِغَرهم . وجميعُ هـذه الأنواع على اختلاف أصنافهم لا يَخْرُجُون عن الألقاب المتقدّمة ؛ وقد تقدّم الكلامُ على هـذه الألقاب ونُعوتها لمن يُكاتَب عن الأبواب الشريفة السلطانية من أرباب الوظائف مستوفًى فى المكاتَبات ، إلّا أنه قد يُولَّى عن السـلطان مَنْ لم يؤهَّل لمكاتبة عنـه ، كأكثرِ أرباب الوظائف من حَمَلة الأقلام وغيرهم ، فاحْتِيج إلى تعريف مراتبِ الألقاب لكلّ نوع من أرباب الولايات .

فأما أربابُ السُّيوف، فأعلىٰ ألقابهم المَقرّ، وأدناها مجلِسُ الأمير، ثم الأمير مجرّدا عن مجلس .

وأمّا أرباب الوظائف الصِّناعيّة، فأعلىٰ ألقابهم المجلس وأدناها مجلِسُ الصَّـدْر، ثم الصَّدرُ مجرَّدا عن مجلس .

وأما من لايختص بطائفة لصغره، فيتَصَرف فيه علىٰ لقب التعريف وهو فلانُ الدِّين إن عُظِّم وإلّا ٱقتُصِر علىٰ ٱسمه خاصّة .

وأما زعماء أهل الذِّمّة، فأعلىٰ ألقابهم الحَضْرة، ثم حَضْرة الشيخ، ثم الشيخ مجرّدًا عن حَضْرة .

وٱعلم أنّ كلّ مَنْ كانت له مكاتبةٌ عن الأبواب السلطانية من أرباب السُّيوف والأقلام وغيرهم ، فلقبُ وِلايتِـه ونُعوتُه كما فى مكاتبته، غير أنه يُزادُ فى آخر النُّعوت المركَّبـة ذكر ٱسمه العلم، ونسبتُه إلىٰ السلطان: كالناصِرىّ، والظاهِرىّ، ونحوهما إن كان ممن يَنْتَسب إليه بنِيابةٍ ونحوها، ثم إن كانت مكاتَبَتُه تُفْتتَح بالدعاء نُقِل ذلك الدعاء من أوّل المكاتبة إلىٰ مابعد ٱسمه والنسبة إلىٰ السلطان فى الولاية، كما إذا كانت مكاتبته : أعزّ الله تعالىٰ أنصار المَقرّ الكريم، فإنه يُدْعىٰ له عقِيبَ ٱسمه والنسبةِ إلىٰ السلطان ـ إن كانت ـ بأعزّ الله تعالىٰ أنصارَه، وكذٰلك فى البواقى .

وإن كانت مكاتبتُه تُفْتَتح بغير الدعاء : كصدرتْ هذه المكاتبةُ ونحو ذلك ، فإنه يدعىٰ له فى الولاية عقِبَ الٱسم والنسبةِ إلىٰ السلطان ـ إن كانت ـ بما يُدْعىٰ له فى مكاتبتـه فى آخِرِ الألقاب، كما إذا كان من أرباب السُّـيوف ومكاتبتُه صدرَتْ هذه المكاتبة إلىٰ المجلس العالى أو المجلِس السامىّ بالياء فإنه يُدْعىٰ له بمثل: أدامَ الله سعادتَه، وأدام اللهُ رفعتَه، ونحو ذلك، وإن لم تكن له مكاتَبةٌ عن الأبواب السُّلْطانية

كُتِب له فى الولاية مايُناسِبُه من اللَّقب والنُّعوت، ثم يذكر آسْمُه والدعاءُ له إن كان مستحِقًّا للدعاء؛ وسيأتى لقَبُ كلِّ ذِى وِلاية من الأنواع الخمسة المتقدّمةِ الذِّكرِ ونعوتُهُ عند ذكرِ وِلَايته فيما بعدُ، إن شاء الله تعالىٰ.

ثم للألقاب فى الولايات محَلَّان :

أحدهما — الطُّرَّة . ويُقتَصر فيها علىٰ اللَّقب : من المقرّ أو الجناب أو المجلس أو مجلِس مضافا وما بعده من النعوت إلىٰ اللَّقب المميِّز للوظيفة كالأَميرىّ والقضائىّ ونحوهما؛ ثم يُذكر لقَبُه الخاصُّ به وهو الفُلانىّ أو فُلان الدين، ثم يذكر آسْمُه وآنتسابُه إلىٰ السلطان إن كان، علىٰ ماسيأتى بيانُه مفصَّلا، إن شاء الله تعالىٰ.

الثانى — فى أثناء الوِلَاية . وهُنالك تستوفىٰ النُّعوتُ ويُؤْتىٰ بما فى الطُّرَّة فى ضِمْنه إلا أنه يُجعَلُ لقبُ التعريف — وهو الفلانىُّ أو فلانُ الدِّين — بين النعوت المفردة والمركَّبة فاصلا بينهما.

الوجـــــه الثانى

(ألفاظ إسناد الوِلَاية إلىٰ صاحب الوظيفة، ولها سِتُّ مراتِبَ)

الأولىٰ — لفظُ العَهْد، مثـل أن يقال : أنْ يُعْهَد إليه، وهى خاصَّـةٌ بالخلفاء والمُـلُوك.

الثانية — لفظ التَّقْليد، مثل أن يقال : أن يُقلَّدَ كذا، ويكون مع المَقرّ الكريم والجَنَاب الكريم.

الثالثة — لفظ التَّفْويض، مثل أن يُقال : أنْ يفوَّض إليه كذا، ويختصّ بالجناب لأرباب السيوف، وكذلك الجنابُ والمجلسُ العالى لأرباب الأقْلام.

قلت : وكُتّابُ زماننا يستعملونها(١) مع المقرّ أيضا ، ولا يستعملون لفظ يُقلّد في التقاليد لتوهّمهم الاكتفاءَ بلفظ تقليدٍ عنها ، ولم يعلَموا أنّ يقلّد فوق يفوّض كما تقدّم . على أنّ المقرّ الشهابيّ بنَ فضل الله قد صرّح بذلك في "التعريف" كما سيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى .

الرابعة — لفظ الاستقرار والاستمرار، مثل أن يقال أن يستقرّ في كذا ، أو يستمرّ في كذا . ولفظ يستقرّ مختصّ بالمستجِدّ ، ولفظ يستمرّ مختصّ بالمستقِرّ ؛ ويكونان مع المجلس السامىّ بالياء ، والمجلس السامي بغير ياء لأرباب السيوف والأقلام وغيرهم ؛ أما المجلسُ العالى فإن كانت مكاتبتُه تُفتتح بالدعاء ، مثل : أدام الله تعالى نعمةَ المجلس العالى كاتب السلطنة بالكَرَك ، فإنه يقال فيه أن يُفوَّض إليه ، وإن كانتْ مكاتبتُه تُفتَتَحُ بصدرتْ هذه المكاتبة كاتب القُدْس ونحوه ، فإنه يقال فيه أن يستقِرّ .

الخامسة — لفظ الترتيب ، مثل أن يقال : أن يُرتَّب في كذا ، ويكون مع مجلس مضافا ، مثل مجلس الأميرِ ومجلسِ القاضي ونحوهما ، وربّما استُعملت مع السامى بغير ياء .

السادسة — لفظ التقدّم ، مثل أن يقال أن يُقدَّم فلانٌ على الطائفة الفلانيّة ونحو ذلك .

قلت : وهاتان المرتبتان أعني السادسةَ والخامسةَ قد ذكرهما المقرُّ الشهابيُّ بن فضل الله في "التعريف" فقال : وقد يقال أن يُرتَّب وأنْ يُقدَّم . وهما موجودان في كتابة مُعاصِريه بمصر والشام ؛ أمّا كُتّاب زماننا فقد رفضُوهما جملةً وأضربُوا عن استعمالها بكلّ حال ، واكتفَوْا عنهما بالمرتبة الرابعة وهي لفظُ الاستقرار ،

(١) أى لفظة "يفوّض" .

والواجب إثباتُهما لتفاوُتِ ما بين المَرَاتب . على أنّ آستعمال لفظ يُرتّب موجودٌ في كلامهم بكَثْرة، ولفظ يُقدّم لم يستعملوه إلا في النّزْر اليسير، والله أعلم . وهـذه الألفاظُ تقع في الطُّرّة وفي أثناءِ الكلام على حدّ واحدٍ .

الوجـــــه الثـالث

(الافتتاحاتُ ، وهي راجعةٌ إلى أربع مراتِبَ)

المرتبة الأولى — الافتتاحُ بلفظ : هـذه بَيْعة ، أو هذا ما عَهِـد ، ونحو ذلك في البَيْعات والعُهُود على المذهَب القديم ، أو بالحمدُ لله . ويقعُ الابتداء به في العُهُود والبَيْعات إذا ٱبتُدِئَ العهدُ أو البيعةُ بخُطْبة على ما عليه آستعمالُ أهل زمانِنا ؛ وكذلك في التقاليد لأربابِ السيوف والأقلامِ ، والمَرَاسيم المكبَّرة لأرباب السيوف ، والتواقيع الكِبَار لأربابِ الأقلام .

المرتبة الثانية — الافتتاحُ بأمّا بعدَ حمدِ الله . ويقعُ الابتداءُ به في المَرْتَبة الثانية من أرباب المراسيمِ المكبَّرة من أصحاب السُّيوف ، والمرتبةِ الثانية من أرباب التَّواقيع من أصحابِ الأقلام .

المرتبة الثـالثةُ — الافتتاحُ برُسِمَ بالأمرِ الشريف ، ويقع الافتتاحُ به في المرتبـة الثالثة لأرباب التَّواقيع والمَرَاسِيم من سائر أربابِ الوِلَايات .

المرتبة الرابعةُ — ما كان يُستَعْمَلُ من الافتتاح بأما بعدُ فإنّ كذا . أومَنْ حَسُنَتْ طَرائقُه ، وحُمِدت خَلائقُه ، فإنه احَقُّ ، وما أشبهَ ذلك ؛ كما أشار إليه في "التعريف" إذ كانَ الآنَ قد رُفِض وتُرِك على ما سيأتي بيـانُه في موضعه إن شاء الله تعـالى ؛ وقد كان ذلك يُستَعْمَل فيما تقدّم لأرباب السُّيوف والأقلامِ جميعاً .

الوجـــــه الرابع

(تعدُّدُ التحميد فى الخُطْبة أو فى أثناء الكلام واتحادُه)

فقد قال فى "التعريف" فى الكلام علىٰ عُهُود المُلُوك للمُلُوك: وكُلّما كَثُرت التحميداتُ فى الخُطَب، كان أكْبَرَ: لأنها تدلُّ علىٰ عِظَم قَدْر النِّعمة؛ وذكر فى الكلام علىٰ عُهود الخلفاء عن الخُلَفاء أنه يُنْتَهىٰ فى التحميد إلىٰ سَبْعة.

الوجـــه الخامس

(الدعاءُ . وله ثلاثة مواضـــع)

الموضع الأوّل — فى طُرَّة الولَاية بعد ذكرِ ما يُكْتَب فى الطُّرَّة من ألقابه، ولا يُزاد فيه علىٰ دَعْوة واحدة تناسبه.

الموضع الثانى — فى أثناءِ الولايةِ بعد آستيفاء الألقابِ وذكرِ الأسمِ؛ وهو ما فى الطُّرَّة من الدعوة المناسبة له بغيرِ زائدٍ علىٰ ذٰلك.

الموضع الثالث — [فى] آخرِ الولاية بالإعانة ونحوها. قال فى "التثقيف": وأقلُّها دعوتان، وأكثرُها أربعٌ. قال فى "التعريف": ومَن آستُصْغِر من المُولَّيْن لا يُدْعىٰ له فى آخرِ ولايته.

ثم قد تقدّم فى المكاتَبات أنّ الدعاءَ مع تنزيه الله تعالىٰ: كأعَزَّ الله تعالىٰ أنصارَ المقرّ، وضاعف الله [تعالىٰ] نعمةَ الجناب ونحو ذٰلك أعْلىٰ من حذْفه[(١)]؛ كأدام اللهُ سعدَه، وأعزَّه الله ونحو ذلك؛ ولا شكّ أنه فى الولايات كذٰلك.

---

(١) أى حذف التنزيه وفى الأصل حذفها أى جملة التنزيه.

الوجـــه السادس

(طُولُ الكلام وقِصرُه ، فكُلَّما عظُمت الوظيفةُ وٱرتفع قدْرُ صاحبها كان الكلام فيها أبسَط)

قال فى "حُسْن التوسل" : ويحسُن أنْ يكونَ الكلامُ فى التقاليد منقسِما أربعةَ أقسام متقارِبة المَقادير، فالرُّبعُ الأوّل فى الخُطْبة، والرُّبعُ الثانى فى ذكر مَوْقع الإنعام فى حق المقلَّد ، وذكر الرتبة وتَفْخِيم أمرها ؛ والربعُ الثالثُ فى أوصاف المُوَلَّى(١) ، وذكرِ ما يناسبُ تلك الرتبةَ ويُناسبُ حالَه من عَدْل وسياسةٍ ومَهَابة وبُعْد صيت وسُمْعة وشجاعةٍ إن كان نائبا ، ووَصف الرأى والعَدْل وحُسْن التدبير والمعرفة بوُجُوه الأموال ، وعِمارة البلاد ، وصَلاح الأحوال ، وما يناسبُ ذلك إنْ كان وزيرا ؛ وكذلك فى كلّ رتبة بحسَبها ، والربع الرابع فى الوَصايا .

قال فى "التعريف" : والذى ٱختارُه ٱختصارُ مقْدار التحميدة [التى](٢) فى الخُطْبة والخُطَب مطلقا وإطالةُ ما بعد ذلك ، والإطنابُ فى الوصايا [اللهم](٢) إلا لمن جَلَّ قدْرُه [وعظُم أمره](٢) فإن الأولىٰ الاقتصارُ فى الوصايا علىٰ أهمّ الجُمْليّات ، ويعتذرُ فى الاقتصار بما يُعْرَف من فضله ، ويُعْلَم من علمه ، ويُوثَق به من تجْربته ومن هذا ومثله . قال : والكاتب فى هذا [كلّه](٢) بحسَب ما يراه ، ولكلّ واقعةٍ مَقَال يليقُ بها ، ولمَلْبس كلّ رجل قدرٌ معروف لايليقُ به غيرُه ؛ وفى هذا غِنًى لمن عَرَف ، وكفايةٌ لمن عَلِم ؛ علىٰ أن المقرّ الشهابىّ تابع فى ذلك القاضى « محيي الدين ٱبن عبد الظاهر» رحمه الله، فإنك إذا تأملْتَ تقاليدَه وتواقيعَه ، وجدتَها كلَّها

(١) فى حسن التوسل ص ١١٠ «المقلد» وهى بمعناها .

(٢) الزيادة من التعريف ص ٨٨ .

كذلك ، ولكلٍّ وجهٌ ظاهر ؛ فإنّ المطوّل لخطبة لا يُخْلِيها من بَراعةِ الاستهلال ، المناسبةِ للحال ؛ والمقصّر لها مُراعٍ لزيادة الإطناب فى الوَصْف .

قلت : ولا يخفىٰ أن ما ذكراه فى التقاليد يجىءُ مثلُه فى العُهُود لجرْيها علىٰ مُوجبها من مُولٍّ ومُولًّى .

أما إذا كانت الولايةُ بيْعةً فإنه يجعَلُ موضِعَ الوَصَايا ذِكْرَ ٱلتزام الخليفـةِ البِرَّ والإحسانَ للخلق ، ووَعْدَ النظر فى أمُور الرعية ، وصلاح أحْوالهم ؛ وذكر التحليف للخليفة ، أوله وللسلطان إن كان معه سلطان قام بعقْد البَيْعة له علىٰ الوَفَاء بالعَهْد والدُّخُول تحت الطاعة . قال فى "حسن التوسل" : والأمْرُ الجارى فى ذلك علىٰ العادة معروفٌ لكنه قد تَقَع أشياءُ خارجةٌ عن العادة فيحتاجُ الكاتبُ فيها إلىٰ حُسْن التصرُّف علىٰ مايقتضيه الحالُ ؛ وذكر من ذلك تقليدًا أنشأه لمتملِّك سِيس ، وتقليدًا كتبه بالفُتُوَّة ؛ وسيأتى ذكر ذلك مع ماشاكله فى مواضعه إن شاء اللهُ تعالىٰ .

الوجــــه السابع

(قطــع الورق)

وٱعلم أنّ الولاياتِ من ديوان الإنشاءِ بالأبواب السلطانية بجملتها يَنْحصر قَطْعُ الورَق فيها فى خمسة مَقاديرَ لا يتعدَّاها :

أحدها ــ قَطْع البغـداديّ الكاملِ ؛ وهو مختصٌّ بالبَيْعات والعُهُود مُطْلقا علىٰ أىِّ الافتتاحات كان .

الثـانى — قَطْع الثلثَيْن من المنصورىّ، وهو لأجل الوِلاياتِ السُّلطانياتِ لأرباب السُّيوف و بعضِ أر باب الأقلام، ولا يُفْتَتح فيها إلّا بالحمد .

الثالث — قطع النِّصف منه، وهو لما دُونَ ذٰلك، ولا يفتتح فيه إلّا بالحمد أيضا :

الرابع — قطع الثُّلُث منه ، وهو لمـا دُونَ ذلك .

وآعلم أنه إذا وُلِّىَ صاحبُ وظيفـةٍ تستحِقُّ قطعَ النصف وظيفةً أُخْرىٰ تستحق قَطْع العـادة ، فإنه يُراعىٰ مقدارُ صاحبِها ويُزادُ علىٰ مِقْـدار العادة ؛ إلا أنه لا يَبْلُغ مَبْلَغَ رتبة وظيفَته العُلْيـا ، بل ينبغى أن يتَوَسَّط بينهما ؛ فيكتب له فى قَطْع الثلث لتكون رتبة بين رُتْبتين فتحصُل مراعاةُ تعظيمه من حيث الزيادةُ علىٰ قَطْع العادة ، ومراعاةُ قدر الوظيفة من حيثُ إنها لم تَبْلُغ شَأْوَ وظيفتِه العُلْيا ، أما إذا وُلِّىَ منحطُّ القدر وظيفةً تستحق القَطْع الكبير ، فإنه يكتَبُ له فيه ، وتكون توليتُه لهـا رَفْعًا إلىٰ درجَتِها .

الخامس — قطعُ العـادة ، وهو أصغَرُها ؛ والأصلُ أن يفتَتح فيـه بلفظ «رُسِم بالأمر الشريف » و ربمـا علتْ رتبـةُ صاحبِ الوِلاية ولم يؤهَّـلْ للكتَابة فى قطع الثلث فيُكْتَب له فيه : أما بعدَ حمد الله ، وهو قليلُ الآستعمال ، فإن آستُعْمِل أما بعدُ فإنَّ كذا ، أو إنَّ أَوْلىٰ ، أو إن أَحَقَّ ونحو ذلك كُتِب فى قَطْع العادة أيضا .

الباب الثانى

من المقالة الخامسة فى البَيْعات، وفيه فصلان

الفصل الأوّل

(فى معناها)

البَيْعات جمع بَيْعة، وهى مصدر (١) بايَعَ فلانٌ الخليفةَ يُبايِعه مُبايعةً؛ ومعناها المعاقَدةُ والمُعاهَدةُ، وهى مُشَبَّهة بالبَيْع الحقيقىّ . قال أبو السَّعادات بنُ الأثير فى نهايته فى غريب الحديث : كأنّ كلّ واحدٍ منهما باعَ ماعِنْدَه من صاحبِه وأعطاه خالصةَ نَفْسه وطاعَته ودَخِيلةَ أمْرِه . ويقال : بايَعَه، وأعطاه صَفْقةَ يدِه؛ والأصلُ فى ذلك أنه كان من عادةِ العربِ أنه إذا تَبايَعَ اثنانِ صَفَقَ أحدُهما بيده على يَدِ صاحبِه .

وقد عظَّم الله تعالى شأنَ البيعةِ وحذَّر من نَكْثِها بقوله خطابا للنبىّ صلى الله عليه وسلم : ﴿ إنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ . وأمر بمبايعة المُؤمنات فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ إذَا جَاءَكَ المُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . وبايع النبىُّ صلى الله عليه وسلم الصحابةَ رضوانُ الله عليهم بَيْعَتَيْنِ .

---

(١) ليس مراده المصدر الصناعى كما لا يخفى والأوضح "وهى اسم مصدر لبايع" الخ تأمل .

الفصـــــل الثانى

(فى ذكر تنويع البيْعات ، وهى نوعان)

النــوع الأوّل

(بَيْعاتُ الخُلَفـاء، وفيهـا سبعة مقاصِـدَ)

المقصــــد الأوّل

(فى أصل مشروعيتها)

فالأصْل فى ذٰلك بعد الإجماع ماثَبَت فى الصحيحين من حَديث عائشة رضى الله عنها " أنّه لما تُوُفِّىَ رَسُولُ الله صلّى الله عليه وسلم، ٱجتَمَعتِ الأنصارُ إلى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ فى سَقِيفَةِ بَنِى ساعِدَةَ، فقالُوا : مِنّا أميرٌ ومنكُمْ أميرٌ، فذهب إليهم أبُو بكْرٍ وعُمَرُ وأبُو عُبَيْـدَةَ بنُ الجرّاح ، فذهَبَ عُمَرُ يتكَلّمُ فأسْكَتَهُ أبُو بكْرٍ ، وكان عُمَرُ يقول : ما أرَدْتُ بذٰلك إلّا أنّى قد هَيّأْتُ كلامًا أعْجَبَنِى خَشيتُ أن لّا يَبْلُغَهُ أبُو بَكْرٍ ، ثم تكلّم أبو بكْرٍ فتكلّمَ أبلغَ النـاسِ . فقال فى كلامه : نَحْـنُ الأُمَراءُ وأنْتُمُ الوُزَراء . فقال الحُبَابُ بنُ المُنْذر : لَا واللهِ لانفْعلُ ! مِنّا أميرٌ ومِنكُمْ أَمير . فقال أبو بَكْرٍ : لَا ولٰكنّا الأُمَراءُ وأنْتمُ الوُزَراءُ . فبايِعُوا عُمَرَ أوْ أبَا عُبَيدَةَ . فقال عمرُ : بَلْ نُبَايِعُكَ فأَنْتَ سيِّدُنا وخَيْرُنا وأحَبُّنا إلىٰ رسولِ اللهِ صلّى الله عليه وسلم ، فأخذ عُمَرُ بيده فبايَعَه وبايَعَ النّاسُ " .

وهـذه أوّلُ بيعةٍ بالخلافَةِ كانتْ فى الإسلام ، ولكن لم يُنْقَل أنه رضى الله عنه كُتِبَ له مبايعةٌ بذٰلك ، ولعلّ ذٰلك لأنّ الصحابةَ رِضوانُ الله عليهم كانوا إذا بايَعُوا لايَجْحَدُون البَيْعةَ بعد صُدُورها، بخِلاف مابعد ذٰلك .

المقصـــــد الثـانى

(فى بيانِ أسبابِ البَيْعة المُوجبة لأخْذها علىٰ الرَّعيَّة)

وهى خمســـة أسباب :

السببُ الأوّل — موتُ الخليفة المنتصبِ من غير عَهْدٍ بالخلافة لأحدٍ بعـده ، كما فى قِصَّة الصِّـدِّيق المتقدِّمة بعد وَفَاة النبيّ صلّى الله عليه وسلم ، أو بتَرْكها شُورىٰ فى جماعة معيَّنة ، كما فعل عمرُ رضى الله عنه عند وَفَاته حيثُ تَركها شُورىٰ فى ستة : علىّ بنِ أبى طالب ، والزُّبَير بن العَوَّام ، وعُثمانَ بنِ عفَّان ، وعبدِ الرحمٰن بنِ عَوْف ، وطلحةَ ، وسعدِ بن أبى وَقَّاص ، رضى اللهُ عنهم .

السبب الثـانى — خَلْع الخليفةِ المنتصبِ لمُوجب يقتضى الخَلْع ، فتحتاجُ الأمةُ [إلىٰ] مبايعةِ إمام يقُوم بأمورها ، ويتحمَّل بأعبائها .

السبب الثالث — أن يتوهَّم الخليفةُ خُروجَ ناحيةٍ من النَّواحى عن الطاعة فيُوجِّه إليهم من يأخُذ البيعةَ له عليهم : لينقادُوا لِأمْرِه ، ويدخُلوا تحتَ طاعتِه .

السبب الرابع — أن تُؤْخَذَ البيعةُ لخليفة المعهودِ إليه بعدَ وَفَاة العاهد ، كما كانتِ الخلفاءُ الفاطميُّون تفعَلُ فى خِلافتهم بمصر ، وكانوا يُسَمُّون البيعةَ سِجِلًّا كما كانوا يُسَمُّون غيْرَها بذٰلك .

السبب الخـامس — أن يأخُذَ الخليفةُ المنتصبُ البيعةَ علىٰ الناس لولىّ عهـده بالخلافة بأن يكونَ خليفةً بعدَه إمضاءً لعَهْده ، كما فعل معاويةُ رضى الله عنه فى أخذه البيعةَ لولده يَزِيدَ .

المقصـــــــد الثالث

(فى بيان ما يجبُ علىٰ الكاتب مراعاتُه فى كتابة البَيْعة)

وآعلم أنه يجبُ علىٰ الكاتب أن يُراعِىَ فى كتابة البَيْعة أمورا :

منها — أن يأتِىَ فى بَراعة الاستهلال بمـا يتهيَّأ له من آسم الخليفة أو لَقَبه : كفلانِ الدِّين، أولقبِ الخلافة : كالمتوكِّل أو المستكْفِى، أومقتضىٰ الحال المُوجِب للبَيْعة من موتٍ أو خَلْع ونحوهما، أو غير ذٰلك ممـا يجرى هذا المَجْرىٰ .

ومنها — أن يَنبِّه علىٰ شَرَف رُتْبة الخلافة وعُلُوّ قدْرها ورِفْعة شأنها، وأنها الغايةُ التى لافَوْقَها، والدرجةُ التى لابَعْدَها ؛ وأن كلَّ رُتْبة دُونَ رُتْبتها ، وكلَّ مَنْصِب فرعٌ عن مَنْصِبها .

ومنها — أن يَنبِّـه علىٰ مَسِيس الحاجةِ إلىٰ الإمام ، ودِعايَة الضَّرورة إليه ، وأنه لايستقيمُ أمْرُ الوجود وحالُ الرعِيَّة إلّا به ، ضرورةَ وُجوبِ نصبِ الإمام بالإجماع ، وإن شذَّ عنه الأصمُّ مخالف ذٰلك .

ومنها — أنْ يُشـيرَ إلىٰ أنَّ صاحبَ البَيْعة آستوعبَ شُروطَ الإمامةِ وآجتمعتْ فيــه ، ويصِفَه منها بمـا يَعِزُّ وُجودُه ، ويُتمَـدَّحُ بحصوله : كالعِلْم والشَّجاعة والرأى والكِفاية ؛ بخلاف مالا يعِزُّ وجودُه ولا يُتَمَدَّحُ به وإن كان من الشروط : كالحُرِّيَّة والذُّكورة والسمْع والبَصر ونحو ذٰلك ؛ فإنَّ الوصف بذٰلك لا وجْهَ له .

ومنها — أن يَنبِّه علىٰ أفضلية صاحبِ البَيْعة وتقدُّمه فى الفضل وآستيفاءِ الشُّروط علىٰ غيره : ليخْرُج من الخِلاف فى جَواز تولِيَة المفضُول مع وُجود الفاضل .

ومنها — أن يَنبِّه على أنَّ المختارين لصاحب البَيْعة ممن يُعْتَبَر اختيارُه من أهل الحَلِّ والعَقْد : من العلماء والرُّؤساء ووجُوه الناس الذين يتيسَّر حضُورُهم على الوجه المعتَبَر .

ومنها — أن يَنبِّه على تعيين المختارين للبَيْعة ، إن كان الإمامُ الأولُ نصَّ عليهم ؛ إذ لايصِحُّ الاختيار [من] غير من نَصَّ عليه ، كما لايصحُّ إلا تقليدُ من عَهِد إليه .

ومنها — أن ينبِّه على جَرَيان عَقْد البَيْعة من المختارين ، ضرورةَ أنه إن انفردَ شخْصٌ بشروط الإمامة فى وَقْته لم يَصِرْ إماما بمجرّد ذلك .

ومنها — أن يَنبِّه على سبب خَلْع الخليفة الأوّلِ إن كانت البيعةُ مترتِّبة على خَلْع ، إذ لايصح خَلْع الإمام القائم بلا سبَب .

ومنها — أن ينبِّه على قَبُول صاحب البيعةِ العقدَ وإجابته إليه إذ لابُدّ من قبُوله .

ومنها — أن ينبِّه على أنَّ القَبُول وقع منه بالاختيار : لأنه لايصحُّ الإجبارُ على قَبُولها ، أللهم إلَّا إن كان بحيثُ لايصلُح للإمامة غيْرُه فإنه يجبَرُ عليها بلا خِلَاف .

ومنها — أن يَنبِّه على وُقُوع الشهادة على البَيْعة ، خروجًا من الخلاف فى أنه هل يُشتَرَط الإشهادُ على البيعة أم لا ؟ .

ومنها — أن ينبِّه على أنها لم تقترن ببَيْعةٍ فى الحالِ ولا مسبُوقةٍ بأُخْرىٰ ، إذ لايجوز نَصْبُ إمامين فى وقتٍ واحدٍ وإنْ تباعَدَ إقليماهُمَا ، خلافا للأُستاذ أبى إسحاق الأَسْفَرايِنِى حيثُ جوّز نصْبَ إمامين فى إقليمَيْن .

ومنها — أن يَنبِّهَ على أنه بمجرّد البَيْعة تجبُ الطاعةُ والانقيادُ إليه ، ويجب على كافّة الأمة تفويضُ الأمور العامّة إليه ، وطاعتُه فيما وافَقَ حكمَ الشرع وإنْ كان جائرا .

ومنها — أن يعزّى فى الخليفة الميت ويُهنَّأ بالمستقرّ إن كانت البيعةُ مبنيَّةً على موتِ خليفةٍ، وأن يبيّن(١) سببَ خلع الخليفة الأوّل إن كانت مرتَّبةً على خَلع .

أما التَّعزيَةُ والتهنئــةُ بموت الأوّل، فعليــه جرىٰ عامّة الكُتّاب ؛ إلّا أنه يختصُّ فى عُرفهم بمــا إذا كان الخليفةُ الأوّلُ شــديدَ القُرب من الثانى، كأبيه وأخيه وٱبن عمّــه .

وكان الأوّلونَ يتعانَوْن ذٰلك فى خطاب الخلفاء بالتهنئــة بالخلافة بعدَ أقاربهم ، وقد رُوى أنّ عطاءَ بنَ أبى صَـيْفِىّ دخل علىٰ يَزيدَ بن معاويةَ فهنّاه بالخلافة وعزّاه فى أبيه فقال :

رُزئْتَ بأمير المؤمنــين خليفــةِ الله، وأُعْطيتَ خلافةَ الله؛ قضىٰ معاويةُ نَحْبَــه ، فغفرَ اللهُ ذَنْبه، ووُلِّيت الرِّياسه، وكنتَ أحقَّ بالسِّياسه؛ فٱحتَسِبْ عندَ الله جليلَ الرَّزِيّه، وٱشكُرْه علىٰ جَزيل العطيّــه ؛ وعَظَّم اللهُ فى معــاويةَ أجْرَك ، وأحسنَ علىٰ الخلافة عونَك .

وتعرّضتْ أعرابيّة للمنصور فى طريق مكّةَ بعد وَفَاة أبى العَبّاس السَّفّاح، فقالت :

ياأميرَ المؤمنين ٱحتَسب الصَّبر، وقدِّمِ الشُّـكْر ؛ فقد أجزلَ اللهُ لك الثَّواب فى الحالين، وأعظَمَ عليك المِنّةَ فى الحادثَيْن؛ سَلَبَكَ خليفةَ الله، وأفادكَ خلافَةَ الله؛ فسَلِّم فيما سَلَبَك ، وٱشـكر فيما مَنَحك ؛ وتجاوزَ اللهُ عن أمير المؤمنين ، وخارَ لَكَ فيما ملَّكك من أمرِ الدُّنيا والدِّين .

وأما التعريف بسبب(١) الخَلْع ، فلأنه لا يصِحُّ خَلْعُ الإمام بغيرِ مُوجِب للخَلْع .

ومنها — أن يشير إلىٰ ذكر السلطان القائم بالبَيْعة إن كان القائمُ بهــا سلطاناً علىٰ ما ٱستقرّت عليه قاعدةُ الكُتّاب فى ذٰلك .

(١) سبق التنبيه على هذا فى الصفحة قبل .

ومنها — أن ينبِّه على أنَّ من ٱستُحْلِف فى البَيْعة من وُجُوه الدولة وأعيان المملكة إن جرى حَلِفٌ، ويذكر صفةَ حلِفهم وما ٱلتزَموه من الأيمان المؤكَّدة، والمَوَاثيق المغلَّظة .

المقصد الرابع

(فى بيان مواضع الخلافة التى يستَدْعِى الحالُ كتابةَ المبايَعات فيها)

وهى أربعة أمور :

أحدها — موتُ الخليفة المتقدِّمِ عن غير عهدٍ لخليفةٍ بعده ، وهو موضوعها الأصلىّ الذى عليه بُنِيتْ .

الثانى — أن يَعْهَد الخليفةُ إلى خليفةٍ بعدَه ، ثم يموتَ العاهِد ويستقرّ المَعْهود إليه بالخلافة بالعَهْد بعده، فتؤخَذَله البَيْعةُ العامَّة على الرَّعية، إظهاراً لوقُوع الإجماع على خلافته، والاتِّفاقِ على إمامتِه .

الثالث — أن تؤخَذ البيعةُ للخليفة بحضْرةِ ولَايته ، ثم تُنَفَّذ الكتُبُ إلى الأعمال لأخْذ البَيْعة على أهلها، فيأخذُ كلُّ صاحب عملٍ له البيعةَ على أهل عَمَله .

الرابع — أن يَعْرِض للخليفة خَلَلٌ فى حال خلافته : من ظهور مخالِف أو خُرُوج خارجىّ، فيحتاج إلى تجديد البَيْعة له حيثُ وَقَع الخلافُ .

ولكلٍّ من هذه الأحوال ضَرْبٌ من الكتابة يُحتاجُ فيه إلى بيان السببَ الموجب لأخْذ تلك البيعةِ .

المقصد الخامس

(فى بيان صورة ما يُكْتَب فى بَيْعات الخلفاء، وفيها أربعة مذاهب)

المذهب الأوّل

(أن تُفتتحَ المبايعةُ بلفظ «تُبَايع فلانا أميرَ المؤمنين» خطاباً لمن تُؤْخَذ عليه البَيْعة)

ويذكر ما يقَعُ عليه عقدُ المُبايعة، ويأتى بما سَنَح من أمر البَيْعة، ثم يذكر الحلِفَ عليها؛ وعلى ذلك جرى مصطَلَح كُتّاب خلفاء بنى أُميَّة، ثم خلفاءِ بنى العبّاس بعدهم ببغدادَ.

وآعلَمْ أنه قد تقدّم فى المَقْصد الأوّل من هذا الفصل أنه لم يُنْقَل أنه كُتِب للصدّيق رضى الله عنه ولا لمن وَلِىَ الخلافةَ بعده من الصّحابة من غير عهدٍ بيعةٌ. ولما كانتْ خلافةُ بنى أُميَّة، وآل الأمْرُ إلى عَبْد الملكِ بن مَرْوان، وأقام الحجّاج آبنَ يوسُف على إمَارة العِراق، وأخذ فى أخْذ البيعة لعبد الملك بالعِراق، رتّب أيمانا مغلَّظةً تشتمل على الحَلِف بالله تعالى والطَّلاقِ والعَتَاق والأيمان المُحْرِجات يُحْلَف بها على البَيْعة، وآشتهرتْ بين الفُقَهاء بأيمَانِ البيعةِ، وآطّرد أمْرُها فى الدولة العبّاسيّة بعد ذلك. وجرى مصطلَحُهم فى ذلك على هذا الأسْلوب.

وهذه نسخةُ مبايعةٍ، ذكرها أبو الحُسين بن إسحاقَ الصابِى فى كتابه "غُرَر البَلاغة" وهى:

تُبَايع عبدَ الله أمير المؤمنين فلانا بَيعةَ طَوْع وآختيار، وتبرُّع وإيثار، وإعلانٍ وإسْرار، وإظْهارٍ وإضْمار، وصِحّة من نَغَل، وسلامة من غير دَغَل، وثباتٍ من غير

تبديل، ووقار من غير تأويل، واعتراف بما فيها من اجتماع الشَّمْل، واتّصال الحبْل، وانتظام الأمور، وصَلاح الجُمْهور، وحَقْن الدِّماء، وسُكون الدَّهْماء، وسعادة الخاصّة والعامّة، وحُسْن العائدة على أهل المِلّة والذِّمّة ـ على أنّ عبدالله فلانا أمير المؤمنين عبدُالله، الذى اصطفاه، وخليفتَه الذى جعل طاعته جاريةً بالحق، ومُوجَبَةً على الخَلْق، ومُوردةً لهم مَوارِدَ الأَمْن، وعاقدةً لهم مَعاقِدَ اليُمْن، وولايته مُؤْذِنةً لهم بجميل الصُّنْع، ومؤدِّيةً بهم إلى جزيل النَّفْع، وإمامته الإمامةُ التى اقترن بها الخيرُ والبَرَكه، والمصلحةُ العامّةُ المشتَرَكه، وأُمِّل فيها قمعَ المُلْحد الجاحد، وردُّ الجائرِ الحائد، ووَقْمِ العاصى الخالِع، وعَطْف الغازى المُنازِع ـ وعلى أنّك ولىُّ أوليائه، وعدوُّ أعدائه: من كلِّ داخِلٍ فى الجُمْله، وخارجٍ عن المِلّه، وحائدٍ عن الدَّعْوه، ومتمسِّكٌ بما بدليه، عن إخلاصٍ من رَأْيك، وحقيقةٍ من وَفائك؛ لا تَنْقُضُ ولا تَنْكُث ولا تُخْلِف ولا تُوارِى ولا تُخادِع، ولا تُداجِى ولا تُخاتِل؛ علانيتُك مثل نِيّتك، وقولُك مثلُ طَوِيّتك ـ وعلى أن لا ترْجع عن شيء من حُقُوق هذه البيعة وشرائطها على مَرِّ الأيام وتَطاوُلها، وتغيُّر الأحوال وتنقُّلها، واختلاف الأزمان وتقلُّبها ـ على أنّك فى كلِّ ذلك من أهل المِلّة الإسلامية ودُعاتِها، وأعوانِ الدولة العبّاسيّة ورُعاتِها؛ لا يُداخِل قولَك مُواربةٌ ولا مُداهَنه، ولا تعترِضُه مغالَطةٌ ولا تتعقّبُه مخالفه؛ ولا تَخِيس به أمانه، ولا تَغُلُّه خِيانه؛ حتّى تلقَ الله تعالى مقيماً على أمْرِك، وَفِيًّا بعَهْدك؛ إذ كان مُبايِعو وُلاة الأمور وخلفاءِ الله تعالى فى الأرض ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

عليكَ بهذه البيعة ـ التى أعطيْت بها صَفْقة يَدِك، وأصْفيْتَ فيها سَرِيرة قلبك؛ والتزمتَ القيامَ بها ماطالَ عُمُرك، وامتدّ أجلُك ـ عهدُ الله إنّ عهدَ الله كان

مسئُولا ؛ وما أخذه علىٰ أنبيائه ورُسُله وملائكته وحَملة عرشــه من أيمانٍ مغلَّظةٍ وعُهودٍ مؤكَّده ، ومَواثيق مشــدَّده ، علىٰ أنك تسْمع وتُصْغِى ، وتُطِيع ولا تَعْصى ؛ وتعتدلُ ولا تَميل ، وتستقِيم ولا تَحِيد ، وتَفِى ولا تَغْدِر ، وتثبُتُ ولا تتغيَّر ؛ فمتىٰ زلْتَ عن هذه المَحجّة حاقرا لأَمَانتِك ، ورافِعًا لدِيانَتِك ؛ فجحدْتَ اللهَ تعالىٰ رُبُوبيّته ، وأنكَرْتَه وَحْدانيّته ، وقطعْتَ عِصْمةَ محمدٍ صلّى الله عليه وسلم وجذَذْتها ، ورميْتَ طاعَتَــه وراءَ ظهرِك ونبَذْتَها ؛ ولَقِيتَ اللهَ يومَ الحشر إليه ، والعَرْض عليــه ، مُخالِفًا لأَمْرِه ، وخائنًا لعَهْده ، ومقيمًا علىٰ الإنكارِ له ، ومُصِرًّا علىٰ الإشراكِ به ، وكُلُّ ماحلَّله اللهُ لك محرّمٌ عليــك ، وكلّ ماتملكه يومَ رُجُوعك عن بَذْلِك ، وآرتجاعِكَ ما أعطَيْتَه فى قولك : من مالٍ موجودٍ ومَذْخُور ، ومَصُــوغ ومَضْروب ، وسارِحٍ ومَرْبوط ، وسائمٍ ومعقُول ؛ وأرضٍ وضَيْــعه ، وعَقَار وعُقْــده ، ومملوكٍ وأَمَه ، صــدقةٌ علىٰ المَساكين ، محرَّمةٌ علىٰ مرِّ السِّنين ؛ وكلُّ آمرأةٍ لك تملِكُ شَعَرها وبَشَرها ، وأُخْرىٰ تتزوّجُها بعدها ، طالِقٌ ثلاثًا بتاتًا ، طلاقَ الحَرَج والسُّنَّة لارجْعةَ فيــه ولا مَثْنويّةَ ؛ وعليك الحجُّ إلىٰ بيتِ الله الحرامِ الذى بمكَّةَ ثلاثين دَفْعــة حاسِرًا حافِيــا ، راجلًا ماشِــيا ، نَذْرا لازما ، ووَعْدا صادقا ، لايبرّئُك منها إلا القضاءُ لهــا ، والوفاءُ بها ؛ ولا قَبِلَ اللهُ منك تَوْبةً ولا رَجْعةً ، وخذَلَك يومَ الآستنصار بحَوْله ، وأسلمَك عنــد الآعتصام بحبْله ؛ وهذه اليمينُ قولُك قلتَها قَوْلا فَصِيحا ، وسَرَدْتَها سَرْدا صحيحا ؛ وأخلصْتَ فيها سِرَّك إخلاصًا مُبِينا ، وصدقْتَ فيها عَزْمَك صِدْقا يقِينا ؛ والنيةُ فيها نيةُ فلان أميرِ المؤمنين دُونَ نِيَّتك ، والطَّويَّةُ [فيها طويّتُه] دُونَ طويَّتك ؛ وأشهدتَ اللهَ علىٰ نَفْسك بذٰلك وكفىٰ باللهِ شَهيدا ، يَوْمَ تَجِدُ كلُّ نفس عليها حافظًا ورَقِيبا .

وهـذه نسخةُ بَيْعةٍ أُخرىٰ من هذا الأُسْلوب ، أوردها آبنُ حَمْدُونَ فى تذْكرته ، وربَّمـا وافقَ فيها بعضَ ألفاظ البيعة السابقةِ، وهى :

تُبايعُ الإمامَ أميرَ المؤمنين فلانا بيعةَ طَوْع و إيثـار ، وٱعتِقادٍ و إضمار ، و إعلان و إسْرار ؛ و إخلاصٍ من طويَّتك، وصِـدْقٍ من نِيَّتك ؛ وٱنشراح صـدرك وصِحّة عزيمتِك؛ طائعًا غير مُكْرَه، ومُنْقادا غير مُجْبَر ؛ مُقِرًّا بفضلها، مُذْعِنـا بحقِّها؛ معترِفا ببركتها، ومعتـدًّا بحُسْن عائدتها؛ وعالمـًا بمـا فيها وفى تَوْكيدهامن صَلَاح الكافَّة، وٱجتماع الكلمـة [من] الخـاصَّة والعامَّة، ولَمِّ الشَّعَث، وأَمْن العَواقِب؛ وسُكُونِ الدَّهْماء، وعِزِّ الأوليـاء ، وقَمْعِ الأعداء ـ علىٰ أنَّ فلانا عبدُ الله وخليفتُه، المفترَضُ طاعتُه، والواجبُ علىٰ الأمة إقامتُه وولايتُه ؛ اللازمُ لهم القيامُ بحقِّه، والوفاءُ بعهْده؛ لاتَشُكُّ فيـه ، ولا ترتابُ به ، ولا تُداهِن فى أمره ولا تَميل . وأنك وَلِيُّ وليِّـه ، وعدُوُّ عدوِّه: من خاصٍّ وعامٍّ، وقريبٍ و بعيـد، وحاضِرٍ وغائب؛ متمسِّكٌ فى بَيْعته بوَفَاء العهْد، وذِمَّة العَقْد؛ سريرتُك مثـلُ علانِيَتك ، وظاهرُك فيه وَفْقُ باطنِك ـ علىٰ أنْ أعطيتَ الله هـذه البَيعةَ من نَفْسـك ، وتوكيدكَ إيَّاها فى عُنُقـك ، لفلانٍ أمير المؤمنين عن سلامةٍ من قَلْبك ، وٱستِقامةٍ من عَزْمك ؛ وٱستمرارٍ من هَوَاك ورأْيك ـ علىٰ أن لاتتأوَّلَ عليـه فيها ، ولا تَسْـعىٰ فى نقض شيء منها؛ ولا تقْـعدَ عن نَصْره فى الرَّخاء والشِّـدّة ، ولا تَدَعَ النصرَله فى كلِّ حالٍ راهنة وحادثة ؛ حتّى تلقىٰ الله مُوْفِيًا بها ، مُؤدِّيا للأمانةِ فيها ؛ إذكان الذين يُبـايعونَ وُلاةَ الأمر ، وخلفاءَ الله فى الأرض ﴿ إنَّمـا يُبايِعُـونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْديهِـمْ فَمَنْ نَكَثَ فإنَّمـا يَنْكُثُ علىٰ نَفْسه ﴾ .

علـيكَ بهذه البيعـة ـ التى طَوَّقتها عُنُقَك ، و بَسَطْتَ لهـا يَدَك ، وأعطيْتَ فيها صَفْقَتك ؛ وما شُرِط عليكَ فيها : من وفاءٍ ومُوالاة ، ونُصْح ومشايَعه ، وطاعةٍ وموافقـة وٱجتهاد ومتابعه ـ عهـدُ الله إنَّ عهـدَ الله كان مَسْئُولا . وما أخذ اللهُ تعالىٰ علىٰ أنبيائه ورُسُـلِه عليهم السلام ، وعلىٰ مَنْ أخَذَ من عبـاده ، وَكِيداتِ مَوَاثِيقه ومُحْكَمَات عُهُوده ؛ وعلىٰ أن تَمَسَّكَ بها ولا تُبَدِّل ، وتستَقيمَ ولا تَميل ؛ وإن نكثْتَ هـذه البيعةَ أو بدَّلت شَرْطا من شُروطها ، أو عَفَّيْت رَسْمـا من رُسُومها ، أو غَيَّرت حُكْما من أحكامها ؛ معلِنًا أو مُسِرًّا أو مُحتالا أو مُتأَوِّلًا ؛ أو زغْتَ عن السبيل التى يَسْلُكها من لا يُحقِّر الأمانه ، ولا يستحِلُّ الغَدْر والخيانه ؛ ولا يستجيزُ حَلَّ العقود ، فكلُّ ماتملِكه من عينٍ أو وَرِق أو آنيـه ، أو عَقَار أو سائمة ، أو زَرْع ، أو ضَرْع ؛ أوغير ذلك من صُنُوف الأملاك المعتدَّه ، والأموال المُدَّخره ؛ صدقةٌ علىٰ المساكين ، محرَّمٌ عليك أن ترجع من ذٰلك إلىٰ شىء من مالك بحيلةٍ من الحِيَل ، علىٰ وَجْه من الوجوه ، وسببٍ من الأسْباب ، أو مَخْرَج من مَخَارج الأَيمـان ؛ وكلّ ماتعتدّه فى بقِيَّـة عمرك من مالٍ يقِلُّ خَطَرُه أو يجِـلُّ فتلك سـبيلُه إلىٰ أن تتوفَّاك منِيَّتك أو يأتيك أجَلُك ؛ وكلُّ آمرأةٍ لكَ(١) اليومَ : وأخرىٰ تتزوّجها بعدها مدّةَ بقـائك طالقٌ ثلاثًا بتاتًا ، طلاقَ الحَرَج والسُّـنَّة لامَثْنَوِيَّةَ فيه ولا رجْعَـة ؛ وعليك المشىُ إلىٰ بيتِ الله الحرام ثلاثين حَجَّة حافيا ، حاسِرًا راجلا ، لايَرْضىٰ اللهُ منك إلّا بالوفاء بهـا ، ولا يقبَـلُ اللهُ منـك صَرْفا ولا عَدْلا ؛ وخَذَلك يوم تحتاجُ إليـه ؛ وبَرَّأك من حَوْله وقُوَّته ، وألجأك إلىٰ حَوْلك وقُوّتك ، والله عزّ وجل بذٰلك شهيدٌ ، وكفىٰ به شَهِيدا .

---

(١) فى الأصول "وكل مملوك لك اليوم من ذ كر وأنثى مدة" الخ وهو غير مناسب كما لايخفى .

وهـذه نسخة أخرى من هـذا الأسـلوب ، أوردها أبو الحسين الصابى فى " غُرَر البلاغة " وهى :

تُبايِعُ أميرَ المؤمنين بقُوّةٍ من بَصِيرتك ، وصِحّة من سَرِيرتك ، وصَفاءٍ من عقيدتك ، وصِدْقٍ من عَزِيمتك ، على الرِّضا [به] والوَفاء له ، والإخلاص فى طاعته ، والاجتهادِ فى مُناصحته ، وعَقْد النيّة على مُوالاته ، وبَذْل القُدْرة فى ممالاته ، وأن تكونَ لأنصاره عَوْنا ، ولأوليائه حِزْبا ، ولأعدائه حَرْبا ، عارفينَ بما فى ذلك من الحَظّ ، ومعترفين بما يلزَمُ فيه من الحق ، ومحافظين على ماحَرَس المِلّةَ الإسلاميّة ، والدولةَ العبّاسية ؛ ثبّت الله قواعدَها ، وأحكم مَعاقِدَها ، وزادها آستمرارا على مَرّ الدُّهور ، وآستقرارا على كَرّ العُصُور ، وعِزًّا على تنقّل الأمور ، وآشتدادا على تغلّب المَقْدور ، فإن خالفْتُ ذلك مُسِرًّا أو مُعْلِنا ، وحُلْتُ عنه مُظْهِرا أو مُبْطِنا ، وحلَلْتُ عقودَه ناكثًا أو ناقضا ، وتأوّلتُ فيه مُحاوِلا للخُروج منه ، وآستثنيْتُ عليه طالبًا للرّجوع عنه ؛ فبرِأنى الله من حولِه وقُوّته ، وسلبَنى ماوَهبَ من فضْله ونِعمته ، ومنعنى ماوعدَ من رأفته ورحمته ، وخلّانى من يَدَيْه ، يومَ الفَزَع الأكبر لدَيْه ؛ وحنث كلّ يمين حلَفها المسلمُون على قديم الأيّام وحديثها ، والتّناهى فى تأكيدها وتشديدها ، وأعرَوْها من لباس الشُّبْهة ، وأخْلَوْها من دَواعى المخاتَلة ؛ وهذه اليمينُ يمينى : أوردتُها على صِدْق من نِيّتى ، وصحّةٍ من عزيمتى ، وآتّفاقٍ من سرّى وعَلانِيَتى ؛ وسَرَدْتُها سَرْدا متتابِعا من غير فَصْل ، وتلفظت بها تلفُّظا من غير قطع ؛ والنيّةُ فيها نيةُ فلان : على حُضُور منه وغَيْب ، وبُعْد وقُرْب ؛ وأُشْهِد الله تعالى بما عقدْتُه على نفسى منها ، وكفى بالله شهيدا على من أشهده ، وحسيباً على من آجترأ على إخفار عهْده ، ونقض عقده .

قلت : فإن كان من تؤخذ عليـه المبايعة آثنين ، أُتِى فى المبايعة بِصيغة التثنية؛ أو ثلاثة فأكثر، أُتِى بصيغة الجمع . ولم أقِفْ علىٰ كيفية وضْعِهم لذٰلك فى الكتّابة، والذى يظهر أن المبايعة كانتْ تكتَبُ علىٰ الصورة المتقـدّمة ، ثم يكتُب المبايِعُون خطوطهم بصُدُورها عنهم، كما يفعل الآنَ فى تحليف من يحلَّف من الأمراء وغيرهم من أرباب الوظائف بالمملكة المصرية والممالك الشامية ، أو يُشْهَد عليهـم فى آخر البيعة بمعاقَدتِهم عليها ورضاهُم بها ونحو ذٰلك .

المـــذهب الثـانى
(ممـا يكتب فى بَيْعـات الخلفـــاء)

أن تُفْتَتح المبـايعةُ بلفظ « من عبْدِ الله ووليِّـه فلانٍ أبى فلان الإمام الفُلَانى » إلىٰ أهل دَوْلته، ونحو ذٰلك بالسَّلام عليهم، ويُؤْتىٰ (١) بما سَنَح من الكلام، ثم يُقال : أمَّا بعدُ، فالحمد لله ، ويؤتىٰ علىٰ وصْـفِه بشريـفِ المَنَاقِب، وآستحقاقِه للخلافة ، وآستِجْماعه لشُرُوطها، وما يَجْرِى هذا المَجْرىٰ، ثم يَنْخرِطُ فى سِلْك البيعة ، ويذكُر القـائِمَ بأخذها علىٰ الناس من سُلْطانٍ أو وزيرٍ عظيـم أو نحو ذٰلك، ويذكُر من أمْرِ ولايةِ الخليفةِ ما فيـه آسـتجلابُ قلوبِ الرعية والأخذُ بخواطرهم وما يَنْخـرط فى هذا السِّلْك .

وهذه نُسخةُ بَيْعةٍ من هذا الأُسْـلوب ، لولِىِّ عهْد بعد موْتِ العاهد ، كُتِب بها لبعض خُلَفاء الفاطميين ، ليس فيها تعرُّض لذكر الوزير القائِم بها، وهى :

---

(١) لعله ونحو ذلك ويتبع ذلك الخ تأمل .

من عبدِ الله ووليِّه «أبى فلان فلان بن فلان» الإمامِ الفلانىّ، بأمْرِ الله تعالىٰ أميرِ المؤمنين، إلىٰ من يضُمُّه نِطاقُ الدولة العَلَوية : من أُمَرائها وأعيانِها، وكُبرائها وأوليائها، علىٰ آتِّساع شُعُوبهم، وعساكِرِها علىٰ آختلاف ضُرُوبهم، وقبائِل عَرَبِها القَيْسيَّة واليَمَنيَّة، وكافَّةِ من تشملُه أقطارُها من أجناس الرعيَّة : الأميرِ منهم والمأْمُور، والمشهورِ منهم والمَغْمُور، والأسْودِ والأحمر، والأصْغَر والأكبر، وفَّقهم الله وبارَكَ فيهم .

سلامٌ عليكم، فإنَّ أميرَ المؤمنين يحمَدُ إليكُمُ اللهَ الذى لا إلٰهَ إلّا هو، ويسألُه أن يُصَلِّى علىٰ محمدٍ خاتمِ النبيِّين، وسيِّدِ المرسَلين، صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله الطاهِرين، الأئمة المَهْدِيِّين، وسلَّم تسليما .

أما بعدُ، فالحمدُ لله مُولِى المَنِّ الجَسيم، ومُبْدِى الطَّوْل العَميم، ومانحِ جزيلِ الأجْر بالصَّبْر العظيم، مُفيدِ النعم المتشعِّبة الفُنُون، ومُدْنِى المُهَج المتعالية لتناوُلِ المَنُون، ومُبيدِ الأعمارِ ومُفْنيها، وناشرِ الأمواتِ ومُحْييها، والفاتحِ إذا آستغْلَقتِ الأبْواب، والقائلِ : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَاب ﴾ الذى لايغيِّر مُلْكَه مُرورُ الغِيَر، ولا يَصْرِف سلطانَه تَصرُّفُ القَدَر، ولا يُدْرَك قِدَمُه وأزليَّته، ولا ينْفَد بقاؤُه وسَرْمَديَّته، مُسْلِمِ الأنام لِلحِمَام، ومُصْمِى الأنفُس بسِهامِ الآخْتِرام، ومُورِدِ البَشَر من المنيَّة مَنْهَلا ما بَرِحُوا فى رَنْقه يكْرَعُون، ولمُرِّه المُشْرِق يتجرَّعُون، ومعزز ذلك بقوله : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ، وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ .

والحمدُ لله الذى نَصَب الأنبياءَ لمَراشِده أعلاما، وحَفِظ ببعْثِهم من الحقِّ والهُدىٰ نِظاما، وجعل نُبوّةَ جدِّنا محمدٍ صلَّى الله عليه وسلم لنُبوّاتِهم خِتاما، وعَضَّد بوَصِيِّه أبينا

امير المؤمنين علىّ بن أبى طالب كمالا للدّين و إتماما ، وآستخلص من ذُرّيتهما أئمّة هادين إتقانًا لصنعته و إحكاما ، وأقام الحجّـة على الأمم بأن أقام لكلّ زمان منهم إمامًا ، وعاقب بين أنوار الإمامة فإذا آنقبض نورٌ آنبسط نور ، وتابع ظهور بدوره ليُشرق طالعٌ إثر غاربٍ يغور ، رحمـةً شاملةً للعـالمين ، وحكمةً تامّةً حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خيرُ الوارثين ، ولم يُخل نبيًّا مع ما شرّفه [به] من تناوُل وحيه وتلقّيه ، ولا عصم إماما مع آختصاصه بفروع منصب الإمامة وترقّيه ، من لقـاء المنيّة ، ووداع الأمنيّة ، بل أجّل لكلٍّ منهم أجلًا مكتوبا ، وفسح له أمدًا محصورا محسوبا ، لا يَصْرِفُه عن وُصوله تَضيله ، ولا يَصل الى تجاوُزه بقوّةٍ ولا حيله ، قدرةٌ محكمة الأسـباب ، وعبْرةٌ واضحةٌ لأُولى الألباب ، وقضـيّةٌ أوضحها فرقانه الذى أقرّ بإعجازه الجاحدون ، إذ يقول مخاطبا لنبيه : ﴿ وما جعلنا لِبَشرٍ من قبلِكَ الخُلْدَ أفإنْ مِتَّ فهُمُ الخَالدُونَ ﴾ .

والحمدُ لله الذى منح أميرَ المؤمنين من خصائص الإمامة وأنوارها ، وحاز له من ذخائرها وأودعه من أسرارها ، ماخوّله فاخرَ تُراثها ، وأصار له شرف ميراثها ، وجعله القائمَ بحقّه ، والمرشدَ لخلقه ، والماحىَ بهُداه ليْلًا من الضّلال بهيما ، والحاوىَ بخلافته مجدًا لا يزالُ شأوُه عظيما : ﴿ ذلك الفضْلُ مِنَ اللهِ وكَفى بِاللهِ عَليما ﴾ .

يحمَده أميرُ المؤمنـين على أن أوضح بآبائه الأئمّـة سُبُل الحقـائق ، فأصبحُوا خلفاءَ الخـالق وأئمّـة الخـلائق ؛ وخوّله ما آختصّهم به من الإمامه ، ورفعـه بها الى أشمخ منـازِلِ العُلا وأرفع مواطن الكرامه ؛ ويستمدّه شُـكرا يوازى النّعمَ التى أثبتتْ [له] على سرير الخلافة وسرّها قَدَما ، وصبْرا يُوازنُ الفجيعةَ التى قلّ لها فيضُ المـدامع دما .

ويسأله أن يصلّى على جدّه محمد الذى فَضَّ بجهاده جُموعَ الإلحاد، وحصد باجتهاده مَنْ مال عن الهُدى وحاد، وصَدَع بما أُمِر به حتّى عمّ التوحيد، ودانت لمُعجزاته الأممُ وقد دنَاها وهو المُفْردُ الوحيد، ولم يزلْ مبالغًا فى مَرْضاة ربّه، حريصًا على إظهار دينه بيده ولسانه وقلبه، حتّى آستأثر به وقبضه، وبدّله من الدنيا شرفَ جِواره وعوّضه، وأصاره إليه أفضلَ نبىّ بصّر وبشّر، وأحيا دينَ الله وأنشر، وعلى أبيه أميرِ المؤمنين علىّ بن أبى طالب إمامِ الأُمّه، وأبى الأئمّه، وقُدوة السعداء، وسيّد الشُّهداء، وعاضد الدّين بذى الفقار، ومَنْ لم يزل الحقّ إلى ذَبّه شديدَ الافتقار، صلّى الله عليه وعلى آبائه والأئمة من ذرّيّتهما الذين أيقظوا العُقولَ بإرشادهم من السِّنَه، وأفاضوا من العَدْل والإحسان ما ألهَجَ بتمجيدهم الألسنَه .

وإنّ الإمامَ الفلانىَّ لدين الله أميرَ المؤمنين كان وليًّا لله شرّفه الله وآستخلصه، وأفردَه بإمامة عَصْره وخصّصه، وفوّض إليه أمرَ خلافته، وأحلّه محلًّا تقَعُ مَطارحُ الهِمَمِ دُونَ علوّه وإنافته، فقام بحقّ الله ونَهَض، وعمل بأمره فيما سَنّ وفَرَض، وقَهر الأعداءَ بسَطَواته وعزائمه، وصرّف الأمورَ بأزِمّة التدبير وخزائمه، وبالغ فى الذّبّ عن أشياع المِلّه، وآجتهدَ فى جِهاد أعداءِ القِبله، ووقف على مصلحة العِباد والبلاد أمَلَه، ووفّر على مايُحْظِى عندَ الله قولَهُ وعَمَلَه، ولم يتْرُك فى مَرْضاة خالقه مشقّةً إلا آحتملَها، ولاروِيّةً إلا صَرَّفها فى إرشادِ خلقه وأعملَها، حتّى بلغ الغايةَ المحدُوده، وآستكملَ الأنفاسَ المعدُوده، وأحسنَ اللهُ له الآختيار، وآثر له النُّقلةَ من هذه الدار والزُّلفىٰ بسُكْنَىٰ دارِ القَرار، والفوزَ بمصاحبة الأنبياءِ الأبرار، والحُلُولَ فى حظائر قُدُسه مع آبائه الأئمّةِ الأطهار، فسار إليه طاهرَ السَّريره، جميلَ المَذْهب والصُّوره، مستوجبًا بسَعْيه أفضلَ رِضوانه، ممهّدًا بالتقوىٰ لتدْبيره أكنافَ جِنانه .

وأمير المؤمنين [يحتسب] عندَ اللهِ هذه الرَّزِيَّةَ التى عظُمَ بها المُصَـاب، وعظم عنـد تجرعها الصَّاب، وأضرمت القلوبَ نارا، وأجْرتِ الآماقَ دَمًا مُمَـارا[1]، وأطاشَتْ بِهَوْلِها الأكبادَ بالحَرَق، وكَحَلَتِ الأجفانَ بالأَرَق، وكادتْ لهُجُومها الصدورُ تَقْذِف أفئدتَها، والدنيـا تَنْزِع نَضْرتَها و بهجتَها، وقواعدُ المِلَّة تَضْعُف وتَهِى، والخطوبُ الكارثةُ تُصِرُّ[2] ولا تنتَهِى، فإنَّا لله و إنَّا إليه راجعون!! تسليماً لأمْرِه الذى لا يُدْفَع، و إذعاناً لقضائه الذى لا يُصَدّ ولا يُمْنَع .

وكان الإمام الفلانىّ لدين الله أميرُ المؤمنين عند نُقْلته جعل لِى عَقْـدَ الخلافه، ونصَّ علىَّ بارتقـاءِ مَنْصِبها المخصوصِ بالإنَافه، وأفضىٰ إلىَّ بسِرِّها المكْنُون، وأودعَنِى غامضَ عِلْمها المَصُون، وعَهِد إلىَّ أن أشْمَلَكُمْ بالعَدْل والإحسان، والعَطْف والحَنَان، والرحمةِ والغُفْران، والمَنِّ الرائقِ الذى لا يكَدِّره آمتِنان، وأنْ أكونَ لأعلام الهُـدىٰ ناشِرا، و بمـا أَرضىٰ اللهَ مُجَـاهِرا، ولأحزابِ القبـلة مُظافِرا مُظاهِرا، ولأعداء المِلة مُرْغِمـا قاهِرا، ولِمَنَار التوحيـدِ رافعا، وعن حَوْزة الإسلام بغـاية الإمكان دافِعًا، مع علمه بما خُصِصْتُ به من كَرَم الشِّيَم، وفُطِرتُ عليه من الخِلال القاضيةِ مصالحَ الأُمَم، وأُوتِيتُه من آستحقاق الإمامة وآستِيجابهـا، ومُنِحتُه من الخصائص المُبْرَمة لأسبابها .

فتَعَزَّوْا جميعَ الأولياء، وكافَّةَ الأُمَراء، و جميعَ الأجناد، والحاضِرِ من الرَّعايا والبَاد، عن إمامِكم المنقُول إلىٰ دار الكَرَامه، بإمامكم الحاضِرِ الموجودِ الذى أَوْرثه اللهُ مَقَامَه، وآدخُلُوا فى بَيْعته بصُدُورٍ مشروحةٍ نَقِيَّه، وقلوبٍ علىٰ مَحْض الطاعة مَطْويَّه، ونيَّات

---

(١) مار الدم سال وأماره أساله . انظر القاموس .

(٢) أى تدوم من قولهم أصر علىٰ الأمر داوم عليه .

فى الوَلَاء والمشايَعة مَرْضيَّة ، وبصائرَ لاتزال بنُور الهُدىٰ والاستبصار مُضيَّة ؛ وأميرُ المؤمنين يسألُ اللهَ أن يجعل إمامَتَه محظُوظةً بالإقبال ، دائمةَ الكمال ، صافيةً من الأكدار ، معضُودةً بمُواتاة الأقدار ، ويوالى حمْدَه علىٰ مامَنَحه من الاصطفاء الذى جعله لأمور الدِّين والدنيا قوَاما ، وأقامه للبريَّة سيِّدا وإماما ؛ فاعلمُوا هذا واعملُوا به ، والسلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاته .

وكتب فى يوم كذا من شهر كذا سنة كذا .

✣

وهذه نسخةُ بيعة : كتب بها عن الحافظ لدِين الله الفاطمىّ بعدَ وفاةِ ابن عمه الآمرِ بأحكام الله ، قام بعَقْدها الوزيرُ أبو الفتح يانِس الحافظى ؛ اقتصَر فيها علىٰ تحميدةٍ واحدةٍ ، وعَزّى بالخليفة الميِّت ؛ ثم انتقل إلىٰ مقصود البَيْعة ، وهى :

من عبدِ الله ووليِّه عبدِ المجيد أبى الميْمُون ، الحافظ لدينِ الله أميرِ المؤمنين ، إلىٰ كافَّة أهل الدولة شريفِهِم ومشْرُوفِهم ، وأميرِهم ومأمُورِهم ، وكبيرِهم وصغيرِهم ؛ وأحمرِهم وأسْوَدِهم ، وفَّقهم الله وباركَ فيهم .

سلامٌ عليكم ، فإنّ أمير المؤمنين يحمَد إليكم اللهَ الذى لاإلٰه إلّا هو ؛ ويسألُه أن يصلى علىٰ جدّه محمدٍ خاتمِ النبيين وسيِّد المرسَلين ، صلّى الله عليه وعلىٰ آله الطاهرين ، الأئمة المهْدِيِّين ، وسلَّم تسليما كثيرًا .

أما بعد ، فالحمدُ لله اللطيف بعبادِه وبَرِيَّته ، الرَّءُوف فى أقداره وأقضيَتِه ، المُهيْمن فلا يخرج شىءٌ عن إرادتهِ ومَشيئته ؛ ذى النِّعم الفائضة الغامرَه ، والمِنَن المتتابِعة

المتظاهره، والآلاء المتواليـة المتناصره، القائل فى محكم كتابه : ﴿ يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِى الحياةِ الدُّنْيا وفِى الآخِرَة ﴾ . مدبّرِ أرضه بخلفائه، الذين هم زينةٌ للدنيا وبهجه، وهادى خلقه بأوليائه، لئلا يكونَ للنّاسِ على اللهِ حُجّه ؛ فسُبحانَ الذى هو للنعم مُسْبِغ وبالكرم جَدِير، و ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ المُلْكُ وهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِير ﴾ .

يحمَده أميرُ المؤمنين أنْ جعلَه خليفةً دُونَ أهل زمانِه، وأوجبَ ثوابَ المستجيبينَ له بكَفَالتـه وضَمانه، وجعلهم يومَ الفزَعِ الأكبرِ مكْنُوفينَ بحفْظه مشمُولينَ بأمانه ؛ وأوْزَعَه الشُّكرَ على ما استرعاه إيّاه من أمرِ هذه الأُمَّه ، ونقَله إليْه من تُراث آبائه الهُداةِ الأئمّه، وكشفه بإمامته من أجْمِع نائبةٍ وأفظع مُلِمّه .

وصلّى اللهُ على جدّنا محمدٍ رسولِه الذى أخبر الأنبياءُ المرسَلُونَ بصفتِه ونَعْتِه، وتداولُوا البُشرى بما يُستقْبَلُ من زمانِه وبعثِه ؛ وذكَرُوه فيما أتَوْا به من كلِّ كتاب أوحاه اللهُ وأنزَلَه ، واعترفُوا بأنه أفضَلُ من كلِّ من نبّأه اللهُ وأرسَله ؛ فيَسَّر اللهُ سبحانَهُ ما كان مُرتقبًا من ظُهُوره، وأَذِن فى إشراقِ الأرض بما انتشر فى آفاقها من نُورِه ؛ وبعثَهُ ـ جلّتْ قُدرتُه ـ إلى الأُمّة بأسْرها قاطِبـه ، وجعل ألسِنةَ الأغمادِ مجادلةً لمن خالف شَرْعَه مخاطِبَه ؛ فكان لآيةِ الكُفْر ماحِيا ، وفى مصالح البريّة ساعِيًا ، وإلى سبيلِ ربِّه بالحِكْمة والمَوْعظة الحسَنَة داعِيًا ؛ إلى أن لمعَتْ آياتُ الحقِّ وسطعَتْ ، وانحسَمتْ مادّةُ الباطلِ وانقطعَتْ ؛ وظهَر من آياته ما كبُر له المُخْبِتُون ، واشتهَر من مُعجزاته ما خُصِم به المتعنّتُون ، وخاطبه اللهُ فيما أنزَلَ عليه بقوله : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وإِنَّهُمْ مَيِّتُون ﴾ . فحينئذ نقلهُ اللهُ إلى ما أعدّ له من جنّاته، وخصّه بشرف الشّفاعة

فى يوم مُجازاته، وصدَقه وعْدَه فيما بوّأه من النعيم المُقيم : ﴿ ذٰلكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتيه مَنْ يشاءُ واللهُ ذُو الفَضْل العَظِيم ﴾ .

وعلىٰ أبينا أميرِ المؤمنين علىّ بنِ أبى طالب أَوْلىٰ الناس بالنّبىّ، وأوّلُ من آتّبعه من ذَوِى قرابةٍ وأجنَبىّ، وآبنِ عمّه الذى آختصّه بمُؤاخاته، وجعله خليفةً علىٰ كافّة الناس بعدَ وفاته، وتحمّل بأمر الله، فيما ولّاه وأوْلاه، وخطبَ الناسَ فى حَجّة الوَداع فقال : «من كُنْتُ مَوْلاه فَعَلِىٌّ مَوْلاه»، وعلىٰ آلهما الكِرَام الأبْرار، وعِترتِهما المصطَفَيْن الأخْيار، وهُداةِ المسلمين وقُدْوتِهم، وأمراءِ المؤمنين وأئمّتهم، الذين حكَمُوا فأقْسَطُوا وما قَسَطُوا، وسلك الحاضِرُون منهم سَنَنَ أسلافهم الذين فَرَطُوا، وآقتفَوْا آثارَهم فى السِّياسة فما قصّروا ولا فرّطُوا ؛ ولم يزلْ كلٌّ منهم عاملاً من ذٰلك بما حَسَّن أيامَه، فاعلاً فى أمر الدِّين ما رَفَع منَاره ونَشَر أعلامَه ، حتّى آختار اللهُ له ماعِنْده فنصّ علىٰ مَنْ أقامه الاستحقاقُ مُقامه ؛ وسلّم عليهم أجمعين سلامًا لا آنقضاء لأَمَده، ولا آنْقِطاعَ لمَدَده، فنيل المطالب بكرمه ومَلَكُوتُ كل شىءٍ بيَده .

وإنّ الحقّ إن خَفِىَ حيناً فلا بُدّ لِهلاله من الإبْدار وآنْبِساط النُّور، وإن الشمسَ إن توارتْ بالحِجاب فما أوْشكَ عَوْدَتَها إلىٰ البُزُوغ والظُّهور ؛ وإنّ حسنَ الصبر إلىٰ أن يبلُغَ الكِتَابُ أجلَه يُؤْمِن من تَدْلِيَة الشيطانِ بالغُرور، قال اللهُ عزّ وجلّ فى كتابه، الذى هَدَانا به، : ﴿ وإنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فإنَّ ذٰلِكَ مِن عَزْمِ الأُمُور ﴾ .

وإنّ الله تعالىٰ لرأفتِه بمَن أبْدَعَهُ من خَلْقه وأنْشاه ، ولسابِقِ عِلْمه فى عِمَارة هذه الدار علىٰ ماأراده عزّ وجلّ وشاه، لا يُخْلِى الأرضَ من نُورٍ يستَضِىءُ به السارى فى الليلِ البَهِيم ، ولا يَدَعُ الأمّة بلا إمام يَهْدِى إلىٰ الحَقّ وإلىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيم ؛ فهو جَلّ وعَلَا أعدَلُ من أن يجعل جِيدَ الإيمانِ من حِلىٰ الإمامة عاطلا، أو يترُكَ

الخلق هَمَـلا وقد قال : ﴿ وَمَا خَلَقْنَـا السَّـمٰوٰاتِ وَالْأَرضَ وما بَيْنَهما باطِلًا ﴾ .
بل يقْطَعُ أعذارَ العِبَاد فيما خَلقهم له ووفَقَهم، ويَهْديهم بالأئمة إلىٰ التوفُّر علىٰ عَمَـل ماألزمهم وكَلَّفهم ؛ فالأمور محروسةُ الترتيبِ محفُوظةُ النِّظام، والأرضُ إذا أظلمَتْ لفَقْد إمامٍ، أضاءتْ وأشرقَتْ لقِيـام إمَام . وقد علِمَ الكافَّةُ أنَّ حجةَ الله فى أرضه، والمجتَنبَ من الأعمـال مالم يُرضِـهُ، والمحسِنَ إلىٰ البريَّة ببعثِه علىٰ المصالح وحَضِّه ؛ الإمامَ الآمرِ بأحكام الله أميرَ المؤمنين الذى آتاه اللهُ الحُكْمَ صبِيًّا، ورَفَعه من إرْث النبوَّة مكانًا علِيّـا ؛ واَستَخْلفه علىٰ خلْقِه فكان للفضل باسِطًا ولرايةِ العَـدْل ناشِرا، وجعله لشَمْل المحاسن جامِعًا ولأئمة الخُلَفاء الراشِدين عاشِرا؛ لم يزلْ ناظرًا فى البعيد والقَريب ، عاملًا فى سياسـة الأُمَّة عمـلَ المجتهِد المُصيب ؛ مستقْصِياً حِرْصَـه فى المحافظة علىٰ إعزاز المِلَّة ، مستنفِدًا جُهْدَه فى الجِهَاد فيمن خالَفَ أهل القِبْـله ، باذلًا من جزيل العَطَاء وكثيره ما لا يُعرَفُ معه أحدٌ من خاصَّـته بالفقْر ولا يُنْسب معه إلىٰ القِلَّة ؛ حتَّى اَستوفىٰ مُدَّتَهُ المَوْهُوبه ، واَستوعَبَ غايتَـه المكتُوبه ؛ وناله من القَضَاء ما أخرجه من الدُّنيا سَعِيدا ، وأقدَمَه علىٰ الله شَهِيدا ، وأصارَهُ إلىٰ ماأعدّ له من نَعِيم لايُرِيد به بَدِيلا ولايطْلُب عليه مَزِيدا ؛ وكان اَنتقالُهُ إلىٰ جِوار ربِّه تباركَ وتعالىٰ ، كاَنتقال أبيه أميرِ المؤمنين علىِّ بنِ أبى طالب بَغْيًا من الكافرين واَغْتيالا .
وقد كان يَذْكُر مايعْلَمُه من حقِّ أميرِ المؤمنين (١) تارةً مُجاهِرا وتارة مُخافِتا ، إلىٰ أنْ صار علىٰ بَسْط القول فى ذٰلك وتبيينه مُثابِرا مُتهافِتا، وأفصحَ بمـا كان مستَبْهِما مستعْجِما، وصَرَّح بمـا لم يزَلْ فى كَشْـفه ممرِّضًا وعن إفْصاحه مُحْجِما، وذلك لمَّـا ألفاه أشْرفَ فَرْع من سِنْخ النبوّه، ورآه أكْرَم فى نَخَارَة الأُبُوَّه ؛ وعلمه من أباه الأميرِ (٢) أبَا القاسم

(١) المراد به الحافظ لدين الله صاحب هذه البيعة .
(٢) جرىٰ الكاتب علىٰ لغة القصر .

عَمِّه سلامُ الله عليه الذى هو سَلِيلُ الإمامة القليلُ المِثْـل، ونجلُ الخلافة المخصوصُ من الفَخْر بأجزل حظٍّ وأوْفر كِفْل، كان المستنصرُ بالله أميرُ المؤمنين سمّاه ولىَّ عهد المسـلمين، وتضمَّن ذلك ما خرجَتْ به توقيعاتُه وتسويغاتُه إلى الدواوين، وثُبِّت فى طُرُز الأبنيه، وكُتبِ الابتياعات والأشْرِيَه، وعلمته الكافَّةُ علماً يقينا ظلَّت فيه غيرَ مُرْتابةٍ ولا ممتريَه، وفى ضمن ذلك باطنٌ لايعقلهُ إلا العالِمُون، ولا يُنكِره إلا من قال فيهم : ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾ . وذلك أنَّ أميرَ المؤمنين الغرضُ والمَقْصِد، والبُغيةُ والمَطْلَب، وله عَهْد بالتلويح والإشارَه، وإليْه أوحىٰ بالنَّصِّ وإن لم يُفْصِـح فيه بالعبـاره، وكان والدُه الأميرُ أبو القاسم ـ قدَّس الله رُوحَه ـ بمنزلة الأشجار التى يُتأنَّى بهـا إلىٰ أنْ يَظْهر زَهَرُها، والأكمامِ التى يُنْتَظَر بها إلىٰ أن يخرج ثَمَرُها، والزَّرَجُونة التى نَقلتِ المـاءَ إلىٰ العُنْقود، والسَّـحابةِ التى حمَلتِ الغيثَ فعمَّ نفعُه أهلَ السُّهول والنُّجُود، وممـا يبيِّن ذلك ويُوضِّحه، ويحقِّقه ويصحِّحه، وتَثْلَج به للمؤمنين صُدُور وتَقْوىٰ أفْئِـده، وتَشْهد البصائرُ أنَّ النعمةَ به علىٰ الإسلام متتابِعةٌ متجدِّدَه، أنَّ الأمرَيْنِ إذا تشابَهَا من كلِّ الجهات، وكانت بينهما مُدَد مُتطاولاتٌ متباعدَات، فالسابق منهما يُمَهِّد للتـالِى، والأوَّلُ أبدًا رمْزٌ علىٰ الثانى، ولا خِلافَ بين كافَّة المسلمين فى أنَّ اللهَ تعـالىٰ أمر جدَّنَا محمدًا صلىّٰ الله عليه وسـلم بعَقْد ولايةِ أميرِ المؤمنين علىّ بنِ أبى طالب صلىّٰ اللهُ عليه فعَقَدها له يومَ غَديرِخُمٍ، وأميرالمؤمنين علىٌّ آبنُ عمِّـه وكان له حينئذ عمٌّ حاضر، وأمضَى ما أُمِر به والإسلامُ يومئذ غَضٌّ وعُودُه ناضِر، وكذٰلك أنَّ أميرَ المؤمنين، هو آبنُ عمِّ الإمام الآمِرِ بأحكام الله أميرِ المؤمنين، وقد نصَّ مع حضور عُمُومته عليـه، وفعل مافعَل جدُّه رسـولُ الله آقتداءً به وآنتهاءً إليه، وكان أبو علىّ المنصورُ الإمامُ الحـاكمُ بأمر الله أميرُ المؤمنين صلواتُ الله عليه، جعل آبنَه عبدَ الرَّحيم إليـاسَ ولىَّ عهد المسلمين، وميَّزه بذلك

على كافّة الناس أجمعين، ونقشَ اسمَه فى السّكّه، وأمر بالدعاء له على المنابر وبمكّه، وألبسه شَدّةَ الوقار المرصّعةَ بالجوهر، وآستنابهُ عنه إمامَ الأعيادِ فى الصلاة وفى رُقِىّ المِنْبَر، وأقامه مُقام نَفْسه فى الآستغفار لمن يُتوفَّى من خواصّ أوليائه، وفى الشّفاعة لهم بمتقبّلِ مُناجاتِه ومَسْمُوع دُعائِه، مع عِلْمِه أنه لايَنال رُتبةَ الخلافه، ولا يبلغ درجةَ الإمامه؛ وأن الإمام الظاهرَ لإعزازِ دينِ الله ـ صلى الله عليه ـ هو الذى خُلِقَ لها؛ وحينَ حُمِّل أعباءَها أقلّها وما آستثقلها؛ وإنما تحتَ ذلك معنًى لطيفٌ غامض، وسرٌّ عن جُمْهور الناس مستترٌ وبرقُه لأُولى البصائرِ وامِض: وهو أنّ مكْنُونَ الحِكْمه، ومكتومَ علمِ الأمه، يدُلّان على أنّ الإمامَ المنصورَ أبا علىّ، سيفْعل فيمن يستخلِفُه بعده مثلَ فعْلِ النبىّ؛ وقد علم الإمام الحاكم ـ عليه السلام ـ أنّ المرادَ بذلك مَنْ يأتى بعده ممن أولده أو أنسله، لأنّ ولدَه حاضرٌ والمقصودُ مَنْ لاوَلَدَ له؛ فجعل وِلايةَ عبد الرحيم العهدَ تأسيسا لما سيكون، وتأْنيسا للنفوس من الآنزعاج إلى أن تشملَها الطُّمأنينة والسُّكون؛ فلمّا أفضى اللهُ إلى الإمام المنصور أبى علىّ الإمامِ الآمرِ بأحكامِ الله أمير المؤمنين بالخلافة التى جعلها واجبًا له حقّا، ووافقَ جدّه ـ عليه السلام ـ وكان لقبُه من لقبِه مشتقّا، ظهر المكتّم، ووضَح المستتِر، وعاد التعريضُ تصْريحا، والتمريضُ تصْحيحا، والرمزُ إبانه، والنصُّ على أمير المؤمنين أمانه؛ فاقتدى بجدّه رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم فى آستخلاف أمير المؤمنين مع حُضُور عُمُومته، وفعَل فى ذلك فعْلَه وجرى على قضيّته؛ وكشف عمّا أبهمَهُ الإمامُ الحاكمُ بأمر الله قدّس الله لطيفَتَه فتساوى الخاصُّ والعامُّ فى معْرفته؛ ثم حلّه أميرُ المؤمنين محلَّ نفْسه فى الجُلُوس على الأسْمطه، وعمِل لأوليائه ورعيّته فى ذلك بالقَضايا المُحيطه؛ ونَصَبه منْصِبَه فى الصلاة على مَنْ جرتْ عادتُه بالصلاة على مِثْله؛ وجمع فى آعتماد ذلك بيْنَ إحسانه وفَضْله وبينَ امتنانه وعَدْله؛ وإذ قد تبيّن هذا

الأمرُ الواضحُ الجَلِيّ ، وتساوىٰ فى علمه الشانئُ والوَلِيّ ؛ وعلم هو ماخَصَّ الله به أميرَ المؤمنين من الإمامه ، وأزاله عن العُقُول من ضَبابٍ متكاثِف وغَمامه ؛ وشَمِله به من فَضْله ورافته ، ونصَّبه فيه من مَنْصب خلافته ، التى أيدّها بوليّه ووزيره ، وعضَّدها بصفِيّه وظهيره ، السيد الأجل أبى الفتح يانس الحافظىّ الذى جعله الله علىٰ آعتنائه بدَوْلة أمير المؤمنين من أوْضَح الشواهد والدلائل ، وصَرَف به عن مملكته محذُورَ الصُّروف والغَوائل ؛ وأقام منه لمُناصحة الخلافة مُخْلصا جمعَ فيه أسبابَ المَناقب والفَضائل ، وأيده بالتوفيق فى قوله وفِعْله فأربىٰ علىٰ الأَواخر والأَوائل ؛ ودلَّت سيرتُه الفاضلةُ علىٰ أنه قد عَمَر مابينَ الله وبيْنَه ، وحكمتْ سُنَّته العادلةُ أن كلَّ مدْح لا يبلغُ شاْءَه وكلَّ وصف لايقعَ إلَّا دُونه ؛ والله يضاعف نِعَمه عنده ولدَيْه ، ويفتحُ لأمير المؤمنين مشارقَ الأرض ومَغاربَها علىٰ يدَيْه ؛ وهذا يحقق أنَّ الإسلام قد أحدثَ له قُوَّةً وتمكينا ، وأن ذَوى الإيمان قد آزدادُوا إيمانا واستبْصارا ويقينا ؛ فيجبُ [(١)] عليكم لأمير المؤمنين أن تدخُلوا فى بَيْعته مُنشرحةً صُدُورُكم ، طيِّبة نفوسُكم ، مجتهدين له فى خدْمة تُقابِلون بها إحسانَه ، متقرِّبين إليه بمناصَحة تُحْظيكم عندَ الله سبحانَه ؛ عاملين بشرائط البَيْعة المأخُوذة علىٰ أمثالكم الذين يُتَّبَعون فى فعلهم ، ويقعُ الإجماع بمِثْلهم ؛ ولكم علىٰ أمير المؤمنين أن يكون بكم رَحِيما ، وعن الصغائر مُتجاوِزا كريما ، وبالكافَّة رءُونا رفيقا ؛ وعلىٰ الرَّعايا عَطُوفا شفيقا ، وأن يصفح عن المسىء مالم يأتِ كبيره ، ويُبالغَ فى الإحسان إلىٰ مَنْ أحسن السِّيره ، ويُولِىَ من الإفضال مايستخلِصُ الضمائر ، ويُسبِغَ من الإنعام مايقتضى نَقاءَ السرائر ؛ وأمير المؤمنين يسألُ اللهَ أن يعرِّفكم بركةَ إمامته ، ويُمْنَ خلافته ، وأن يجعلها ضامنةً بلُوغَ المطالب ، كافلةً لكافَّتكم بسعادة المَبادِئ والعَواقب ؛ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

(١) هذا متعلق إذ قد تبين كما لايخفىٰ .

المـــذهب الثالث

(أن تُفتتح البيعةُ بعدَ البسملة بخُطبة مفتتَحة بالحمدُ لله،
ثم يؤتىٰ بالبعديّة ويُتخلّص إلىٰ المقصود ، وقد يُذْكَر السلطان القائمُ بها
وقد لايُذْكَر . وعلىٰ ذلك كانتْ تكتَبُ بيعاتُ خُلفاء بنى أُميّة
بالأندلُس ، ومن ٱدّعىٰ الخلافة ببلاد المَغْرِب)

وهذه نسخةُ بيْعةٍ كتب بها طاهرٌ الأنْدَلُسىّ ، فى أخذ البيعة علىٰ أهل دانِيَـة من الأنْدَلُس ، للرشيد بن المأْمُون الأُمَوىّ ، وهو منتصِبٌ فى الخلافة : لخُلْف توهّمه من الرعية . ٱقتصر فيها علىٰ تحميدةٍ واحدةٍ ، وليس فيها تعرُّض لسلطانٍ قائم بعقْدها ، وهى :

الحمدُ لله الذى أسبغَ إنعامَه باطنًا وظاهِرا ، وسوّغَ إفضاله هامِلًا وهامِرا ، وأعجز عن وصْف إحسانه ناظِمًا وناثِرا ، وقَهر الخلقَ ناهيًا وآمِرا ، وتعالىٰ جَدُّه فلا ترىٰ له مُضاهِيًا ولا مُظاهِرا ، ولا مُوازيا ولا مُوازِرا ، ونصر الحقَّ وكفىٰ به وليًّا وكفىٰ به ناصِرا ، وجعل جَدّ المطيع صاعِدًا وجَدّ العَصِىّ عاثِرا ، وحَذّر من الخلاف بادِيًا وحاضِرا ، وماضِيًا وغابِرا .

نحمدُه سبحانَه علىٰ نِعَمه حمدَ من أصبح لِعُلَق الحمد ذاخِرا ، ونشكُره علىٰ مِنَنه ولن يُعْـدِم المزيدَ منه شاكِرا ، ونَضْرَع إليه أن يجعل حظَّنا من بركة الٱعتصام وافِرا ، ووجْهَ نِيّتنا فى الٱنتظامِ سافِرا ، وأن يمنحَ أولياءَه النصرَ ظاهِرًا والفتحَ باهِرا ، وأعداءه الرُّعْب شاجِيًا والرُّمْح شاجِرا ، ونشْهَدُ أنْ لا إلٰهَ إلّا اللهُ شهادةَ من أقرّ له بالوَحْدانيـة صاغِرا ، وأضحىٰ لأوامِره ممتثِلًا ولنواهيه مُحاذِرا ، ونسأله أن يجعلَ حزْبَ الإيمان

ظافرا، ويُمِدَّه بنَصْره طالبًا للثار ثائرا؛ وصلّى الله على سيدنا محمد رسوله الذى انتخبه من صَفْوة الصَّفْوة كابرًا فكابِرا، وجعله بالفضيلة أوّلًا وبالرِّسالة آخِرا؛ فأيقظ بالدِّعاية ساهيًا وناسيًا وسكّن بعد الإبانة مُنافيا ومنافِرا، وأذهب بنُوره ليلًا من الجهالة ساتِرا؛ وقام بجهاد الكَفَرة لَيْثا خادِرا، وباشر بنَفْسه المكارِهَ دارِعا وحاسِرا؛ وشَهِد بَدْرا مبادِرا، وحُنَيْنًا مُنْذِرًا بالخبر ناذرا؛ وظَهَر عليهم فى كلّ المَشَاهد غالبا وما ظَهَرُوا نادرا؛ وعلى آله وأصحابه الذين منهم صاحبُه وخليفتُه، المعلومةُ رأفته، أبو بكر الذى اقتحم لِهَوْل الرِّدّة مصابِرا، وسلّ فى قتال الرُّوم أهلِ الجَلَد والشِّدّة سيْفا باترا؛ ومنهم القَوِىُّ فى ذات الله عُمرُ الذى أصبح به رَبْعُ الإسلام عامِرا، ولم يَخْشَ فى الله عاذلًا ولم يَرْجُ غادِرا[1]؛ ومنهم الأصدَقُ حياءً عثمانُ مُلاقِى البلوى صابِرا، والخَفِرُ الذى لم يُرَ للأَذِمَّة خافرا؛ ومنهم أقضاهم علىٌّ الذى قاتل باغيًا وكافِرا، وبات لخوف الله ساهِرا؛ ورضى اللهُ عن الإمام المهدىّ الذى أطلعه نُورا باهِرا، وبحرًا للعلم زاخرا، وأتى به والضَّلالُ يجرّ رَسَنَه سادِرا، والباطلُ يُثْبِتُ ويَنْفِى وارِدا وصادرا؛ فجدّد رسمَ الحقّ وكان داثِرا، وقام بآرائه عَلَما هاديا وقَرْما هادِرا؛ وعن الخلفاء الراشدين المرْشِدين مَنْ أصبح حائدًا عن الحقّ جائِرا، المجاهدين خاتِلًا بالعهْد خاتِرا.

أما بعدُ، فإنّ اللهَ سبحانَه جعل الإمامةَ للناس عِصْمه، ومَنْجاةً من رَيْب الالْتِباس ونِعمه، بها تُمَهَّدُ عِمارةُ الأرض، وبها يتجدّدُ صلاحُ الكلِّ والبعْض؛ ولولاها ظَهر الخَلَل، واختلط المَرْعِىُّ والهَمَل؛ وارتُكِبت المآثم، واستُبِيحت المحارِم؛ واستُحِلّت المَظَالم، وانتَقَم من المظْلُوم الظالم؛ وفسَدَ الائتلاف وافترق النِّظام، وتَساوَى الحلالُ والحَرَام؛ فاختار لأمْرِهم رُعاةَ أَمْرهم بالعدل فعَدَلُوا، وبالتواصُل

---

(١) أى لم يخف وفى بعض النسخ «ولا يرج غادرا» وهو غير مناسب .

فى ذات الله والتَّقـاطُع فقَطَعوا فى ذاتِ اللهِ ووصَلوا ، وعدَلوا بين أهْلِيهم وأقرَبِيهم فيما وُلُّوا ، ونَهَضُوا بأعباء الكِفاية والحماية وٱستقلُّوا ، وألزمهم الاتِّفاق والانقياد ، وحظَر عليهم الانشِقاق والعِناد ، فملَكوا بأزمَّة العقل قِيادَ الأُمور ، وأشرقَتْ بسيرتهم المباركةِ أقاصِى المعْمُور ، وشاهد الناسُ فواضِلَ إمامهم ، وتبيَّنوا من سيرتِهم العادلة عُلُوَّ محلِّهم فى الخلائِف ومقَامِهم ، ولم يُطْرَقْ فى مُدّتهم للإسلامِ جَناب ، ولا ٱقتُحِم له باب ، وأنَّى وسُيُوفُهم تقْطُر من دِماء الأعداء ، وبلادُهُم ساكنةُ الدَّهْماء ، والكَفَرةُ بالرُّعْب الُمخامِر والداءِ العَياء ، وأهلُ الإيمان ، يَجُرُّون ذُيولَ العزائم ، وعَبدةُ الصُّلْبان ، يعْثُرون فى ذَيْل الهَوَان الدائِم ، إلى أنْ عَدِمتِ الأرضُ منهم بِحارَها الزَّواخِر ، وأنوارَها البَوَاهِر ، ورأتْ بعـدَهم العُيونَ الفواقِئَ والمُتُونَ الفواقِر ، وٱكفهرَّ وجهُ اللَّأْواء ، وتفرّقت الفِرَقُ بحَسَب الأَهْواء ، وسُفِكت الدِّماء ، ورُكِبتِ المَضَلَّةُ العَمْياء ، وٱحتُقِبتِ الجَوائِر ، وأُهْمِل الشرْعُ والشَّعائِر ، ثم إنَّ الله تعـالىٰ أَذِنَ فى كشْف الكُرَب ، وأطلَع بالغَرْب نُورا مَلَأَ الدَّلْوَ إلىٰ عَقْـد الكَرَب ، وهو النُّور الذى أضاء للبَصائر والأَبْصار ، وطلع علىٰ الآفاق طُلُوعَ النَّهار ، وذُخرتْ أيَّامُه السـعيدةُ لدرْك الثار ، وكَلِفتْ به الخلافةُ وطال بهـا كَلَفُهُ ، وقام بالإمامة مثـلَ ما قام بها الخلفاء الراشدون سَلَفُه ، وذلك هو الخليفـةُ الإمامُ أميرُ المؤمنين الرشيدُ بالله ٱبنُ الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم أجمعيـن ، وخَلَّد فى عَقِبهم الإمامةَ إلىٰ يومِ الدِّين ، وهو الأَسَدُ الهَصُور ، ومَنْ أبُوه المأمونُ وجدُّه المنْصُور ، العريقُ فى الخِلافه ، والحقيقُ بالإمامـة والإنافه ، بجَمَع ما ٱفترَق ، ونَظَّم الأمورَ ونَسَّـق ، ومنَع الحَوْزةَ أن تُطْرق والملَّةَ أن تَفترِق أو تُفرَّق .

وهذه نسخة بيعة كتب بها أبو المطرِّف بن عُميرة الأندلسي بأخذ البيعة على أهل شاطبة من الأندلس لأبي جعفر المستنصر بالله العباسي، قام بعقدها أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود صاحب الأندلس، ثم أخذ البيعة بعد ذلك عليهم لنفسه، وأن يكون ابنه وليّ عهده بعده، وهي :

الحمدُ لله الذي جعل الأرض قرارا، وأرسل السماء مِدْرارا، وسخّر ليلا ونهارا، وقدّر آجالا وأعمارا، وخلق الخلق أطوارا، وجعل لهم إرادة واختيارا، وأوجد لهم تفكّرا واعتبارا، وتعاهدهم برحمته صغارا وكبارا .

نحمده حمد من يرجو له وقارا، ونبرأ ممن عانده استكبارا، وألحد في آياته سفاهة واغترارا، وصلّى الله على سيدنا محمد الشريف نِجارا، السامي نَخارا[1]؛ فرفع الله من شريعته للأمّة منارا، وأطفأ برسالته للشرك نارا، حتى علا الإسلامُ مقدارا، وعزّ جارًا ودارا، وأذعن الكفرُ اضطرارا، واستسلم ذلّة وصغارا، فمضى وقد ملأ البسيطة أنوارا، وعمّها بدعوته أنجادا وأغوارا، وأوجب لولاة العهد بعده طاعة وائتمارا، فجزاه الله أفضل ما جزى نبيًّا مختارا، ورسولا اجتباه اختصاصا وإيثارا؛ صلّى الله عليه وعلى آله الطيبين آثارا واختبارا، وعلى أصحابه الكرام مهاجرين وأنصارا، صلاة نواليها إعلانا وإسرارا، ونرجو بها مغفرة ربّنا إنّه كان غفّارا .

أما بعد، فإنّ المستأثر بالدوام، اللطيف بالأنام، أنشأهم على التغاير والتباين، واضطرهم الى التجاور والتعاون، وجعل لهم مصلحة الاشتراك، ومنفعة الالتحام

(١) لعله "الذي رفع الله به من" الخ . تأمل .

والاشتباك ؛ طريقًا إلى الأفضل فى حياتهم ، والأسعد لغاياتهم ؛ وبعث النبيين مُرغّبين ومحذّرين ، ومبشّرين ومُنذرين ، فأدّوا عنه ما حمّل ، وبيّنوا ما حرّم وحلّل ؛ وكان أعمّهم دعوه ، وأوثقهم عُروه ؛ وأعلاهم فى المنزلة عنده ذروه ، وأعطفهم للقلوب وهى كالحجارة أو أشدّ قسوه ؛ المخصوصُ بالمقام المحمود ، والحوض المورود ، وشفاعة اليوم المشهود ، ولواء الحمد المعقود ؛ صلّى الله عليه وعلى آله وسلم أفضل صلاة تُفضى إلى الظلّ الممدود ، وتبلغنا من شفاعته أفضل موعود ؛ بعثه الله للأحمر والأسود ، والأدنى والأبعد ؛ فصدع بأمره وظلامُ الليل غيرُ منجاب ، والداعى إلى الله غيرُ مُجاب ؛ وأهل الجاهلية كثيرٌ عددهم ، شديدٌ جلدهم ، بعيدٌ فى الضلالة والغواية أمدهم ؛ فسلك من هدايتهم سبيلا ، وصبر لهم صبرًا جميلا ، يُحبّ صلاحهم وهم العدو ، ويلين لهم إذا جدّ بهم العتوّ ، ويجهد فى إظهار دينه ولدين الله الظهورُ والعلوّ ؛ حتى انقادوا بين سابقٍ سبقت له السعاده ، ولاحق تداركته المشيئة والإراده ؛ ولما رُفعت راية الإسلام ، وشفعت حُجّةَ الكتاب حُجّةُ الإسلام ، ودُعى الناس إلى التزام الأحكام ، ونُهوا عن الاستقسام بالأزلام (١) ، أخبتوا إلى الربّ المعبود ، وأشفقوا من تعدّى الحدود ، ووُعظوا فى الأيمان والعهود ؛ فأتمروا للشرع حين أمر ، وخافوا وخامة من إذا عاهد غدر ؛ فكان الرجلُ يدعُ الحوض فيما لا يعلمه ، ويترك حقّه لأجل يمين تلزمه ، وشُرعت الأيمانُ فى كلّ فنّ بحسب المحلوف عليه ، وعلى قدر الحاجة إليه ؛ فواحدةٌ فى المال لحقّ الأداء ، وأربعٌ مخمّسةٌ عند مُلاعنة النساء ، وخمسونَ انتهىَ إليها فى أحكام الدماء ، فتُوثّق للحدود على مقاديرها ، وجرت أمور العبادات والمعاملات على أفضل تقديرها ؛ وقُبض رسول الله صلّى الله عليه وسلم والعدلُ قائم ، والشرعُ على القوى والضعيف حاكم ، والربُّ

---

(١) لعل المراد بالأول الدين وبالثانى الانقياد إن لم يكن مصحفا عن الاستسلام .

جلَّ جلالُه بما تُخفى الصدورُ عالم ؛ وقام بعده الخلفاءُ الأربعة أركانُ الدِّين ، وأعضادُ الحقِّ المبين ؛ يحملُون الناسَ علىٰ سَنَنِه الواضح ، وينفِّذُون أمورَ المَصالح ، ويتفقَّهُون فى الأحكام وُقوفًا مع الظاهر وترجيحًا للراجح ؛ وكانوا يتوقَّفُون فى بعض الأحيان ، ويطلُبُون للشُّبه وجهَ البيَان ، ويستظهِرون علىٰ تحقيق كثيرٍ من الوقائع بالأيمان ؛ حتّىٰ كان علىٌّ كرم الله وجهه يستثبِتُ فى الدِّرايه ، ويستحلِفُ الراوِىَ علىٰ الرِّوايه ؛ وما أنكر ذٰلك أحدٌ ، ولا أعوزَه من الشرع مستنَد ؛ رضى الله عنهم أئمةٌ بالعَدْل قَضَوْا ، وعلىٰ سبيله مَضَوْا ، والسِّيرةَ الجليلةَ تخيَّرُوا وٱرتضَوْا ؛ وعن سيد الأنام ، ومستنزِل دَرِّ الغَمَام ، عمّ نبيِّنا عليه أفضلُ الصلاة والسلام ، الحامِى الحَدَب ، والمَعقِل الأَشِب ، والغيثِ الهامِلِ المُنْسكِب ، أبى الفضْل العبّاس بن عبد المطَّلب ؛ وعن الفائزين بالرُّتبة الكريمه ، والصُّحْبة القديمه ، والمَناقب العظيمه ؛ بُدُورِ الظَّلام وبُحُورِ الحِكَم ، وصُدُورِ أنْدِيَة الفضلِ والكَرَم ؛ وسائرِ صحابِه عليهم السلامُ الذين أسلموا علىٰ عُمْرِه[1] ، وأسلفُوا جِدًّا فى نَصْره ، وأدركُوا من بركة عِيانه وزمانِه ما لا مُدْرَكَ لحصره ؛ كرَّم الله مآبَهم ، وأجزَل ثوابَهُم ، وشكر لهم صَبْرَهم وٱحتسابَهم ؛ فلقد عَقَدُوا نيَّةَ الصِّدق عند قيامِهم لأداء فريضةِ الإطاقه ، وٱستباحُوا صلاةَ الشكر حينَ رفعُوا حدَثَ الرِّدّة وأراقُوا سُؤْر الشِّرك وقد ٱستحقَّ بنجاسته الإراقه ، وٱبتزُّوا كِسْرىٰ زينَتَه فأبرزُوها علىٰ سُراقه ؛ فرأَوْا عِيانًا ما أخبر به سيدُ المرسلين ، وملَكُوا ما زُوِىَ له منها فاطَّلع عليه بحقِّه المبين ؛ وذهبُوا فأظلمَت الأرض من بعدِهم ، وتنكَّرَت المَعارِفُ لفَقْدِهم ، وٱختلط الهَمَل والمَرْعِىّ ، وتشابَه الصَّرِيحُ والدَّعِىّ ؛ وثارتِ الفِتَنُ من كل جانِب ، وصارت الحقوقُ نُهْبةَ [كل] ناهِب ؛ ولمَّا بَرِحَتِ[2] العُهود ، وتُعدِّيت

(١) مراده على عهد النبى وفى زمنه .

(٢) لعله ولما تركت العهود . تأمل .

الحُدُود، بلغ الوقتُ المحدود، وطلعتْ ببياضِ العَدْل الراياتُ السُّود، تحتها ساداتُ النـاس، وذادةُ مَوْقِف الباس، وشُهُبُ اليومِ العمَاس، ونُجُبُ البيت الكريم من بنى العبَّاس، فأعادُوا إلىٰ الأمر رونقَـه، ونفَوا عن الصَّفْو رَنَقه، وحَمَوا حُرَمَ المسلمين، وأحْيَوْا سُـنَّةَ ابن عمِّهم سـيِّد المرسلين، فأصبحَتِ الأمورُ مضبُوطه، والثُّغُور محُوطه، والسُّبل آمِنه، والرعيَّةُ فى ظلِّ العَدْل والأمْن ساكِنه، وكان الناسُ قبْلَهم قد ركِبُوا الصَّعْبَ والذَّلول، وامتطُوا الحَزْنَ والسُّهول، فوثِقُوا منهم بطاعتِهم، واستحلَفُوهم علىٰ بيْعاتِهـم، ذلك بأنهم ألزمُوهم منهـا واجباً علىٰ القَطْع، لازماً بإلزام الشَّرْع، ووجدُوا لمصْلحة الارتباط بالأَيْمـان شواهِدَ من الآثار المنقُوله، والأُصُول المقْبُوله، ومَنْ أعطىٰ من نَفْسه كلَّ ما عليها، وراعىٰ جمـلةَ المصالح وكلَّ ما تطرَّق إليها، فكيف لا يكونُ فى سَعةٍ من هـذا التكليف المستَنِد إلىٰ الآثار الشرعيَّه، الداخلِ فى أقسام المَصالح المرْعيَّه، كما سلَفَ من الأئمة المُهتَدِين، آباءِ أمير المؤمنين وخليفةِ ربِّ العالمين، ابن عمِّ سيِّدنا وسيِّد المرسَلين، صلواتُ الله عليهم أجمعين .

لمَّـا دعا الناسَ بالمملكة الفُلانيةِ حَماها اللهُ إلىٰ حُجَّتهم القَوِيَّه، وإمْرتهم الهاشميَّه، مجاهدُ الدين، بسيْف أمير المؤمنين، جمـالُ الإسـلام، مجْدُ الأنام، تاجُ خَوَاصِّ الإمَام، فخْرُ مُلُوكه، شرفُ أُمرائه، المتوكِّلُ علىٰ الله تعالىٰ أميرُ المسلمين أبو عبدِ الله محمدُ بنُ يوسُفَ بن هود، أسـعدَ اللهُ أيَّامه، ونصَرَ أعْلامَه، وقام لذلك متوحِّدا المَقَام الكريم، مشمِّرا عن ساعِدِ التَّصْمِيم، ماضـيًا علىٰ الحَوْل مَضَاءَ الحُسَام القاضِب، غاضبًا لأمر الله ورضاه علىٰ غاية هـذا الغاضب، مالتْ إليه الأجياد، وانثالت عليه البِلَاد، فانتظَمَها مَدِينةً مَدِينه، وجعل التوكُّل علىٰ الله سبحانه شريعةً مَنِيعة وذريعةً مُعِينه، وتقـدَّمَ ـ أيده الله ـ بأخْذ البيعة علىٰ نَفْسه وعلىٰ أهـل المِلَّة قاطبـةً للقائم بأمْرِ الله سـيِّدنا ومولانا الخليفـة الإمامِ المستنصِر بالله أبى جعْفر

أمير المؤمنين، صلوات الله عليه وعلىٰ آله الخُلَفاء الراشدين ؛ وكان له فى ذلك المَرامُ السَّعيد، والمَقامُ الحميد، والقَدَمُ(١) الذى رضِىَ إبْداءَه و إعادَتَه المُبْدِئُ المُعيد، وخاطب الدِّيوانَ العزيزَ النبوىَّ ـ خلَّد الله شرَفه ـ متضرِّعا لوسائل خِدْمته، متعرِّضا لعوَاطِف رحْمتِه ؛ وبعث رسُولَه علىٰ أصْدق رجاءٍ فى القَبُول ، وأثبتِ أملٍ فى الإسْعاف بالمأْمُول ؛ وأثناءَ هذه الإرادةِ القَويمه، والسَّعادةِ الكريمه ؛ تفاوضَ أهلُ البِلاد فى توثِيقِ عَقْدهم للسلطان فلان المشارِ إليه الذى هو حُكْم من أحكام الإجْماع المنعَقِد ، وأصلٌ أفضىٰ إليه نظَرُ الناظِرِ واجتهادُ المجتَهِد ؛ إذ أجالُوا الأمْرَ فيما يَزيدهُ وَثاقَةً، ويكْسُو وجْهَه علىٰ الأيَّام بِشْرا وطَلاقَه ؛ ويجعل القلوبَ مطمئنَّةً برُسُوخه فى الأعْقاب، وثُبُوته علىٰ الأحْقاب؛ فلم يَرَوْا رأْيا أسَدّ، ولا عملًا أحْصَفَ وأشَدّ، من أن يطْلُبوه بعقْد البيعة لِابْنِه الواثِق بالله المعتصِمِ به أبى بكْرٍ محمد بنِ مجاهد الدين، سيف أمير المؤمنين ، علىٰ أن يكونَ ولِىَّ عهدِهم مُدّةَ والده مَدّ الله فى حَياته، وأميرَهُم عند الأجَل الذى لابُدَّ من مُوافاته ؛ فأمضىٰ لهم ذلك من اتِّفاقهم ، وأثبتُوا علىٰ ماشرَطَتْه بيعتُه فى أعناقهم ؛ وبعد ذلك أتىٰ صولةُ الإسلام ، وصِلةُ دار السلام؛ وورد رسول مَثابَةِ الجلاله ، ونِيابَةِ الرِّساله ؛ ومُلْتزَم المَلائك ، ومعْتَصَم المَمالك ؛ ومعه الكتابُ الذى هو نصٌّ أغنىٰ عن القِياس ، بل هو نورٌ يَمْشى به فى الناس ؛ وأدّىٰ إلىٰ السلطان فلان المشارِ إليه من تشريف الدِّيوان العزيز النبوىِّ ماوَسَمه من الفَخار بأجَلِّ وَسْمه، وقلَّده السيفَ الصارمَ وسَمّاه بإسْمه ؛ فَتلاقىٰ السَّيْفان المضْرُوبُ والضارِب ، وآشْتَبه الوَصْفانِ الماضِى والقاضِبُ ؛ و برزَتْ تلك الخِلَعُ فابْيضَّ وجْهُ الإسلام من سَوادها، ووُضِع الكتابُ فكادتِ المَنابِرُ تَسْعىٰ إليه شوْقًا من أعْوادها ؛ وقُرِئَت وصَايَا الإمام ، علىٰ الأنَام ؛ فعلمُوا أنها من تُراثِ الرِّساله ،

(١) ذكر القدم لأنه بمعنى السبق تأمل .

وقالوا : كافِلُ الإســلام جدّدَ له بهــذا الصُّقع الغربيِّ حُكْمَ الكَفَاله ، وسَمِعُوا من التقـدُّم بإنصافهم ، والتهمُّم بمَوَاسِـطهم وأطْرافهم ؛ جُمَلاً عَفَّروا لهـا الجباهَ جُودًا بالجهد ، وسجَدُوا للشُّكرِ والحمـد ، فأدركُوا من بركة المَشَاهِد أثبتَ شَرفٍ وأبْقـاه ، ورأَوْا حقيقةَ ما كادتِ الأوْهامُ تزُولُ عن مَرْقاه ، وآزدادوا يقيناً بفضـل ماصارُوا إليـه ، ورأَوْا عِيانًا يُمْنَ مابايَعُوا عليـه ، فتوافَتْ طوائفُهم المتبُوعه ، وجماهيرُهُم المجمُوعه ، بِدَارًا إلىٰ المَرَاضى الشَّريفه ، وبناءً علىٰ وَصَايَا عَهْدِ الخليفه ، أن يُجدِّدوا البَيْعَةَ لمجاهِدِ الدِّين ، سيفِ أميرِ المؤمنـين ، تولَّى الله عَضُـدَه ، ولأبنِه الواثِق بالله المعتصِمِ به أنهضه الله بإمْرتِهِ بعْدَه ، ولم تَعْدُ أن تكونَ الزِّيادةُ الطارئةُ شَرْطا فى تقرير الإمْرة المؤدَّاة وإثباتها ، أو جاريةً مَجْرى السُّنَن التى يُؤْمَرُ المصلِّى بالإعادة عند فَوَاتِها ، فأعادوا بَيْعته أداءً للفَريضـة ورجاءً للفَضِـيله ، وآستندُوا إلىٰ الإشارات الجليـله ، بعْدَ الآستِخارات الطويله ، ورأَوْا أنْ يأخُذوا بها عادةَ البَيْعات العبَّاسـيَّه ، واتخاذُ حُكْمِ الأصل طَرِيقُ الإلحاقات القِياسـيَّه ، فبايَعُوا علىٰ تذكُّرِ بيعـةٍ أكَّدوها بالعُهُود المستحْفَظه ، ووثَّقوها بالأيمانِ المغلَّظَهْ ، وبادَرُوا بها نِداءَ مُنادِيهم ، وأعطَوْا علىٰ الإصْفاقِ بها صَفْقةَ أيْديهم .

ولمَّا آنتهىٰ ذٰلك إلىٰ المَلَإ من أهل فلانة وجِهاتِها ، رأَوْا أن يَحْلُفَ من سَـبَق ، ويَصْدُقُوا النِّيَّةَ مع مَنْ صـدَق ، ويعْقِدُوا ما عقَدُوه علىٰ ماصرَّح به العهْدُ الشريف ونَطَق ، فحضر منهـم العلمـاءُ والصُّلحاء ، والأجنادُ والوُزَراءُ والفُقهاء ، والكافَّةُ علىٰ تَبايُنِهم فى المَرَاتب ، وتَفاوُتِهـم فى المَنَاصب ، وآختلافِهم فى المَوَاطن والمكَاسب ، فأمْضَوْها بيعةً كريمةَ المَقاصِـد ، سليمةَ المَعَاقد ، عَهْدُها مُحكَم ، وعَقْدُها مُـبْرَم ، ومُوجَبُها طاعةٌ وسَمْع ، والتقيُّد بها سُـنَّة وشَرْع ، ويَعْمُرون بها أسْرارَهُم ، ويُفْنُون عليها أعمارَهُم ، ويَدِينُون بها فى عُسْرٍ ويُسْر ، وربْحٍ وخُسْر ، وضيق ورَفاهيَة ، ومحبَّة

وكَرَاهِيَه، تبرَّعُوا بذٰلك كلِّه طَوْعا، وآستوفَوْه فصْلًا فَصْلًا ونَوْعا نَوْعا، وعاهدُوا عليها الذى يعلم السِّرَّ وأخفىٰ، وأضْمَرُوا منها علىٰ ما أبرَّ على الظاهر وأوْفىٰ، وتقبَّلُوا من الوَفَاء به ماوصف الله به خليلَه إذ قال: ﴿وإبْراهِيمَ الَّذِى وَفَّىٰ﴾، وأقسموا بالله الذى لا إلٰه إلا هو عالمُ الغيب والشهادة العزيزُ الرحيم، وبما أخَذَه علىٰ أنبيائه الكِرام من العُهُود المؤكَّده، والمَوَاثيقِ المُشَدَّده، علىٰ أنهم إن حادُوا عن هذه السبيل، وآنقادُوا لداعِى التَّحْريف والتَّبْديل، فهُم بُرَآءُ من حول الله وقوته إلىٰ حَوْلهم وقُوَّتهم، تاركون ذِمَّته الوافيةَ لذمَّتهم، والأيْمانُ كلها لازمةٌ لهم علىٰ مذهب إمامِ دار الهجرة، وطلاقُ كل آمرأةٍ فى مِلْكِ كل واحدٍ منهم لازمٌ لهم ثلاثا، وأيُّما آمرأةٍ تزوَّجها فى البلاد الفلانية فطلاقُها لازمٌ له، كلَّما تزوَّجَ واحدٌ منهن واحدةً خرجتْ طالقا ثلاثا، وعلىٰ كلِّ واحدٍ منهم المشىُ إلىٰ بيتِ الله الحرام علىٰ قدمَيْه، مُحْرِمًا من منْزِله بحَجَّةٍ كفَّارةٌ لاتُجْزِئُ عن حَجَّة الإسلام، وعبيدهُم وأرِقَّاؤُهم عُتَقاءُ لاحقُونَ بأحرار المسلمين، وجميعُ أموالهم عَيْنا وعَرْضا، حَيوانًا وأرْضا، وسائرُ مايَحْوِيه المُتملِّكُ كُلًّا وبعضا، صدقةٌ لبيتِ مال المسلمين، حاشىٰ عَشَرَة دنانير. كُلُّ ذٰلك علىٰ أشدّ مذاهب الفتْوىٰ، وألزمها لكلمةِ التَّقْوىٰ، وأبْعدِها من مخالَفَةِ الهوىٰ والظاهر والفَحْوىٰ، أرادُوا بذٰلك رضا الخلافة الفلانية والفلانية (بلقبى السلطنة) للسلطان وولده المأخُوذِ لهما البيعةُ بعد بَيْعته، وأشهدُوا اللهَ علىٰ أنفسهم، وكفىٰ بذلك آعتِزاما وآلتِزاما، وشَدًا لما أمَر به وإحْكاما: و﴿مَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ علىٰ نَفْسِه﴾ ﴿ومَنْ يفْعَلْ ذٰلِكَ يَلْقَ أَثَاما﴾. وهم يرفعُون دعاءَهم إلىٰ الله تضرُّعا وآستِسْلاما، ويسألُونه عِصمةً وكفايةً آفْتِتاحا وآخْتِتاما؛ اللهم إنَّا قد أنفَذْنا هذا العقْد آقتِداءً وآهْتِماما، وقضَيْنا حقَّه إكمالًا وإتمامًا، وأسلَمْنا وجُهنا إليك إسْلَاما؛ فعَرِّفْنا من خيره وبركته نَماءً ودوامًا، وآكْلَأْنا بعينك حركةً وسُكُونا ويَقْظَةً ومنَاما:

و﴿ هَبْ لَنَـا مِنْ أَزْواجِنا وذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ واْجْعَلْنا لِلْمتَّقِين إماما ﴾ إنك أنتَ اللهُ منتهىٰ الرَّغَبات، ومجيبُ الدَّعوات، وإلٰهُ الأرض والسَّمٰوات .

✤

وهـذه نسخةُ بيعة مرتَّبة علىٰ موتِ خليفة، أنشأتُها علىٰ هـذه الطريقة لموافقتِها رَأْى كُتَّاب الزمان فى ٱفتتاح عُهُود الملوك عن الخلفاء بالحمـدُ لله كما سيأتى بيانه فى موضـعه إن شاء الله تعالىٰ ؛ وتعرّضت فيها إلىٰ قيامِ سـلطانٍ بعقْدِها : لمطابقة ذٰلك لحال الزَّمان، وهى :

الحمدُ للهِ الذى جعَـلَ الأُمَّةَ المحمدية أبذَخَ الأُمَمِ شَرَفا ، وأكْرَمَها نِجارًا وأفضَلَها سَلَفا، وجعل رُتْبَةَ الخلافة أعلىٰ الرُّتَب رتبةً وأعزَّها كَنَفا ، وخصَّ الشجرةَ الطيِّبة من قريش بأنْ جعـل منهم الأئمـةَ الخُلَفا، وآثر الأُسْرَةَ العبَّاسيَّة منها بذٰلك، دعوةً سبقَتْ من ٱبن عمِّهم المُصْطفىٰ ، وحفِظ بهم نِظامَها علىٰ الدَّوام بجعـل ممن سلَفَ منهم خَلَفا .

نحمَدُه علىٰ أنْ هيَّأَ من مقدِّمات الرَّشَد ماطاب الزَّمانُ به وصَفَا، وجدّدَ من رُسُوم الإمامة بخـير إمامٍ مادرَس منها وعفَا، وأقام للسلمين إمامًا تأرَّجَ الجوُّ بنَشْره فأصبح الوُجُودُ بعَرْفه معترِفا .

ونشهدُ أنْ لاإلٰهَ الَّا الله وحده لاشريكَ له شهادةَ مخلِص تمسَّـكَ بعهدِها فوفىٰ، وأعطاها صَـفْقَةَ يده للمبايَعـةِ فلا يَبْغِى عنها مَصْرِفا، وأنَّ محمدًا عبـدُه ورسولُه الذى تداركَ اللهُ به العالَمَ بعد أنْ أشفىٰ فشَفىٰ، ونَسختْ آيةُ دينـه الأديانَ وجَلا بشِرْعته المُنيرة من ظُلْمة الجهل سَدَفا ، وجعَل مُبايعه مُبايِعا لله يأخُذُه بالنَّكْث ويُوفِّيه أجْره علىٰ الوَفَا، صلَّى الله عليـه وعلىٰ آلهِ الأطهار وعِتْرتِه الشُّرَفا، ورضى اللهُ عن أصحـابه

الذين لَيس منهم مَنْ عاهد الله فَغَدر ولا وَادَّ فى الله بَخَفَا، خصوصًا مَنْ جاء بالصِّدْق وصَدَّق به فكان له قرابةٌ وصَفوةَ الصَّفا، والمرجوعَ إليه فى البَيْعة يوم السَّقيفة [بعدما آشرأَبَّت نحوها نفُوسٌ كادتْ تذُوبُ عليها أسَفًا ، والقائمَ فى قتال أهلِ الرِّدّة] من بنى حنيفة حتّى آستقامُوا علىٰ الحنيفيَّة السَّمْحةِ حُنَفَا. ومَنِ آستحالَ دَلْوُ الخلافة فى يَدِه غَرْبا فكان أَقْيَدَ عَبقرِيّ قامَ بأمرِها فكَفَىٰ، وعَمَّتْ فتوحُه الأمصارَ وحُمِلَتْ إليه أموالُهَا فلم يُمْسِكها إقتارًا ولم يُبذِّر فيها سَرَفا . ومَنْ كان فضْلُه لسَهْمِ الآخِتيار من بيْنِ أصحابِ الشُّورىٰ هَدَفا ، وجمع الناسَ فى القُرءان علىٰ صَحِيفةٍ واحدةٍ وكانتْ قبْلَ ذٰلك صُحُفا. ومَنْ سرىٰ إليه سِرُّ : "أمَا تَرضَى أنْ تكُونَ منّى بمنزلة هارُونَ من مُوسىٰ" فغدَا يجُرّ من ذَيْل الفَخار سَجفا، وآستولىٰ علىٰ المَكارم من كلِّ جانبٍ فحازَ أطْرافَها طَرَفًا طَرَفا ، وعلىٰ سائر الخلفاء الراشدين بعدهم ممَّن سلَك سبيلَ الحق ولطريق الهُدىٰ آقتفىٰ، صلاةً ورِضْوانًا يُذْهِبان الداءَ العُضَالَ من وَخامة الغَدْر ويَجْلُبان الشِّفا ، ويرفعان قدْرَ صاحبهما فى الدنيا ويُبوّئان منتحِلَهما من جنّات النعيم غُرَفا .

أمّا بعدُ، فإنَّ عَقْد الإمامة لمن يقُومُ بأمْرِ الأمّة واجبٌ بالإجماع، مستنِدٌ لأقوىٰ دليلٍ تنقَطِع دُونَ نقْضه الأطْماع ، وتنبُو عن سَماعِ ما يخالِفُه الأسْماع ، إذ العِبادُ مجبولون علىٰ التبايُنِ والتغايُر، مطبُوعون علىٰ التخالُفِ والتناصُر ، [مضطَرُّون إلىٰ التَّعاوُنِ والتَّجاوُر، مفتقِرون إلىٰ التعاضُدِ والتَّوازُر](١) ، فلا بُدَّ من زعيم يمنعُهم من التظالُم، ويحمِلُهم علىٰ التناصُف فى التداعى والتحاكُم ، ويُقيم الحُدودَ فتُصانُ المَحارمُ عن الآنتِهاك ، وتُحْفَظ الأنساب عن الآختلاطِ والآشْتِراك، ويحمى بيضة

(١) زائد فى بعض النسخ .

الإسـلام فيمنعُ أن تُطْرَق ، ويصونُ الثُّغور أن يُتَوصَّل إليها أو يُتَطرَّق : ليَعِزَّ الإسلامُ دارا ، ويَطْمئِنَّ المستخفِي ليـلا ويأمَنَ السارِبُ نهارا ؛ ويَذُبُّ عن الحُرَم فتحترَم ، ويَذُودُ عن المنكَرات فلا تُغْشىٰ بل تُصْطلَم ؛ ويُجهِّز الجيوش فتَنْكأُ العدُو ، وتُغير علىٰ بلاد الكُفْر فتمنَعُهم القَرار والهُدُوّ ، ويُرْغِمُ أَنْفَ الفِئـة الباغية ويَقْمعُها ، ويُدْغِمُ الطائفةَ المبتـدِعة ويَرْدَعُها ؛ ويأخُذُ أموالَ بيتِ المـال بحقِّها فيُطـاوَع ، ويصرفها إلىٰ مستحقِّها فلا يُنـازَع ـ لاجَرَم اعتُـبِرَ للقيام بهـا أكمَلُ الشُّروط وأتمُّ الصِّفات ، وأكرَمُ الشِّيَم وأحسَنُ السِّمات .

وكان السـيدُ الأعظمُ الإمامُ النبويّ ، سليلُ الخلافه ، ووَلِيُّ الإمامه ، أبو فلان فلان العبّاسيّ المتوكِّل علىٰ الله « مثلا » أميرُ المؤمنين ، سلَكَ الله تعالىٰ به جَدَدَ آبائه الراشدين ، هو الذى جمع شُروطَها فوَفّاها ، وأحاطَ منها بصفاتِ الكمالِ واستَوْفاها ؛ ورامَتْ به أدنىٰ مَراتِبِها فبلغَتْ إلىٰ أغْياها ، وتَسوّر مَعالِيَها فرقِىَ إلىٰ أعلاها ، واتَّحَد بهـا فكان صُورتَها ومعْناها ـ وكانتِ الإمامةُ قد تأيَّمت ممن يَقُومُ بأعبائها ، وعَزَّتْ خُطّابُها لقِلّة أكفائها ، فلم تُلْفِ لهـا بَعْلا يكونُ لها قَرِينا ، ولا كُفْئًا تَخْطُبه يكونُ لدَيْها مَكِينا ، إلّا الإمامَ الفلانيَّ المشار إليه ، فدعَتْـه لخِطْبتها وهى بيتُ عِرْسِـه : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ فأجاب خِطْبَتَها ، ولَبَّى دَعْوتَها : لتَحَقُّقِه رَغْبتَها إليـه ، وعِلْمِه بوجُوب إجابتِها عليـه ؛ إذ هو شِـبْلُها النـاشئُ بِغابِها ، وغَيْثُها المستَمْطَر من سحابِها ؛ بل هو أسَـدُها الهَصُور ، وقُطْب فَلَكِها الذى عليه تدُور ؛ ومَعْقِلُها الأمنعُ الحَصِين ، وعِقْدُها الأنْفَسُ الثَّمين ، وفارِسُها الأرْوعُ ولَيْثُها الشَّهير ، وابنُ بَجْدَتِها الساقطةُ منه علىٰ الخَبِير ، وتِلادُها العليمُ بأحْوالها ، والجَدير بمعرفة أقْوالها وأفْعالها ، وتَرْجُمانُها المتكلِّم بلِسانِها ، وعالِمُها المتفَنِّنُ فى أفْنانِها ، وطَبِيبُها العارِفُ بطَبِّها ، ومُنْجِدُها الكاشِفُ لكَرْبِها .

وحين بلغتْ من القصْد سُولَها، ونالتْ بالإجابةِ منه مَأْمُولَها، وحَرُم على غيره أن يسُومَها لذلك تَلْويحا، أو يُعرِّجَ على خِطْبتها تعريضًا وتَصْريحا، احتاجتْ إلى وَلىٍّ يُوجب عَقْدها، وشهودٍ تحفَظُ عَهْدَها، فعندها قام السلطانُ الأعظَمُ الملِكُ الفلانىّ (بالألقاب السلطانية إلى آخرها) خلَّد الله سلْطانَه، ونصر جُنودَه وجُيوشَه وأعوانَه، فانتصَبَ لها وَليًّا، وأقامَ يفكِّر فى أمرها مَليًّا، فلم يجدْ أحقَّ بها منه فتجنَّبَ عَضْلَها، فلم تَكُنْ تصْلُح إلَّا له ولم يكُنْ يَصْلُح إلَّا لهـا، فجَمَعَ أهلَ الحلِّ والعَقْد، المعتَبَرِين للاعتبار والعارفين بالنَّقْـد: من القُضاة والعُلماء، وأهل الخَـيْر والصُّلَحاء، وأرباب الرأى والنُّصَحاء، فاستشارهم فى ذلك فصَوَّبُوه، ولم يَرَوُا العُـدُولَ عنه إلى غيره بوجْهٍ من الوُجوه، فاستخار الله تعالى وبايعَه، فتبعه أهلُ الاختيار فبايَعُوا، وانْقادُوا لحُكْمه وطاوَعُوا، فقابل عَقْدَها بالقَبُول بمَحْضَر من القُضاة والشُّهود فلزِمَتْ، ومضى حُكْمُها على الصحة وانبرَمَتْ. ولمَّـا تمَّ عقْدُها، وطلَع بصُبْح اليُمْنِ سَعْدُها، التمس المقَـامُ الشريف السلطانىّ المَلَكىّ الفلانىّ المشارُ إليه أعلى الله شَرف سلْطانِه ورفع محلَّه، وقرَن بالتوفيق فى كلِّ أمْرٍ عَقْـدَه وحَلَّه، أنْ ينالَه عَهْدُها الوَفِىّ، ويرِد منها مَوْرِدَها الصَّفِىّ: ليرْفَع بذلك عن أهل الدِّين حُجُبا، ويَزْدادَ من البيتِ النبوىّ قُرْبا، فتعرَّضَ لنَفَحاتها من مَقرَّاتها، وتطَلَّب بركاتِها من مَظِنَّاتها، ورَغِب إلى أميرالمؤمنين، وابنِ عم سـيد المرسلين صلواتُ الله عليهم أجمعين، أن يجدِّدَ له بعَهْد السلطنة الشريفة عَقْدا، ويأخُذَ له على أهل البَيْعة بذلك عَهْدا، ويسْتَحلفَهم على الوَفاء لها بمـا عاهَدُوا، والوُقوف عند ما بايَعُوا عليه وعاقَدُوا: ليَقْتَرِن السَّعدان فيَعُمَّ نوْءُهما، ويجتَمِع النَّيِّران فيَبْهَر ضَوْءُهما، فلبَّـاه تلبيةَ راغب، وأجابه إجابةَ مطلوبٍ وإن كان هو الطالب، وعَهِـد إليه فى كلِّ ما تقتضيه أحكامُ إمامته فى الأمة عُموماً وشُيُوعا، وفوّضَ له حُكْم الممـالك الإسْلاميَّة جميعا، وجعَلَ إليـه أمْرَ السلطنة المعظَّمة بكلِّ

نِطَاق، وألقىٰ إليه مَقالِيدَها وصَرَّفه فيها علىٰ الإطْلاق ؛ وأقامه فى الأمة لعَهْد الخلافة وَصِيًّا، وجعله للإمامة بتَفْويض الأمْرِ إليه وليًّا، ونَشَر عليه لواءَ المُلْك وقلَّده سيْفَه العَضْب ، وألبَسَه الخلعةَ السَّوداء فابيَضَّ من سَوادِها وجْهُ الشرقِ والغَرْب ، وكَتَبَ له بذٰلك عهْدًا كَبَتَ عدُوَّه، وزاد شَرَفه وضاعَفَ سُمُوَّه ، وطُولِب أهلُ البيعة بالتَّوثيق علىٰ البَيْعتين بالأيمان فأذعَنُوا ، وآستُحْلِفُوا علىٰ الوَفاء فبالَغُوا فى الأيمانِ وأمْعَنُوا ؛ وأقسَموا باللهِ جَهْدَ أيمانهم ، بعد أن أشهدُوا اللهَ عليهم فى إسْرارِهم وإعْلانِهم ، وأعطَوُا المواثِيقَ المغَلَّظةَ المشدَّده ، وحَلَفوا بالأيمانِ المُؤكَّدة المعَقَّده، علىٰ أنهم إن أعْرَضُوا عن ذٰلك أو أدْبَروا، وبَدَّلوا فيه أو غيَّرُوا، أو عَرَّجُوا عن سبِيله أو حادُوا، أو نَقَصُوا منه أو زادُوا، فكُلٌّ منهم برىء من حَوْل الله وقوّته إلىٰ حوْلِ نفْسه وقوّته ، وخارجٌ من ذِمَّته الحصينةِ إلىٰ ذِمَّته، وكلُّ آمرأةٍ فى نكاحه أو يتَزوّجُها فى المستقْبَل فهى طالِقٌ ثلاثا بَتاتا، وكُلَّما راجعها فهى طالقٌ طلاقا لا يقْتضى إقامة ولا ثَباتا ، وكلُّ مملوكٍ فى مِلْكه أو يملِكه فى المستقبل حُرٌّ لاحِقٌ بأحْرار المسلمين، وكلُّ ما مَلَكه أو يَمْلِكُه من جَمَاد وحيوانٍ صدقةٌ عليه للفُقَراء والمساكين، وعليه الحجُّ إلىٰ بيتِ الله الحَرام، والوقوفُ بعرفةَ وسائر المَشَاعِر العِظَام، مُحْرِمًا من دُوَيْرةِ أهلِه ماشيا، حاسِرًا عن رأسه وإن كان به أذًى حافيا، يأتى بذٰلك فى ثلاثين حَجّة متتابعةً علىٰ التمام، لا تُجْزئه واحدةٌ منها عن حَجَّة الإسلام، وإهداءُ مائة بدنةٍ للبيت العَتيق كلَّ سنةٍ علىٰ الدَّوام، وعليه صومُ جميع الدَّهرِ إلَّا المَنْهِىَّ عنه من الأيَّام، وأنْ يفُكَّ ألفَ رقبةٍ مؤمنةٍ من أَسْر الكفر فى كلِّ عام ؛ يمينُ كلِّ منهم فى ذٰلك علىٰ نيَّةِ أمير المؤمنين ، وسلطانِ المسلمين ، فى سِرّه وجَهْره وأوّلِه وآخره، لا نيَّةَ للحالف فى ذلك فى باطنِ الأمرِ ولا فى ظاهِره، لا يُوَرِّى فى ذٰلك ولا يستَثْنى ، ولا يتأوّلُ ولا يستفْتى ؛ ولا يَسْعىٰ فى نَقْضها، ولا يخالِفُ فيها

ولا فى بعضها، متى جنح إلى شىء من ذلك كان آثما، وما تقدم من تعقيد الأيمان له لازما، لا يقبلُ اللهُ منه صرفا ولا عدلا، ولا يُجزئه عن ذلك كفّارةٌ أصلا؛ كلُّ ذلك على أشدّ المذاهبِ بالتخصيص، وأبعدِها عن التساهل والترخيص؛ وأمضَوْها بيعةً ميْمونه، باليُمن مبتدأةً بالنُّجْح مقْرونه؛ وأشهدُوا عليهم بذلك مَنْ حضر مجلسَ العقد من الأئمةِ الأعلام، والشُّهود والحُكّام؛ وجعلُوا اللهَ تعالى على مايقُولُون وكِيلا، فاستحقّ عليهم الوفاءُ بقوله عزّت قدرتُه: ﴿ وأَوْفُوا بعهدِ اللهِ إذا عاهَدْتُم ولا تَنْقُضُوا الأيمانَ بَعْدَ تَوْكِيدها وقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَليْكُم كَفِيلا ﴾. وهم يرغَبُون إلى الله تعالى أن يُضاعِفَ لهم بحُسْنِ نِيّتِهم الأُجور، ويلجئُون إليه أن يجعَلَ أئمتهم ممّن أشار تعالى إليه بقوله: ﴿ الَّذِينَ إنْ مَكَّنّاهُمْ فى الأرضِ أقامُوا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكاةَ وأمَرُوا بالمَعْرُوفِ ونَهَوْا عن المُنْكَرِ ولله عاقِبَةُ الأُمُور ﴾. إن شاء الله تعالى.

⁂

وهذه نسخةُ بيعةٍ مرتَّبة على خَلْع خليفةٍ، أنشأتُها على هذه الطريقةِ أيضا، وتعرَّضتُ فيها لذكر السلطان القائم بها، على ماتقدّم فى البَيْعة المرتَّبة على موتِ خليفةٍ، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل بيتَ الخلافة مَثابةً للناس وأمْنا، وأقام سُورَ الإمامةِ وِقايةً للأنامِ وحِصْنا، وشَدّ لها بالعِصَابةِ القُرَشيّة أزْرا وشادَ منها بالعُصْبة العبّاسيّة رُكْنا، وأغاثَ الخلقَ بإمامِ هُدًى حَسُنَ سِيرةً وصفَا سريرةً فراقَ صُورةً ورَقّ معْنًى، وجمع قلُوبَهم عليه فلم يستنْكِفْ عن الانْقياد إليه أعلى ولا أدْنى، ونزع جِلْبابَها عمّنْ شُغِل بغيرها فلم يُعِرْها نَظَرا ولم يُصْغِ لها أُذُنا، وصرَفَ وجْهَها عمّن أساء فيها تصرُّفا فلم يرْفَعْ بها رأْسا ولم يَعمُرْ لها مَغْنًى .

نحمده على نعم حلّت للنفوس حين حلّت ، ومنن جلت الخطوب حين جلّت ، ومسارّ سرت إلى القلوب فسرّت ، ومبارّ أقرّت العيون فقرّت ، وعوارف أمّت الخليقة فوالت وما ولّت ، وقدم صدق ثبتت إن شاء الله فى الخلافة فما تزلزلت ولا زلّت .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له شهادة تكون لنا من درك الشكوك كالئه ، ولمهاوى الشبه داريه ، وللمقاصد الجميلة حاويه ، ولشقّة الزيغ والارتياب طاويه ، وأنّ محمدا عبده ورسوله الذى نصح الأمّة إذ بلّغ فشفى عليلها ، وأورَدها من مناهل الرّشد ماأطفأ وهجها و برّد غليلها ، وأوضح لهم مناهج الحقّ ودعاهم إليها ، وأبان لهم سبل الهداية : ﴿ فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها﴾ صلّى الله عليه وعلى آله أئمة الخير وخير الأئمه ، ورضى عن أصحابه أولياء العدل وعدول الأمّه ، صلاة ورضوانا يعمّان سائرهم ، ويشملان أولهم وآخرهم ، سيّما الصديق الفائز بأعلى الرّتبتين صدقا وتصديقا ، والحائز قصب السبق فى الفضيلتين علما وتحقيقا ، ومن عدل الأنصار إليه عن سعد بن عبادة بعد ماأجمعوا على تقديمه ، و بادر المهاجرون إلى بيعته اعترافا بتفضيله وتكريمه . والفاروق الشديد فى الله بأسا واللّين فى الله جانبا ، والموفى للخلافة حقّا والمؤدّى للإمامة واجبا ، والقائم فى نصرة الدّين حقّ القيام حتّى عمّت فتوحه الأمصار مشارق ومغاربا ، وأطاعته العناصر الأربعة : إذ كان لله طائعا ومن الله خائفا و إلى الله راغبا . وذى النّورين المعوّل عليه من بين سائر أصحاب الشّورى تنويها بقدره ، والمخصوص بالاختيار تفخيما لأمره ، من حصر فى بيته فلم يمنعه ذلك عن تلاوة كتاب الله وذكره ، وشاهد سيوف قاتليه عيانا فقابل فتكاتها بجميل صبره . وأبى الحسن الذى أعرض عن الخلافة حين سئلها ، واستعفى منها بعد ما اضطرّ إليها وقبلها ، وكشف له عن حقيقة

الدنيا فما أمّ قِبلتها بقلبه ولا ولّى وجهه قِبلها، وصرّح بمقاطعتها بقوله : « ياصفراءُ غُرّى غيرى يابيضاءُ غُرّى غيرى » لمّا وصلها مَن وصلها ؛ وسائرِ الخلفاء الراشدين بعدهم، الناهجين نهجهم والواردين وِردَهم .

أما بعـدُ، فإنّ للإمامة شروطًا يجب اعتبارُها فى الإمام، ولوازمَ لايُغتفر فواتُها فى الابتـداء ولا فى الدّوام، وأوصافاً يتعيّن إعمالُها، وآداباً لايسعُ إهمالُها ؛ من أهمّها العَدَالةُ التى مِلاكُها التقوىٰ ، وأساسُها مراقبةُ الله تعالىٰ فى السّرّ والنّجوىٰ ؛ وبها تقعُ الهيْبةُ لصاحبها فيُجلّ ، وتميلُ النفوسُ إليها فلا تمل ؛ فهى المَلَكةُ الداعيةُ إلىٰ ترْك الكبائر واجتنابِها ، والزاجرةُ عن الإصرار علىٰ الصّـغائر وارتكابها ؛ والباعثةُ علىٰ مُخالفـة النفْس ونهيِها عن الشّهوات ، والصارفةُ عن انتهاك حُرُمات الله التى هى أعظَمُ الحُرُمات ؛ والموجبةُ للتعفّف عن المحَارِم ، والحاملةُ علىٰ تجنُّب الظّلامات وردّ المَظَالم . والشّجاعةُ التى بها حِمايةُ البيْضة والذّبُّ عنها ، والاستظهارُ بالغزْو علىٰ نِكايةِ الطائفة الكافرةِ والغَضّ منها ؛ والقوّةُ بالشوكةِ علىٰ تنفيذِ الأوامرِ وإمضائِها ، وإقامةِ الحدودِ واستيفائِها ، ونَشْرِ كلمة الحق وإعلائها ، ودَحْضِ كلمةِ الباطل وإخفائهـا ، وقطْعِ مادّةِ الفسادِ وحسْمِ أدوائها ؛ والرأىُ المؤدّى إلىٰ السياسـةِ وحُسْنِ التـدبير ، والمُغْنى فى كثيرٍ من الأماكن عن مَزيد الجِـدّ والتشمير ؛ والمعينُ فى خُدَع الحرب ومَكايده ، والمُسْعِف فى مَصَادر كلّ أمرٍ ومَوارِده .

هـذا وقد جعلنا اللهُ أمّةً وسَـطا ، ووعَظَنا بمن سَلَف من الأُمَم ممن تمـرّد وعَتا أو تجبّر وسَـطَا ؛ وعصَمَ أُمّتَنا أن تجتمعَ علىٰ الضّلال ، وصانَ جَمْعنا عن الخَطَل فى الفِعال والمَقَال ؛ وندَبَنا إلى الأمْر بالمعـروف والنهْى عن المنكر ، وسوّغ لأئمّتنـا الاجتهادَ فى النّوازل والأحكام فاجتهادُهم لايُنكَر ؛ خصوصًا فى شان الإمامةِ التى هى

آكدُ أسباب المَعَالم الدينيّـة وأقواها ، وأرفعُ المناصبِ الدُّنيويّة وأعلاها ، وأعزُّ الرُّتَبِ رُتبةً وأغلاها ، وأحقُّها بالنظر فى أمرِها وأَوْلاها . وكان القائمُ بأمر المسلمين الآنَ فلانُ بنُ فلان الفلانى مِمّن حادَ عن الصِّراط المستقيم ، وسلكَ غيرَ النَّهج القويم ؛ ومالَ عن سَنَن الخُلَفاء الراشدين فأدركه الزَّلَل ، وقارفَ المآثمَ فعادَ بالخَلَل ؛ فعاثَ فى الأرض فَسَادا ، وخالفَ الرُّشدَ عِنادا ؛ ومالَ إلىٰ الغَىِّ آعتِمادا ، وأسلمَ إلىٰ الهوىٰ قِيَـادا ؛ قد آنتقلَ عن طَوْرِ الخلافه ، وعزيزِ الإنافه ، إلىٰ طَوْرِ العامَّة فاتَّصف بصِفَاتهم ، وآتَّسم بِسِمَاتهم ؛ فمُنكَرٌ يجبُ عليه إنكارُه قد باشرَه ، وصديقُ سَوْءٍ يتعيَّن عليه إبعادُه قد وازَرَه وظاهَرَهْ ؛ إنْ سلك فسبيلَ التُّهمة والآرتياب ، أو قصَدَ أمرا نَحَا فيه غيرَ الصَّواب ؛ منهمِكٌ علىٰ شَهواته ، منعكِفٌ علىٰ لَذّاته ، متشاغلٌ عن أمر الأمّة بأمرِ بَنِيه وبَنَاته ؛ الجُبْنُ رأسُ مالِه ، وعدَمُ الرأى قرينُـه فى أفعاله وأقواله ؛ قد قَنِـع من الخلافة بآسْمِها ، ورضِىَ من الإمامة بوَسْمِها ؛ وظَنَّ أنَّ السُّودَد فى لُبْس السَّواد فمال إلىٰ الحَيْف ، وتوَهَّم أنَّ القاطعَ الغِمْدُ فقطَعَ النظَرعن السَّيْف .

ولَمَّـا آطَّلع الناسُ منه علىٰ هذه المُنكَرات ، وعرَفُوه بهذه السِّمَات ، وتحقَّقوا فيه هذه الوَصَمات ؛ رغِبُوا فى آستِبْداله ، وأجمعُوا علىٰ خَلْعه وزَوَاله ؛ فلَجَـئُوا إلىٰ السلطان الأعظَمِ الملك الفلانى (بالألقـاب السلطانية إلىٰ آخرها) نصر الله جُنودَه ، وأسمىٰ جُدُودَه ، وأرْهَف علىٰ عُدَاةِ الله حُدُودَه ؛ ففوَّضُوا أمْرَهم فى ذلك إلَيْـه ، وألقَوْا كَلَّهم عليه ؛ فجمع أهلَ الحَلِّ والعَقْد منهم ، ومَنْ تصْدُر إليهم الأمورُ وتَرِدُ عنهم ؛ فآستخارُوا الله تعالىٰ وخلَعُوه من وِلَايته ، وخرجُوا عن بَيْعته ، وآنسلَخُوا عن طاعته ؛ وجَرَّدُوه من خِلافته ، تجريدَ السَّيْف من القِراب ، وطَوَوْا حكمَ إمامته ، كطَىِّ السِّجلِّ للكِتاب . وعند ماتمَّ هـذا الخَلْع ، وآنطوىٰ حكمُه علىٰ البَتِّ والقَطْع ، آلتمس الناسُ إماما يقُوم بأمور الإمامة فيُوفِيها ، ويجمع شُروطَها ويستَوْفِيها ؛ فلم يجِدُوا لهـا أهلا ،

ولا بِهَا أحقّ وأَوْلىٰ ، وأوفىٰ بها وأَمْلىٰ ، من السيّد الأعظم الإمام النبوى سليلِ الخلافة ، ووليّ الإمامة أبى فلانٍ فلان العباسيّ الطائع لله « مثلا » أمير المؤمنين . لازال شرفُه باذخا ، وعِرْنينُه الشريفُ شامخا ، وعهدُ ولايتِه لعهدِ كلِّ ولايةٍ ناسخا ، فساموه بيْعَتها فلَبّىٰ ، وشامُوا بَرْقَه لولايتها فأجابَ وما تأبّىٰ ، عِلْمًا منه بأنها تعيَّنتْ عليه ، وانحصرتْ فيه فلم تجِدْ أعلىٰ منه فتعدلَ إليه ، إذ هو ابنُ بَجْدتها ، وفارسُ نَجْدتها ، ومُزِيلُ غُمَّتها ، وكاشفُ كُرْبتها ، ومُجْلِي غَيَاهِبِها ، ومُحْمِدُ عواقبِها ، ومُوَضِّحُ مذاهبِها ، وحاكمُها المَكين ، بل رشيدُها الأَمين ؛ فنهضَ المقامُ الشريفُ السلطانيّ المَلَكيّ الفلانيّ المشارُ إليه : قرَن اللهُ مقاصدَه الشريفةَ بالنَّجاح ، وأعمالَه الصالحةَ بالفَلَاح ؛ وبَدَر إلىٰ بيعته فبايَعَ ، وأتمّ به مَنْ حضَر من أهل الحَلِّ والعَقْد فتابَعَ ، وقابل عَقْدَها بالقَبُول فمضىٰ ، ولزِم حُكْمُها واقتضىٰ ؛ واتّصل ذلك بسائر الرعيَّة فانْقادُوا ، وعلِموُا صوابَهُ فمشَوْا علىٰ سَنَنه وما حادُوا ؛ وشاع خبرُ ذلك فى الأمصار ، وطارتْ به مُحَلِّقاتُ البشائر إلىٰ سائر الأَقْطار ، فتعرّفُوا منه اليُمْنَ فسارَعُوا إلىٰ امتثاله ، وتحقّقُوا صِحّتَه وثباتَه بعد اضْطرابه واعتلاله ، واستعاذُوا من نَقْصٍ يُصيبه بعد تمامه لهذا الخليفةِ وكماله ؛ فعندها أبانت الخلافةُ العبَّاسيةُ عن طِيبِ عُنْصُرها ، وجميلِ وفائِها وكريمِ مَظْهَرِها ، وجادَتْ بجزيل الاْمتنان ، وتلا لسانُ كَرَمها الوفيّ علىٰ وَلِيِّها الصادق : ﴿هَلْ جزاءُ الإِحْسانِ إِلَّا الإِحْسان﴾ فجدّد له بالسَّلْطنة الشريفةِ عهْدا ، وطوّق جِيدَه بتفويضها إليه عِقْدا ، وجعله وَصِيَّه فى الدِّين ، ووَلِيَّه فى أمرِ المسلمين ، وقلّده أمرَ الممالك الإسلامية وألقىٰ إليه مَقالِيدَها ، وملّكه أزِمَّتها وحقّق له مَوَاعِيدَها ؛ وعقَد له لِواءَها ونشَر عليه أعلامَها ، وصرّفه فيها علىٰ الإِطْلاق وفوّضَ إليه أحْكامَها ؛ وألبسه الخِلْعةَ السَّوْداء فكانت لسُؤدده شعارا ، وأسبغ عليه رداءَها فكان له دِثارا ؛ وكتَبَ له العهدَ فسقىٰ المَعاهدَ صَوْبُ العِهاد ، ولَهِجَ الأنامُ

بذكره فاطمأنّت العبادُ والبلاد ، وعند ماتمّ هذا الفصل ، وتقرر هذا الأصل ، وأمست الرّعايا بما آتاهم الله من فضله فرحين ، وبنعمته مستبشرين ، طُولب أهلُ البَيْعة بما يحملهم على الوفاء ، ويمنع بيْعتهم من التكدّر بعد الصّفاء : من توثيق عَقْدها بمؤكّد أيمانها ، والإقامة على الطاعة لخليفتها وسُلْطانها ؛ فبادرُوا إلى ذلك مُسْرعين ، وإلى داعيه مُهْطعين ؛ وبالغُوا فى المَوَاثيق وأكّدُوها ، وشدّدُوا فى الأيمان وعَقّدُوها ؛ وأقسمُوا بالله الذى لا إلهَ إلّا هو عالمُ الغيْب والشّهاده ، عالِمُ خائنة الأعْيُن وماتُخفى الصُّدور فى البَدْء والإعادَهْ ، علىٰ الوفاءِ لهما والمُوَالاه ، والنُّصْح والمُصافاه ؛ والمُوافَقة والمُشايَعه ، والطاعة والمُتابَعَهْ ؛ يُوالُون مَنْ والاهما ، ويُعادُون مَنْ عاداهما ؛ لا يَقْعُدون عن مُناصَرتهما عند إلمامِ مُلِمّه ، ولا يَرْقُبُون فى عدُوّهما إلّا ولا ذمّه ؛ جارينَ فى ذلك علىٰ سَنَن الدّوام والاستمرار ، والثّبوت واللّزوم والاستقرار ؛ علىٰ أنّ من بدّلَ منهم من ذلك شَرْطا أو عَفّى له رَسْما ، أو حادَ عن طريقه أو غيّرله حُكما ؛ أو سَلَكَ فى ذلك غيرَ سبيل الأمانَه ، أو آستحلّ الغَدْر وأظهَرَ الخيانه ، مُعْلنا أو مُسِرًّا فى كلّه أو بَعْضه ، متأوّلًا أو مُحْتالا لإبْطاله أو نقْضه ، فقد بَرِئَ من حولِ الله المتينِ وقُوّته الواقيه ، ورُكْنه الشديد وذِمّته الوافيه ، إلى حول نَفْسه وقُوّته ، ورُكْنه وذِمّته ؛ وكُلُّ آمرأةٍ فى عِصْمته الآنَ أو يتزوّجُها مدّةَ حياته طالقٌ ثلاثا بصريح لَفْظ لايتوقّف علىٰ نيّه ، ولا يُفرّق فيه بين سُنّة ولا بِدْعة ولا رجْعةَ فيه ولا مَثْنَويّه ؛ وكلّ مملوك فى مِلكه أو يملكُه فى بقيّة عُمُره من ذكرٍ أو أنثىٰ حُرٌّ من أحرار المسلمين ؛ وكلّ ما هو علىٰ مِلكه أو يملكُه فى بقيّة عُمُره إلى آخر أيّامه من عينٍ أو عَرَض صدقةٌ للفُقَراء والمساكين ؛ وعليه الحجُّ إلى بيتِ الله الحرام ثلاثين حَجّةً بثلاثين عُمْرةً راجلًا حافيًا حاسرا ، لايقبلُ الله منه غيْرَ الوفاء بها باطنًا ولا ظاهِرا ؛ وإهْداءُ مائةِ بدنةٍ فى كل حَجّة منها فى عُسْرته ويُسْرته ، لاتُجْزئُه

واحدةٌ منها عن حَجّة الإسلام وعُمْرته ؛ وصومُ الدهر خلا المنهيّ عنه من أيّام السَّنه ، وصلاةُ ألفِ ركعةٍ فى كل ليلةٍ لا يُباح له دُونَ أدائها غَمْض ولا سِنَه ؛ لا يقبلُ الله منه صَرْفًا ولا عَدْلا ، ولا يُؤْجَر على شيءٍ من ذٰلك قَوْلا ولا فعلا ؛ متى ورّى فى ذلك أو آستثنىٰ ، أو تأوّل أو آستفتىٰ ، كان الحنثُ عليه عائدا ، وله إلى دار البَوار قائدا ؛ معتمِدًا فى ذٰلك أشدَّ المَذاهب فى سِرّه وعلانِيَته ، على نِيّة المستحْلِف له دُونَ نِيَّته ؛ وأمضَوْها بيعةً محكمةَ المَبانى ثابتةَ القَواعد ، كريمةَ المَساعى جميلةَ المقاصِد ؛ طيِّبَةَ الجَنَى جليلةَ العَوائد ، قاطعةَ البراهين ظاهرةَ الشَّواهد ؛ وأشهَدُوا على أنفُسِهم بذٰلك مَنْ حضر مجلِسَ هذا العَقْد من قُضاة الإسلام وعُلَمائه ، وأئمة الدِّين وفُقَهائه ؛ بعد أن أشهدُوا الله عليهم وكفىٰ باللهِ شهيدا ، وكفىٰ به للخائنين خَصِيما : ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ . والله تعالى يجعلُ آنتِقالَهم من أدنىٰ إلى أعلىٰ ، ومن يُسْرىٰ إلى يُمْنىٰ ؛ ويحقِّق لهم بمن آستخْلَفه عليهم وَعْدَه الصادقَ بقوله تعالىٰ : ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا آسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي آرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ . إن شاء الله تعالىٰ .

المـــذهب الرابع

(ممـا يُكتب فى بَيْعات الخلفاء أن يُفتتح البيعةَ بلفظ : هذه بيعة ، وبصفها ويذكُر ماينـاسِبُ ، ثم يعزّى بالخليفة الميّت ، ويهنّى بالخليفة المستقرّ ، ويذكر فى حقّ كلٍّ منهما مايَليق به من الوَصْف على نحوٍ مما تقدّم)

وهذه نسخةُ بيعةٍ أنشاها المَقرّ الشّهابىّ بنُ فضل الله ، على مارأيته فى " الجواهر الملتقطة " المجموعةِ من كلامه ، للإمام الحاكم بأمر الله « أبى العبّاس »[1] « أحمد بن أبى الرَّبيع سُلَيمان » [المستكفى بالله] آبنِ الإمام الحاكم بأمر الله ، بعد موتِ أبيه .

وذكر القاضى تقىُّ الدين بن ناظِر الجيش فى " دُسْتُوره " أنه إنمـا عَمِلها تجربةً[2] لخاطره ، وهى مُرتَّبة على موتِ خليفة .

ونصها بعد البسملة الشريفة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَـا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَـا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

هــذه بيعةُ رِضْوان وبَيْعةُ إحْسان ، وبيعةُ رِضًا تَشْهَدُها الجمـاعة ويَشْهد عليها الرحمٰن ، بيعــةٌ يلزَم طائرُها العُنق ، وتحُوم بشائرُها على الأُفُق ، وتحملُ أنباءَها البَرارىُّ والبِحارُ مشحونةَ الطُّرُق ، بيعةٌ تَصْلُح لِنَسبها الأُمّه ، وتُمْنح بِسَببها النِّعمه ، وتُؤلّف بهـا الأَسْباب وتجعل بَيْنَهم مودّةً ورَحْمـه ، بيعةٌ تَجْرى بهـا الرِّفاق ، وتتزاحم زُمَرُ

(١) كذا فى تاريخ أبى الفداء، وآبن إياس والعبر أيضا ووقع فى ج ٣ ص ٢٦٥ من هذا المؤلف أن لقبه المستعصم والصواب ماهنا .

(٢) أى امتحانا لفكره .

الكواكب على حَوْض المَجرّة للوِفاق ؛ بيعةٌ سعيدةٌ مَيْمونه ، بَيْعةٌ شريفة بها السلامةُ فى الدِّين والدنيا مضْمُونه ، بيعةٌ صحيحةٌ شرعيّه ، بيعةٌ ملحوظةٌ مرعيّه ، بيعةٌ تُسابق إليها كلُّ نيّة وتُطاوع كلُّ طوِيّه ، وتُجْمِع عليها أشتاتُ البَرِيّه ، بيعةٌ يَسْتَهِلُّ بها الغَمَام ، ويتهلَّل البَدْر التَّمام ، بيعةٌ متَّفق على الإجماع عليْها ، والاجتماع لِبَسْط الأيْدى إليها ، آنعقَدَ عليها الإجماع ، وآنعقدتْ صِحّتها بمن سَمِع لله وأطاع ، وبذَل فى تمامها كلُّ آمرئٍ ما آستطاع ، وحصل عليها آتّفاقُ الأبصار والأسماع ، ووصل بها الحقُّ إلى مستَحِقّه وأقرَّ الخصمُ وآنقطع النِّزاع ، وتضمَّنها كتابٌ كريم يشهَدُه المقرَّبُونَ ، ويتلقّاه الأئمة الأقْرَبُون .

﴿ الحمدُ لله الّذِى هَدَانا لِهٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَا أنْ هَدَانَا الله ﴾ : ﴿ ذٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ ﴾ . وإلَيْنا ولله الحمدُ وإلى بَنِى العَبَّاس . أجمعَ على هذه البيعةِ أربابُ العَقْد والحلّ ، وأصحابُ الكلام فيما قَلَّ وجَلّ ؛ ووُلاةُ الأمور والأحكام ، وأربابُ المَناصِب والحُكّام ؛ وحَمَلَةُ العِلْم والأعلام ، وحُماةُ السُّيُوف والأقْلام ، وأكابِرُ بنى عَبْد مَناف ، ومن آنخفَضَ قَدْرُه وأناف ؛ وسَرواتُ قُرَيْش ووُجُوه بنى هاشم والبقيّةُ الطاهرةُ من بنى العباس ، وخاصّةُ الأئمة وعامّةُ الناس ؛ بيعةٌ تُرْسىٰ[1] بالحرمين خِيامُها ، وتَخفِق على المأزِمَيْن أعلامُها ، وتتعرّف عرفاتُ ببركاتِها وتُعرَفُ بمِنًى أيّامُها ؛ ويُؤَمِّن عليها يومَ الحجّ الأكبر ، وتَؤُمُّ مابين الرُّكْن والمقام والمِنْبَر ؛ ولا يُبْتغى بها إلا وجهُ الله الكريم ، وفضْلُه العميم ؛ لم يبق صاحبُ سَنْجق[2] ولا عَلَم ، ولا ضارِبٌ بسَيْف ولا كاتِبٌ بقَلَم ؛ ولا رَبُّ حُكْم ولا قضاء ، ولا مَنْ يُرجَع إليه فى آتفاقٍ ولا إمضاء ؛ ولا إمامُ مسْجِد ولا خَطِيب ، ولا ذُو فُتْيا يُسْأل

(١) لعله ترى بالحرمين تأمل .

(٢) فى الأصل سيف وهى تصحيف .

فيُجيب، ولا مَنْ بين جَنَبتي المساجد ولا من تضُمُّهم اجنحةُ المحـاريب ، ولا مَنْ يجتهد فى رأيٍ فيُخطِئُ أو يُصيب، ولامتحدِّثٌ بحديث، ولا متكلِّمٌ بقديم وحديث؛ ولا معروفٌ بدينٍ وصَلَاح، ولا فُرسانُ حرب وكِفَاح؛ ولا راشِقٌ بسِهَام ولا طاعنٌ برِماح، ولا ضاربٌ بصِفَاح، ولا ساعٍ علىٰ قدَم ولا طائرٌ بغيْر جَنَاح ؛ ولا مخـالِطٌ للناس ولا قاعدٌ فى عُزْله، ولا جمعُ كَثْرة ولا قلَّه ؛ ولا مَنْ يستقِلُّ بالجَوزاء لِواؤه، ولا يقِلُّ فوْقَ الفرقد ثَواؤُه؛ ولا بادٍ ولا حاضِر، ولا مُقيمٌ ولا سائِر؛ ولا أوَّلٌ ولا آخِر، ولا مُسِرٌّ فى باطن ولا مُعْلِنٌ فى ظاهر؛ ولا عربٌ ولا عَجَم؛ ولا راعِى إبل ولا غنم؛ ولا صاحبُ أناةٍ ولا إبْدار، ولا ساكنٌ فى حضَرٍ وباديةٍ بِدَار؛ ولا صاحبُ عَمَـد ولا جِدَار ، ولا ملَجِّجٌ فى البِحار الزاخرةِ والبَرارِيِّ القِـفَار؛ ولا من يتوَقَّلُ صَهَواتِ الخيل، ولا منْ يُسْبِل علىٰ العَجَاجة الذيل ، ولا من تطْلُع عليـه شمسُ النهار ونُجُوم الليل ؛ ولا من تُظِلُّه السماء وتُقِلُّه الأرض ، ولا مَنْ تدُلُّ عليه الأسماء علىٰ آختلافها وترتفعُ درجاتُ بعضِهم علىٰ بعض؛ حتّى آمَنَ بهذه البَيْعة وأمِنَ عليها، ومَنّ اللهُ عليه وهداه إليها ؛ وأقرّ بها وصدّق ، وغَضَّ لهـا بصَرَه خاشـعًا وأطْرق ؛ ومدّ إليها يَدَه بالمُبَايَعه، ومُعتَقَده بالمُتَابعه؛ رضِىَ بها وآرْتضاها، وأجاز حُكْمَها علىٰ نَفْسه وأمضاها؛ ودخل تحتَ طاعتِهـا وعَمِـل بمقتضاها : ﴿ وقُضِىَ بَيْنَهُـمْ بِالحَقِّ وَقِيـلَ الحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ العالَمِينَ ﴾ .

والحمدُ لله الذى نصب الحاكم ليَحْكُم بين عِباده وهو أحكَمُ الحاكِمين ، والحمدُ لله الذى أخَذَ حقَّ آلِ بيتِ نبيِّه من أيْدى الظالمين؛ والحمدُ لله ربِّ العالمين، ثم الحمدُ لله ربِّ العالمين، ثم الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، والحمدُ لله رب العالمين .

وإنه لمَّـا آستأثر اللهُ بعبْدِه سُليمانَ أبي الرَّبيع الإمامِ المستكْفى بالله أميرِ المؤمنين ــ كَرَّم اللهُ مثواه ــ وعَوَّضه عن دار السَّلام بدار السَّـلَام ، ونقله فزَكّى بدَنَه عن

شهادة السّلام بشهادة الإسلام، حيثُ آثَره ربُّه بقُربه، ومهّد لجنبه وأقْدمه على ما أقدمه مَنْ يرجُوه لعمَله وكَسْبه، وخار له فى جِوَاره رَفِيقا، وجعل له على صالح سَلَفه طرِيقا، وأنزله ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾. اللهُ أكبرُ ليومه لولا مُخلَّفه كادَتْ تَضيقُ الأرضُ بما رَحُبَت، وتُجزى كلُّ نفس بما كَسَبَتْ، وتُنْبِئُ كلُّ سريرةٍ بما أدّخرتْ وما خَبَّتْ، لقد آضْطَرم سعيرٌ، إلا أنّه فى الجوانح، لقد آضْطربَ مِنبَرٌ وسريرٌ، لولا خَلَفُه الصالح، لقد آضْطَرب مأمورٌ وأميرٌ، لولا الفكرُ بعْدَهُ فى عاقبة المَصَالح، لقد غاضَتِ البِحار، لقد غابَتِ الأَنْوار، لقد غالب البُدُور ما يلْحَقُ الأهِلّةَ من المِحَاق ويُدْرِكُ البَدْرَ من السِّرار، نُسِفتِ الجبالُ نَسْفا، وخبَتْ مَصابيحُ النُّجوم وكادَتْ تُطْفَى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾. لقد جَمَعتِ الدنيا أطرافَها وأزمَعَتْ على المَسِير، وجُمِعت الأمّةُ لهَوْل المَصير، وزاغَتْ يومَ موْته الأبْصار: ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾. وبقِيَتِ الألبابُ حَيارى، ووقَفَتْ تارةً تُصَدِّق وتارةً تُمَارى، لا تَعْرِف قَرَارا، ولا على الأرض آستِقْرارا: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى﴾.

ولم يكن فى النَّسَب العباسيّ ولا فى جميع من فى الوُجُود، لا فى البيتِ المسترْشِديّ ولا فى غيره من بيوت الخلفاء من بَقايا آباءٍ لهم وجُدُود، ولا مَنْ تلِدُه أُخرى الليالى وهى عاقِرٌ غيرُ وَلُود، من تسلِّمُ إليه أمّةُ محمد صلى الله عليه وسلم عَقْدَ نيّاتِها، وسِرَّ طويّاتها، إلا واحدٌ وأين ذلك الواحد؟ هو والله من آنحصَر فيه آستحقاقُ ميراث آبائه الأطهار، وتُراثِ أجداده ولا شيءَ هو إلا ما آشتمل عليه رِداءُ الليل والنّهار، وهو آبنُ المنتقل إلى ربّه، وولدُ الإمام الذاهبِ لصُلْبه، المجمعُ على أنه فى الأنَام،

فردُ الأيّام، وواحدٌ وهكذا فى الوُجُود الإمام؛ وأنه الحائزُ لما زُرِرَتْ عليه جُيوبُ المَشارق والمَغارب، والفائزُ بملك مابين الشارق والغارب؛ الراقى فى صَفيح السماء هذه الذِّرْوةَ المنيفه، الباقى بعدَ الأئمة الماضينَ رضى الله عنهم ونِعْمَ الخليفه؛ المجتمعُ فيه شروطُ الإمامه، المتَّضع لله وهو من بيتٍ لا يزال المُلْكُ فيهم إلى يومِ القيامه؛ الذى تَصفَّح السَّحابَ نائلُه، والذى لا يغُرُّه عاذرُه ولا يُغَيِّره عاذلُه؛ والذى:

تعوّدَ بَسْطَ الكفِّ حتّى لو انّه * ثَناها لقَبْضٍ لم تُطِعْه أناملُه

والذى:

لا هُوَ فى الدُّنيا مُضيِّعٌ نصيبَه * ولا وَرِقُ الدُّنيا عن الدِّين شاغلُه

والذى ما ٱرتقَى صَهْوة المِنبَر بحضرة سلطان زمانِه إلّا قال ناصرُه وقام قائمُه؛ ولا قَعَدَ على سرير الخلافة إلّا وعُرِفَ بأنّه ما خاب مستكْفِيه ولا غاب حاكمُه؛ نائبُ الله فى أرضه، والقائمُ بمَقام رسول الله صلّى الله عليه وسلم وخليفتُه وٱبن عمِّه، وتابعُ عملِه الصالح ووارثُ عِلْمه، سيدنا ومولانا عبدُالله ووليُّه «أحمد أبو العبَّاس» الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين، أيَّدَ الله تعالى ببقائه الدِّين، وطوّق بسَيْفه [رقاب] المُلْحدين، وكبَتَ تحتَ لِوائه المعتَدين؛ وكتَبَ له النصرَ إلى يوم الدين؛ وكَفَّ بجِهاده طوائفَ المُفْسدين، وأعاذَ به الأرضَ ممّن لا يَدِين بِدِين؛ وأعاد بعَدْله أيامَ آبائه الخلفاءِ الراشدين والأئمة المَهْديين؛ الذين قضَوْا بالحق وبه كانُوا يَعْدِلون، وعليه كانُوا يعمَلُون؛ ونَصر أنصارَه، وقدّر ٱقتداره؛ وأسكن فى قلوب الرعيّة سكينتَه ووَقارَه، ومكّن له فى الوُجُود وجمعَ له أقطارَه.

ولمّا ٱنتقل إلى الله ذلك السيدُ ولَحِق بدار الحقِّ أسْلافَه، ونُقِل إلى سرير الجنة عن سَرير الخلافه؛ وخَلَا العصْرُ من إمام يُمْسك ما بقِىَ من نَهاره، وخليفة يُغالب

مُرْبَدَّ الليل بأنواره ، ووارثِ بنى بمثله ومثلِ أبيه ٱستغنىٰ الوجُود بعد ابن عمه خاتم الأنبياء صلّى الله عليه وسلم عن نبيٍّ مقتَفٍ علىٰ آثاره، ونُبِّىَ ولم يَعْهَدْ فلم يبقَ إذ لم يُوجَد النصُّ إلّا الإجماع ، وعليه كانت الخلافةُ بعدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا نِزَاع ، ٱقتضتِ المصلحةُ الجامعةُ عَقْدَ مجلسٍ كلُّ طَرْفٍ به معْقُود ، وعَقْدَ بيعةٍ عليها اللهُ والملائكةُ شهُود ، وجُمِـع النـاسُ له ﴿ ذٰلكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ له الناسُ وذٰلك يومٌ مَشْهُود ﴾ . فحَضَرَ من لم يُعْبأ بعده بمن تخَلَّف، ولم يُرْبأ(١) معــه وقد مدّ يدَه طائعا بمن مدَّها وقد تكَلَّف ، وٱجتمعُوا علىٰ رأيٍ واحدٍ وٱستخارُوا الله تعالىٰ فيه فخَــار، وناهِيكَ بذٰلك من مُختار ، وأُخِذتْ بيعةٌ تُمَدُّ إليها الأيْمــان ، ويُشَدّ بها الإيمــان ، وتعطىٰ عليها المَوَاثِيق ، وتُعرَض أماناتُهــا علىٰ كلِّ فريق ، حتّى تقــلّد كلُّ من حضر فى عُنُقه هــذه الأمانَهْ ، وحطَّ يَدَه علىٰ المصـحف الكريم وحَلَفَ بالله العظيم وأتمَّ أيمــانَه ، ولم يَقْطَع ولم يستثْن ولم يتردَّد ، ومن قَطَع من غير قصدٍ أعاد وجَدّد ، وقد نَوىٰ كلُّ مَنْ حلف أنَّ النيةَ فى يمينه نيّةُ من عُقِدت هذه البيعةُ له ونيةُ من حَلَف له ، وتذمَّم بالوفَاء فى ذمّته وتكفَّله ، علىٰ عادةِ أيمــان البيعة بشُروطها وأحكامها المردَّده ، وأقسامِها المؤكَّده ، بأن يبذُل لهذا الإمام المفترضة طاعتُه الطاعه ، ولايُفارقَ الجمهورَ ولا يُظْهِرَ عن الجماعة ٱنْجِاعَه ، وغيرِ ذلك مما تضمَّنته نُسَخُ الأيمــان المكتتَبُ فيها أسمــاءُ من حلف عليها ممــا هو مكتوبٌ بخُطوط من يكتُب منهم ، وخطوط العُدُول الثِّقات عمَّن لم يكْتُبْ وأذنوا لمن يكتب عنهم ، حسَبَ مايشهَدُ به بعضُهم علىٰ بعض ، ويتصادقُ عليــه أهلُ السماء والأرض ، بيعةٌ تمَّ بمشيئة الله تمــامُها ، وعَمَّ بأصْوَب الغَدَق غَمامُها ، ﴿ وقالوا الحمدُ لِله الذى أذْهَبَ عنّا الحَزَن ﴾ . ووهبَ لنا الحسَن ، ثم الحمدُ لله الكافى عبْـدَه ، الوافِى وَعْدَه ، المُوافى لمن يُضاعِفُ علىٰ كل

(١) أى لم يبال به ولم يكترث . انظر اللسان والقاموس .

مَوْهبة حَمْدَه، ثم الحمدُ لله على نِعمٍ يرغَبُ أميرُ المؤمنين فى آزديادها، ويرهَبُ إلّا أن يقاتِلَ أعداءَ الله بأمْدادها ، ويرْأَبُ بها ما آثر فيها أثر مما ليكه (؟) مابانَ من مُباينةِ أضـــدادها .

نحمَدُه والحمد لله، ثم الحمدُ لله كلمةٌ لا تَمَلُّ من تَرْدادها، ولا تَبْخل بمـا يُفوِّق السِّهامَ من سَدَادها، ولا نَظَلُّ إلّا على مايوجب كثرة أعْدادِها، وتيسير إقرار على أورادِها؛ ونشهدُ أنْ لاإله إلا الله وحده لاشريكَ له شهادةً يتقايسُ دَمُ الشهداء ومَدُّ مِدادها، وتَتَنافَسُ طُررُ الشَّـباب وغُررُ السَّحاب على آستمدادها ، وتجانَسُ رُقومُها المدَبجَـة وما تلْبَسه الدولةُ العباسيَّة من شِعَارها، والليالى من دِثَارِها، والأعداءُ من حِدَادها؛ ونشهدُ أنَّ سـيدنا محمدا عبدُه ورسولُه صلّى الله عليه وسـلم وعلى جماعةِ آلِهِ مَنْ سَفَل من أبنائها ومن سَـلَف من أجدادِها ، ورضى اللهُ عن الصحابة أجمعين ، والتابعين لهم باحسانٍ إلى يوم الدين .

وبعـدُ، فإنّ أمير المؤمنين لِمَـا أكسبه الله تعالى من ميراث النُّبوّة ماكان لجَدّه، ووَهَبه من الملك السُّلَيْمانى عن أبيه مالا ينْبغِى لأحدٍ من بعده ، وعَلّمه مَنْطِقَ الطيرِ بمـا تحمّلُه حمائمُ البطائقِ من بدَائع البيـان ، وسخّر له من البَريد على مُتُون الخيـل ماسخَّر من الرِّيح لسليمان، وآتاه من خاتَم الأنبيـاء ماأمدّه به أبُوه سـليمان وتَصَرَّف، وأعطاه من الفَخَار ماأطاعه به كلُّ مخلوق ولم يتَخَلَّف، وجعل له من لِبَاس بنى العَبَّاس مايقضِى له سوادُه بسُؤْدَد الأجداد، وينفُضُ على كُحل الهُدْب مافضَل عن سُوَيْداء القلب وسَوَاد البصر من السَّواد، ويَمُدُّ ظِلَّه على الأرض فكلُّ مكانٍ حلّه دارُ مُلْك وكلُّ مدينـةٍ بَغْداد ، وهو فى لَيْـله السَّجّاد، وفى نهـاره العَسْكرِىّ وفى كرمه جَعْفَرٌ الجَوَاد ـ يُديم الآبتهالَ إلى الله تعالى فى توفيقه، والآبتهاجَ بما يُعِضُّ كلَّ عدُوٍّ بريقه، ويَبْدَأ يومَ هذه المُبايعةِ بما هو الأهَمُّ من مَصَالح الإسلام، وصالح الأعمال ممـا يتحَلّى

به الإمام؛ ويُقدِّمُ التقوىٰ أمامه، ويقْرُن عليها أحكامَه؛ ويتّبع الشرعَ الشريفَ ويَقف عنده ويُوقِفُ الناس، ومَنْ لايحْمِلُ أمرَه طائعًا علىٰ العين حمله بالسَّيف غَصْبا علىٰ الرأس؛ ويعجلُ أميرُ المؤمنين بما يَشْفِي به النُّفوس، ويُزيل به كَيْدَ الشيطان إنه يَئُوس، ويأخُذُ بقلوب الرَّعايا وهو غنيٌّ عن هذا ولكنْ يَسُوس؛ وأميرُ المؤمنين يُشْهِد الله وخليقَتَه عليه أنه أقرَّ كلَّ آمْرِئ من وُلاة الأمور الإسلاميَّة علىٰ حاله، وآستمرّ به فى مَقِيله تحتَ كَنَف ظِلَاله؛ علىٰ آختلاف طبقات وُلَاة الأمور، وتفرّقهم فى الممالك والثُّغُور؛ برًّا وبحْرا، سَهْلا ووعْرا، وشَرْقا وغرْبا، وبُعْدا وقُرْبا؛ وكُلّ جليلٍ وحقيرٍ، وقليلٍ وكثيرٍ، وصَغيرٍ وكبيرٍ، ومَلِك ومملُوكٍ وأميرٍ، وجُنْدىّ يَبْرُق له سيفٌ شهيرٌ، ورُمْحٌ طَرِيرٌ؛ ومَنْ مع هٰؤلاء من وُزراء وقضاةٍ وكُتّاب، ومَنْ له يدٌ تبقىٰ فى إنشاءٍ وتحقيقِ حساب؛ ومَنْ يتحدّثُ فى بَريد وخَراج، ومن يُحتاجُ إليه ومن لا يُحتاج؛ ومَنْ فى الدُّروس والمَدَارس والرُّبُط والزَّوَايا والخوَانق، ومَنْ له أعظَمُ التعلّقات وأدْنىٰ العلائق؛ وسائرَ أرباب المراتب، وأصْحابِ الرَّواتب؛ ومَنْ له فى مال الله رِزْقٌ مقسوم، وحقٌّ مجهولٌ أو معلُوم؛ وآستمْرار كلّ أمْرٍ علىٰ ماهو عليه، حتّى يستخيرَ اللهَ ويتبيّنَ له مابين يدَيْه؛ فما زاد تأهيلُه، زاد تفضيلُه؛ وإلّا فأميرُ المؤمنين لايُريد سِوىٰ وجْهِ الله، ولا يُحابِي أحدًا فى دِين، ولا يُحامى [عن] أحد فى حقّ؛ فإن المُحاماةَ فى الحقّ مداجاةٌ علىٰ المسلمين؛ وكلّ ما هو مستمرٌّ إلىٰ الآنَ، مستقرٌّ علىٰ حُكْم الله مما فهّمه الله له وفهّمه سليمان، لا يغيرُ أميرُ المؤمنين فى ذٰلك ولا فى بعضه، معتبرٌ مستمرٌّ بما شكرَ اللهَ علىٰ نعمه وهكذا يُجازِىٰ من شَكَر، ولا يكدِّر علىٰ أحدٍ موْردا نزّهَ اللهُ به نِعمه الصافيةَ عن الكدَر، ولا يتأوّلُ فى ذٰلك متأوِّلٌ ولا من بَطَر النعمةَ أو كَفَر، ولا يتعلّل متعلّل فإنّ أمير المؤمنين يعُوذُ بالله ويُعيذ أيامه من الغيَر؛ وأمَرَ أميرُ المؤمنين ـ أعلىٰ الله أمره ـ

أن يُعلَن الخطباءُ بذكره وذكر سلطان زمانه على المنابر فى الآفاق، وأن تُضرَب باسمهما النُّقودُ المتعامَل بها على الإطلاق، ويُبتهج بالدعاء لهما عطف الليل والنهار، ويُصرَّح منه بما يُشرق به وجهُ الدِّرهم والدِّينار، وتُباهى به المنابرُ ودورُ الضرب: هاتيك ترفعُ اسمهما على أسرَّة مُهودها، وهذه على أسارير نُقُودها، وهذه تقامُ بسببها الصَّلاة، وتلك تُدامُ بها الصِّلات، وكلاهما تُستمالُ به القلوب، ولا يُلام على ماتعيه الآذانُ وتُوعيه الجُيُوب، وما منهما إلّا من تُحدِّق بجواره الأحداق، وتميلُ إليه الأعناق، وتُبلغ به المقاصد، ويقوى بهما المُعاضد، وكلاهما أمرُه مطاعٌ، من غير نزاع، وإذا لمعَتْ أزِمَّةُ الخُطَب طار للذَّهب شُعاع، ولولاهما ما اجتمع جمعٌ ولا انضمّ، ولا عرفَ الأنامُ بمن تأتمّ، فالخُطَب والذهبُ معناهما واحد، وبهما يذكُر اللهَ قيّاءُ[(1)] المساجد، ولولا الأعمال، ما بُذلت الأموال، ولولا الأموال، ماوُلّيت الأعمال، ولأجل ما بينهما من هذه النِّسبه، قيل إنَّ الملكَ له السِّكّة والخُطبه، وقد أسمع أميرُ المؤمنين فى هذا الجمع المشهود ما يتناقلُه كلُّ خطيب، ويتداولُه كلُّ بعيد وقريب، وإنَّ الله أمر بأوامر ونهى عن نواهٍ وهو رقيب، وتستفرغُ الأولياءُ لها السَّجايا، وتتضرَّعُ الخطباءُ فيها بنُعوت الوَصايا، وتكمُلُ بها المَزايا، ويتكلَّم بها الواعظُ ويُخرج من المشايخ الخَبايا من الزَّوايا، وتَسْمُرُ بها السُّمّار ويترنَّم الحادى والمَلّاح، ويُروق تجوُها فى الليل المُقمِر ويُرقمُ على جَنب الصَّباح، وتُعطِّر بها مكةُ بطحاءَها وتحيا بحديثها قُباه، ويلقّنُها كلُّ أبٍ فهمَ ابنه ويسأل كلَّ ابنٍ أن يُجيب أباه، وهو لكم أيُّها الناسُ من أمير المؤمنين رُشْد وعليكم بيِّنه، وإليكم مادعاكُم به إلى سبيل ربِّه من الحِكمة والمَوعظة الحَسَنه، ولأمير المؤمنين عليكم الطاعةُ ولولا قيامُ الرَّعايا بها ما قَبِل اللهُ أعمالها، ولا أمسكَ بها البحر ودحا الأرضَ وأرسى جبالَها، ولا اتفقت

(١) كذا ضبط فى بعض النسخ ولعل الصواب قيّام، أو قوّام. تأمل.

الآراءُ علىٰ من يستحق وجاءتْ إليه الخلافةُ تجُرّ أذيالَهـا ، وأخذها دُونَ بني أبيه ولم تكُنْ تصلُح إلّا له ولم يكُنْ يصْلُح إلّا لها ؛ وقد كَفاكم أميرُ المؤمنين السُّؤال بمـا فَتح لكم من أبواب الأرْزاق ، وأسبابِ الاِرْتفاق ؛ وأحسن لكم علىٰ وِفاقكم وعلّمكم مكارِمَ الأخْلاق ، وأجراكم علىٰ عوائِدكم ولم يُمْسِكْ خَشْيةَ الإملاق ؛ ولم يبْقَ علىٰ أمير المؤمنين إلّا أن يسيرَ فيكم بكتابِ اللهِ وسنةِ رسوله صلّى الله عليه وسلم ، ويعمَلَ بمـا ينتفِعُ به مَنْ يجيء ـ أطال الله بقاء أمير المؤمنين ـ من بعـده ، ويَزِيدَ علىٰ كل من تقدَّمَ ، ويُقيمَ فروضَ الحج والجهاد ، ويُنيمَ الرعايا بعَدْله الشامل فى مِهاد ؛ وأمير المؤمنين يُقيم علىٰ عبـاده مَوْسِمَ الحجّ فى كل عام ، ويشـمَلُ سُكّان الحرمين الشريفين وسَـدَنةَ بيتِ الله الحرام ؛ ويجهِّزُ السبيل علىٰ عادته ويرجُو أن يعُودَ إلىٰ حاله الأوّل فى سالف الأيّام ، ويتدفّق فى هذين المسْجدين بحرُه الزاخر ويُرسـلَ إلىٰ ثالثهما البيتِ المقدّس ساكبَ الغمام ؛ ويقُومَ بقَوْمة قُبُور الأنبيـاء ـ صلوات الله عليهم ـ أينَ كانُوا وأكثرُهم فى الشام ، والجُمَعُ والجماعاتُ هى فيكم علىٰ قديم سُنّتِها ، وقويم سَنَنِها ؛ وستَزِيدُ فى أيّام أمير المؤمنين بمن ٱنضمّ إليه ، وبمـا يتسلّمُه من بلاد الكُفّار ويُسْلِم علىٰ يديه .

وأمّا الجهاد ، فيكْتفِى بٱجتهاد القائم عن أمير المؤمنين بأُموره ، المقلَّدِ عنـه جميعَ ماوراء سَريرِه ؛ وأمير المؤمنين قد وكَل إليه ـ خلد الله سلطانه ـ عَناءَ الأيّام ، وقلَّده سيفَه الراعب بَوارِقُه ليَسُلَّه واجدُه علىٰ الأعداء [وإلّا] سَلَّ خيالُه عليهم فى الأحْلام ؛ ويؤكّد أمير المؤمنين فى ٱرتجاع ماغلَب عليـه العِدا ، وٱنتزاع [ما بأ] يْديهم من بلاد الإسلام فإنّه حَقُّه وإنْ طال عليه المَـدىٰ ؛ وقد قدم الوصية بأنْ يُوالِي غزْوَ العَدُوِّ المخذول برًّا وبحرا ، ولا يكُفَّ عمّن يظْفَر به منهـم قتلا وأسْرا ، ولا يفُكَّ أغلالا ولا إصْرا ، ولا ينْفكَّ يرسل عليهم فى البحر غِرْبانًا ، وفى البرّ من الخيل عِقْبانًا ، يحْمل

فيهما كلّ فارسٍ صَقْرا، ويحمى الممـالكَ ممن يحوزُ أطرافها بإقدام، ويَتَخَوّلُ أكنافها الأقْدام، وينظُر فى مصالح القِلَاع والحُصُون والثُّغور، وما يُحتاج إليـه من آلاتِ القِتَال، وما تُجْتاح به الأعداءُ ويعجزُ عنه المُحْتال، وأمَّهاتِ المَمالك التى هى مَرابِطُ البُنُود، ومَرابِضُ الأُسُود، والجَنَاحُ الممدود؛ ويتفقّدُ أحوالَهُم بالعَرْض، بمـا لهم من خَيْل تَعْقِد [بالعجاج] ما بين السماء والأرض؛ ومالهم من زَرَد مصُون، وبَيْض مَسَّها ذائبُ ذهبٍ فكانتْ كأنَّها بَيْضٌ مكْنون؛ وسيوفٍ قوَاضِب، ورِماحٍ لكثْرة طعنِها من الدِّماء خَواضِب، وسِهام تُواصِـل القِسِيَّ وتفارقُها فتحِنُّ حنِينَ مفـارِقٍ وتُزمجِرُ القوس زمجرةَ مُغاضِب.

وهـذه جملةٌ أرادَ أميرُ المؤمنين بهـا تَطْييبَ قلوبكم، وإطالةَ ذيْل التطويلِ علىٰ مطْلوبكم؛ ودماؤُكم وأموالُكم وأعراضُكم فى حمَـايةٍ إلا ماأباح الشرعُ المطَهَّر، ومَزِيدُ الإحسان إليكم علىٰ مِقْدار مايخفىٰ منكم ويَظْهر.

وأما جُزْئيَّات الأمور، فقد علِمْتم بأنَّ فِيمن تقلَّد عن أمير المؤمنين غِنًى عن مثل هـذه الذِّكْرىٰ، وفتىً حقٌّ لا يَشْـغَل بطلب شيءٍ فكرا؛ وفى وُلَاة الأمور، ورُعاة الجُمُهور؛ ومَنْ هو سدَاد عمله، ومِدَادُ أمـله، ومُرادُ من هو منكم معشر الرعايا من قِبَله؛ وأنتم علىٰ تَفاوُتِ مقادِيرِكم وديعةُ أمير المؤمنين ومَنْ خَوَلكم وأنتم وهم فمـا مِنْكم إلّا من آسـتعرف أمير المؤمنين وتمشى فى مراضى الله علىٰ خُلُقه، وينظر ما هو عليه ويسير بسـيرته المُثْلىٰ فى طاعة الله فى خلقه؛ وكُلُّكم سواء فى الحق عند أمير المؤمنين وله عليـكم أداءُ النَّصيحه، وإبداء الطاعة بسَرِيرةٍ صحيحه؛ وقد دخل كلٌّ منكم فى كَنَف أمير المؤمنين وتحت رأفتـه، ولزِمَ حُكْمَ بيعته؛ وأُلْزِم طائرَه فى عُنُقه، وليستعمل كلٌّ منـكم فى الوفاء ما أصبحَ به عليما: ﴿ومَنْ أَوْفىٰ بمـا عاهَدَ عليهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أجْرا عظيما﴾.

هذا قولُ أميرِ المؤمنين، وعلىٰ هذا عُهِد إليه وبه يَعْهَد، وماسوىٰ هذا فهو فُجُور لا يُشْهَد به عليه ولا يَشْهَد، وهو يعملُ فى ذلك كلّه ما تُحْمَد عاقبتُه من الأعمال، ويحمِلُ منه ما يصْلُح به الحال والمآل، وأميرُ المؤمنين يستغفرُ اللهَ علىٰ كل حال، ويستعيذُ بالله من الإهمال، ويَختِمُ أميرُ المؤمنين قولَه بما أمر اللهُ به من العدل والإحسان، ويحمَدُ الله وهو من الخلق «أحمَد» وقد آتاه اللهُ مُلْكَ سليمان، والله تعالىٰ يمتّع أميرَ المؤمنين بما وَهَبه، ويملّكه أقطارَ الأرض ويُورِثه بعد العُمُر الطويل عقِبَه، ولا يزال علىٰ أَسِرَّة العَلْياء قُعودُه، ولباسُ الخلافة به أبَّهة الجلالة كأنّه ماءات منصورُه ولا رَدىَ مَهْدِيُّه ولا ذهب رَشِيدُه (١) .

المقصد السادس

(فيما يكتب فى آخر البَيْعة)

إذا ٱنتهىٰ إلىٰ آخر البَيْعة، شرع فى كتابة الخَواتم علىٰ ما تقدّم، فيكتُب: "إن شاء الله تعالىٰ" ثم يكتب التاريخ . ثم الذى يقتضيه قياسُ العُهُود أنه يكتب المستَنَد عن الخليفة فيكتب « بالإذنِ العالى المَوْلَوِىّ الإمامىّ النبوىّ المتوكّلىّ ـ مثلا ـ أعلاه الله تعالىٰ » وكأنّ الخليفة الذى عُقِدت له البيعةُ هو الذى أذِن فى كتابتها .

قلت : ولو أُسقِط المستَنَد فى البيعات فلا حرج بخلاف العُهُود : لأنها صادرة عن مُولٍّ وهو العاهد، فحَسُن إضافة المستَنَد إليه، بخلاف البيعة فإنها إنما تصْدُر عن أهل الحَلّ والعَقْد كما تقدّم . ويُكتفىٰ فى المستَنَد عنهم بكتابة خُطُوطهم فى آخر

(١) هذه المعاهدة من قلم القاضى الفاضل ليست لابسة حلل بلاغته ولا متسربلة جلابيب فصاحته فهى تجربة لم تنقح ومسودة لم تصحح كما أشار إليه ابن ناظر الجيوش فليتنبه .

البيعة كما سيأتى ؛ ثم بعـد كتابة المستَنَد ـ إن كُتِب ـ تُكتَب الحمدلةُ والصلاةُ على النبيّ صلّى الله عليه وسـلم والحَسْبلة ، على ماتقـدّم فى الكلام على الفَوَاتح والخَوَاتم فى مقدّمة الكتاب .

ثم يكْتُب مَنْ بايع من أهل الحلّ والعقْد والشهود على البَيْعة .

فأما منْ تَولّى عقْـدَ البيعة من أهل الحلّ والعقْد فيكتب : « بايعتُه على ذلك ، وكتب فلانُ بنُ فلان » ويدعو فى خلال ذلك قبل آسمه بما يناسب : مثل أن يقال « بايعتُـه على ذلك قدّس الله خلافَتَه » أو « زاد الله فى شَرَفه » أو « زاد الله فى آعْتِلائه » وما أشبه ذلك .

وأما الشهود على البَيْعة فالواجب أن يكتُب كلٌّ منهـم : «حضَرْتُ جَرَيانَ عقد البَيْعـة المذكورة ، وكتب فلانُ بنُ فلان» كما يكتب الشاهد بجَرَيان عقْـدِ النكاح ونحوه ؛ ولا بأس أن يدْعُوَ فى رسم شهادته قبل كتابة آسمه بما يناسب : مثل « قَرَنَها اللهُ تعالى باليُمْن أو بالسداد » أو « عَرَّف الله المسلمين بركَتَها » وما أشبه ذلك .

المقصـــد السابع

(فى قَطْع الورق الذى تُكتَب فيه البيعةُ ، والقلمِ الذى تُكتَب به ، وكيفيّـةِ كتابتها ، وصورةِ وضْـعها)

وآعلم أنّ البَيْعاتِ لم تكن متداوَلةَ الآستعمال لقلّة وُقُوعها ، فلم يكن لها قطْع ورق ، ولا تصويرٌ متعارَفٌ فيتبع ؛ ولكنه يُؤخَذ فيها بالقياس وعمومِ الألفاظ .

فأمّا قَطْع ورَقها ، فقد تقدّم فى الكلام على مقادير قَطْع الورق نقلا عن محمد بن عمر المدائنىّ فى كتاب "القَلَم والدَّواة" أنّ قطع البغدادىّ الكامل للخلفاء والملوك . ومقتضى

ذلك أن البيعات تكتب فيه ، وهو قياس ماذكره المقرّ الشهابى بنُ فضل الله فى "التعريف" من أنّ للعهود قطعَ البغدادىّ الكامل على ماسيأتى ذكره .

قلت : لكن سيأتى فى الكلام على عُهود الخلفاء أنها الآنَ قد صارتْ تكتَبُ فى قطع الشامى الكامِل ، وبينَهُما فى العَرْض والطُّول بَوْن كبير على ما تقدم بيانُه فى الكلام على قَطْع الورق ، وحينئذٍ فينبَغى أن تكونَ كتابةُ البَيْعات فى قَطْع الشامىّ مناسبةً لما تُكتَبُ فيه عهودُ الخلفاء الآنَ .

وأمّا القلم الذى يُكتب به فبحَسَب الورق الذى يُكتَب فيه : فإن كُتبتِ البيعةُ فى قطع البَغْدادىّ، كانت الكتابةُ بقلَمِ مختصر الطُّومار إذ هو المناسبُ له ؛ وإن كُتِبتْ فى قطع الشامىّ، كانت الكتابةُ بقلَمِ الثلُث الثقيل إذ هو المناسبُ له .

وأما كيفيَّة الكتابة وصورةُ وضعها، فقياسُ ماهو متداوَل فى كتابة العُهُود وغيرها، أنه يبتدأُ بكتابة الطُّرَّة فى أول الدَّرْج بالقلم الذى تُكتَب به البيعةُ سُطورا متلاصقةً لا خُلُوَّ بينها ، ممتدةً فى عَرْض الدَّرْج من أوله إلى آخره من غير هامش . ثم إن كانت الكتابة فى قطع البغدادىّ الكامِل ، جرى فيه على القاعدة المتداوَلَة فى عُهُود الملوك عن الخلفاء على ماسيأتى ذكره؛ ويترُكُ بعد الوصل الذى فيه الطُّرّةُ ستة أوصال بياضًا من غير كتابة : لتصير بوصل الطرّة سبعةَ أوصال؛ ثم يكتُب البسملة فى أول الوصل الثامن بحيث تكون أعالى ألِفاته تكاد تلحقُ الوصل الذى فوقه بهامش عريض عن يمينه قدرَ أربعة أصابعَ أو خمسة مطبوقةً؛ ثم يكتُب تحتَ البسملة سطرا من أول البيعة ملاصقًا لها ؛ ثم يُخلِّى مكانَ بيت العلامة قدرَ شبر جَرْيا على قاعدة العُهُود وإن لم تكن علامةٌ تُكتب، كما يخلِّى بيتُ العلامة فى بعض المكاتبات ولا يكتَبُ فيه شىء ؛ ثم يكتب السطر الثانى تحت بيت العلامة على

سَمْت السطر الذى تحتَ البسملة فى بقيَّة الوصل الذى فيه البسملةُ ؛ ويحْرِص أن تكون نهايةُ السجعة الأُولىٰ فى أثناء السطر الأوّل أو الثانى ؛ ثم يسترسل فى كتابة بقيَّة البيعة ويجعل بين كل سطرين قدْرَ رُبُع ذراع بذراع القُماش كما سيأتى فى العهود ؛ ويستصْحِب ذٰلك إلىٰ آخر البيعةِ ، فإذا انتهىٰ إلىٰ آخرها كتب "إن شاء الله تعالىٰ" ثم التاريخ ، ثم المستند ، ثم الحَمْدلةَ والصلاةَ علىٰ النبىّ صلى الله عليه وسلم ، والحَسْبلةَ ، علىٰ ما تقدّم بيانه فى الفواتح والخواتم فى مقدّمة الكتاب ؛ ثم يكتُبُ من بايعَ من أهل الحَلّ والعقد خُطوطَهم ، ثم الشهودُ علىٰ البيعة بعدهم .

وإن كانت الكتابة فى القطع الشامىّ ، فينبغى أن ينقُصَ عددُ أوصال البياض الذى بين الطرّة والبسملة وصلين فتكون خمسة ، وينقص الهامش فيكون قدْرَ ثلاثة أصابع علىٰ ما يقتضيه قانونُ الكتابة .

وهذه صورة وضعه فى الورق ممثَّلا لها بالطرّة التى أنشأتُها لذٰلك ، والبيعة الثانية من البيعتين اللتين أنشأتُهما

بياض بأعلىٰ الدرج بقدر إصبع

هذه بَيْعةٌ ميمُونه ، باليُمْن مبتَدَاة بالسعد مَقْرونه ؛ لمولانا السيد الجليل الإمام النبوىّ المتوكّل علىٰ الله أبى عبد الله محمدٍ أمير المؤمنين ، ابن الإمام المعتضِد بالله أبى الفتح أبى بكْر العبّاسىّ : زاد اللهُ تعالىٰ شرفَه علُوّا ، وفخاره سُمُوّا . قام بعَقْدها السلطانُ السيدُ الأعظم ، والشاهنشاه المعظَّم ، الملكُ الظاهر أبو سعيد برْقُوق ، خلّد الله تعالىٰ سلطانَه ، ونصر جُيُوشَه وأعوانه ؛ بمجمَعٍ من أهل الحَلّ والعَقْد ، والاعتبار والنقد : من القُضَاة والعلماء والأمراء ، ووجوه الناس والوزراء والصُّلَحاء والنُّصَحاء ، وإمضائها علىٰ السَّداد ، والنُّجح والرشاد . علىٰ ماشرح فيه

بياض ستة أوصال

بسم الله الرحمن الرحيم

هامش الحمدُ لله الذى جعلَ بيتَ الخلافة مَثابةً للناس وأمْنا وأقام

بيت العلامة

تقدير شبر

سُورَ الإمامة وِقايةً للأنام وحِصْنا ، وشدّ منها بالعِصابة

تقدير ربع ذراع

القُرشيّة أزْرا وشاد منها بالعُصْبة العبّاسيّة رُكْنا . وأغاث

تقدير ربع ذراع

الخلقَ بإمامِ هُدًى حَسَنِ سِيرةً وصَفَا سريرةً فراقَ صورةً ورقَّ معنى .

ثم يأتى على الكلام إلى آخر البيعة على هذا النَّمط إلى أن ينتهىَ إلى

قوله : والله تعالى يجعلُ آنتقالهم من أدْنى إلى أعلى ومن يُسْرى إلى يمنى ،

ويحقّق لهم بمن آستخلَفَه عليهم وعْدَه الصادقَ بقوله تعالى : ﴿ وعَدَ اللهُ

هامش الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لهم دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ

خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ .

إن شاء الله تعالى

كتب فى الثانى من جمادى الأولى ــــلا

سنة إحدى وتسعين وسبعمائة

بالإذن العالى المولوى الإمامى النبوى المتوكلى ــــلا

أعـــــلاه الله تعالى

الحمدُ لله وحدَه ، وصلواتُه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامُه

حسبُنا اللهُ ونِعم الوكيل

صورة خط المبايعين لخليفة من أهل الحل والعقد

بايعته على ذلك	بايعته على ذلك	بايعته على ذلك
قدّس الله تعالى خلافته	زاد الله تعالى فى شرفه	زاد الله تعالى فى أعتلائه
وكتب	وكتب	وكتب
فلان بن فلان	فلان بن فلان	فلان بن فلان

صورة خط الشهود على البيعة

حضرت	حضرت	حضرت
جَرَيان عقد	جَرَيان عقد	جَرَيان عقد
البيعةِ المذكورة	البيعةِ المذكورة	البيعةِ المذكورة
قرنَهــا الله تعالىٰ	قــرنَها الله تعالىٰ	عَرَّف اللهُ المسلمين
باليُمْن والبركة	بالسَّــداد	بركتَهــا
وكتب	وكتب	وكتب
فلان بن فلان	فلان بن فلان	فلان بن فلان

النــوع الثـانى

(من البَيْعات ، بيعاتُ المــلوك)

وٱعلم أنَّ المقرَّ الشِّهابىَّ بنَ فضل الله قد ذكر فى "التعريف" : أنَّ مَنْ قام من الملوك بغير عهد ممن قَبْـله لم تجر العادةُ بأن تُكتَب لهم مبايعةٌ ؛ وكأنَّه يريد ٱصطلاحَ بلاد المَشْرِق والديار المِصْرية ؛ أما بلادُ المغرب فقد جرتْ عادة مصطَلَحهم بكتابة البَيْعات لملُوكهم ، وذٰلك أنه ليس عندهم خليفةٌ يَدِينون له ، يتقلَّدون المُلْكَ بالعــهد منه . بل جُلُّهم أو كلُّهم يدَّعى الخلافةَ فهم يكتُبون البيعاتِ لهذا المعنىٰ .

وهذه نسخةُ بيعةٍ من هــذا النوع ، كُتِب بها للسلطان أبى عبد الله محمد بن السلطان أبى الحَجَّاج بن نَصْر بن الأحمر الأنصارىّ ، صاحبِ حمراء غَرْناطةَ من الأندَلُس ، مفتتحةٌ بخُطبة علىٰ قاعدتهم فى بَيْعات الخلفاء علىٰ ماتقدّم ذكره ، وربما تكرَّر الحمدُ فيها دلالةً علىٰ عِظَم النعمة . من إنشاء الوزير أبى عبدالله محمد بنِ الخطيب صاحب ديوان إنشائه ، علىٰ مارأيتُه فى ديوان ترسُّله ، وهى :

الحمدُ لله الذى جلّ شانا، وعزّ سُلطانا ، وأقام علىٰ رُبُوبيّته الواجبة فى كلّ شىء خَلَقه بُرهانا، الواجبِ الوجودِ ضرورةً إذ كان وُجودُ ماسـواه إمكانا، الحىّ القيّومِ حياةً أبديّةً سَرْمدِيّةً منزّهة عن الابتداء والانتهاء [فلا تَعْرِف وقْتا ولا تستدْعِى زمانا، العلـيم الذى يعْـلَم السّرّ وأخفىٰ (١)] فلا يعزُبُ عن عِلمه مِثقـالُ ذرّة فى الأرض ولا فى السماء إلّا أحاط بها عِلمـا وأدركها عِيانا، القـديرِ الذى ألْقتِ الموجُوداتُ كلُّها إلىٰ عظمتـه يدَ الخُضُوع استِسْلاما له وإذعانا . المُريد الذى بمشـيئته تصريفُ الأقدار، واختلافُ الليلِ والنّهار ، فإن منَع منَع عَدْلا وإن مَنَح مَنَح إحسانا ، شَهِد تداوُلُ المُلوك بدَوام مُلْكه ودلّ حدُوثُ ماسـواه علىٰ قِدَمه ، وأثنتْ ألْسِـنَةُ الحىّ والجمـادِ علىٰ مَواهبه وقِـسَمه ، وفاضَ علىٰ عَوالم السماء والأرض بحرُ جُوده العميم النّوال من قَبْل السؤال وكَرَمه ، وإنْ مِنْ شَىْء إلا يُسبّح بحمده ويُثْنِى علىٰ نِعَمه سرا وإعلانا . فهو اللهُ الذى لاإلٰه إلّا هو ليس فى الوجود إلّا فعلُه ، ألا لَهُ الخَلْقُ والأمْرُ وإليه يَرْجِعُ الأمْرُ كُلُّه، وَسِعَ الأكوانَ علىٰ تباينها فَضْلُه ، وقدّر المواهبَ والمقاسِمَ عدلُه ، مَنْعا ومَنْحا وزيادةً ونُقصانا .

والحمدُ لله الذى بيده الاختراعُ والإنشاء ، مالكِ الملك يُؤتِى المُلْكَ مَن يَشاء وينْزِع الملك ممّن يشَاء، سبَق فى مكنُون غيبه القَضاء، وخَفِيتْ عن خلقه الأسبابُ وعَمِيتْ عليهم الأنباء، وعجِزتْ عقُولُهم أن تُدْرِك منها كُنْهًا أو تَكْشِف منها بيَانا .

والحمدُ لله الذى رفَع قُبّة السماء ما اتّخذ لها عِمَادا ، وجعل الأرضَ فِراشًا ومِهَادا ، وخلق الجبالَ الراسِـيَةَ أوْتادا ، ورتّب أوضاعَها أجناسا متفاضلة ، وأنواعًا متباينةً مُتقابِلة : حَيوانًا ونباتًا وجمادًا ، وأقام فيها علىٰ حكمة الإبداع دلائلَ باهرةَ الشُّعاع

(١) الزيادة من ريحانة الكتّاب لابن الخطيب (ص ٤٨ ج ١) .

وأشهادا ، وجعل الليلَ والنهارَ خِلْفَةً والشمسَ والقمر حُسْبانا . وقدّر السياسةَ سياجا لعالَمِ الإنسان يضُمّ منه ما انتشر ، ويَطْوِى من تعدّيه ما نشر ، ويحملُه على الآداب التى تُرشِدُه إذا ضَلّ وتُقِيمه إذا عَثَر ، وتجبُرُه على أن يلتزم السُّنَن ويتّبع الأَثَر ، لُطْفا منه شَمِلَ البَشَر وحَنانا .

ولما عَمَر الأرضَ بهذا الجنس الذى فضّله وشرّفه ، ووهَبَ له العقلَ الذى تفكّر به فى حكمته حتى عَرَفه ، وبما يجبُ لرُبُوبيّته الواجبة وصَفَه ، جعلهم درجاتٍ بعضُها فوقَ بعض فَقْرا وغِنًى وطاعةً وعِصْيانا . واختار منهم سَفَرةَ الوحْى وحملةَ الآيات ، وأرسل فيهم الرُّسُل بالمعْجزات ، وعرّفهم بما كلّفهم من الأعمال المفْتَرَضات : ﴿لِيَجْزِىَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ . يومَ اعتِبار الأعمالِ واعتِبار الحَسَنات ، ونَصَب العدْلَ والمجازاةَ فى يوم العَرْض عليه قِسْطاسا وميزانا .

نحمَدُه وله الحمدُ فى الأُولى والآخره ، ونُثْنى على مَوَاهبه الجمّة وآلائه الوافره ، ونَمُدّ يدَ الضَّراعة ، فى مَوْقِف الرَّجاء والطَّاعة ، إلى المَزيد من مِنَنه الهامِيَة الهامِرَه ، ونسألُه دوامَ أَلْطافه الحافِيَة وعِصَمِه الظاهره ، واتّصالَ نِعمه التى لا نَزالُ نتعرّفُها مَثْنَى ووُحْدانا . ونشهدُ أنّه اللهُ الذى لا إلهَ إلّا هو وحدَه لا شريكَ له . [شهادةً نجدُها فى المَعاد عُدّةً واقيه ، ووسيلةً للأعمال الصالحة إليه راقِيَه ، وذخيرةً صالحةً باقيه ، ونُورا يَسعى بين أيْدينا ويكونُ على الرضا والقبول فينا عُنْوانا[1]] . ونشهد أنّ سيدنا ومولانا محمدا النبيَّ العربيَّ القرشيَّ الهاشميَّ عبدُه ورسوله الذى اصطفاه واختاره ، ورَفَع بين النبيّين والمرسلين مِقْدارَه ، وطهّر قلبه وقدّس أسرارَه ، وبلّغه

(١) الزيادة من ريحانة الكتاب ص ٤٩ .

من رِضَاه آختيارَه ، وأعطاه لِواءَ الشفاعة يَقْفُو آدَمُ ومَنْ بعده من الأنبياءِ الكِرام آثارَه ، وجعله أقْرَبَ الرُّسل مكانةً وأرفعَهم مكانًا . رسولُ الرحمه ، ونُورُ الظُّلمه ، وإمامُ الرُّسل الأئمه ، الذى جمع له بين مَزِيَّةِ السَّبْق ومزية التَّتِمّه ، وجعل طاعته من العذَابِ المقيم أمانًا . صاحبُ الشَّفاعة التى تؤمَّل ، والوسيلةِ التى إلى الله بها يُتوسَّل ، والدرجةِ التى لم يُؤْتَها الملَكُ المقرَّب ولا النبيُّ المُرْسَل ، والرتبةِ التى لم يُعْطِها اللهُ سواه إنسانًا . انتخبَه من أشرفِ العَرَب أُمًّا وأبًا ، وأزكى البريَّة طينةً وأرفعها نسبًا ، وآبتعثَه إلى كافَّة الخلق عَجَمًا وعَرَبًا ، ومَلَأَ بنُور دعوتِه البسيطةَ جنوبًا وشَمالا ومَشْرِقا ومَغْرِبا ، وأنزل عليه كتابَهُ الذى آمنتْ به الجنُّ لَمَّا سمِعَتْه وقالوا ﴿إنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ . تمامًا على الذى أحسَنَ وتفصيلاً لكلِّ شىء وتِبْيانا . فصدَعَ صلّى الله عليه وسلم بأمْرِ من آختار ذاتَهُ الطاهرةَ وآصطفَاها ، وأدّى أمانَةَ الله ووفَّاها ، ورأى الخلائقَ على شفى المَتالف فتلافَاها ، وتتبَّع أدواءَ الضَّلال فشَفَاها ، ومحا معالِمَ الجهل وعفَّاها ، وشادَ للخلقِ فى الحقِّ بُنْيانا . مؤيَّدا بالمُعْجِزات التى حُجَجُها تُقْبَل وتُسَلَّم : فمن جذْعٍ لِفراقِه يتألَّم ، وجَمادٍ بِصدْق نُبوّتِه يتكلَّم ، وجيشٍ شَكَا الظَّمأ ففجَّر لديْه المَعين منه بَنانا . وأىُّ مُعْجِزةٍ ككتاب الله الذى لاتنقضى عجائبُه ، فهو اليَمُّ والعُلومُ النافعةُ كلُّها مَذانِبُه ، وأُفُق الحق الذى تَهْدى فى ظُلُمات البرِّ والبحر كواكبُه ، والحُجَّةُ البالغةُ التى أصبحَتْ بين الحق والباطل فُرْقانا . فأشْرقتِ الأرضُ بنُور ربِّها وآياته ، وتمَّت كلمةُ الله صِدْقًا وعَدْلا لامُبَدِّلَ لكلماته ، وبلغ مُلْكُ أُمَّته مازُوِى له من أقْطار المعمُور وجِهاته ، حتّى عَمَر من أكناف البسيطةِ ، وأرياف البِحار المحيطة ، وِهَادا وكُثْبانا . ونُقِلَتْ كنُوزُ كِسْرى بعزِّ دعوته الغالبه ، وظَفِرتْ بفَلْج الخصام أيْدى عزائمِها المُطالبه ، وأصبح إيوانُ فارسَ مَجَرَّ رِماح العرب العاربه ، وقَذَفَتْ جُنودَ قيصَرَ من ذوائِبِها بالشُّهُب الثاقبه ، حتّى فرّ عن مَدَرته الطيِّبة

آئبا بالصَّفْقة الخائبه، وخلَصَتْ إلىٰ فُسْطاط مصر بكتائبها المُتعاقبه، فلا تسمَعُ الآذانُ فى إقامتهم إلَّا إقامةً وأذانا . ولا دليلَ أظهَرُ من هـذا القُطْر الأندلُسىّ الغريبِ الذى خلَّصتْ إليه سُيوفُها أثباجَ البِحار، علىٰ بُعْد المَراحل ونُزوح الدِّيار، وتكاثُف العَمالات وآختلافِ الأمْصار، ومُنْقَطَع العِمارة بأقصى الشَّمال ومَحَطِّ السُّفَّار، طلعَتْ عليه كلمةُ الله طُلُوعَ النهار، وآستوطنَتْه قبائلُ العرب الأحرار، وأرغَمتْ فيه أنُوفَ الكُفَّار، ضِراباً فى سبيلِ الله وطِعانا .

ولَـمَّا آسـتقام الدِّين، وتَمَّ معالمَ الإيمان الرسُولُ الأمين، وظَهَر الحقُّ المُبين، وراقَ من وَجْه المِـلَّة الحنيفيَّة السَّـمْحةِ الجَبين، وأخذ المَسالكَ والمآخذَ الإفصاحُ والتبيين، وتقرّرتِ المستَنَداتُ المعتَمَداتُ سُـنَّةً وقرآنا ، أشـعره الوحْىُ بالرِّحْلة عن هذِه الدار، والآنتقالِ إلىٰ محلِّ الكرامة ودارِ القَرار، وخَيَّره المَلَكُ فاختار الرَّفيقَ الأعلىٰ مُوفَّقا إلىٰ كرم الآختيار، [و]وجدَ صَحْبُه رضى الله عنهم فى الآستِخْلاف بعده والإيثارِ حُجَجا مُشْرِقةَ الأنوار، أطلقَتْ بالحـقِّ يدًا وأنطقَتْ بالصِّـدْق لسـانا . صـلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحابته ، وأُسْرته الطاهرةِ وعِصَابته ، وأنصاره وأصهاره وقَرابته، الذين كانوا فى مُعاضَـدَتِه إخْوانا ، وعلىٰ إعْلاء إمْرة الحقِّ أعْوانا . نُجومِ المِلَّة وأقمارِها، وغُيوثِها الهـامِيَة وبِحارِها ، وسُيوفِ الله التى لاتنْبُو شِفَارُها، وأعلامِ الهدىٰ التى لاتَبْلىٰ آثارُها، ودَعائم الدِّين التى رَفعَتْ منه علىٰ البِرِّ والتقوىٰ أركانا .

وحَيَّا اللهُ وُجوهَ حَىِّ الأنصار بالنعيم والنَّضْره ، أُولِى البأْس عنـد الحَفِيظة والعَفْو عند القُدْره ، الراضُون أن يذهَبَ الناسُ بالشاةِ والبعيرِ ويذْهَبوا برسولِ الله صلَّى الله عليه وسلم فنِعْمتِ المَنْقَبةُ والأُثْره، الحائزُون ببيعةِ الرِّضوان فضْلًا من الله ورضوانا . ووُزَراؤُه وظُهراؤُه فى كل أمر ، وخالصتُه يومَ أُحُد وبَدْر، لم يزالوا صـدْرا فى كلِّ

قَلْب وقَلْبا فى كلِّ صدر، يَصْلَوْن دُونَه كلَّ جمر، ويَفْـدُونَه بنُفُوسهم فى كلِّ سِرّ وجهر، ويعملُون فى إعلاء دينـه بِيضًا عِضَابًا وسُمْرا لِدَانا . صلاةً لا تزالُ سحائبُها ثَرَّه، وتحيةً دائمةً مستمِرّه، ما لَهِجت الألسُنُ بثنائهم، ووقفَت المَفاخرُ علىٰ عَلْيائهم، وتُعُلِّمت المواهبُ من آلائِهم ، وقَصُرت المحامدُ علىٰ مُسمَّياتهم وأسْمائهم، وكان حُبُّهم علىٰ الفَوْز بالجنة ضَمَانا .

ونسألك اللهم لهـذا الأمر النَّصْرىِّ الذى سَـبَبُه بسبَبِهم موْصُول ، وهم لفُرُوعه السامية أُصُول ، فيالهَا من نُصُول خلَفتها نُصُول، أنجزتَ وعْدَ النصر وهو ممْطُول ، وأحيت رُبُوعَ الإيمانِ وهى طُلُول ، نَصْرا عزيزًا وفَتْحا مبينا، وتأييدًا علىٰ أعدائك وتمكينا، ومُلْكا يبقىٰ فى الأعقـابِ وأعقابِ الأعقابِ وسُـلطانا . وأعنَّا اللهمَّ علىٰ ما أوجبْتَ له من مفرُوض الطـاعه ، وتأديةِ الحقِّ بجُهْد الإسـتطاعه ، وٱعْصِمْنا بإيالته العادلةِ من الإضَاعه، وٱحمِلْنا من مَرْضاته علىٰ سَنَنِ السُّنَّة والجماعه، وٱجعلْها كلمةً باقيةً إلىٰ قيام الساعه ﴿ وٱعفُ عنَّا وٱغفِرْ لَنَا وٱرْحَمْنا أنتَ مَوْلانا ﴾ .

أما بعدَ ما ٱفتُتِح به من تحميد الله وتمجيده، والثناء الذى تتعطَّرُ الأنْدِيةُ بتَرْديده، فإنَّ من المشهور الذى يعَضِّـده الوجودُ ويؤيِّده، والمعلومِ الذى هو كالشمس ضَلَّ من يُنكِره أو يجْحَدُه، والذائع بكلِّ قُطْر ترْويه رُواةُ الأنبـاءِ وتُسْنِده، ماعليه هـذا المُلْك النَّصْرىُّ الحِمىٰ ، الأنصارىُّ المُنْتمىٰ ؛ الذى يُصِيبُ شاكلةَ الحقِّ إذا رمىٰ ، ويَعُمُّ العبـادَ والبلادَ غيْثُه مَهْما همىٰ : من أَصَالةِ الأعْراق ، وكَرَم الأخْلاق، والفضل الباهرِ الإشْراق، والجهادِ الذى هو سَمَر الرَّكْب وحديثُ الرِّفَاق؛ وأنَّ قَوْمه الملوكَ الكِرام إن فُوخِروا بنسبٍ ذكَرُوا سعدَ بن عُبادةَ ومجْدَه، أو كُوثِرُوا بعددٍ غَلَبوا بالله وحْدَه ، أو ٱستُنْصِروا فرجُوا كلَّ شدّه ، وٱستظهَرُوا من [عِزِّهم](١) المَوْهُوب،

(١) من ريحانة الكتاب .

وصبرهم على الخطوب، بكلّ عَدَد وعُدّه ، دارُهم الثغرُ الأقصى ونعمت الدّار ، وشعارُهم «لا غالبَ إلّا الله» ونِعْم الشّعار ، زُهّادٌ إذا ذُكِر الدّين ، أُسُودٌ إذا حَمِيت الميادين، جبالٌ إذا زحفت الصُّفوف ، بُدُورٌ إذا أظلمت الزُّحُوف ، غيوثٌ إذا مُنِع المعرُوف، أفرادٌ إذا ذُكِرت الأُلُوف، إنْ بُويِعوا فالملائكةُ وُفُود [وحملةُ العلم](١) وحملةُ السّلاح شُهُود ، وإن وَلَدُوا فالسّيوفُ تمائمُ والسّروج مُهُود، وإن أصْحَرُوا للعدُوّ فالظّلال بُنُود ، وجُنودُ السبع الطّباق جُنُود، وإن أظلم الليلُ أسهَرُوا جُفُونَهم فى حياطة المسلمين والجُفُونُ رُقُود .

وإنّ هذا القُطرَ الذى انتهى سَيْلُ الفتح الأوّل إلى ناحيتـه، وأُجيلتْ قِداحُ الفوز بالدّعوة الحنيفيّة على الأقطار فأخذ الإسلامُ بناصيته، كان من فتحه الأول ماقد عُلِم، حَسَبَ ماسُطِّر ورُسِم، وإنّ موسى بن نُصَير وفتاه، حلّ من فُرْضة مَجَازه مَحَلّ موسى وفتاه، وحلّ الإسلامُ منه دارَ قَرار، وخِطّةَ خليقةٍ بارْتياد واختيار، وبلدًا لايُحصى خَيْره، ولا يَفْضُلُه بشىء من المزِيّة ماعدا الحَرَمين غَيْره، وامتدّت الأيّامُ حتّى تأنّس العدُوّ لرَوْعتـه، وخفّ عليه ماكان من صَرْعته، وقدَح فأوْرى، وأعضل داؤه واستَشْرى، وصارت الصُّغْرى التى كانت الكُبْرى، فلولا أنّ الله عَمَدَ الدِّين منهم بالعُمْدة الوَثيقه، حُماة الحقيقه، وأئمة الخليقة، وسُلالة مفتتِحى اليمامة ومفتتِحى الحَديقه ، لأجهز النصل، واجتُثّ من الدِّين الفرْعُ والأصْل، لٰكنّهم انتُدبوا إلى إمساك الدِّين بها انتِدابا ، ووصَلُوا للإسلام أسْبابا ، وتناولَها منهم صَقْرُ قَبِيل الخَزْرَج، ذُو الحُسام المُضرَّج، والثناء المؤرَّج، أبو عبد الله الغالب بالله محمدُ ابن يوسف بن نصر أمير المسلمين، المنتدَب لإقامة سنّة سيد المرسلين، قُدوةُ الملوك المجاهدين : نَضَّر الله وجهه وتقبّل جِهاده ، وشكر دفاعه عن حوزة الإسلام

(١) من ريحانة الكتّاب .

[وجلاده ، فأقشعت الظلمه ، وتماسكت الأمه ، وكف العدو وأقصر ، ورأى الإسلام بمن آستنصر ، وآستبصر فى الطاعة] (١) من آستبصر ، وهبت بنصر الله العزائم ، وكثرت على العدو الهزائم ، وتوارثوا ملكها ولدا عن أب ، مستندين إلى عدل وبذل وبسالة وجلالة وحسب ، تتضح فى أفق الجلال نجوم سيرهم هادية للسائرين ، وتفرق من سطواتهم فى الله أسود العرين ، إلى أن قام بالأمر وسطى سلكهم ، وبركة ملكهم ، الخليفة الواجب الطاعة بالحق على الخلق ، الشهير الجلالة والبسالة فى الغرب والشرق ، أمير المسلمين بواجب الحق ، ساحب أذيال العفاف والطهاره ، السعيد الإيالة والإماره ، البعيد الغاره ، من ذعر العدو لبأس حسامه ، وذخر الفتح الهنى لأيامه ، صدر الملوك المجاهدين ، وكبير الخلفاء العادلين ، البعيد المدى فى حماية الدين ، السعيد الشهيد ، أبو الوليد ، آبن المولى الهمام الأوحد ، الرفيع الممجد ، الطاهر الظاهر الأعلى ، الرئيس الكبير الجليل المقدس الأرضى ، « أبى سعيد » بن أبى الوليد ، بن نصر . فأحيا رحمه الله معالم الكتاب والسنة ، وجلى بنور عدله غياهب الدجنه ، وأعز الإسلام وحماه ، ورمى ثغرة الكفر فأصماه ، قدس الله روحه الطيب ، وسقى لحده من الرحمة الغمام الصيب ، وأورث الملك الجهادى من ولده خير ملك قبلت منه كف ، وآستدار به موكب للجهاد ملتف ، وشمخ بخدمته أنف ، وسما إلى مشاهدته طرف ، وتأرج من ذكره عرف ، وجرى إلى بابه حرف ، مولانا الملك الهمام ، الخليفة الإمام ، من أشرق بنور إيالته الإسلام ، وتشرفت بوجوده الليالى والأيام ، بدر الملك وشمسه ، وسر الزمان الذى قصر عن يومه أمسه ، الذى آشتهر عدله ، وبهر فضله ، وظهرت عليه عناية ربه ، وكان الخضوع له فى سلمه وحربه ، مولانا أمير المسلمين ، وقدوة الملوك المجاهدين والأئمة

(١) الزيادة عن ريحانة الكتاب لأبن الخطيب وهى لازمة لأستقامة الكلام .

العارفين ، السعيدُ ، الشهيدُ ، الطاهرُ ، الظاهِر ، الأوحدُ الهُمام ، الخليفة الإمام (أبو الحجّاج) رفعَ الله درجته فى أوليائه ، وحشَره مع الذين أنعم عليهم من أنبيائه وشُهدائه ، فوضَحت المَسالِكُ وبانَتْ ، وأشرقتِ المعاهدُ وٱزْدانتْ ، وشَمِل الصُّنعُ الإلهىّ واللُّطف الخفىّ أقطارَ هذه الأمة حيث كانَتْ . ولما ٱختار الله له ماعنده ، وبلغَ الأمدَ الذى قدّره سبحانه لحياته وحَدَّه ، وقبَضه إليه مستغفِرا لذنبه ، مطمئنًّا فى الحالة التى أقربُ ما يكون العبدُ فيها من ربِّه ، كأنما تأهَّب للشهادةِ [فاختار] مكانَها وزمانَها ، وطهَّر بالصوم نَفْسه التى كرَّم اللهُ شانها ، وطيَّب رَوْحها ورَيْحانَها ، فوقعت آراءُ أرباب الشُّورىٰ التى تصِحُّ الإمامة بٱتِّفاقها ، وتنعقدُ بعَقْد ميثاقِها : من أعلام العلم بقاعدة [مُلْكه] غَرْناطة حرسها اللهُ تعالىٰ التى غيرُها لها تبَع ، وحُماةِ الإسلام الذين فى آرائهم للدين والدنيا منتَفَع ، وخُلْصانِ الثِّقات ، ووُجوه الطَّبقات ، علىٰ مبايعة وارثِ مُلْكه بحقِّه ، الحائز فى مَيْدان الكمال وإحراز ما للإمامة من الشروط وٱستِلال خَصْل سَبْقه ، كبيرِ ولَده ، وسابقِ أمَده ، ووارثِ مُلْكه ، ووُسْطىٰ سِلْكه ، وعمادِ فُسْطاطه ، وبَدْرِ الهالة من بِساطه ، مولانا قمرِ العَلْياء ، ودُرّةِ الخُلَفاء ، وفَرْعِ الشجرة التى أصلُها ثابتٌ وفَرْعُها فى السماء ، الذى ظهرَتْ عليه مخايِلُ المُلك ناشِئا ووليدا ، وٱستشعرتِ الأقطارُ به وهو فى المَهْد أماناً وتمهيدا ، وٱستشرف الدِّينُ الحنيف فأتلع جِيدا ، وٱستأنف شباباً جديدا ، ناصرِ الحقِّ ، وغِياثِ الخلق ، الذى تميَّز بالسكينة والوَقار ، والحياءِ المُنْسدِل الأستار ، والبَسالةِ المرهُوبةِ الشِّفار ، والجُود المُنْسكب الأمطار ، والعدلِ المُشرِق الأنوار ، وجمعَ الله فيه شُروطَ الملك والاختيار ، مولانا ، وعُمْدة ديننا ودُنْيانا ، السلطان الفاضل ، والإمامِ العادِل ، والهمامِ الباسل ، الكريمِ الشمائل ، شمسِ الملك وبَدْرِه ، وعَيْنِ الزمانِ وصَدْرِه ، أميرِ المسلمين ، وقُرّة أعينِ المؤمنين ، أبو عَبْد الله : وصلَ الله أسبابَ سَعْده ، كما حلّى أجيادَ

المنابر بالدّعاء لمجده، وجعل جُنودَ السماء من جُنْده، ونَصَره بنَصْره العزيز فما النّصرُ إلا من عِنده، ورأوا أن قد ظَفِرتْ بالعُروة الوُثْقىٰ أيديهم، وأمِنَ فى ظلِّ الله رائحُهم وغاديهم، ودلّت علىٰ حُسْن الخواتم مَبَادِيهم؛ فتبادَرُوا وآنثالُوا، وتبخْتَرُوا فى ملابِس الأَمْن وآختالُوا؛ وهَبُّوا إلىٰ بَيْعته تطيرُ بهم أجنحةُ السّرور، وتُعْلِن آنطلاقَ وُجُوهِهم بانشِراح الصُّدور؛ وآجتمع منهم طوائفُ الخاصّة والجُمْهور: ما بين الشريف والمَشْروف، والرُّؤساءِ أُولى المَنْصب المعْروف؛ وحَمَلةِ العلم وحملةِ السُّيوف، والأُمَناء ومَنْ لَدَيْهم من الأُلُوف، وسائرِ الكافّة أُولى البِدَار لمثْلها والخُفُوف؛ فعقَدُوا له البيعةَ الوثيقةَ الأَسَاس، السعيدةَ بفضلِ الله علىٰ الناس، البرىءَ عهْدُها من الارْتياب والالْتِباس؛ الحائزةَ شُروطَ الكمال، الماحيةَ بنُور البيان ظُلَمَ الإشْكال؛ الضّمِينةَ حُسن العُقْبىٰ ونُجْحَ المآل، علىٰ ما بُويِع عليه رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم ومَنْ له من الصّحابة والآل؛ وعلىٰ السّمْع والطاعه، ومُلازَمة السنّة والجماعه؛ فأيديهم فى السّلْم والحَرْب رِدْءٌ لِيَده، وطاعتُهم إليه خالصةٌ فى يومِه وغَدِه؛ وأهواؤُهم متّفقة فى حالَى الشِّدّة والرَّخاء، وعقُودهم محفوظةٌ علىٰ تداوُلِ السَّرّاء والضَّرّاء؛ أشهَدُوا عليها الله وكفىٰ بالله شهيدا، وأعطَوْا صَفَقات أيمانهم تثْبيتا للوفاء بها وتأكيدا، وجعلوا منها فى أعناقهم ميثاقًا وثيقًا وعهدًا شديدا؛ والله عزّ وجل يقول: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فإنّما يَنْكُثُ علىٰ نَفْسِه ومَنْ أَوْفىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيه أجْرا عَظِيما﴾. ومن أصْدَقُ من اللهِ وَعْدا أو وَعِيدا. وهم قد بسَطُوا أيديهم يستنْزِلُون رحمةَ الله بالإخلاص والإنابه، وصرفُوا وُجُوهَهم إلىٰ من أمَرَهم بالدعاء ووعدَهم بالإجابَه؛ يسألُونه خيرَ مايقْضيه، والسيْرَ علىٰ مايُرْضيه.

اللهمّ بابَكَ عند تقلُّب الأحوالِ عَرَفْنا، ومن بحرِ نِعَمِك العميمةِ آغْتَرَفْنا، وعفْوُك سَتَرَ من عيُوبنا كلَّ ما آجتَرَحْنا وآقتَرَفْنا؛ ومن فَضْلك أغنيْتَنا، وبعينك التى

لاتنامُ حرستَنا وحميّتَنا [فانصُرْ حيَّنا وارحم ميِّتَنا][(١)] وأَوْزِعْنا شُكْرَ ما اوليتنا، واجعل لَنَا الخيْرَ والخيرَةَ فيما إليه هديْتَنا .

اللهمَّ إنَّ قطرنا من مادَّة الإسلام بعيد ، وقد أحدق بنا بحرٌ زاخرٌ وعدوٌّ شديد ، وفينا أيِّم وضعيف وهَرِمٌ ووَليد [وأنتَ مولانا ونحنُ عبيد .

اللهم مَنْ بايَعنا فى هذا العقد][(١)] فأسعِدْنا بمبايعته وطاعته، وكن له حيثُ لا يكونُ لنفسه بعد استنفادِ جُهْده فى التحفُّظ واستطاعته، وكُفَّ عنه كَفَّ عدوك وعدُوّه كُلَّما هبَّت به رياح طَمَاعته، يامَن يُفْرِده العبدُ بضراعته، ويعوذُ بحفْظه من إضاعته .

اللهمَّ أَدِّعَنَّا حقَّـه فإنا لانقوىٰ علىٰ ادائه، وتولَّ عنَّـا شكرَ ماحَمِدناه من سيرته وسيرة آبائه، واحمِلْه من توفيقك علىٰ سَوَائه .

اللهمَّ إنَّا إليه ناظِرُون، وعن أمره صادِرُون، ولإنجاز وعدك فى نصر من يَنْصُرك منتظِرُون، فأعنْه علىٰ ماقلَّدْتَه، وأنجز لدينا علىٰ يدَيْه ماوعَدْتَه، فما فَقَد شيئا مَنْ وَجَدك، ولا خاب من قَصَدَك، ولا ضَلَّ من اعتَمَدك، آمين آمين يارَبَّ العالمين.

وكتب الملأُ المذكورون أسماءَهم بخطوط أيديهم فى هذا الكتاب ، شاهدةً عليهم بما التزموه دُنيا ودِينا ، وسلَكُوا [منه] سبيلاً مُبينا ؛ وذٰلك فى الثانى والعشرين لشوّال من عامِ خمسٍ وخمسين وسبْعمائة .

قلت : وقد أخبر آخر هـذه البيعة بأن المبايعين للسلطان تُؤخَذُ خُطوطُ أيديهم فى كتاب البيعة شاهدة عليهم بما بايعوا عليه . والظاهر أن كتابةَ البيعة عندهم كما فى مكاتباتهم فى طُومارٍ واحدٍ كبيرٍ متضايق السُّطور، وأنه ليس له طُرَّة بأعلاه كما فى كتابة المصريين .

---

(١) الزيادة عن ريحانة الكتاب لابن الخطيب .

البـاب الثـالث

من المقـالة الخامسة فى العُهُود، وفيه فصلان

الفصـــل الأوّلُ

(فى معنىٰ العَهْد)

العَهْدُ لفظٌ مشتَرَك يقع فى اللغة علىٰ ستة مَعانٍ :

أحدها — الأَمَانُ . ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلىٰ مُدَّتِهِمْ ﴾ .

الثـانى — اليَمينُ . ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ وأَوْفُوا بِعَهْـدِ اللهِ إذا عاهَدْتُم ﴾ .

الثالث — الحِفَاظ . ومنه قولُه صلّى الله عليه وسلم : "حُسْنُ العَـهْدِ مِنَ الإيمـان" .

الرابع — الذِّمَّة . ومنه قولُه صلّى الله عليه وسلم "لا يُقْتَل مُسْلِمٌ بكافر ولا ذُو عَهْدٍ فى عَهْده" .

الخامس — الزَّمان . ومنه قولهم : "كان ذٰلك علىٰ عَهْدِ فلان" .

السادس — الوَصِيَّة . ومنه قوله تعـالىٰ : ﴿ ولَقَدْ عَهِدْنَا إلىٰ آدَمَ مِنْ قَبْـلُ فَنَسِىَ ﴾ وهو المراد هنا .

قال الجَوْهرِىّ : ومنه اشْتُقَّ العهدُ الذى يُكْتَب للوُلَاة[1] .

---

(١) بهامش الاصل هنا حاشية نصها «ولهم سابع ، وهو قولهم فى الدعاء للملك بعد موته : سق الله عهده برحمته أى مكانه المدفون فيه يسق بالرحمة . فصح أن يطلق على الزمان والمكان .

الفصـــــل الثانى
(فى بيانِ أنواعِ العُهُـــود ، وهى ثلاثةُ أنواع)

النـــــوعُ الأوّل
(عهودُ الخُلَفاء عن الخُلَفاء ، ويتعلّق النظرُ به من ثمانيةِ أوجُه)

الوجـــهُ الأوّل
(فى أصـــل مشروعِيَّتها)

والأصـلُ فى ذٰلك ماثبت فى الصحيحين من حديثِ آبنِ عمرَ رضى الله عنهما، أنه قيل لعُمَرَ عِنْد موته "ألا تَعْهَدُ؟ فقال: أأتحمَّلُ أمْرَكُم حيًّا وميتًا؟ إنْ أستخْلِفْ فقد آستَخْلَفَ مَنْ هو خَيْرٌ منّى، [يعنى أبا بكر][1]: وإنْ أتْرُكْ فقد تَرَكَ مَنْ هو خَيْرٌ منّى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم". فأثبتَ آستخلافَ أبى بكر رضىَ الله عنه بذٰلك، مشيرًا إلىٰ مارُوِى: "أنّه لما آشتَدَّ بأبى بكر الصدّيقِ رضى الله عنه الوَجَعُ، أرسلَ إلىٰ علىّ وعُثْمانَ ورجالٍ من المهاجِرين والأنصارِ، فقال: قد حَضَرَ ما تَرَوْن، ولا بُدّ من قائمٍ بأمْرِكم، فإن شِئْتم آستَخَرْتُم لأنفُسكم، وإن شِئتم آستَخَرْتُ لكم. قالوا: بل آختَرْ لنا، فأمَرَ عثمانَ فكتبَ عهْدَ عمرَ بنِ الخطاب رضى الله عنه (علىٰ ماسيأتى ذكره) ـفقال عمر: لا أُطِيقُ القِيامَ بأمُور الناسـ فقال أبو بكر هاتُوا سَيْفى! وتهدّده فانقاد عمرُ، ثم دخل عليه طلحة فعاتَبَه علىٰ آستخلافِ عُمَرَ. فقال: إنّ عُمَرَ واللهِ خيْرٌ لكم وأنتم شَرٌّ له، واللهِ لو وَلَّيتُك لجعلتَ أنْفَكَ فى قَفَاك، ولرفَعْتَ نفْسَك فوق قَدْرِها حتّى يكونَ اللهُ هو الذى يَضَعُها. أتيتَنِى وقد وَكَفَتْ عينُك، تريدُ أن تَفْتِنَنى عن دينى

(١) الزيادة من صحيح مسلم (ج ٢ ص ٨٠).

وتَرُدَّنِي عن رأيي، ثمّ لا أقام اللهُ رِجْلَك، واللهِ لئن بلغني أنك غمصته وذكرته بسوءٍ لأُلحقنّك بحمضات قُنَّةٍ حيثُ كنتم تَسْتَون ولا تَرْوَون، وتَرْتَون ولا تَشْبعون، وأنتم بذلك بَجِحُون راضُون، فقام طلحةُ نخرج ".

قال العسكرى : الحمضات جمع حَمْضة ضَرْبٌ من النَّبت، والقُنَّة أعلى الجبل .

قال الماوردى : وكان آستخلافُ أبى بكر رضى الله عنه عُمَرَ باتّفاقٍ من الصحابة من غير نكيرٍ فكان إجماعا .

وقد عهِدَ عمرُ رضى الله عنه إلى ستةٍ، وهم عثمانُ، وعلىٌّ، وطلحةُ، والزُّبيْرُ، وعبدُ الرحمن بنُ عوف، وسعدُ بن أبى وقّاص ؛ وتركها شُورى بينهم، فدخلُوا فيها وهم أعيانُ العصر وأشرافُ الصَّحابة رِضوانُ الله عليهم .

الوجـــه الثانى

(فى معنى الآستخلاف)

قال البغوى رحمه الله فى كتابه " التهذيب " فى الفقه : الآستخلافُ أن يجعلَه خليفةً فى حياته ثم يخلُفَه بعده . قال : ولو أوصىٰ بالإمامةِ فوجهانِ [١] : لأنه يخرج بالموت عن الوِلَاية فلا يصحُّ منه توليةُ الغير . وآستشكلَ الرافعىُّ رحمه الله هذا التوجيهَ بكلّ وصيةٍ، وبأنّ ما ذكره من جعله خليفةً بعده : إن أُريد به آستنابتُه فلا يكون ذلك عَهْدا إليه بالإمامة . وإن أُريد جعلُه إماما فى الحال، فهو : إمّا خلعُ نفس العاهد، وإمّا آجتماع إمامين فى وقت واحد . وإن أريد جعله خليفة أو إماما بعد موته فهو الوصية من غير فرق .

(١) أى وأصحهما عنده عدم الجواز . بدليل التعليل .

قلت : وهـذا جُنوحٌ من الرافعيّ رحمه الله إلى صحّة الخلافة بالوصـيّة أيضا ، كما تصح بالاستخلاف[(١)] .

الوجـــه الثالث

(فيما يجب على الكاتب مراعاته)

وآعلم أنه يجبُ على الكاتب أن يُراعِىَ فى كتابة العهد بالخلافة أمُورا :

منهـا — بَراعةُ الآستهلال بذكر مايتّفق له : من معنى الخلافة والإمامة وآشتقاقهما، وحالِ الوِلاية ، ولقبِ العاهدِ والمعهُود إليه، ولقبِ الخلافة ، إلى غير ذلك ممـا سبق بيانُه فى الكلام على البَيْعات .

ومنها — أن يُنَبّه على شَرَف رُتْبة الخلافة ، وعُلُوّ قدرها ، ورفعة شأنها ، ومَسِيس الحاجةِ إلى الإمام ، ودعَاية الضرورة إليه ، ونحو ذلك ممـا سبق فى البيعات أيضا .

ومنها — أن يُنَبّه على آجتماع شروطِ الإمامة فى المعهُود إليـه من حينِ صدور العهد بهـا من العاهد ، فقد قال المـاورديّ : إنه تُعتبَر شروط الإمامة فى المعهُود إليه من وَقْت العهد ، حتّى لو كان المعهودُ إليـه صغيراً أو فاسقاً وقْتَ العهد وبالغًا [عَدْلا] عند الموت ، لم تَصِحّ خلافتُـه حتّى يستأنِفَ أهلُ الآختيارِ بَيْعَتَه . قال الرافعيّ رحمه الله : وقد يُتَوقَّف فى هذا . قال النوويّ رحمه الله فى "الروضة" : لاتَوقُّفَ . والصواب ماقاله المـاورديّ .

ومنها — أن ينَبّه على آجتهاد العاهدِ وتروِّى نظره فى حقّيّة المعهود إليـه : فقد قال الماورديّ : وإذا أراد الإمامُ أن يَعْهَد بالإمامة ، فعليه أن يُجْهِد رأيَهُ فى الأحقّ بها ، والأقومِ بشُروطها ؛ فإذا تعيَّن له الآجتهاد فى أحد، عَهِد إليه .

(١) فى الأصول كما لاتصح الخ والظاهر أن « لا » زائدة من الناسخ تأمل .

ومنها — أن يُشِير إلىٰ تقدُّم الاستخارة علىٰ العهْد ، وأنّ استخارتَه أدّته إلىٰ المعهود إليه ؛ فإنَّ الاستخارةَ أمرٌ مطلوب فى كل أمر ، خصوصًا أمْرَ المسلمين وعُمومَ الولايةِ عليهم ، فإنّ اختيارَ الله للخلق خيرٌ من اختيارهم لأنفُسِهم ، والله يَقُولُ الحقَّ وهو يَهْدِى السَّبِيل .

ومنها — أن يَنبّه على أنّ عهدَه إليه بعد مَشُورة أهل الاختيار ومراجَعتِهم فى ذٰلك ، وتصويبِهم له ، خروجًا من الخلاف . فقد حكىٰ الرافعىُّ رحمه الله وجهين فيما إذا كان المعهودُ إليه أجنبيًّا من العاهد ليس بوَلَد ولا والِدٍ : هل يجوزُ أن يَنْفَرِد بعقْد البيعةِ له وتفويضِ العهْدِ إليه ولا يستشِيرَ فيه أحدا ؟ أصحُّهما الجوازُ : لأنّ العهدَ إلىٰ عمر رضى الله عنه لم يُوقَفْ علىٰ رضا الصحابة رضوان الله عليهم ، ولأنّ الإمام أحقُّ بها ، فكان اختيارُه فيها أمضىٰ ، وقولُه فيها أنفَذ .

وحكىٰ الماوردىّ فى جواز انفراد العاهدِ بالبيعة فيما إذا كان المعهودُ إليه والدًا أو ولدا ثلاثةَ مذاهب :

أحدهـا — ما اقتصر الرافعىُّ رحمه الله علىٰ نسبتِه إلىٰ الماوردىّ ، ومقتضىٰ كلامه ترجيحُه : أنه يجوزُ الانفرادُ بعقْدِها للولَد والوالد جميعا : لأنه أميرُ للأمة نافذُ الأمر لهم وعليهم ، فغُلِّب حكمُ المَنْصِب علىٰ حكم النسب ، ولم يجعلْ للتُّهمة طريقًا علىٰ أمانته ، ولا سبيلًا إلىٰ معارَضَته .

والثانى — أنه لايجوزُ انفرادُه بها لولَد ولا والد حتّىٰ يُشاوِرَ فيه أهلَ الاختيار فيرَوْنه أهْلا لها ، فيصحُّ منه حينئذ عَقْدُ البيعة : لأن ذٰلك [منه] تزكيةٌ [له] تجرى مَجْرىٰ الشهادة ، وتقليدُه علىٰ الأمة يجرى مَجْرىٰ الحكم ، والشهادةُ والحكمُ ممتنِعان من الولد والوالد للتُّهمة ، لما جُبِل عليه من المَيْل إليهما .

والثالث — أنه يجوز أنْ ينفرِد بعقْد البيعة لوالده دُونَ وَلَده : لأنَّ الطبع إلىٰ الوَلَد أميل ؛ فأما عقْدُها لأخيه وغيره من الأقارِب والمناسِبين فكعَقْدها للأجانب فى جواز الانفرادِ بها .

ومنها — أن يَنَبِّه علىٰ العلم بحياة المَعْهُود إليـه ووجُوده إن كان غائبا . فقد قال الماوردىّ : إنه لو عَهِد إلىٰ غائبٍ مجهولِ الحياةِ لم يصِحَّ عهدُه، وإن كان معلومَ الحياة صح، ويكونُ موقُوفا علىٰ قُدُومه .

ومنها — أن يُنَبِّه علىٰ أن المَعْهُود إليه منصوصٌ عليه بمُفْرده، أو وقع العهْدُ شُورىٰ فى جماعةٍ وأفضتِ الخلافةُ إلىٰ واحدٍ منهم بإخراج الباقين أنفُسَهم منهـا ، أو آختيارِ أهل الحَلِّ والعقْد أحدَهُم : إذ يجوز للخليفة أن يَعْهَد إلىٰ آثنين فأكثَرَ من غير تقديم البعضِ علىٰ البعض، ويختارُ أهلُ الآختيارِ بعد موته واحدًا ممن عهد إليه : فإنَّ عمرَ آبن الخطاب رضى الله عنه جعلها شُورىٰ فى ستة، فقال : الأمْرُ إلىٰ علىّ وبإزائه الزُّبيرُ بنُ العوّام، وإلىٰ عُثمانَ وبإزائه عبدُ الرحمٰن بنُ عوف ، وإلىٰ طَلْحةَ وبإزائه سعدُ بن أبى وَقَّاص . فلما تُوفِّىَ عمرُ رضى الله عنه، جعل الزبيرُ أمْرَه إلىٰ علىّ ، وجعل طلحةُ أمْرَه إلىٰ عثمانَ، وجعل سعدٌ أمره إلىٰ عبد الرحمن بنِ عَوْف؛ فخرج منها ثلاثةٌ، وبقيت شُورىٰ(١) فى عُثْمان وعلىّ ؛ ثم بايَعَ علىٌّ عثمانَ . والمعنىٰ فى الشُّورىٰ انه لايجوز أن تُجعلَ الإمامةُ بعد العاهد فى غير المعهودِ إليهم .

ومنها — أن يُنَبِّه علىٰ عَدَد المعهود إليهـم وترتيبهم إن كان قد رَتَّب الخلافةَ فى أكثَرَ من واحد ، إذ يجوز أن يَعْهَد إلىٰ آثنين فأكثَرَ علىٰ الترتيب . فلو رَتَّب

(١) أى بعد أن أخرج عبد الرحمن منها نفسه . وفى كتاب الأحكام السلطانية للماوردى فصارت الشورى بعد الستة فى هؤلاء الثلاثة وخرج منها أولئك الثلاثة ... ... ثم بعد الثلاثة فى آثنين علىّ وعثمان .

الخلافةَ فى ثلاثة مثلا ـ فقال : الخليفةُ بعدى فلان، فاذا مات، فالخليفةُ بعدَه فلان، [فإذا مات فالخليفة بعده فلان] (١) كانت الخلافة منتقلة إليهم على مارتّبها . ففى صحيح البخارىّ من رواية ٱبنِ عمرَ رضى الله عنهما "أنّ رسـولَ الله صلّى الله عليه وسـلم ٱستَخْلَف على جَيْش مُؤْتَةَ زَيْدَ بنَ حارثَةَ ـ وقال: إن أُصيبَ جَعْفَرُ بن أبى طالِب، فإن أُصيبَ فعبدُ الله بنُ رَوَاحَةَ، فإن أُصيبَ فلْيَرْتَضِ المسلمون رجُلا، فتقدّم زيدٌ فقُتِل، فأخذَ الرايةَ جعفرٌ وتقدّم فقُتِل، فأخذَ الرايةَ عبدُالله بنُ رَوَاحة وتقدّم فَقُتِل، فاختار المسلمونَ بعـده خالدَ بنَ الولِيد". قال المـاوردىّ : وإذا جاز ذلك فى الإمارة جاز مثلُه فى الخلافة . قال : وقد عَمِل بذلك فى الدولتين مَنْ لم يُنكِر عليه أحدٌ من علماء العصر :

فعهد سليمانُ بنُ عبد الملك إلى عمرَ بنِ عبد العزيز، ثم بعـده إلى يَزِيدَ بن عبد الملك، وأقرّه عليه مَنْ عاصره من الناس، ومَنْ لاتأخذُه فى الله لومةُ لائم .

ورتَّبها الرشـيدُ فى ثلاثةٍ من بَنِيه : الأمينِ، ثم المأمون، ثم المؤتَمَن، (٢) من غير مَشُورةِ من عاصره من فُضَلاء العلماء .

ولو قال العاهد : عهِدْتُ إلى فلان، فإن مات فلانٌ بعد إفضاء الخلافةِ إليـه، فالخليفةُ بعده فلان، لم تصحّ خلافةُ الثانى، ولم ينعقِدْ عهْدُه بها : لأنه لم يَعْهَدْ إليه فى الحال، وإنمـا جعله ولىَّ عهده بعد إفضاء الخلافةِ إلى الأوّل، وقد يموت قبل إفضائها إليه فلا يكون عهدُ الثانى بها مُنْبرِما .

ومنها ـ أن يُنَبِّهَ على أنّ صدُورَ العهد فى حال نُفُوذ أمرِ العاهد وجَوَازِ تَصَرُّفه، فإنه لو أراد ولىُّ العهد قبـل موت العـاهد أن يَرُدَّ ما إليه من وِلَايَة العهْدِ إلى غيره

(١) الزيادة من الأحكام السلطانية ص ١٠ ويظهر أنها سقطت من قلم الناسخ .
(٢) فى "الأحكام السلطانية" عن مشورة الخ حرر .

لم يجُزْ: لأنَّ الخلافة لا تستقرُّ إلا بعدَ موت المستخْلِف. وكذا لوقال: جعلتُه وليَّ عهدٍ إذا أفضتِ الخلافةُ إليَّ لم يجُزْ: لأنه ليس فى الحال بخليفة، فلم يصحَّ عهْدُه بالخلافة.

ومنها — أن يُنَبَّه على قَبُول المعهود إليه العَهْدَ، فإنه إذا عَهِد الإمامُ بالخلافة إلىٰ مَنْ يصِحُّ العهدُ إليه على الشُّروط المعتَبَرة فيه، كان العهدُ موقُوفا على قَبُول المعهُودِ إليه: فإن قَبِل صحَّ العهدُ وإلّا فلا، حتّى لو آمتنع من القَبُول بُويِع غيره. والعبرةُ فى زمَن القَبُول بما بين عَهْد العاهد ومَوْتِه على الأصح، لتنتقلَ عنه الإمامةُ إلى المعهُود إليه مستقِرّةً بالقَبُولِ المتقدّم. وقيل: إنما يكون القَبُول بعد موتِ العاهدِ: لأنه الوقتُ الذى يَصِحُّ فيه نظَرُ المعهودِ إليه.

ومنها — أنْ يُورِد من وَصايَا العاهدِ للمعهود إليه ما يَليق به. وقد ذكر الماوردىُّ أنّ الذى يلزَمُه من أمور الأمّة عَشَرةُ أشياءَ:

أحدها — حِفْظُ الدِّين على أصوله المستقِرّة، وما أجمع عليه سلَفُ الأمّة، وأنه إن نَجَم مبتَدِعٌ أو زاغَ ذُو شُبْهة عنه، أوْضح له الحُجّة، وبيّن له الصَّواب، وأخذه بما يلزمه من الحُقُوق والحُدُود: ليكون الدِّين محروسًا من الخَلَل، والأمّةُ ممنوعةً من الزَّلَل.

الثانى — تنفيذُ الأحكام، بين المتَشاجِرين، وقطْعُ الخِصام، بين المتنازعين، حتّى تعُمَّ النَّصَفَةُ فلا يتعدّى ظالم ولا يَضْعُف مظلُوم.

الثالث — حمايةُ البَيْضَة، والذَّبُّ عن الحُرَم: ليتصرَّفَ الناسُ فى المَعَايش، وينتشِرُوا فى الأسْفار آمنين من تغرير بنفْس أو مال.

الرابع — إقامةُ الحُـدود لتُصانَ محارمُ الله تعالىٰ عن الآنتهاك ، وتُحفَظَ حقُوقُ عباده من الإتلاف والآستهلاك .

الخامس — تحصينُ الثُّغور بالعُدّة المانِعه ، والقُوّة الدافِعه ، حتّى لايظفَر الأعداءُ بِغِرَّة ينتهكُون بها محرَّما ، أو يَسْفِكُون فيها لمسلمٍ أو معاهَدٍ دمًا .

السادس — جِهادُ مَنْ عانَدَ الإسلامَ بعد الدَّعوة حتّى يُسْلِم أو يَدْخُلَ فى الذِّمّة : ليقام بحقّ الله تعالىٰ فى إظهارِه علىٰ الدِّين كلّه .

السابع — جِبَايَةُ الفَىْء(١) والصَّدَقاتِ علىٰ ما أوجبه الشرْعُ نصًّا وآجتهادا من غير حَيْف ولا عَسف .

الثامن — تقديرُ العطَاء وما يُستَحَقُّ فى بيتِ المـال من غير سَرَف ولا تقْتير ، ودفعُه فى وقت لاتقديمَ فيه ولا تأْخِير .

التاسع — آستِكفاءُ الأُمَناء ، وتقليدُ النُّصَحاء ، فيما يفوِّضه [إليهم من الأعمال](٢) ويَكِلُه إليهم من الأموال : لتكونَ الأعمالُ بالكُفَاةِ مضبُوطة ، والأموالُ بالأُمَناءِ محفُوظة .

العاشر — أن يُباشِرَ بنَفْسه مُشَارَكَةَ الأمور وتصفُّحَ الأحوال : لِيَنْهَضَ بسياسة الأمّة ، وحِراسة المِلَّة ، ولا يُعَوِّل علىٰ التفويض تشاغُلًا بلذَّةٍ أو عبادة ، فقد يخونُ الأمينُ ويغُشُّ الناصحُ . وقد قال تعالىٰ : ﴿ ياداوُدُ إنَّا جعلْنَاكَ خليفةً فى الأَرْض فاحْكُمْ بيْنَ النَّاسِ بالحَقِّ ولا تَتَّبِعِ الهَوىٰ فيُضِلَّكَ عن سَبِيلِ اللهِ ﴾ . فلم يقتصر اللهُ

(١) يطلق الفىء على الغنيمة والخراج والمراد هنا الثانى .

(٢) الزيادة من "الأحكام" .

تعالىٰ علىٰ التفويض دُونَ المبَاشَرة ، بل أَمَرَه بمبَاشَرةِ الحُكْمِ بين الخَلْق بنَفْسه . وقد قال صلىّٰ الله عليه وسلم : " كُلُّكُمْ راعٍ وكُلُّكم مَسْئُولٌ عن رَعِيَّته " ولله درُّ محمدِ بنِ يَزْدادَ وزيرِ المأمون، حيثُ قال مخاطبا له :

مَنْ كانَ حارِسَ دُنْيَا إنَّهُ قَمِنٌ * أنْ لاينامَ وكُلُّ الناس نُوَّامُ!

وكَيْفَ تَرْقُدُ عَيْنَا مَنْ تَضَيَّفه * هَمَّانِ من أمْرِه : حَلٌّ وإبْرامُ!

وحينئذ فيجب علىٰ الكاتب أن يضَمِّن هذه الأمورَ العشرةَ فى وصايا المعهود إليه . وقد ذكر المَقَرّ الشِّهابىُ بنُ فضل الله فى " التعريف " فى وصيَّة ولىّ العهد بالخلافة ومَنْ فى معناه من الملوك ووُلاة عهْدِهم هذه الأمورَ ممتزجةً بأمور أخرىٰ من مُهمَّات الملك وحُسْن تدبيره وسياسته .

قلت : إنما يحسُن إيراد هذا كلّه فى وصايا وُلَاة العهد إذا كان الأمرُ علىٰ ما كانت الخلافةُ عليه أوّلا من عُموم التصرُّف؛ أما الآنَ فالواجبُ أن يُقْتَصر فى وصاياهم علىٰ حُسْن التأنِّى فى العهد بالسلطنة لمن يقُوم بأعبائها، وأن يكونَ ماتقدم مختصاً بوصايا الملُوك فى العهُود عن الخلفاء .

الوجـــه الرابع

(فيما يُكتَب فى الطُّرَّة، وهو تلخيصُ مايتضمَّنُه العهدُ)

وهذه نسخة طُرَّة أنشأتُها ليُنْسَج علىٰ مِنْوالها، وهى :

هذا عهدٌ إمامىٌّ قد علَتْ جُدُوده ، وزادَ فى الاِرْتقاء فى العَلْياء صُعُودُه، وفُصِّلت بالجواهر قلائدُه ونُظِّمتْ بنفيس الدُّرِّ عقُودُه . من عبدِ الله ووليّه الإمام المتوكّل

علىٰ الله أبى عبد الله محمدِ بن الإمام المعتضِدِ بالله أبى الفتح ابى بكر، بالخلافة المقدَّسة، لولده السيِّد الجليل ذخيرةِ الدِّين، وولىِّ عهد المسلمين، أبى الفضل العباس: بلَّغه الله فيه غايةَ الأمل، وأقرّ به عينَ الأمة كما أقرّ به عينَ أمير المؤمنين وقد فَعَل علىٰ ماشُرِح فيه.

الوجـه الخامس

(فيما يُكتَب لأولياءِ العهـد من الألقاب)

[وهو] كما سيأتى فى الطريقة الثانيـة من المَذْهب الأوّل ممـا يُكتَب فى مَتْن العهد من كلام المقرّ الشهابىّ بن فضـلِ الله فى "التعريف" أنه يقال فيه: الأمير السَّيِّد الجليل، ذخيرة الدِّين، وولىّ عهد المسلمين، أ بِ فلان فلان. وفى المَذْهَب الثالث فيما كتب به للمستوثِق بنِ المستكفى ما يوافِقُه، وقد تقـدّم أنه لا يَقَع فى ألقابهم إطنابٌ، ولا تعدُّدُ ألقاب، فليقتَصَرْ علىٰ ذلك أو مايشابهه.

الوجـه السادس

(فيما يكتب فى مَتْن العهـد، وفيه ثلاثة مذاهبَ)

المـذهب الأوّل

(أن يفتَتح العهدُ بعد البسملة بلفظ «هذا»)

مثل: «هذا ماعَهِد به فلان لفلان» أو «هذا عهدٌ من فلان لفلان» أو «هذا كتابٌ اكتَتَبه فلان لفلان» ونحو ذلك.

وللكُتَّاب فيه طريقتان:

الطريقــة الأولىٰ

(طريقــةُ المتقدّمين)

وهى أنْ لايأتى بخُطْبة فى أثناءِ العَهْـد، ولا يَتعرّض إلىٰ ذكرِ أوصافِ المعهود إليه والثناءِ عليه، أو يتعرّض لذلك باختصار؛ ثم يأْتِى بالوصايا؛ ثم يختِمُه بالسلام أو بالدعاءِ أو بغيرِ ذٰلك ممـا يُناسِب . وعلىٰ ذٰلك كانتْ عهودُ السَّلَف من الصَّحابة والتابعين فمَنْ بعدَهم، ٱتّباعاً للصِّدِّيق رضى الله عنه فيما كَتَب به لعُمَرَبنِ الخطّاب، كما تقدّمت الإشارةُ إليه فى الٱستشهاد .

ونسختُه فيما رواه البيهقىُّ فى "السُّنَن" وٱقتصر عليـه الشيخُ شهاب الدِّين محمود الحلبىّ فى "حسن التوسُّل" .

«هذا ماعهِدَ أبو بكر خليفةُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم آخِرَ عهْدِه بالدنيا وأوّلَ عهدِه بالآخرة : إنى ٱستخلفتُ عليكم عمرَبنَ الخطاب فإنْ بَرَّوعدَلَ فذٰلك ظنّى به، وإن بدّلَ أو غيّرفلا عِلْمَ لى بالغَيْب، والخيرَ أردتُ بكم، ولكلِّ ٱمرِئٍ ما ٱكتَسَبَ مِنَ الإثم : ﴿وسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أىَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُون﴾ » .

وذكر أبو هلال العسكرىّ فى كتابه "الأوائل" عن المدائنىّ أنه حينَ دعا عثمانَ ٱبنَ عفّانَ رضى الله عنه لكتابة العهْد بالخلافة بعـده قال : ٱكتُبْ « هذا ماعَهِدَ أبو بكرِ بنُ أبى قُحافةَ فى آخرِ عهدِه بالدنيا [نازحا عنها][1] وأوّلِ عهـده بالآخرة داخلًا فيهـا حيثُ يتوبُ الفاجِرُ، ويُؤْمِن الكافر ، ويَصْـدُق الكاذِب ؛ وهو يشهَدُ أن لاإلٰهَ إلّا الله وأنّ محمدًا عبـدُه ورسوله ، وقد ٱستَخْلَف» ـ ثم دهَمَتْه غَشْيةٌ فكتب عثمان : « عُمَرَبنَ الخطّاب » . فلمّـا أفاق ، قال : أكتبْتَ شيئا ؟ قال نعم عُمَر

(١) الزيادة من كتاب الامامة والسياسة لابن قتيبة .

ابن الخطاب . قال : « رحمك الله ، أما إنك لو كتبت نفسك لكنت أهلاً لها ، اكتب قد استخلف عمر بن الخطاب ورضيه لكم ، فإن عدل فذلك ظني به ورأيي فيه ، وإن بدل فلكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، والخير أردت ، ولا أعلم الغيب : ﴿وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون﴾ » .

وعلى هذه الطريقة كُتب عهد عمر بن عبد العزيز بالخلافة عن سليمان بن عبد الملك ، ثم من بعده إلى أخيه يزيد بن عبد الملك .

وهذه نسخته فيما ذكره ابن قتيبة فى تاريخ الخلفاء :

هذا ما عهد به عبد الله سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين وخليفة المسلمين . عهد أنه يشهد لله عز وجل بالربوبية والوحدانية ، وأن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ، بعثه إلى محسني عباده بشيرا ، وإلى مذنبيهم نذيرا . وأن الجنة والنار مخلوقتان حقا : خلق الجنة رحمة وجزاء لمن أطاعه ، والنار نقمة وجزاء لمن عصاه ، وأوجب العفو جودا وكرما لمن عفا عنه . وأن سليمان مقر على نفسه بما يعلم الله من ذنوبه ، وبما تعلمه نفسه من معصية ربه ، موجبا(١) على نفسه استحقاق ما خلق من النقمة ، راجيا لنفسه ما خلق من الرحمة ووعد من العفو والمغفرة ، وأن المقادير كلها خيرها وشرها مقدورة(٢) بإرادته ، مكونة بتكوينه ، وأنه الهادى فلا مغوى ولا مضل لمن هداه وخلقه لرحمته ، وأنه يفتن الميت فى قبره بالسؤال عن دينه ونبيه الذى أرسل إلى أمته ، لا منجى لمن خرج من الدنيا إلى الآخرة من هذه المسألة إلا لمن استثناه عز وجل فى علمه . وسليمان يسأل الله الكريم بواسع فضله ، وعظيم منه ، الثبات على ما أسر وأعلن من معرفة حقه وحق نبيه عند

(١) كذا فى الأصول بالنصب وكذلك وقع فى كتاب الامامة والسياسة لابن قتيبة .

(٢) فى كتاب الامام والسياسة لابن قتيبة «خيرها وشرها من الله وأنه هو الهادى الخ» .

مَسْأَلَةَ رُسُله ، والنَّجاةَ من هَوْل فتنة فَتَّانِيه . ويشهدُ أنَّ الميزان يومَ القيامة حقٌّ يقين ، يزنُ سيئاتِ المسيئين ، وحسَناتِ المحسنين : ليُرِيَ عبادَه من عظيمِ قُدْرته ، ماأراده من [الخير] لعباده بما لم يكونوا يحتَسِبون ، وأنَّ من ثَقُلَتْ مَوَازِينُه فأولئك هم المُفْلِحُون ، ومَنْ خَفَّتْ موازِينُه يومئذٍ فأولئك هم الخاسِرون . وأنَّ حوضَ محمدٍ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلم يومَ المَحْشَر والموْقف للعرْض حقٌّ ، وأنَّ عدَدَ آنيته كنُجُوم السماء ، من شَرِبَ منه لم يظْمَأْ أبدا ، وسليمان يسألُ الله بواسع رحمته أن لا يُرِدَّه عن حوض نبيِّه عطشان . وأنَّ أبا بكر وعمرَ خيرُ هذه الأمة بعد نبينا ، والله يعلمُ بعدَهما حيثُ الخيْرُ وفيمن الخَيْرُ من هذه الأمة . وأنَّ هذه الشَّهادة كلَّها المذكورةَ فى عهده هذا يعلمُها الله من سِرِّه وإعلانه وعَقْدِ ضميره ، وأنه بها عبَدَ ربه فى سالف أيَّامه وماضِى عُمُره ، وعليها أتاه يقينُ ربه ، وتوفَّاه أجَلُه ، وعليها يُبْعَث بعد موته إن شاء الله . وأن سليمان كانت له بينَ هذه الشهادة بَلَايَا وسيِّئاتٌ لم يكُنْ له[1] عنها مَحِيد ولابُدّ ، جرىٰ بها المقدور من الرَّبِّ النافذ إلىٰ إتمام ماحدّ ، فإن يعْفُ ويصْفَحْ فذاك ماعُرِف منه قديمًا ونُسِب إليه حَدِيثا ، وتلك صفَتُه التى وَصَف بها نفسه فى كتابه الصادِق ، وكلامه الناطق ؛ وإنْ يُعاقِبْ وينْتَقِم فبما قدمتْ يَدَاه ، وما اللهُ بظَلَّام للعبيد . وأن سليمان يُحَرِّج علىٰ مَنْ قَرَأ عهدَه هذا وسمِعَ ما فيه من حكمة أن ينْتَهِيَ إليه فى أمْره ونَهْيه ، باللهِ العظيم ، ومحمدٍ رسولِه الكريم ؛ وأن يَدَعَ الإِحَنَ المُضْغَنه ، ويأخُذَ بالمكارم المُدْجَنه ؛ ويرفَعَ يديه إلىٰ الله بالضمير النَّصُوح والدُّعاءِ الصحيح ، والصَّفْح الصَّريح ؛ يسأله العفْوَ عنِّى ، والمغفرةَ لى ، والنجاةَ من فَزَعى والمسألةِ فى قَبْرى ، لعلَّ الوَدُود ، أن يجعَلَ منكم مُجابَ الدعوة بما مَنَّ اللهِ علَىَّ

(١) فى كتاب الامامة والسياسة « لم يكن له عنها محيص ولا دونها مقصر بالقدر السابق والعلم النافذ فى محكم الوحى فان يعف » الخ .

من صَفْحه يعود، إن شاء اللهُ . وأنَّ وليّ عهدِ سليمان بنِ عبد الملك أميرِ المؤمنين، وصاحبَ أمْره بعد موتِه، فى جُنْـده ورعيَّته وخاصَّته وعامته؛ وكلِّ من ٱستخْلفنى الله عليه، وٱسترْعانِى النظرَ فيه، الرجلُ الصالح «عمرُ بن عبد العزيز» بنِ مَرْوان ٱبنُ عمِّى، لمـا بلَوْتُ من باطن أمْره وظاهِره، ورجوتُ الله بذلك [وأردت] رِضاه ورحمتَـه إن شاء الله . ثم من بعده تُسـلَّمُ إلىٰ يَزِيدَ بنِ عبد الملك بن مَرْوان إن بقِى بعْده، فإنِّى مارأيتُ منه إلَّا خيرا ولا ٱطَّلعتُ له علىٰ مكْروه . وصِغار ولَدى وكِبارُهم إلىٰ عُمَر، إذ رجوتُ أن لا يأْلُوهم رَشَدا وصَلاحا، والله خليفتِى عليهم وعلىٰ جماعةِ المؤمنين والمسلمين وهو أرحم الراحمين؛ وٱقْرءُوا عهْدى عليكم السلام ورحمة الله . ومن أبىٰ أمْرِى هذا أو خالَفَ عهْدِى هذا ــ وأرجو ان لايخالفه أحدٌ من أمة محمد ــ فهو ضالٌّ مضِلٌّ يُستعْتَب، فإنْ أَعتبَ و إلَّا فإنى لمن صاحب(؟) (١) عهدى فيهم بالسـيف السيف والقتل القتل، فانهم مستوجبون لهم، وهم لهيبته ملقحون، والله المستعان، ولا حولَ ولا قوّةَ إلا بالله القديم الإحسان .

تم ذلك والحمدُ لله وحده، وصلواته علىٰ سيدنا محمد وآله .

✦ ✦ ✦

وعلىٰ نحوٍ من ذلك كتب المأمونُ العباسىُّ عهدَ علىِّ بن موسى العَلَوىِّ (المعروف بالرِّضىِّ) بالخلافة بعده .

وهذه نسخته فيما ذكر صاحب العِقْد :

هذا كتابٌ كتبه عبدُ الله بن هارونَ الرشيد أميرُ المؤمنين بيده، لعلىِّ بنِ موسىٰ بن جعفر ولىِّ عهْده .

(١) فى كتاب الامامة والسياسة « والا فالسيف والله المستعان » وهى واضحة .

أما بعدُ، فإنّ الله عز وجلّ ٱصْطفىٰ الإسلامَ دينا، وٱصْطفىٰ له من عباده رُسُلا دالّين عليه، وهادين إليه، يبشّر أولُهم بآخرِهم، ويصدّق تاليهم ماضِيَهم، حتّىٰ ٱنتهتْ نبوّةُالله إلىٰ محمد صلىّ الله عليه وسلم علىٰ فترةٍ من الرُّسُل، ودُرُوس من العلم، وٱنقطاعٍ من الوَحْى، وٱقترابٍ من الساعةِ، فختم اللهُ به النبيِّين وجعله شاهدًا لهم، ومُهَيْمِنا عليهم، وأنزل عليه كتابَهُ العزيزالذى ﴿لايأتيه الباطلُ من بيْنِ يدَيْهِ ولا مِنْ خَلْفه تنْزِيلٌ من حَكيمٍ حَميدٍ﴾. فأحَلّ وحَرّم، ووعَدَ وأوْعَد، وحَذّر وأنْذَر، وأمَرَ به ونَهىٰ عنه: لتكونَ له الحجةُ البالغةُ علىٰ خَلْقه: و(١) ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عن بيّنةٍ، ويَحْيَا مَنْ حَىَّ عن بيّنةٍ وإنَّ اللهَ لَسميعٌ عَليم﴾. فبلّغ عن الله رسالتَه، ودعا إلىٰ سبيله بما أمره به من الحِكْمة والمَوْعظة الحَسَنة، والمجادلةِ بالتى هى أحسَن، ثم بالجهاد والغِلْظة حتّىٰ قَبَضه اللهُ إليه، وٱختار له ماعِنْده صلىّ اللهُ عليه، فلمّا ٱنقضتِ النبوّةُ وخَتَمَ الله بمحمد صلىّ الله عليه وسلم الوَحْىَ والرسالة، جعلَ قِوَامَ الدين، ونِظامَ أمرِ المسلمين، بالخلافةِ وإتمامها وعِزِّها، والقيامِ بحق الله فيها بالطاعةِ التى تُقَام بها فرائضُ الله وحُدُوده، وشرائعُ الإسلام وسُنَنُهُ، ويُجاهَد بها عدوُّه. فعلىٰ خُلَفاء الله طاعتُه فيما ٱستحْفَظهم وٱستَرْعاهم من دِينه وعباده، وعلىٰ المسلمين طاعةُ خُلَفائهم ومُعاونتُهم علىٰ إقامةِ حقِّ الله وعَدْله، وأَمْنِ السُّبُل وحَقْن الدِّماء، وصلاحِ ذاتِ البَيْن، وجَمْع الألفة، وفى إخْلال ذلك ٱضطرابُ حَبْل المسلمين وٱختلالُهم، وٱختلافُ مِلّتهم، وقَهْرُ دِينهم، وٱستعلاءُ عدُوِّهم، وتفرّقُ الكلمة، وخُسرانُ الدنيا والآخرة. فحقٌّ علىٰ من ٱستخْلَفه اللهُ فى أرضه، وأَتمنه علىٰ خَلْقه [أنْ] يُؤْثِر مافيه رضا اللهِ وطاعتَه ويعْد [ل] فيما اللهُ واقفُه عليه وسائلُه عنه، ويحْكُمَ بالحق ويعْمَل بالعدل فيما حَمّله الله وقلّده، فإن الله عز وجل يقول لنبيه داود عليه السلام:

(١) لعل الجار والمجرور فى المحلين زائد من قلم الناسخ.

﴿يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ . وقال عز وجل : ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ . وبلغنا أنّ عمر بن الخطّاب قال : « لو ضاعت سَخْلةٌ بجانب الفُرات لتخوّفتُ أن يسألَنِي اللهُ عنها » . وآيْمُ الله إنّ المسئُول عن خاصّة نفسه ، الموقُوف على عمله ، فيما بينَ الله وبينه ، لَمُتعرِّضٌ لأمر كبير، وعلى خَطَر عظيم ، فكيف بالمسئُول عن رعاية الأُمّة ؛ وبالله الثّقةُ ، وإليه المَفْزَع والرَّغْبة فى التوفيق مع العِصْمة ، والتَّسْديد والهداية إلى ما فيه ثُبوتُ الحُجّة ، والفوزُ من الله بالرِّضوان والرحمة . وأنظَرُ الأئمة لنفسه ، وأنصَحُهم فى دينه وعباده وخلافته فى أرضه ، مَنْ عمِل بطاعة الله وكتابه وسنّة نبيه عليه السلام فى مدّة أيّامه ، واجتهَد وأجهَد رأيَه ونظَره فيمن يُولّيه عَهْدَه ، ويختارُه لإمامة المسلمين ورعايتهم بعدَه ، وينْصِبُه عَلَما لهم ، ومَفْزَعا فى جَمْع أُلْفتهم ، ولَمِّ شَعَثهم ، وحَقْن دمائهم ، والأمْنِ بإذن الله من فُرْقتهم ، وفساد ذات بينِهم واختلافهم ، ورفْع نَزْغ الشيطان وكيده عنهم ؛ فإن الله عز وجل جعل العهْدَ بالخلافة من تمام أمر الإسلام وكماله وعِزّه وصَلاح أهله ؛ وألْهم خلفاءَه من تَوْسيده لمن يختارُونه له من بعدهم ما عظُمتْ به النّعمة ، وشَمِلت منه العافية ، ونقَضَ اللهُ بذلك مَرَّ(1) أهل الشِّقاق والعَدَاوة والسعْيِ فى الفُرْقة والرَّفْض(2) للفتنة ؛ ولم يزَلْ أميرُ المؤمنين منذُ أفضتْ إليه الخلافةُ فاختبَر بَشاعة مَذاقتها ، وثِقَل مَحْمِلها وشدّة مَئُونتها ، وما يجب على من تقلّدها من آرتباط طاعة الله ومراقبته فيما حَمّله منها(3) ؛ فأنْصَبَ

(١) فى اللسان ج ٧ ص ١٥ « المرّ بفتح الميم الحبل » .

(٢) أى تركها تسير فى الناس ، ففى اللسان الرفض أن يطرد الرجل غنمه وإبله إلى حيث يهوى فإذا بلغت لها عنها وتركها .

(٣) لعله ناظرا فيما بما يقتضيه منصبها وما يجب الخ وبه يستقيم الكلام بعد تأمل .

بدَنَه، وأسهر عينَه، وأطال فِكْرَه فيما فيه عِزُّ الدين ، وقمعُ المشركين ، وصلاح الأمّة، ونشرُ العدل، وإقامةُ الكتاب والسُّنَّة، ومَنَعه ذلك من الخَفْض والدَّعة بهنيِّ العيش : علما بما اللهُ سائلُه عنه، ومحبّةً أن يلقى الله مُناصِحَه فى دِينه وعباده، ومختارا لوِلَاية عهْدِه، ورعايةِ الأمّة من بعده، أفضلَ مَنْ يقدِر عليه فى دِينه ووَرَعه وعلْمه، وأرجاهم للقيام بأمْرِ الله وحقّه، مناجِياً لله بالاستخارة فى ذلك، ويسأله إلهامَهُ مافيه رضاه وطاعتُه فى ليله ونهاره، ومُعْمِلا فى طلَبه والتماسه من أهل بيته من ولَد عبد الله ابن العباس وعلىّ بن أبى طالب فِكْرَه ونَظَره، ومقتصِرا فيمن علِم حالَه ومذْهَبَه منهم على علمه، وبالغًا فى المسألة عمّن خَفِىَ عليه أمرُهُ جُهْدَه وطاقتَه، حتّى استقصى أُمُورَهم بمعرفتــه، وابتلى أخبارَهم مشاهَدَة، وكشَفَ ماعندهم مُسَاءلة ؛ فكانت خِيرتُه بعد استخارته لله وإجهاده نفْسَــه فى قضاء حقّه وبلاده ، من البيتين جميعًا «علِيَّ بنَ موسى بن جعفر» بن محمد بن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب : لِمَا رأى [من] فضْلِهِ البارع، وعلمِه الناصع، وورَعِه الظاهر، وزُهْده الخالص، وتخلِّيه من الدنيا، وتسلُّمَه من الناس؛ وقد استبان له مالم تزَلِ الأخبارُ عليه متواطئة، والألسُنُ عليــه متفقةً والكلمةُ فيــه جامعه ، ولمــا لم يزَلْ يعرِفُه به من الفضل يافعًا وناشئا، وحدَثا ومُكْتَهِلا؛ فعقَد له بالعقْد والخلافة إيثارًا لله والدِّين، ونظرًا للمسلمين، وطلبًا للسلامة وثباتِ الحجّة والنجاة فى اليوم الذى يقُومُ الناس فيه لربِّ العالمين .

ودعا أميرُ المؤمنين ولَده ، وأهلَ بيتــه، وخاصّــته ، وقُوّادَه، وخَدَمَه، فبايعُوه مُسْرِعين مسْرُورِين، عالمين بإيثارِ أمير المؤمنين طاعةَ الله على الهوى فى ولَده وغيرِهم ممن هو أشْبَكُ به رَحِمًا وأقرب قرابة ، وسمّــاه « الرِّضىّ » إذ كان رَضياً عند أمير المؤمنين .

فبايِعوا مَعْشَرَ بيتِ أمير المؤمنين ومَنْ بالمدينة المحروسة من قُوَّاده وجُنْده، وعامة المسلمين «الرِّضىَ» من بعده، على ٱسم الله و بركته وحُسْن قضائه لدينه وعباده، بيعةً مبسوطةً إليها أيديكم، منشرحةً لها صدورُكم، عالمين بما أراد أمير المؤمنين بها، وآثَر طاعةَ الله والنظرَ لنفسه ولكم فيها، شاكرين لله على ما ألْهَم أميرَ المؤمنين من نَصاحته فى رِعايتكم، وحِرْصه على رُشْدِكم وصَلاحكم، راجين عائده فى ذلك فى جمع أُلْفتكم، وحقْن دِمائكم، ولَمِّ شَعَثِكم، وسدِّ ثُغُوركم، وقُوةِ دينكم، ورَغْم عدوّكم، وٱستقامةِ أموركم. وسارِعُوا إلى طاعة الله وطاعةِ أميرالمؤمنين، فإنَّه الأمْر إن سارعْتُم إليه، وحِمدتُمُ اللهَ عليه، عرَفْتُم الحظَّ فيه. إنْ شاء الله تعالى.

✦ ✦ ✦

وعلى هذه الطريقةِ كتب الوزيرُ أبو حفْص بنُ بُرْد عهْدَ الناصر لدين الله عبدِ الرحمن بنِ المنصور بنِ أبى عامر العامرىّ، عن المؤيَّد بالله هشام بن الحكم الأُموىّ، الخليفةِ بالأَنْدَلُس. وهذه نسختُه:

هذا ما عَهِدَ هشامٌ المؤيَّدُ بالله أمير المؤمنين إلى الناس عامَّه، وعاهَدَ اللهَ عليه من نَفْسه خاصَّة وأعطى به صَفْقَةَ يمينه بيعةً تامَّه، بعد أنْ أنْعَم النظرَ وأطال الاستخارةَ وأهمَّه ماجعل اللهُ إليه من الإمامة، وعَصَب به من أمر المؤمنين، واتَّقى حُلولَ القَدَر بما لا يُؤْمَن، وخافَ نُزولَ القضاء بما لا يُصْرَف، وخَشِىَ إنْ هَجَم محتومُ ذلك عليه، ونزلَ مقْدُورُه به، ولم يرفَعْ لهذه الأُمَّة عَلَما تأْوِى إليه، ومَلْجأ تنْعطف عليه، أنْ يكونَ يلقى ربَّه تبارك وتعالى مفرِّطا ساهيًا عن أداء الحق إليها؛ ويُغمِّض عند ذلك من أحياء قُرَيش وغيرها من يستحقُّ أن يُسْنَد هذا الأمْرُ إليه، ويُعوَّل فى القيام به عليه؛ ويستوجبُه بدينه وأمانته، وهَدْيه وصيانته؛

بعد اطّراح الهوىٰ والتحرّى للحق ، والتزلّف إلىٰ الله جلّ جلاله بما يُرْضيه .
وبعد أنْ قَطَع الأواصِرَ، وأسْخط الأقارِبَ، فلم يجِدْ أحدًا أجْدَرَ أن يولّيه عهْدَه ،
ويفوّضَ إليه الخلافةَ بعْدَه : لفضلِ نفْسه ، وكَرَم خِيمه، وشرف مَرْتبته ، وعُلُوّ
مَنْصبه، مع تُقَاه وعَفَافه ، ومَعْرفته وحَزْمه ونَقَاوته ؛ من المأمُونِ العَيْب، الناصِح
الجَيْب «أبى المطرِّف عبد الرحمن بن المنصور» أبى عامر محمد بن أبى عامر وفّقه
الله ؛ إذ كان أميرُ المؤمنين ــ أيده الله ــ آبْتلاه وآختبره، ونظَر فى شأنه وآعتبره،
فرآه مُسارِعا فى الخيْرات، سابقًا فى الحَلَبات، مستولِيًا علىٰ الغَايَات، جامعا للمأثُرات،
ومَنْ كان المنصورُ أباه، والمظفَّرُ أخاه، فلا غَرْوَ أن يبْلُغَ من سبيل البرّ مدَاه،
ويَحْوِىَ من خِلاَل الخير ماحَواه ؛ مع أنّ أمير المؤمنين ــ أيده الله ــ بما طالَعه من
مكنُون العِلم ، ووعَاه من مخزُون الأثَر، يرىٰ أن يكونَ ولِىُّ عهده القَحْطانِىَّ الذى
حدّث عنه عبدُ الله بن عمْرو بن العاص وأبو هريرة : أنّ النبىّ صلىٰ الله عليه وسلم
قال : " لاتَقُومُ الساعةُ حتّى يَخْرُجَ رجُلٌ من قَحْطانَ يَسُوقُ النّاسَ بعَصَاه " فلما
آستوىٰ له الآختيار، وتقابلَتْ عنْدَه فيه الآثار، [و]لم يجِدْ عنه مَذْهَبا، ولا إلىٰ غيره
مَعْدِلا، صرّح إليه فى تدبير الأمور فى حياته، وفوّض إليه الخلافةَ بعد وفَاته، طائعا
راضيًا مجتهِدا، وأمضىٰ أميرُ المؤمنين هـذا وأجازه وأنفذه، ولم يشترط فيه مَثْنَوِيّةً
ولا خِيارا ؛ وأعطىٰ علىٰ الوَفَاء به فى سِرّه وجهره وقوله وفِعْله عَهْدَ الله وميثاقَه ،
وذِمة نبيه محمد صلىٰ الله عليه وسلم ، وذِممَ الخلفاء الراشدين من آبائه ، وذِمّةَ نَفْسه :
أن لايُبَدِّل ، ولا يغَيِّر ، ولا يحُول ، ولا يزُول ؛ وأشهد اللهَ علىٰ ذلك والملائكةَ
﴿ وكَفىٰ بِالله شَهِيدا ﴾ . وأشهد من أوقع آسمَه فى هـذا ، وهو جائز الأمر، ماضِى
القولِ والفِعل، بمَحْضَرٍ من ولىّ عهده المأمونِ أبى المطرف عبدالرحمن بن المنصور
وفّقه الله، وقبُوله ما قلّده، وإلزامه نفْسَه ما ألزمه ؛ وذلك فى شهر ربيع الأوّل

سنة ثمان وتسعين وثلثمائة . وكتَبَ الوزراءُ والقضاةُ وسائرُ الناس شهاداتِهم بخطوط أيديهم بذلك .

الطريقة الثانيـــة
(طريقــة المتأخرين من الكُتّاب)

أن يأتى بالتحميد فى أثناء العَهْد، ويأتِىَ من ألقاب ولىِّ العهد بما يناسب على الآختصار، وعليها آقتصر المقرّ الشّهابىّ بنُ فضل الله فى " التعريف " فقال : وآعلم أنّ عهودَ الخلفاء عن الخلفاء لم تجْرِ عادةُ مَنْ سلَف من الكُتّاب أن يستفتِحها إلا بما يذكر، وهو :

«هـذا ما عَهِد[به] عبدُ الله ووليُّه فلانٌ أبو فلان الإمامُ الفلانىّ أميرُ المؤمنين، عهد إلى ولَده، أو [إلى] أخيه الأميرِ السيد الجليل، ذَخيرةِ الدِّين ، وولىّ عهد المسلمين أبى فلان فلان، أيّده الله بالتمكين، وأمدّه بالنصر المُبِين ، وأقرّ به عَيْنَ أمير المؤمنين» . ثم يُنْفِق كلُّ كاتبٍ بعد هذا على قَدْر سَعَته، ثم يقول :

« أما بعدُ، فإنّ أميرَ المؤمنين يحمَدُ إليك اللهَ الذى لا إلهَ إلّا هو، ويصلّى على نبيه محمدٍ صلّى الله عليه وسلم » ويخطُبُ فى ذلك خُطْبة يُكْثِر فيها التحميدَ ويَنْتهى فيه إلى سبعة، ثم يأتى بعد ذلك بما يُناسب من القول : يصِف فكر الذى يَعْهَد فيمن بعْدَه، ويصِفُ المعهودَ إليه بما يليق من الصِّفات الجليلة . ثم يقول : « عهد إليه وقلّده بعدَه جميع ماهو مقلَّده، لما رآه من صَلاح الأمة، أو صَلاح الخلق، بعدَ أن استخار اللهَ تعالى فى ذلك، ومكَثَ مدّةً يتدبَّر ذلك ويُرَوِّى فيه فكْرَه وخاطِرَه، ويستشيرُ أهلَ الرأى والنظر، فلم يرَ أقومَ منه بأمور الأمة ومَصالح

الدنيا والدّين» ومن هذا ومثله ، ثم يقال : «إنّ المعهودَ إليه قبلَ ذلك منه» ويأتى فى ذلك بما يليق من محاسن العبارة وأحاسِنِ الكلام .

قلت : ولم أظفر بنسخة عهدٍ على هذا الأسلوب الذى ذكره المقرُّ الشهابىّ ، وقد أنشأت عهدًا على الطريقةِ التى أشار إليها ، امتحاناً للخاطر : لأنْ يكونَ عن الإمام المتوكِّل على الله أبى عبدِ الله محمد بن المعتضِد أبى الفتح أبى بكر ، خليفةِ العصر ، لولده العباس : ليكون أُنموذجا يُنْسَج على مِنواله .

ومن غريبِ الاتفاق أنّى أنشأتُه فى شُهورِ سنةِ إحدى وثمانمائة امتحانا للخاطر كما تقدم ، وضمّنته هذا الكتابَ وتمادى الحالُ على ذلك إلى أن قبضَ اللهُ تعالى الإمامَ المتوكّل ـ قدّس الله تعالى رُوحَه ـ فى سنة ثمان وثمانمائة ، فأجمع أهلُ الحلّ والعَقْد على مبايعته بالخلافة ، فبايَعُوه وحقّق الله تعالى ما أجراه على اللّسان من إنْشاء العهد باسمه فى الزّمن السابق ، ثم دعَتْنِى داعيةٌ إلى التمثُّل بين يديه الشريفتين فى مستَهلِّ شهرِ ذى القَعْدة الحرام سنةَ تسع وثمانمائة ، فقرأته عليه من أوّله إلى آخره ، وهو مُصْغٍ له مظهرٌ الابتهاجَ به ، وأجاز عليه الجائزةَ السنية . ثم أنشأتُ له رسالةً وضمنتُه إيّاها وأُوعتْ بخزانته العالية عَمّرها اللهُ بطُول بقائه .

وهذه نسخته :

هذا عهدٌ سعيدُ الطالع ميمونُ الطائر ، مباركُ الأوّل جميلُ الأوسط حميدُ الآخر ، تَشْهد به حضَراتُ الأمْلاك ، وترقُمُه كَفُّ الثريّا بأقلام القَبُول فى صحائفِ الأفْلاك ، وتُباهِى به مُلُوكُ الأرض ملائكةَ السما ، وتَسْرِى بنَشْره القَبُولُ إلى الأقطار فتنْشُر له بكلّ ناحيةٍ علَما ، وتُطْلِعُ به سعادةُ الجَدّ من مُلوكِ العَدْل فى كلّ أُفُقٍ نجْما ، وترقُص من فرحها الأنهار فتنقّطها شمسُ النّهار بذَهَب الأصيل على صَفَحات الما ، عهِدَ به

عبدُ الله ووليُّه أبو عبد الله محمدٌ المتوكِّلُ على الله أميرُ المؤمنين إلى وَلَده السيد الجليل عُدَّة الدِّين وذَخيرته ، وصَفِيِّ أمير المؤمنين من وَلَده وخِيرته ، المستعين بالله أبي الفضل العبَّاس بلَّغ الله فيه أميرَ المؤمنين غايةَ الأمَل ، وأقرَّ به عينَ الخلافة العبَّاسيَّة كما أقرَّ به عينَ أبيه وقد فعَل .

أما بعدُ ، فالحمدُ لله حافِظِ نِظام الإسلام وواصِلِ سَبَبه ، ورافعِ بيتِ الخلافة وماذِّ طُنُبه ، وناظِمِ عِقْد الإمامة المعظَّمة فى سِلْك بَنِى العباس وجاعِلِها كلمةً باقيةً فى عَقِبه .

والحمدُ لله الذى عَدَقَ أمْرَ الأمة منهم بأعظَمِهم خطَرا ، وأرفعِهم قَدْرا ، وأرجَحِهم عَقْلا وأوسَعِهم صَدْرا ، وأجزلِهم رأيا وأسلَمِهم فِكْرا .

والحمدُ لله الذى أقرَّ عَيْنَ أمير المؤمنين بخَيْرِ وَلِىّ وأفضلِ وَلَد ، وشدَّ أزْرَه بأكرم سيد وأعزِّ سَنَد ، وصرَفَ آختيارَه إلى مَنْ إذا قام بالأمر بعدَه قيل هذا الشِّبْلُ من ذاكَ الأسَد .

والحمدُ لله الذى جمعَ الآراءَ على آختيار العاهد فما قَلَوْه ولا رفَضُوه ، وجبَل القلوبَ على حُبِّ المعهود إليه فلم يَرَوُا العُدُولَ عنه إلى غيره بوجه من الوُجُوه .

والحمدُ لله الذى جدّدَ للرعيَّة نِعمةً مع بَقاء النِّعمة الأُولى ، وأقام لأمْرِ الأمّة من بَنِى عمِّ نبيِّه المصطفى الأَوْلى بذلك فالأَوْلى ، وآختار لعهد المسلمين مَنْ سبقَتْ إليه فى الأزَلِ إرادتُه فأصبح فى النُّفُوس معظَّما وفى القلوب مَقْبُولا .

والحمدُ لله الذى أضحك الخلافةَ العبَّاسية بوجُود عبَّاسها ، وأطاب بذِكْره ريَّاها فتعطَّر الوجودُ بطيبِ أنفاسِها ، ورفع قَدْرَه بالعهد إليه إلى أعلى رُتْبة مُنِيفه ،

وخَصَّه بمشاركة جَدِّه العبَّاسِ فى الاسم والكُنْية ففاز بما لم يَفُزْ به قبلَه منهم ست وأربعون خَلِيفه[1] .

والحمـــدُ لله الذى أوْجبَ علىٰ الكافَّة طاعةَ أُولِى الأمْر من الأئمّـه ، وألزَمهم الدُّخولَ فى بَيْعـة الإمامِ والانقيادَ إليه ولو كانَ عبْدًا أسْودَ فكَيْفَ بمن أجْمع علىٰ سُؤْدده الأمَه ، وأوضح السبيلَ فى التعريف بمَقام الآلِ والعِتْرة النبويّة ﴿فلا يَكُنْ أمْرُكُمْ عليكُمْ غُمّه﴾ .

يحمَـدُه أميرُ المؤمنين علىٰ ما مَنَحه من طِيبِ أُرُومةٍ سَمَتْ أصـلا وزَكَتْ فَرْعا ، وحَبَاه من شَرَفِ مَحْتِدٍ راقَ نظرا وشاق سَمْعا ، ووصله به من نِعَمٍ آثرتْ نَقّاعا وأثرتْ نَفْعا ؛ ويشهد أنْ لا إلٰه إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً يتوارَثُونها كالخلافة كابِرًا عن كابِر ، ويُوصِّى بها أبدًا الأوَّلُ منهم الآخِر ، ويُؤْذِن قيامُهم بنُصْرتها أنّهم مَعْـدن جوهرِها النَّفيس ونِظامُ عِقْدِها الفـاخِر ؛ ويشهَدُ أنَّ سـيِّدنا محمدًا عبدُه ورسولُه ، الذى خصَّ عمَّه العباسَ بكريم الحِبَاء وشريفِ الإنافَهْ ، ونبَّه علىٰ بَقاء الأمر فى بَنِيه بقولٍ ضَلَّ مَنْ أظهر عِنادَه أو أضمر خِلافَه ، حيثُ أسَرَّ إليـه : " ألا أبَشِّرُكَ يا عَمّ بِى خُتِمتِ النبوَّةُ وبولَدِكَ تُختَم الخِلافه " صلىٰ الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً تعم بركتُها الولَدَ والوالِدَ ، ويشْمَل معروفُها المعهودَ إليه ويَعْرِف شرَفَها العاهد ، ويعتَرِف بفضلها المُقِرُّ ولا يَسَـعُ إنكارَها الجاحد ، مانُوَّه بذكر الخلافة العباسـيَّة علىٰ أعواد المَنابِر ، وخَفَقتِ الراياتُ السُّود علىٰ عساكر المَوَاكب ومَوَاكب العساكر ؛ وسـلَّم تسليما كثيرا .

---

(١) ذكَّر اسم العدد علىٰ حد ما أنشده الفراء .

أبوك خليفة ولدته أخرى ❊ وأنت خليفة ذاك الكمال

هـذا وكلُّ راعٍ مسئُول عن رعيَّته، وكلُّ آمرِئ محمولٌ علىٰ نِيَّته، مخبِرٌ بظاهره عن جميلِ ما أكنَّه فى صَدْره وما أسَرَّه فى طَوِيَّته ؛ والإمامُ منصوبٌ للقِيام بأمر الله تعالىٰ فى عِباده، مأمورٌ بالنصيحة لهم جُهْدَ طاقته وطاقَةَ آجْتِهاده، مطلوبٌ بالنظر فى مَصَالحهم فى حاضِرِ وقتِهم ومستقبله وبَدْءِ أمرهم ومَعَاده؛ ومن ثَمَّ آختلفَتْ آراءُ الخلفاء الراشدين فى العهد بالخلافة وتبايَنَتْ مقاصِدُهم، وتنوَّعتِ آختياراتُهم بحسَب الأجتهاد وآختلفتْ موارِدُهم ؛ فعَهِد الصـدِّيقُ إلىٰ عمرَ بنِ الخطَّاب رضى الله عنه متثبِّتا، وتركَها عمرُ شُورىٰ فى ستَّة وقال : « أتحمَّـل أمرَكُم حيًّا وميِّتا ! » وأتىٰ رضى الله عنه لكلٍّ من المذهبين بما أذْعن له الخَصْمُ وسلَّم، فقال : « إنْ أعهَدْ فقَدْ عَهِد مَنْ هو خيْرٌ منِّى أبو بكر، وإنْ أترُكْ فقد تَرَكَ مَنْ هو خيْرٌ منِّى رسولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم » فأخذ الخلفاءُ فى ذٰلك بسنَّتهما، ومشَوْا فيـه علىٰ طريقتهما؛ فمن راغبٍ عن العهد وراغبٍ فيه، وعاهِدٍ إلىٰ بعيـد منه وآخَرَ إلىٰ آبنِه أو أخيه ؛ كلٌّ منهم بحسَبِ مايؤدِّى إليه آجتهادُه، وتَقْوىٰ عليه عزيمتُه ويترجَّحُ لدَيْه آعتمادُه .

ولمَّـا كان أميرُ المؤمنين ـ أحسنَ الله مَآبه ـ قد نَوَّر اللهُ عيْن بصيرته، وخَصَّـه بطهارةِ سِرِّه وصفاء سرِيرته، وآتاه الله المُلْك والحِكْمه، وأقامه لمَصالح الرعيَّة وصلاح أمر الأُمَّه؛ وعلَّمه ممَّـا يشاء فكان له من عِلْم الفِراسـة أوْفَرُ قِسْم ، وآصطفاه علىٰ أهلِ عصْره وزاده بَسْطةً فى العِلْم والجِسْم ؛ فلا يَعْزِمُ أمرا إلَّا كان رَشَادا، ولا يعتَمِد فِعْلا إلا ظهر سَـدَادا ؛ ولا يرتَئِى رأيًا إلا أُلْفِىَ صوَابًا، ولا يُشِير بشىْء إلا حُمِدت آثارُه بِدايةً ونِهايةً وآستِصْحابا ؛ ومع ذٰلك فقـد بَلَا الناسَ وخَبَرَهم ، وعلِم بالتجْرِبة حالَهُم وخَبَرَهم ، وآطَّلع بحُسْنِ النظر علىٰ خَفَايا أمورهم ، وما به مصْلحةُ خاصَّتهم وجُمْهورهم ؛ وترجَّح عنده جانبُ العهدِ علىٰ جانبِ الإهمال، ورأىٰ المبادرةَ إليه أوْلىٰ من الإمْهال ؛ ولم يزلْ يُروِّى فكرتَه ، ويُعْمل رَوِيَّتـه ؛ فيمن يصْلُح لهـذا الأمر

بَعْده ، ويَنْهض بأعبائه الثقيلةِ وَحْده ، ويَتّبِع فيه سُبُلَه ويسلُك طرائقه ، ويقتفى فى السِّيرة الحسنةِ أثره ويَشِيم فى العـدل بوارِقَه ، ويُقْبِل على الأمر بكلّيته ويقطع النظر عمّـا سواه ، ويتفرّغ له من كلّ شاغلٍ فلا يخلطُه بمـا عداه .

وقد علم أنّ الأحقّ بأن يكونَ لهـا حَلِيفًا من كان بها خَلِيقا ، والأَوْلى بأن يكُونَ لها قرِينا مَنْ كان بوَصْلها حَقِيقا ، والأجدَر أنْ يكُونَ لديها مكينًا من آتخذ معها يَدًا وإلى مَرْضاتِها طَرِيقا ، والأليَق بمَنصِبها الشريف مَنْ كان بمطْلُوبها مَلِيًّا ، والأحْرى بمَكانِها الرفيع مَنْ كان بمقصُودها وَفِيًّا ، والأَوْفَق لمَقَامها العـالى مَنْ كان خَيْرا مَقَامًا وأحسَنَ نَدِيًّا ، وكان ولَدُه السـيدُ الأجلُّ أبو الفضـل المشارُ إليه هو الذى وجّهت الخلافةُ وجْهَها إلى قِبْلته ، وبالغَتْ فى طَلَبه وألَحّتْ فى خِطْبته ، على أنه قد أُرضِع بلِبَانها ورُبِّى فى حِجْرِها ، وآنتسب إليها بالبُنُوّة فضمّته إلى صَدْرها ، وكيف لا تتشبّث بحِباله ، وتتعلَّق بأذياله ، وتطمَعُ فى قُرْبه ، وتَتغالى فى حُبّه ، وتَميلُ إلى أُنْسه ، وتُراوِدُه عن نَفْسه ، وهو كُفْؤُها المستجمِعُ لشرائِطها المتَّصِفُ بصِفاتها ، ونَسِيبُها السامى إلى أعالِيها الراقِى على شُرُفَاتها ، إذ هو شِبْلُها الناشِئُ فى آجامها ، بل أسَدُها الحامى لحِمَاها ومُجِيرُها الوافِى بذِمَامها ، وفارِسُها المقـدَّم فى حَلْبة سِبَاقِها ووارِثُها الحائزُ لجميع سِهامِها ، وحا كِمُها الطائِـعُ لأمرِها ، ورشِيدُها المأمونُ على سِرِّها ، وناصِرُها القائمُ بواجِبها ، ومَهْدِيُّها الهادى إلى أفضل مَذَاهِبها ؟ قد آلتحَفَ من الخلافة بِرِدَائها ، وسَكَن من القُلُوب فى سُوَيْدائها ، وتوسَّمت الآفاقُ تَفْوِيضَ الأمرِ إليه بعد أبِيـه فظهَر الخُلُوق فى أرْجائها ، وآتّبع سِيرةَ أبيه فى المعرُوف وآقتفى أثَرَه فى الكَرَم ، وتشبَّه به فى المَفَاخر (ومَنْ يُشَابِهْ أبَهُ فَمَـا ظَلَمْ) وتقبَّل الله دُعاء أبيه فوهَبَ له من لَدُنْه وليًّا ، وأجاب نِداءَه فيه فمَكّن له فى الأرض وآتاه الحُكْمَ صَبِيًّا ، فآستوجبَ أن يكونَ حينئذ للسلمين ولىَّ عهْدهم ، واليًا على أُمورهم فى حَلّهم وعَقْدهم ، متكفِّلا بالأمرِ فى قُرْبه وبُعْده ،

مُعيناً لأبيـه فى حياته خليفةً له من بعْـده، وأن يصرِّحَ له بالاستخلاف ويُوضِّح، ويتلو عليه بلسان التفويض «ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ» .

وٱقتضتْ شفقةُ أمير المؤمنين ورأفتُـه ، ورِفْقُه بالأمة ورحمتُه ، أن يَنْصِب لهم ولىَّ عهدٍ يكونُ بهذه الصِّفات متَّصِفا، ومن بَحْره الكريم مغْترِفا، ومن ثِمَـار معروفه المعروفَ مقتَطِفا، ولمَنْهَله العَذْب وارِدا، وعلى بيتِـه الشريف وسائرِ الأمَّة بالخير عائدا، فلم يجدْ من هو مستكملٌ لجميعها، مستوعبٌ لأُصُولها وفُروعِها، وهو بمطْلُوبها أملى، وعلى قلوب الرعيَّـة أحْلى، وللغَليل أشْـفى، وبالعهدِ الجميلِ أوْفى، من ولده المشارِ إليه . فاستشار فى ذلك أهلَ الحَلِّ والعقْد من قُضاته وعلمائه، وأُمرائه ووُزَرائه، وخاصَّته وذَويه، وأقاربه وبَنِيه، وأعيانِ أهل العصر وعامَّته، وجُمْهوره وكافَّته، فرأوْه صواباً، ولم يَعْرُهم فيه ظِنَّةٌ ولا مُسْترابا[١]، ولا وجدَ أحدٌ منهم إلى باب غيره طريقًا ولا إلى طريقِ غيرِه بابًا؛ فاستخارَ الله تعالى فيه فأقبلَ خاطِرُه الشريفُ عليه، وكرَّر الاستخارةَ فلم يجدْ عنه مَحِيدًا إلَّا إليه .

فلمَّـا رأى أنَّ ذلك أمرٌ قد ٱنعقد عليه الإجماعُ قوْلا وفِعلا، وعُدِم فيه المخالِفُ بل لم يكُنْ أصْلا، حمِدَ الله تعـالى وأثْنى عليه، وسأله التوفيقَ ورَغِب إليه، وجدَّد الاستخارةَ وعَهِد إليه بأمْرِ الأمَّة ، وقلَّده ما هو متقلِّده من الخلافة المقدَّسـة بعْده على عادةِ مَنْ تقدَّمه من الخُلفاء المـاضين ، وقاعدةِ مَنْ سلَف من الأئمة المَهْديِّين ؛ وفوّض إليه ماهو من أحْكامهـا ولَوازمها ، وأصُولهـا ومَعَالِمها : من عَهْدٍ ووِصَايه، وعَزْلٍ ووِلَايه ؛ وتفْويضٍ وتَقْليـد، وٱنتزاعٍ وتَخْليـد ؛ وتفْريقٍ وجَمْـع ، وإعطاءٍ ومَنْع ، ووَصْـلٍ وقَطْع ؛ وصِلةٍ وإدْرار، وتقْليـلٍ وإكْثار ؛ جُزْئيِّها وكلِّيِّها ، وخفِيِّها

(١) اضطره السجع إلى نصب المرفوع .

وجَليّها، ودانيها وقاصيها، وطائعها وعاصيها؛ تفويضًا شرعيًّا، تامًّا مَرْضيًّا، جامعًا لأحكامِ الوِلاية جمعًا يعمُّ كلَّ نِطاق، ويَسْرى حكمُه فى جميع الآفاق، ويدخلُ تحتَه سائرُ الأقاليم والأمصارِ على الإطلاق، لايغيَّر حكمُه، ولا يُمحى رسْمُه، ولا يَطيش سَهْمه، ولا يأفِلُ نجمُه .

قِبَلَ المعهودُ إليه - أعلى الله مَقامَه - ذلك بمحضَر من القُضاة والحُكّام، والعلماء الأعلام، ولزِمَ حكمُه وآنبرمْ، وكُتِب فى سِجِلّات الأفلاك وآرْتَسم، وحُمِلت رسائلُه مع بُرُد السَّحاب فطافَتْ به على سائرِ الأُمَم ؛ وهو - أبقاه الله - مع ماطُبِعت عليه طِباعُه السليمه، وجُبِلت عليه سجاياه الشريفةُ وأخلاقُه الكَريمه ؛ قد تلقّى عن أمير المؤمنين من شريف الآدابِ ماغُذِّى به فى مَهْده، وتلقّف منه من حُسْن الأَدوات مايَرْويه بالسَّند عن أبيه وجَدّه ؛ مما آنْطبع فى صَفاء ذِهْنه الصَّقيل وآنتقش فى فَهْمه، وآختلَط من حال طُفُوليّته بدَمِه ولَحْمه وعَظْمه ؛ حتّى صار طبْعا ثانيا، وخُلُقا على ممرّ الزمان باقِيا ؛ وآجتمع لديْه الغريزىُّ فكان أصْلا ثابِتا، وفَرْعا على ذلك الأصلِ القوىِّ نابِتا ؛ لكنْ أميرُ المؤمنين يُوصيه تبرُّكا، ويشْرَح له مايكونُ به - إن شاء الله - متمسِّكا ؛ والمرءُ إلى الأمْرِ بالخير مَنْدوب، ووصيّةُ الرجل لبَنِيه مطلوبةٌ فقد قال تعالى : ﴿ ووصّى بها إبْراهيمُ بَنِيهِ ويَعْقُوبُ ﴾ .

فعليكَ بمراقبة الله تعالى فمَنْ راقبَ الله نجا، و [اجعل] التَّقوى رأسَ مالك : ﴿ومَنْ يتّقِ الله يجعلْ لَهُ مَخْرجًا﴾ وآلجأْ إلى الحق فقد فازَ مَنْ إلى الحق لجَا ، وكتابُ الله هو الحبلُ المتين، والكتابُ المُبين ، والمَنْهج القويم ، والسبيلُ الواضحُ والصِّراطُ المستقيم ؛ فتمسَّكْ منه بالعُروة الوثقى ، وآسْلُكْ طريقتَه المُثْلى وآهتدِ بهَدْيِه فلا تَضلّ ولا تَشقى ؛ وسُنّةَ نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم عليك بالاَقتداء بأفعالها الواضحه، والإصغاءِ لآثار أقوالها الشارحه ؛ عالمًا بأنّ الكتاب والسنة أخوان لا يفترقان ،

ومُتلازمانِ بحبْل التبايُن لا يعتاِقان ، والبِلادَ والرَّعايا فحُطْهما بنَظَرك ما آستطعْت ، وتثبَّت فى كل قَطْع ووَصْل فانتَ مسْئول عن كل ما وصَلْتَ وقطعْت ؛ والآلَ والعِترَةَ النبويَّة فَفيهِمَا حقَّ القرابة منك ومنْ رسولِ الله صلىّ الله عليه وسلم الذى أشرقَتْ به ، وآعلم أنك إذا أكرمْتَ أحدا منهم فإنما أكرمته بسَببِه ، وآتَّبع فى السِّيرة سِيرةَ آبائك الخلفاء الراشدين لاتزِغْ عنها ، ولا تعملْ إلّا بها وبما هو ـ إن آستطعتَ ـ خيرٌ منها ، وآقْفُ فى المعروف آثارَهم المقدَّسَة لتحْوِىَ من المآثِرِ ما حَوَوْا ، وآحْذُ حَذْوَهم فى طريقِهم المباركة وآبنِ المجدَ كما بنَوْا ؛ وأَحْيِ من العمل سنةَّ سلَفِك المصطفَيْنَ الأخيار ، وآحرِصْ أن تكونَ من الأئمة الذين يُظِلُّهم الله تحتَ عرشه : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الأَشْهادُ يَوْمَ لايَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّار ﴾ . وأسْلِف خيرًا تُذْكَرُ به علىٰ ممرِّ اللّيالى ، وينتظِمُ ذِكْرُه فى عُقُود الأيَّام كما تنتظم فى السِّلْك اللآلِى ؛ ولْيكُنْ قصْدُك وجهَ الله ليكونَ فى نُصْرتك فإنَّ مَنْ كان الله تعالىٰ فى نُصْرته لايُبالِى ، ولْتعْلمْ حقَّ اليقينِ أنَّ حسنَةَ الإمام تُضاعفُ بحسَبِ ما يترتَّب عليها من المَصالح أو يتجدَّدُ بسببها ، وسيئّته كذٰلك فمن سَنَّ سيئةً كان عليه إثمُها وإثمُ مَنْ عمِل بها ؛ ودُرْ مع الحقِّ كيفَ دارَ ومِلْ معه حيثُ مال ، وآعلَمْ بأنَّ الله لا يُغيِّر مابقَوْم حتَّى يغيِّروا مابأنْفُسِهِم وإذَا أرادَ اللهُ بقوم سُوءًا فلا مَرَدَّ لَهُ وما لهم مِنْ دُونِه مِن وال ؛ ولا تُخطِرْ ببالك أنَّ هذا الأمْرَ آنتهىٰ إليكَ بقُوّه ، أو يغُرَّكَ ما قدّمناه من الثناء عليك فالتأثُّر بالمَدْح يُخِلُّ بالمُرُوءه ، ولا تتَّكِلْ علىٰ نَسَبك فَمَنْ أطاعَ اللهَ أدْخلَه الجنةَ ولو كان عبْدا حبشيًا ، ومَنْ عصاه أدخلَهُ النارَ ولو كان هاشميًّا قُرَشيًّا ، وآستنصر اللهَ ينصُرْك وآستعِنْ به يكُنْ لك عَوْنا وظَهيرا ، وآستَهْدِه يهدِكَ ﴿ وكَفىٰ بِرَبِّكَ هاديًا ونَصيرا ﴾ وكُنْ [من] الله خائفًا ومن مكره من المُشْفقين ، فإنَّ الأرضَ لِلهِ يُورِثُها من يَشاءُ من عباده والعاقبةُ للمتَّقين .

هـذا عهدُ أمير المؤمنين إليك ، ووصيّته تُملى عليك ، ﴿ وذكّر فإنّ الذّكرى تنفع المُؤمنين ﴾ والله تعالى يبلّغه منك أملا ، ويحقّق فيك علما ويزكّى بك عملا ، والاعتماد على الخطّ المقدّس الإمامىّ المتوكلىّ - أعلاه الله تعالى - أعلاه ، حجةٌ فيه إن شاء الله تعالى .

المــــذهب الثانى

(أن يفتتح العهدَ بعد البسملة بلفظ «من فلان إلى فلان» كما يُكتب فى المكاتبات ثم يأتى بالبعدية ويأتى بما يُناسبه مما يقتضيه الحالُ من ذكر الولاية ، ووصف المتولّى ، واختيار المُولّى له ونحو ذلك)

ثم قاعدة كُتّابهم أنهم يأتون بعد ذلك بالتحميد فى أثناء العهْد .

وهـذه نسخةُ عهدٍ من ذلك ، كُتِب بها عن الحافظ لدين الله الفاطمىّ ، لولده حَيْدرةَ بأن يكونَ ولىَّ عهد الخلافة بعده ، وليس فيها تعرّض لتحميد أصلا ، وهو .

مِنْ عبدِ الله ووليّه عبدِ المجيد أبى المَيْمُون الحافظِ لدِين الله أمير المؤمنين ، إلى وَلَده ونَجْله ، وسُلالته الطاهرةِ ونَسْـله ، والمُجمع على شرفـه والعامل بمرضاةِ الله فى قوله وفعـله ، وعَقْـده وحلّه ، الأمينِ أبى تُراب حَيْـدَرةَ ، ولىّ عهـدِ أمير المؤمنين ، عليه السلامُ .

سلامٌ عليك : فإنّ أمير المؤمنين يحمَـدُ إليكَ اللهَ الذى لا إلهَ إلّا هو ، ويسألُه أن يصلّى على جدّه محمد خاتمَ النبيين ، وسيّد المرسلين ، صلّى الله عليه وعلى آلِه الطاهرين ، الأئمة المهديّين ، وسلّم تسليما .

أما بعدُ ، فإنّ اللهَ تعالى لبَديع حِكْمته ، ووَسِيع رحْمته ، استَوْدَع خُلفاءه مَنْ خَلَقه وبرأه ، واستكفى أُمناءه مَنْ صوّره وذَرَأه ، ورتّبهم مَرْتبـةَ النفوس من الأجساد ،

ونزَّلهم بمنزلة الضِّـياء من الأزْناد ، وجعلهم مستخدِمين لأفكارهم فى مصالح البريَّة التى غدَتْ فى أمَانِهم ، وحصلَتْ فى ضَمَانِهم ، فظلَّت فى ذِمَامهم ، وسَعِدت فى عزِّ مَقامهم وظلِّ أيَّامهم : لأنهم نُصِـبوا للنظر فيما جَلَّ ودَق ، وتَعبُوا لراحة الكافَّة تَعَبا صَعُب وعَظُم وشَق ؛ وكان ذٰلك سِرًّا من أسرار الحكمة ، وضَرْبا من أفضـل تدْبير الأُمة ؛ إذ لو ساوىٰ بين الرئيس والمرءُوس ، والسائس والمَسُوس ؛ لاختلطَ الخُصُوص بالعُمُوم ، ولم يبق فرقٌ بين الإمامِ والمأمُوم .

وقد آستخلص اللهُ أمير المؤمنين منْ أشرَفِ أُسْرة وأكرمِ عِصابه ، وأيّده فى جميع آرائه بالحَزامة والجزَالة والأَصالة والإصابَهْ ؛ وقضىٰ لأغراضه أن يكونَ السعدُ لها خادِما ، وحَتَم لمقاصِده أن يُصاحِبها التوفيقُ ولا ينْفَكّ لها مُلازِما ؛ وجمع له ما تفرّق فى الخليقة من المَفاخر والمَنَاقِب ، وألهمه النظَرَ فى حُسْن الخواتم وحميدِ العَوَاقب .

ولمـا كان ولىُّ عهْـد أمير المؤمنين أكبَرَ أبناءِ أمير المؤمنـين ، والمنتهِىَ لأشرف المراتِبِ من تقادُم السِّنين ؛ وقد آستولىٰ علىٰ الفَخْر باكتِسابه وآنتِسابه ، وتصدَّت له مخطوباتُ الرُّتَب لِيحُوزَها باستحقاقه وآستِجَابه ؛ وله من فضِـيلةِ ذاتِه ما يدُلُّ علىٰ النبإ العظِيم ، وعليه من أنوار النبوّةِ ما يهْتدى به السارِى فى الليل البَهِيم ؛ وحِينَ حوىٰ تالِدَ الفَخْر وطارِفَه ولم يستَغْنِ بالقـديم عن الحديث ولا بالحَديث عن القَدِيم ؛ والصِّفَاتُ إذا آختلفَتْ أربابُهـا لا تقع إلا دُونَه ، والثوابُ الجزِيلُ ممـا أعدّه الله للذين يُخلِصُون فيه ويتولَّونَه ؛ وليفخَرْ بأنْ خُصَّ من العِناية الملكُوتيَّة بالحظِّ الأجْزَل ، وليَتسَمَّحْ علىٰ البَرَايا ليكُونَ ممدُوحًا بالكتَاب المنزَّل ؛ وليَبْذَخْ فإنَّ وصْفَه لا تُبلَغ غايتُه وإن آستُخدِمت فيه الفِكَر ، وليَبْجَحْ فإن فضله لا يُدْرك حقيقةً إلا إذا تُلِيت السُّوَر ، فأمتعه اللهُ بمَواهبه لديْه وأمتَع أمير المؤمنين به ، وأجْرىٰ أمورَه عاجلا وآجلا بسَبَبه .

رأى أميرُ المؤمنين[١] أن يختصّه بولاية عهد أمير المؤمنين تمييزاً له بهذا النعت الشريف، وسُمُوًّا به إلى مايجب لمجده الشامخ ومحلّه المُنيف، واقتداءً بأسلافه الأئمة الأطهار فيما يُشَرِّفون به أبناءهم الأكرمين، وتخصيصاً له بما يبقى فخرُه على متجدد الأزمان ومُتطاوِل السنين. وأمر أمير المؤمنين أن يُتخيّر من رجال دولته، ووُجُوه أجناده وشيعته، طائفةٌ يكونُ إليه انتماؤها، وإلى شرف هذا النعت انتسابُها واعتزاؤها، فتوسم بالطائفة العهديّة، وتحظى إذا أخلصت في الولاية بالسّعادة الدائمة الأبديّة، وتظلّ موقوفةً على خدمته، متصرّفةً على أوامره وأمثلته، منتهيةً في طاعته إلى أغراضه ومآربه، ملازمةً للأزم المتعيّن من مُلازمة الخدمة في مواكبه؛ والله تعالى يجعلُ ماراه أميرُ المؤمنين من ذلك كافلاً بالخيرات، ضامناً لشُمول المنافع وعمومِ البركات، إن شاء الله تعالى: والسلامُ على وليّ عهد أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاتُه.

⁂

وهذه نسخةٌ بولايةِ العهد من خليفةٍ لولده بالخلافة على هذه الطريقة، من إنشاء القاضِي الفاضلِ، أتى فيها بالتحميد بعد التصدير ثلاثَ مرّات، وهي:

من عبد الله ووليّه فلان أبي فلان الإمام الفلانيّ إلى فلانٍ الفلاني، والصلاة والسلام على النبيّ صلّى الله عليه وسلم على نحو ماتقدّم في العهد قبله.

أما بعدُ، فالحمدُ لله الذي استحقّ الحمدَ بفضله، وأجرى القضاءَ [على ماأراده][٢] ووسعَ الجرائمَ بعفوه وعدْله، وصرّف المراحمَ بين قوْله وفعْله، وأعلى منارَ الحق

(١) لعل هذا جواب الشرط في أول الفقرة قبل ويكون العامل في حين بعده محذوفا دل هذا عليه. تأمل.

(٢) بياض في الأصل والتصحيح من المقام.

وأرشَدَ إلىٰ أهله ، واختارَ الإسلامَ دِيناً وعَصَم المعْتلِقِين بحَبْله ، وأوضح سُبُل النَّجاة بمـا أوْضَح لسالِكيه من سُبْله ، وتعالىٰ عُلاه إلىٰ الصِّفات، فلم يُوصَفْ بمثل قوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِه ﴾ وتنزَّه عن آشـتراك التشبيهات، فى كلِّ جليل الوصف مستقِلِّه وغيرِ مستقِلِّه ؛ علِمَ ما آشتملَتْ عليه خَطَراتُ الأسْرار ، وأشارتْ إليه نَظَراتُ الأبْصار ، وآنْفرجَتْ عنـه غَمَراتُ الأخطار ، وأخفَتْه سَتَراتُ الظلمـاء وباحتْ به جَهَراتُ الأنوار : ﴿ سَـوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ القَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ به وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وسارِب بِالنَّهار ﴾ .

والحمدُ لله الذى جعل الدِّينَ عِنْده الإسلام ، فمن آبتغىٰ غيْرَه ضَلَّ المَنْهج ، وأبْعدَ المَعْرَج، وآستَلْقح الخُدَج ، وغَلِط المَخْرَج ، وفارقَ النُّورَ الأبْلَجْ ، وركِبَ الطريقَ الأعْوَجْ، وأتىٰ يومَ القيامة باللِّسان المُلَجْلَج ؛ ومَنْ أسْلَمَ وجْهَـه إليه فاز بالسَّعْيِ النَّجِيح ، وحاز المَتْجَرَ الرَّبِيح ، ووَرَد المَوْرِدَ الأحْمَد ، ويَمَّم القَصْدَ الأقْصَد ، ووجد الجَدَّ الأسْعد ، وسلك المَنْهج الأرْشَـد ؛ فهو العُرْوة الوُثْقىٰ ، والطريقةُ المُثْلىٰ ، والدرَجةُ العُلْيا ، وأُمِر به خيْرُ المرسَلين ، المنعوتُ فى سِـيَرِ الأوّلين ، المبعُوثُ بالحق المُبِين ، والقائمُ رسولًا فى الأُمِّيِّين ، والهـادى إلىٰ الحَقِّ وإلىٰ طريقٍ مستقيم ؛ والداعِى الذى مَنْ أجابه وآمَنَ به غُفِر له ما تقدَّم من ذَنْبه وأُجِيرَ من عذابٍ ألـيم ، والمستقِلُّ [بالعِبْء][1] العظيم ، بفَضْـل ما مُنِح من الخُلُق العظيم ، والممدُوحُ بقوله : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْـهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عليكُمْ بِالمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ .

والحمدُ لله الذى وَصَل النبوّةَ بالإمامَهْ ،وجعلَها كلمةً باقيةً فى عَقِبه إلىٰ يومِ القِيامه، وخصَّها بالخَصَائص التى لاتنْبغِى إلا لتـامِّ الكَرامه ، وأجار بها خَلْقَـه من مَتالِف

(١) بياض بالأصل والتصحيح من المقام . تأمل .

الطامّة وبوادِي النّدامه، وهدى بشرف مَقامه إلى دار المُقامه، وٱستردّ بأنوار تدبيره من ظَلام الباطِل الظُّلامه، وأحسَن بما أجراه من نَظَره النظرَ للخاصّة والعامة، ﴿ إنَّ هٰذَا لَهُوَ الفَضْلُ المُبِين ﴾ .

يحمَدُه أميرُالمؤمنين أنْ رَفَعه إلى ذلك المحلِّ المُنِيف، وٱستعمَره به المَقامَ الشريف، وأظهرَ كلمةَ الدِّين الحنيف، ونفى عنه تغَالِيَ التعمُّق وتجْديفَ التحريف، وبيّن بموافَقة توْفِيق هَدْيه طريقَ التكليف، وأمدّه بمَوادّ إلهيّة تشتهر فتستغْنِي عن التعريف، وتتّصِل فتقْطَع موَادّ التكْييف .

ويسألُه أن يصلّيَ على جدّه محمدٍ الذى نَسَخ بشريعتِه الشرائع، وهذّب بهِدَايته المَشَارع، وأيّده بالحُجَج القواطِع، والأنوارِ السّواطع، وجعل من ذُرّيّته جبالَ الله القَوَارع، ومن مِشْكاته نُجومَ الهُدى الطَّوَالع، وعُدِقتْ صنائعُه بالله إذا ٱفتخَرت المُنْعمون بالصّنائع؛ وعلى أخِيه وأبِينا أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب المخصوص بأخُوّته، وأبى الثقلَيْنِ من عِتْرته، والسابِقِ إلى الإسلام فهو بعْده أبو عُذْرته، وإلى تفريج الكَرْب عن وجْهه فى الحَرْب فهو ٱبنُ بَجْدتِه . وعلى الأئمة من ذرّيتهما مَصابِيح الظُّلُمات، ومَفاتيح الشُّكوك المُبْهَمات، والممنوحين من شَرف السِّمات، ماجَلّ عن المُسامَات، والممدوحينَ بفضْل الجاه فى الأرَضِين والسّموات .

وإنّ الله بحكمته البَدِيعه، ورحمتِه الوَسِيعه، أقام الخلفاء لخلقه قِوَاما وبحقّه قُوّاما، وجعل نارَ الحوادثِ بنُورهم بَرْدا وسَلَاما، وجعل لهم الهداية بأمره لِزَاما، وٱستَصْرَف بهم عن الخَلْق عذابَ جَهَنّم ﴿ إنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾؛ فهم أرواحٌ والخلائقُ أجسام، وصَبَاحٌ والمَسالِكُ أظْلام، وثمراتٌ والوجودُ أكمام، وحُكّامٌ والحقائقُ أحْكام، يَسْهرون فى منافع الأنام وهم نِيَام، وينفَردُون بوَصَب النَّصب

ويُفْرِدُونهم بلذّات الحَام ، ويهتدُون بهِدَاياتهم إلىٰ ماتدقّ عنـه حوائطُ الأفهام ، ولا يُدْرَك إلّا بوسائط إلهام . وقد آصطفىٰ اللهُ الأميرَ من تلك الأُسْره، ورَقّاه شرفَ تلكَ المنابِرِ ومُلْك تِلكَ الأسِرَّه، وأنار بمَقامه نُجومَ السـعادة المستَسِرَّه، وآستخْدَم العالَمَ لأغراضه ، وسدّدَ كلَّ سهمٍ فى رَمْيه إلىٰ أغراضه ، وأقرضَ اللهَ قَرْضًا حسَنا فهو واثقٌ بحُسْن عواقب إقراضه ، وآفترضَ طاعتَه فى خَلْقه فالسعيدُ من تلقّىٰ طاعة أميرِ المؤمنين بآفْتِراضـه ، وأمضىٰ أوامِرَهُ علىٰ الأيّام فما يقابِلُها صَرْفٌ من صُروفها باعْتِراضه، وأدار الحقَّ معه حيثُ دار، وكشَفَ له ماآستجَنَّ تحتَ أستارِ الأقْدار، ووقَفَ الخِيرةَ والنُّصْرة علىٰ آرائِهِ و راياتِهِ فهو المستَشَار والمستَخَار، وألهمه أن يحفَظَ للأمة غَدَها كما حَفظ لهـا يومَها ، وأن يُجْرِىَ لهـا مَوارِدَ توفيقِ الآرتيادِ ولا يُطيلَ حَوْمَها، وأن يجعل المؤْمِنَ علىٰ ثَلَجٍ من الصُّدور، وفَلَجٍ من الظُّهور، ويُودِعَ عندها بَرْدَ اليقينِ بالإشارةِ إلىٰ مستَوْدَع النُّور، ويجعلَها علىٰ شريعـةٍ من الأمر فتَتَّبِعها ، ويُحِلَّها بمنزلة الخِصْب فترتَبِعها ، ويُعلِمَ نَدىٰ خَيْره ليكونَ غايَتَها ومَفْزَعها ، ويُعرِّفها من تنتظِرُه فتتّخذه مآلًا ومَرْجِعًا، ويقتَدى فى ذلك بسيد المرسَلين فى يومِ الغَدير، ويُشير إلىٰ مَنْ يقوم به المشيرُ مقام البشير .

ولـمّا كنتَ حافظَ عهد أمير المؤمنين والسـيِّدَ الذى لا بُدّ أن يُتَوَّجَ به السَّرِير، والنَّجْمَ الذى لابُدّ أن نستطيلَ إلىٰ أنْواره ونستَطِير، والذَّخيرة التى ادَّخرَها اللهُ لِنَيْل كل خَطَرٍ ودَفْع كلِّ خَطِير، والسَّحابَ الذى فيه الثَّجُّ المَطِير، والنَّجمُ المُنِير، والرَّجْمُ المُبِير، وقد تجلَّتْ لكَ أوجُهُ الكرامات وتبدّتْ ، وتبرّجتْ لك مخطُوبات المَقامات وتصـدّتْ ، وطلبَتْك كُفْـئًا لنَيْل عَقيلتها وسُكْنىٰ مَعْقِلها فما تعدّتْ ، وأدّت إليكَ لطائفُ فَهْمِكَ من أسرار الحقائق ما أدّتْ ، وعرفْتَ من سِيمـاكَ هَـدْى النبوّه ، وآجتمع لكَ مزيّةُ الشرَفين من الطَّرَفينِ الأُبُوّة والبُنُوّه ، وأخذْتَ كتابَ الحكمة

ومَصُون العِصْمة بقُوّه ، وأجْرتَ القلوبَ التى بعوارض الشَّكّ ممْنُوّه ، وآثرتَ العقائدَ التى بنواقِض العقْد مملُوّه ، وغدَتْ وُجُوه الأنام بأيّامك مَجْلُوّه ، وتوافقت الأُسُنُ على مَدْحك ولا مِثْـلَ ما مُدِحْتَ من الآيات المتلُوَّه ، وكنتَ بحيثُ تَذْهبُ بالأهوال المسْلُوّه ، وتُقْبِـل بالآمالِ المرْجُوّه ؛ ولو أنّ رَبًّا ضلَّ لَهداهُ نورُك فى الليـل البَهِيم ، ولو أنّ ذِكْرَك شذَّ لتبـدّى فى الآياتِ والذِّكْرِ الحكيم ، ولو أنّك طلَعْتَ على الأولين لـمّا تساءلُوا ولا آختلَفُوا فى النّبإ العظيم ، ولوأنّ قديمًا علا فوق كلّ حديثٍ لقام لك الحديثُ مَقامَ القديم ، ولو أنّ جميعَ الأنام فى صـعيدٍ واحدٍ لصَعِدتَ دُونَهم المَقَـامَ الكريم ، ولو أنّ يدَكَ البيضاء تجَسَّمتْ للناظرين لأعَدْتَ آيةَ مُوسىٰ الكليم ، ولو أنّ هِدايتَكَ الغَرّاء تنسَّمتْ للذاكرين لأحْيَيْتَ بهـا العِظامَ وهى رَميم ، ولو أنّ عُلُومَك آنتشرتْ بينَ العلَماء لتلَوْا : ﴿وفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيم﴾ ولو أنّ ليلةَ وِلادتِك رصدتْها البصائرُ، رأت كيف يُفْرَقُ فيها كلُّ أمْرٍ حكِيم ؛ والصِّفاتُ إذا آحتفل أربابُها وقفَتْ لك عبيـدا ، والأيامُ إذا كانتْ ظُروفًا لفضائلكَ كان كلُّ يوم منها للعبيد عِيدا ، والأنسابُ إذا عددتَها كان الجَدُّ سعيدا ؛ فلْتفخرْ قبْلَ السير بأن أمليتَ عليها السُّوَر ، وأبشِرْ بأن المنتَظَر من فضل الله لكَ فوْقَ ما تعجَّله النظَر ، وآشمَخْ بأنّ سادةَ القبائل مُضَرُ وأنك بعـد أمير المؤمنين سـيّدُ مُضَرْ ، وآبذَخْ بأنك عِوَضٌ من كلِّ مَنْ غاب وماعنك عِوضٌ فى كل مَنْ حَضَر ، وآبْجَحْ بأنك قد أُهِّلْتَ لأمرٍ أبىٰ الله له إلا أُولِى العَزْم والخطَر ، وآشكُرِ الله علىٰ نعمة خلقَك لها بِقدَرْ ، ومزيّةٍ لا يُوفَّى حقَّها من أضمر فأغْرَقَ أو نطقَ فشَكَر : وقُلِ ﴿ الحَمْدُ لِلهِ الَّذِى هَدَانَا لِهٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللهُ ﴾ : ﴿ وقُـلْ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وعَلىٰ وَالِدَىَّ وأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاه ﴾ .

فإليك هـذا الأمرُ يَصير، وأنت لَهُ واللهُ لك نِعْمَ المَوْلىٰ ونِعْمَ النَّصير؛ وتأهَّبْ له فى درجته التى لايَنَـالُها باعٌ قصير، ولا يمتطيها إلاَّ من آختارهُ اللهُ علىٰ عِلْم من أهل الثقلين ولو أنَّ بعضَهم لبعضٍ ظَهير، ولا نرىٰ لها أهلا إلاَّ مَنْ أراه الله من آياته أنه هو السَّميع البصير، وفاوِضْ أميرَ المؤمنين فى مُشكلات الأمر ولا يُنَبِّئُك مثلُ خَبير، وآقتَدِ منه بمن هو [فى] أهل دهره وَصِىُّ الوصِىّ ونظيرُ النَّذير، وآهتَدِ بنُوره الذى هو بالنُّور البائنِ دُونَ الخلق بشير، وسِرْ إذا آستعمَلك اللهُ فيهم بما رأيت أميرَ المؤمنين به فيهم يسير، وآدْعُ اللهَ بأن يُيَسِّر علىٰ يَدِك مَناجحهم إنَّ ذلك علىٰ الله يَسير، وآعْرِف ما آثرَك اللهُ به من أنه لم يجعل لِيَدِك كُفُؤًا إلا ذا الفَقار ولا لقَدَمك كفُؤًا إلا المِنبر والسرير، وتحدَّثْ بنعمة الله وإجرائها فأميرُ المؤمنين اليومَ عليك أميرٌ وأنت غدًا علىٰ المؤمنين أمير: ﴿هٰذا مِنْ فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ومَنْ شَكَرَ فإنَّمـا يَشْكُرُ لنفســه﴾.

وأما العــدْلُ وإفاضتُه، والجَوْرُ وإغاضَتُه، والصَّعْبُ ورِياضَتُه؛ والجَدْب وترويضُه، والخَطْب وتَفْويضه؛ والجهادُ ورَفْع عَلَمه، والذبُّ عن دِينِ الله وحِفْظُ حُرَمه؛ والأمْرُ بالمعروف ونَشْر رِدَائه، والنهىُ عن المنكر وطَىُّ آعتدائه؛ وإقامةُ الحدّ بالصُّفح والحَـدّ، والمُساواةُ فى الحقّ بين المَوْلىٰ والعَبْد، وبثُّ دعوة الله فى كل غَوْر من البلاد ونَجْد، وأمرُ عباد الله إن عباد الله فى زمنك الرغد؛ فذلك عهدُ الأئمة الراشدين، وهو إليك من أمير المؤمنين، عَهْدٌ مؤكَّد العَقْد: وهو سُنَّة فضل الخلفاء التى لاتَجِدُ لهـا تَحْويلا، ومعنىٰ العـهد الذى أمر اللهُ بالوفاء به فقـال: ﴿إنَّ العَهْدَ كان مَسْئُولا﴾.

وهل يُوصَىٰ البحرُ بتلاطُم أمْواجه؟ وتَدافُع أفْواجه؟ وبتَرَاكُم عَجَاجه؟ وهل يُحَضُّ البدرُ المنيرُ علىٰ أن يُنير سِراجُهْ، ويَطْلُع ليتَّضح للسالك مِنْهاجُه؟ أو يُنَبَّهُ علىٰ هدايته

إذا تهادَتْه أبراجُه ؟ وعليكَ من سرائرِ أنوار الله ما يُغنيك أن تُوصَى ، ولَدَيْكَ من ظواهر لطائفِ الله ماتَمَيَّزَ به عن الخلق إذ أضحَيْتَ به مخصُوصا ، ومن شواهدِ آختيار الله ماتظاهَرتْ عليك آياتُه نُصوصا ، فبِسَلام الله يُحَيِّيك المؤمنُون ، وبالاعتلاق بعِصْمة ولائك فى يوم الفَزَع الأكبر يأمَنُون ، والله منجزٌ لك وعدَه كما أنجزه لمن جعلهم أئمةً لَمَّا صَبَرُوا وكانوا بآياتنا يُوقنُون ، والله سبحانَهُ يُهْدِى إليك تحيةً من عندِه مبارَكةً طيِّبه ، ويُسْدِى إلىٰ مَقام شرفك سَحابةَ رحمةٍ غَدِقةً صَيِّبه ، ويجعل مارآه أمير المؤمنين من وِلايَتِك عهْدَه ، وكَفالتِك للأُمَّة بعده ، للمَسَرَّات ناظِما ، وللمَساءات حاسِما ، وللبركات جامعا ، وللباطل خافِضًا وللحق رافِعًا . وأَمرَ أميرُالمؤمنين أن يعيَّن علىٰ رجال من أولياء دَوْلته ، ووجوه شِيعته ، وأنصار سَرِيَّته ، عِدَّةٌ يكون إليك آعتزاؤُها وبِكَ آعتِزازُها ، وببابك العالى إقامتُها وإلىٰ جنابك آنحيازُها ، فتكونُ موْسُومةً بالعبُودِيَّه ، ومتعرِضةً بالوَلاء للسعادة الأبَدِيَّه ، فتمْتَثِل(١) علىٰ ماتُمَثِّله من المراسم ، وتتصَرَّف علىٰ ماتُصَرِّفُها عليه من العَزائم ، وتكونُ أبدًا لما يَنفُذ عنك من أحكام الهِبَات والمَكارم ، وتقُومُ من ملازمة الخِدْمة فى مَواكِبك بما هو لكل خادِمٍ فرضٌ لازم ، وتُسارِع فى مَطَالِبك إلىٰ مايُسارع إليه الحازِم ، وتجودُ بأسماءَ الإنْعام بالغَدَق الساجِم . وتُقدّر لها من الواجبات والزِّيادات ماتقتضيه هِمَمُ المَكارم ، تبذُل فى الخِدْمة الآجتهاد ، وتُنافِسُ فيما تَستَمِدُّ [به] الحُظوةَ بحضْرته والإحْماد ، وعَرَّضْها من الإحسان الجَمِّ للآزْدِياد ، وبَلِّغْها المُراد بما تَبلُغ بها من المُراد : لتَتَشَرَّف بأن تكونَ تحتَ ركابه العالى متصَرِّفه ، وتفتخرَ بأن تكون أنسابُها باسمه العالى متَشَرِّفه ، إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) لعله فتمشّى على .

المذهب الثالث

(أن يفتتح العهدَ بعد البسملة بخطبة مفتتحة بـ«الحمد لله» ثم يأتِى بالبعديّة، ويأتى بما يُناسبُ الحالَ علىٰ نحو ماتقدم؛ وعليه عمل أهل زماننا مع الاقتصار علىٰ تحميدةٍ واحدةٍ، والاختصارِ فى القول)

وهذه نسخةٌ أوردها علىّ بنُ خلَف من إنشائه فى كتابه "مواد البيان" لترتيب الكتابة فى زمن الفاطميين، وهى :

الحمد لله مُعزِّ دينه بخُلَفائه الراشدين، ومرتِّب حقِّه بأوليائه الهادين، الذى آختار دِينَ الإسلام لصَفْوته من برِيَّته، وخَصَّ به من آستخلَصَه من أهل طاعتِه، وجعله حَبْلَه المَتين، ودينَه الذى أظهَرَه علىٰ كلِّ دِين، وسبيلَه الأفسح، وطريقَه الأوضح، وآبتعث به نبيَّه محمدًا صلى الله عليه فصدَعَ بأمْره، وأعْلَنَ بذِكْره، والناسُ فى فَتْرة الضَّلاله، وغَمْرة الجَهاله، فلما أنجز فى نُصْرة حَقِّه، وتأييده لسُعَداء خَلْقه [قبضه](١) إليه محمودَ الأثَر، طَيِّبَ الخَبَر [وقام](١) بخلافتِه، مَن آنتخبه من طَهَرة عِترته، وأوْدَعَهم حكمَتَه، وكفَّلَهم شريعتَه، فآقتفَوْا سبيلَه، وآتبعُوا دليلَه، كُلَّما قَبَضَ منهم سَلَفًا إلىٰ مقرّ مَجْده، آصطفىٰ خَلَفًا للإمامة من بَعْده .

يحمَدُه أمير المؤمنين أن أفضىٰ إليه بتُراث الإمامة والرِّساله، وهَدىٰ به كما هدىٰ بجَدِّه من الزَّيْغ والضَّلاله، وآختَصَّه بميراث النبُوَّة والخلافه، ونصَبَه رحمةً للكافَّة، وأتمّ نعمتَه [عليه] كما أتمَّها علىٰ آبائه، وأجْزَل حظَّه من حُسْن بَلائه، وأعانَه علىٰ ما آسترْعاه، ووفَّقه فيما وَلَّاه، وأنهضَه بإعْزاز المِلَّة، وإكرام الأُمَّه، وإماتةِ البِدَع، وإبطال

(١) بياض بالأصل، والتصحيح مما يقتضيه المقام .

المَذْهَبِ المخترَع ، و إحْياءِ السُّنَن ، والاستقامة على لاحِبِ السَّنَن ؛ ووَهَبه من بَنِيه وذُرِّيَّتِه ، مُؤَازِرِين على ما حَمَّله من أعباء خِلافَته ، ومُظاهِرِين على ما كَلَّفه من إمعان النظر فى بَرِيَّته .

ويسأله الصلاةَ على محمدٍ خاتمَ أنبيائه ، والخِيرة من خُلَصائه ، الذى شرَّفه بختام رُسُله ، و إقرار نِيَابته فى أهله ؛ صلّى الله عليه وعلى أخيه وابنِ عمِّه وباب حِكْمته ، علىّ بن أبى طالب وَصِيِّه فى أُمَّته ، وعلى الأئمة الطَّهرة من ذرِّيَّته ، مَناهِج رحمته ، وسُرُج هِدايته ، وسلَّم تسليما .

وإنَّ الله تعالى جعل الخلافةَ للكافَّة عِصْمه ، ولأهْلِ الإيمان رَحْمه ، تجمَعُ كَلِمتَهم ، وتحفَظُ أُلْفتَهم ؛ وتُصْلِح عامَّتَهم ، وتُقيم فرائضَه وسُنَنَه فيهم ، وتمُدُّ رُواقَ العدل والأَمَنَة عليهم ؛ وتحسِمُ أسبابَ الكُفْر والنِّفاق ، وتقمَعُ أهلَ العِناد والشِّقاق ؛ ولذلك وصلَ اللهُ حبْل الإمامه ، وجعلها كلمةً باقيةً فى عَقِب أوليائه إلى يومِ القيامه .

ولما نظرَ أميرُ المؤمنين بعين اليَقين ، واقتَبَس من الحقيقة قَبَس [الحق] المُبِين ، عَرَف ما بُنِيَتْ عليه الدنيا من سُرْعة الزَّوال ، ووَشْك التحوُّل والانتقال ، وأنَّ ما فوَّضَ الله إليه من خلافته لا بدّ أن يَنْتقِلَ عنه إلى أبنائه المَيَامِين ، كما انتقل إليه عن آبائه الراشدين ؛ فلم يغترَّ بمَوَاعِيدها المُحَال ، وأضرَبَ عمَّا تخدَع به من الأمانىّ والآمال ؛ وأشفقَ على مَنْ كفَّله الله بسياسَته ، وحمَّله رعايَته من أهل الإسلام المعتصمين بحبل دَعْوَته ؛ المشتملين بظلِّ بَيْعته ، عند تقضِّى مُدَّته ونُزُوعه إلى آخرته ؛ فى الوقت المعْلُوم ، بالأجل المحتُوم : من انتشار الكلمه ، وانبِتَات العِصْمه ؛ وانشِقَاق العَصَا ، و إراقة الدِّما ، واستيلاء الفتَن ، وتعطيل الفُرُوض والسُّنَن ؛ فنظر

لهم بما يَنْظِم شَمْلهم ، ويصِل حَبْلَهم ، ويَزْجُر ظَلَمتهم ، ويَجْمع كلمتهم ، ويؤلِّف أفئدتهم ، ورأىٰ أن يَعْهَد إلىٰ فلان ولَدِه : لأنه قريعُه فى عِلْمه وفضْله ، وعقيبُه فى إنصافه وعَدْله ، والمَلْمُوح من بعده ، والمرجُوُّ ليومه وغَدِه ، ولِما جمع اللهُ له من شُرُوط الإمامه ، وكَمَّله له من أدوات الخلافه ، وجَبَله عليه من الرَّحمة والرَّافه ، وخَصَّه به من الرَّصانة والرَّجاحه ، والشَّجاعة والسَّماحه ، وآتاه من فَصْل الخِطَاب ، وجَوامع الصَّواب ومحاسِن الآداب ، ووِقاية الدِّين ، والغِلْظة علىٰ الظالمين ، واللُّطف بالمؤمنين ، بعْدَ أن قدَّم آستخارةَ الله تعالىٰ فيه ، وسأله توْفِيقَه لما يُرْضِيه ، ووقَف فِكْرُه علىٰ آختياره ، ولم يكن بآختياره مع إيثارِه ، ويلُوح فى شمائله ، ويَستوضِح فى مَخايِله ، أنَّه الولىُّ المجتبىٰ ، والخليفةُ المصْطفىٰ ، الذى يحمِى الله به ذِمَارَ الحق ، ويُعْلى بسلطانه شِعَارَ الصِّدْق ، وأنه ـ سبحانه ـ قد أفضىٰ إليه بما أفضىٰ به إلىٰ الخُلفاء من قَبْله ، وأفاضَ عليه من الكامِنات ما أفاضَهُ علىٰ أهله ، وبعدَ أنْ عاقده وعاهَده علىٰ مثل ما عاهَده عليه آباؤُه : من تقوىٰ الله تعالىٰ وطاعتِه ، وآستشعار خِيفَته ومراقبته والعمل بكتابه وسُنَّته ، وإقامة حُدُود الله التى حدَّها ، بفُرُوضه التى وَكَّدها ، والآقتداءِ بسَلَفه الرَّاشدين ، فى المُكافَحَة عن الدِّين ، والمسامحةِ عن أوزار المسلمين ، وبَسْط العدْل علىٰ الرعيَّه ، والحكم بينهم بالسَّويَّه ، وإنصافِ المظلومِ من الظَّلُوم ، وكفِّ يَدِ المغتصِب الغَشُوم ، وصَرْف وُلَاة الجَوْر عن أهل الإسلام ، وتخَيُّرِ من ينْظُر بينهم فى المَظالِم والأحْكام ، وأن لا يُوَلِّىَ عليهم إلَّا من يَثِق بعدَالته ، ويسْكُن إلىٰ دِينه وأمانَته ، ولا يَفْسَح لشريف فى التعدِّى علىٰ مَشْرُوف ، ولا يَقوىٰ فى التسلُّط علىٰ مَضعوف ، وأن يحمِل الناس فى الحُقُوق علىٰ التَّساوِى ، ويُجْرِيَهم فى دَوْلته علىٰ التناصُف والتَّكافى ، ويأمر حُجَّابه ونُوَّابه بإيصال الخاصَّة والعامَّة إليه ، وتمكينِهم من عَرْض حوائجِهم ومَظَالمهم عليه : ليعلموا : الوُلاةُ والعُمَّال ، أنَّ رعيته

علىٰ ذُكْر منه وبال ؛ فيتحاموا التثقيلَ عليهم والإضرار بهم . وأشهد عليه بكلّ ماشرطه وحدّده ، والعملِ بما يحمد إليه فيما تقلّده . علىٰ أنه غنيّ عن وصيّة وتبصير ، وتنبيه وتذكير ؛ إلا أنّ محمدًا سيدَ المرسلين يقول لعليّ صلىٰ الله عليهما " أرسلْ عاقلًا الا فأوصه "(١) .

فبايِعوا علىٰ بركة الله تعالىٰ طائعين غيرَ مُكْرَهين ، برغبة لا برهبه ، وبإخلاص لا بمُداهنه ، بيعة رِضًا واختيار ، وانقيادٍ وإيثار ؛ بصحّةٍ من نياتكم ، وسلامةٍ من صُدوركم ؛ وصفاءٍ من عقائدكم ، ووفاءٍ واستقامةٍ فيما تضعُون عليه أيمانكم : ليُعَرِّفكم الله [من] سُبوغ النِّعمه ، وشُمولِ الخيْره ، وحُسْنِ العاقبه ، واتفاقِ الكلمه ، مايُقِرُّ نواظِركم ، ويُبرِّد ضمائرَكم ؛ ويُذْهِبُ غِلَّ صُدورِكم ويُعِزُّ جانبكم ، ويُذِلُّ مُجانبكم ؛ فاعلموا هذا واعملوا به إن شاء الله .

وقد يُغنِي هذا الكتابُ الذى ذكرناه مَغْنَى العهد ، فلا يُحتاج إلىٰ عهد :

وعلىٰ ذلك كُتِبَ عن الإمام المستكفى بالله أبى الربيع سليمان ، ابن الحاكم بأمر الله أحمد ، عهدُ ولدِه المستوثِق بالله « بركة » بالخلافة بعده . وهذه نسخته :

الحمدُ لله الذى أيَّد الخلافةَ العبّاسيَّة بأجلّ والدٍ وأبرّ وَلَد ، وجعلها كلمةً باقيةً فى عَقِبه والسَّنَد كالسَّنَد ، وآواهُمْ من أمرِهم إلىٰ الكَهْف فالكَهْفُ وإن تناهىٰ العَدَد ؛ وزان عِطْفَها بسُؤْدَدِ سَوادِ شعارهم المسجِّلِ أنوارَهم ولا شكَّ أن النُّور فى السَّواد ، وعَدَق(٢) بصَوْلتهم النبوىّ مُعجِزُها كلَّ مُناد .

---

(١) كذا فى الأصول مضببا عليه وحرر .

(٢) لعله وقدع . أى كفّ . تأمل .

نحمَدُه على ما منّ به من تمَام النِّعمة فيهـم ، ونُزُول الرحمة بتَوَافِيهم ؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلّا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً مَحْضَـةَ الإخْلاص ، كافلًا مُحضُها بالفَكاك من أسر الشِّرْك والخَلاص ، ونشهد أنَّ محمّدا عبدُه ورسولُه المبعوثُ بما أوضَح سُبُلَ الرَّشاد ، وقَمَع أهـلَ العِناد ، والشـفيعُ المشَفَّع يوم التَّنادْ ؛ صـلّى الله عليه وعلى آله وصَحْبه صلاةً لا آنقضاءَ لها ولا نَفَاد ، وسلَّم تسليما كثيرًا .

وبعدُ فإنَّ أمير المؤمنين (ويذكر آسمه) يَعْتَصِم بالله فى كلّ ما يأْتى ويَذَر مما جعل اللهُ [له] من التفويض ، ويُشِير إلى الصَّواب فى كل تَصْريح منه وتعريض ؛ وإنه شَدَّ اللهُ أزْرَه ، وعَظَّم قَدْره ، آستخار اللهَ سبحانَه وتعالى فى الوصيَّة بما جعله الله له من الخلافة المعظَّمة المفَخَّمة الموروُثةِ عن الآباء والجُدُود ، المُلْقاةِ إليه مقالِيدُها كما نصَّ عليه آبْنُ عمِّه صلّى اللهُ عليه وسلم فى الوالد من قُرَيش والمَوْلُود ؛ لوَلَده السيِّد ، الأجلِّ ، المعظَّم ، المكَرَّم ، فلان ، سـليلِ الخلافةِ وشِـبْلِ غابِها ، ونُخْبةِ أحْسابها وأنْسابها ، أجلّه اللهُ وشرَّفه ، وجَمَّـل به عِطْفَ الأمانةِ وفَوَّفَه : لِما تلمَّحه فيه من النَّجابة اللائحةِ على شمائِلِه ، وظَهر من مستَوْثِق إبْداءِ سِرِّه فيه بدَلائل بُرْهانه وبُرْهان دلائله ؛ وأشهدَ على نَفْسه الكريمة ـ صانها الله تعالى ـ مولانا أو سيدُنا أمير المؤمنين ، مَنْ حضر من حُكَّام المسلمين : قُضاة قُضاتهم ، وعلمائهم ، وعُدُولهم ، بمجلسه الشريف ، أنه رضِيَ أن يكون الأمْرُ فى الخلافة المعظَّمة ، الذى جعله الله له الآنَ لولده السـيِّد الأجلِّ فلان بعد وفاته ، فسَّح الله فى أجَلِه ؛ وعَهد بذٰلك إليه ، وعوّل فى أمر الخلافةِ عليـه ؛ وألقى إليه مقالِيدَها ، وجعل بيـده زِمامَ مُبْدِئها ومُعيدها ؛ وصّى له بذٰلك جزئيِّه وكُلّيِّه ، وغامِضه وجليِّه ؛ وصيّةً شرعيـةً بشُروطها اللازمة المعتبره ، وقواعدِها المحرّره ؛ أشهَد عليه بذلك فى تاريخ كذا .

الوجـــــه السابع

(فيما يكتب فى مستَنَد عهد ولىّ الخلافة عن الخليفة، وما يكْتُبه الخليفة فى بيت العَلَامة، وما يُكْتَب فى ذَيْل العـــهد بعد إتمام نُسْخته من قَبُول المعهود إليه، وشهادةِ الشُّهود علىٰ العهد)

أما مايكتب فى المستَنَد، فينبغى أن يكونَ كما يُكْتَب فى عُهود المُلُوك عن الخلفاء، علىٰ نحو ماتقدّم فى البَيْعات، وهو أن يُكْتَب: «بالإذْن العالى، المَوْلَوِىّ، الإمامىّ، النبوىّ، الفلانىّ (بلقب الخلافة) أعلاه الله تعالىٰ» أو نحو ذٰلك من الدعاء.

وأما مايكتُبُه الخليفة فى بيت العلامة، فينبغى أن يكتُب: «عهِدتُ إليه بذٰلك»: لأنه اللفظُ الذى ينعقِدُ به العـهد. ولو كتب: «فوّضْتُ إليه ذٰلك» كما يكتُب الخليفةُ فى عهد السلطان الآنَ علىٰ ماسيأتى، كفىٰ ذٰلك. والأليقُ بالمقام الأوّلُ.

وأما مايُكتَبُ فى ذيل العهد بعد إتمام نُسْخته، فالمنقولُ فيه عن المتقدّمين ماكَتَبَ به «علىّ الرِّضىّ» تحت عهْد المأمُون إليه بالخلافة، وهو:

الحمـدُ لله الفعَّالِ لما يَشاء، لامُعقِّبَ لحُكْمه، ولا رادَّ لقضائه، يعـلَمُ خائنةَ الأعْيُن وما تُخْفِى الصُّدور، وصـلواتُه علىٰ نبيِّـه محمدٍ خاتمِ النبيين، وآلِه الطيِّبين الطاهرين. أقولُ وأنا علىُّ بنُ موسىٰ بن جعفر: إنَّ أميرَ المؤمنين عَضَّـده الله بالسَّداد، ووفَّقه للرشاد، عَرَف من حقّنا ماجهِله غيره: فوَصَلَ أرْحاما قُطِعتْ، وأمَّنَ أنفُسًا فزِعتْ، بل أحياها وقد تلِفَتْ، وأغْناها إذ آفتقرت، مُتَّبعا رِضا ربِّ العالمين، لايُرِيد جزاءً من غيره وسيَجْزِى اللهُ الشاكِرِين، ولا يُضيعُ أجْرَ المُحْسِنين،

وإنه جعل إليّ عهده، والإمرة الكبرى إن بقيتُ بعده، فمن حلّ عُقدةً أمر اللهُ بشدّها، أو فصم عُروةً أحبّ الله إيثاقها، فقد أباح حريمه وأحلّ محرّمه، إذ كان بذلك زاريًا على الإمام، منتهكًا حُرمة الإسلام، بذلك جرى السالفُ فصبر منهم على الفلتات، ولم يُعترض بعدها على العزمات، خوفًا على شتات الدّين، واضطراب حَبل المسلمين، ولقُرب أمر الجاهلية ورَصْد فُرصة تُنتهز، وباقية تُبتدر، وقد جعلتُ لله تعالى على نفسى إن استرعانى على المسلمين، وقلّدنى خلافته، العملَ فيهم عامّة وفى بنى العبّاس بن عبدالمطّلب خاصّة بطاعته وبسنّة رسول الله صلّى الله عليه وسلم وأنْ لا أسفك دمًا حرامًا، ولا أُبيح فرجًا ولا مالا، إلا ماسفكته حدُوده، وأباحته فرائضُه، وأن أتخيّر الكُفاة جُهدى وطاقتى. جعلتُ بذلك على نفسى عهدًا مؤكّدًا يسألُنى [الله] عنه، فإنه عزّ وجل يقول: ﴿وأوْفُوا بالعَهْدِ إنّ العَهْدَ كان مَسْئُولا﴾. فإن أحدثت أو غيّرتُ أو بدّلتُ، كنتُ للغِيَر مستحقا، وللنّكال متعرّضا، وأعوذُ بالله من سخطه، وإليه أرغبُ فى التوفيق لطاعته، والحول بينى وبين معْصيته، (فى عامّة المسلمين، والخاصّة والحضر يد لان على ضدّ ذلك)[1]: ﴿وَمَا أدرِى مايُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾: ﴿إنِ الحُكْمُ إلَّا للهِ يَقُصُّ الحَقَّ وهُوَ خَيْرُ الفاصِلِينَ﴾. لكنّى امتثلتُ أمْرَ أمير المؤمنين وآثرتُ رضاه، والله يعصمُنى وإيّاه، وأشهدتُ الله على نفسى بذلك وكفى بالله شهيدا. وكتبتُ بخطّى بحضرة أمير المؤمنين ـ أطال اللهُ بقاءه ـ والفضل بن سَهْل، وسهل بن الفضل، ويحيى بن أكثم، وبِشر بن المعتمِر، وحمّاد ابن النُّعمان، فى شهر رمضان سنة إحدى ومائتين.

ثم كتب فيه مَنْ حضر من هؤلاء، وهذه صورة كتابتهم.

فكتب الفضل بنُ سَهْل وزيرُ المأمون ماصورته:

(١) ثبتت هذه العبارة فى الاصل وعليها علامة التوقف. ولم نعثر عليها فى غير هذا الكتاب. تأمل.

"رسَمَ أميرُ المؤمنين أطال الله بقاءه قراءةَ مضمُون هذا المكتوب: ظهرِه وبطنِه، بحَرَم سيدنا رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم، بين الرَّوْضة والمِنبر علىٰ رُءُوس الأشهاد، ومَرْأى ومَسْمَع من وجوه بنى هاشم وسائر الأولياء والأجناد، وهو يسألُ الله أن يعرِّف أمير المؤمنين وكافَّةَ المسلمين بركةَ هذا العهدِ والمِيثاق، بما أوجب أميرُ المؤمنين الحجة به علىٰ جميع المسلمين، وأبطَلَ الشُّبْهة التى كانتِ ٱعترضَتْ آراء الجاهلين: ﴿مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ علىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾. وكتب "الفضلُ بن سهل" فى التاريخ المعيَّن فيه".

وكتب عبدُ الله بنُ طاهرٍ ما صورته «أثبتَ شهادتَه فيه بتاريخه عبدُ الله بن طاهرِ بنِ الحسين».

وكتب يحيىٰ بنُ أكثَمَ القاضى ماصُورته: «شهد يحيىٰ بنُ أكثَم علىٰ مضمُون هذه الصحيفة ظهرِها وبطنِها، وكتب بخطه بالتاريخ».

وكتب حَمَّاد بن النُّعمان ماصورتُه: «شَهِد حَمَّاد بن النعمان بمضمون ظهره وبطنِه، وكتب بيده بتاريخه».

وكتب بِشْر بنُ المعتمر ماصورته: «شهد بمثل ذلك بِشْرُ بن المعتمر، وكتب بخطه بالتاريخ».

قلت: وعلىٰ نحو ما تقدم من كتابة المعهود إليه بالقَبُول وشهادةِ الشُّهود علىٰ العهد ينبغى أن يكونَ العملُ أيضا فى زماننا: ليجتمعَ خطُّ العاهد بالتفويض علىٰ ماتقدم، وشهادةُ الشهود. ولو ٱقتصر المعهودُ إليه فى الكتابة علىٰ قوله: «قبِلتُ ذلك» كان كافياً، وإن كان أُمِّيًّا ٱكتفى بشهادة الشهود.

الوجه الثامن

(فى قطع الورق الذى تُكتَب فيه عهودُ الخلفاء، والقلم الذى يُكتَب به، وكيفيّةِ كتابتها وصورةِ وَضْعها)

أما قطْعُ الورق فمقتضىٰ قول المقرّ الشّهابىّ بن فضل الله فى "التعريف" أنّ للعهود قَطْعَ البغدادىّ الكامل، وأن عُهودَ الخلفاء تُكْتَب فى البغدادىّ كما هو مستعْمَل فى عُهود الملوك عن الخلفاء، علىٰ ماسيأتى فى موضعه إن شاء الله تعالىٰ. وهو مقتضىٰ ماتقدّم فى الكلام علىٰ قَطْع الورق فى مقدّمة الكتاب نَقْلا عن محمد بن عمر المدائنى فى كتاب " القلم والدواة " أنّ القطع الكامل للخلفاء .

قلت : وقد أخبرنى من يُوثَق به أنه وقَفَ علىٰ عهد المعتضِد بالله أبى الفتح أبى بكر، والدِ المتوكل علىٰ الله : أبى عبدِ الله محمد خليفة العصر ، وهو مكتوب فى قطع الشامىّ الكامل ، وأنه كُتِبَ عهد المتوكّل علىٰ ظهره بخط الشهود دون كاتبِ إنشاء . وكأنهم لما تقهقرَتِ الخلافةُ وضَعُف شأنُها، وصار الأمْرُ إلىٰ الملوك المتغلّبين علىٰ الخلفاء، تنازلُوا فى كتابةِ عُهُودهم من قطع كامل البغدادى إلىٰ قطع الشامىّ . وهذا هو المناسبُ للحال فى زماننا .

وأما القلم الذى يُكتَب به ، فالحكْمُ فيه ما تقدّم فى البيْعات ، وهو إن كُتِب العهدُ فى قطع البغدادىّ، كُتِبَ بقلم مختَصر الطُّومار . وإن كُتِب فى قطع الشامىّ، كتب بقلم الثلثين الثّقِيل .

وأما كيفيّة الكتابة وصورةُ وضْعها، فعلىٰ ماتقدّم فى كتابة البيْعات، وهو أن يُبتدأ بكتابة الطُّرّة فى أوّل الدَّرج بالقلم الذى يكتب به العهدُ سُطورا متلاصقة ممتدّة

فى عَرْض الدَّرْج من أوّله إلىٰ آخره من غير هامش . ثم إن كانتِ الكتابةُ فى قَطْع البَغْدادىّ الكامل، جرىٰ فيه علىٰ القاعدة المتداوَلة فى عهود الملوك عن الخلفاء، فيُترَكُ بعد الوصل الذى فيه الطرّة ستّةَ أوصال بياضًا من غير كتابة، ثم يكتُبُ البسملة فى أوّل الوصل الثامن بحيثُ يُلْحِق أعالىَ ألِفَاته بالوصل الذى فوقه، بهامش قَدْر أربعة أصابع أو خمسة، ثم يكتب تحتَ البسملة سَطْرا من أوّل العهد ملاصقا لها، ثم يخلّى مكانَ بيت العلامةِ قَدْرَ شبر كما فى عُهُود الملوك، ثم يكتب السطر الثانى تحتَ بيت العلامة علىٰ سَمْت السطر الذى تحت البسملة . ويَحْرِص أن تكونَ نهايةُ السجعةِ الأُولىٰ فى السطر الأول أو الثانى، ثم يَسترْسِل فى كتابة بقيّة العهد إلىٰ آخره، ويجعل بين كلّ سطرين قدْرَ رُبُعِ ذراع بذراع القُمَاش . فإذا انتهىٰ إلىٰ آخر العهْد، كتب « إن شاء الله تعالىٰ » ثم المستَنَد، ثم الحمدَلة، والصلاةَ علىٰ النبىّ صلّى الله عليه وسلم والحَسْبَلة، علىٰ ماتقدّم فى الفواتح والخواتم . ثم يكتب المعهودُ إليه والشهودُ بعد ذلك . وإن كُتِب فى قطع الشامى، فعلىٰ ماتقدّم فى البَيْعات : من أنه ينبغى أن يُقْتَصر فى أوصال البياض علىٰ خمسة أوصال، ويكونُ الهامشُ قَدْرَ ثلاثة أصابع .

وهذه صورة وضعه فى الورق، ممثّلا فيها بالطرّة التى أنشأتها، علىٰ ماتقدّم ذكره فى العهد الذى أنشأته علىٰ لسان الإمامِ المتوكلِ علىٰ الله خليفةِ العصر لولَده العبّاس . وهو العهد الأخير من المَذْهب الأوّل من عُهُود الخلفَاء عن الخلفاء

بياض بأعلى الدرج تقدير اصبع

هـذا عهدٌ إمامىٌّ قد علَتْ جُدُودُه، وزاد فى الارتقاء فى العَلْياء صُعُودُه، وفُصِّلتْ بالجواهر قلائدُه ونُظِّمت بنفيس الدُّرِّ عُقُودُه؛ من عبدالله ووليِّه الإمام المتوكِّلِ على الله أبى عَبْد الله محمد ابن الإمام المعتضِد بالله أبى الفتح أبى بكر، بالخلافة المقدّسة لولَده السيد الجليل، ذَخِيرة الدِّين، وولىّ عهد المسلمين، أبى الفَضْل العبّاس، بلّغه الله تعالى فيه غايةَ الأمل، وأقرَّ به عينَ الأمّة كما أقرّ به عينَ أبيـه وقد فَعَل على ماشرح فيه

بياض ستة أوصال

بسم الله الرحمن الرحيم

هامش هـذا عهدٌ سـعيدُ الطالع ميمُون الطائر مباركُ الأوّل

صورة خط الخليفة

عهدت إليـه بذلك

وكتب فلان بن فلان

بيت العلامة

قدر ربع ذراع

جميـلُ الأوْسَط حميـدُ الآخِر تشهد به حضَراتُ الأمـلاك

وترقُمُـه كفُّ الثُّريّا بأقلام القَبُولُ فى صحائف الأفلاك وتُبـاهِى

والباقى بالشرح

به ملائكةُ الارض ملائكةَ السما، وتَسْرِى بنَشْره القَبُولُ إلى الأقطـار

هامش فتنشُرله بكل ناحية عَلَمـا ، وتُطْلِعُ به سـعادةُ الجَدّ من مُلوك العدْل في كلّ أُفُق نجْما .

ثم يأتى على الكلام إلىٰ آخر العهْد علىٰ هذا النَّمَط إلىٰ أن ينتهِىَ إلىٰ قوله فيه «والله تعالىٰ يبلّغه منك أملا ، ويحقق فيك عِلْما ويُزكّى بك عملا»

إن شاء الله تعالىٰ

كتِب فى اليوم الأوّل من المحرّم

سنة إحدىٰ وثمانمائة

بالإذن العالى ، المولَوِىّ ، الإمامىّ ، النبـوىّ ، المتـوَكّلىّ ،

أعـــلاه الله تعـالى

الحمد لله وحْدَه وصلواتُه علىٰ سيدنا محمد وآله وصَحْبه وسلامُه

حسبنا الله ونعم الوكيل

صورة خط المعهود

قبلتُ ذلك

وكتب فلانٌ ولىُّ

عهدِ أمير المؤمنين

صورة خط شهود العهد

شهد علىٰ العاهد والمعهود إليه

فيه زادهما الله شرفا

وكتب فلان بن فلان

وكذا بقيـــة الشهود

النـــوع الثانى

(عهودُ الخلفاء للملوك ، ويتعلّق النظر به من سبعةِ أوجُه)

الوجـــه الأوّل

(فى أصـل مشـرُوعيّتها)

والأصلُ فيها مارواه ابن إسحاق وغيرُه : أنه لمـا رَجَع وفْدُ بنى الحرٰث بنِ كعب إلىٰ قومهم باليَمَن بعد وُفُود [هم] علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسـلم قبلَ وفاتِه بأربعة أشهر، بعث إليهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بعدَ أن وَلَّى وَفْدَهم عَمْرو بنَ حَزْم، يُفَقِّهُهم فى الدِّين، ويعلِّمُهم السنَّةَ ومَعَالِمَ الإسلام، ويأخُذُ منهم صدَقاتِهم . وكتب له كتابًا عَهِد فيه عَهْدَه ، وأَمَرَه فيه أمره ، علىٰ ماسيأتى ذكْرُه فى أول نُسَخ العُهُود الواردةِ فى هذا الكتاب إن شاء الله تعالىٰ . فقد فوّض النبيُّ صلّى الله عليه وسلم أمرَ ايمن فى حياتِه إلىٰ عَمْرو بن حَزْم رضى الله عنه . وذلك أصرحُ دليـل وأقومُ شاهدٍ لمـا نحن فيه .

الوجــه الثانى

(فى بيانِ [معنىٰ] المُلْك والسَّلْطنة اللتين يقَعُ العهدُ بهما)

قد تقدّم فى الكلام علىٰ الألقاب نقلا عن "الفُروق" فى اللغـة للعسكرى أن المُلْك أخصُّ من السَّلْطنة : لأن المُلْك لايطلَقُ إلا علىٰ الوِلَاية العامَّة، والسَّلطنة تُطْلق علىٰ أنواع الوِلَايات؛ حتّى إنّ الفقهاء يعبِّرون عن القاضى ووالى البلد فى أبواب الفقه بالسُّلْطان .

ثم تفويضُ الخليفة الأمورَ فى البلاد والأقاليم إلىٰ مَنْ يدبّرها ويقوم بأعبائها علىٰ ثلاثة أقسام :

القسم الأوّل — وهو أعلاها وِزارةُ التفويض، وهو أن يَسْتوزرَ الخليفةُ من يفوِّض إليه تدبيرَ الأمور برأيه وإمضاءَها علىٰ آجتهاده، وينظُرُ فيها علىٰ العُمُوم . وعلىٰ ذٰلك كانتِ السلطنةُ فى زَمَن الخلفاء الفاطميين بمصر علىٰ ماسيأتى ذكره . قال الماوردىّ فى "الأحكام السلطانية" : ولا يمتنعُ جوازُ مثلِ ذلك : لأنَّ كلَّ ما وُكل إلىٰ الإمام من تدبيرِ [الأمة][1] لايقْدِر علىٰ مباشرة جميعه إلَّا بالآستنابة، ونيابةُ الوزيرِ المشاركِ له فى التدبير أصَحُّ فى تنفيذ الأمور، [من تفرّده بها][1] ليستظْهِر به علىٰ نَفْسه ولنَفْسه، فيكُونَ أبعدَ من الزَّلَل ، وأمنَعَ من الخَلَل . قال : وتعتبر فى [تقليد][2] هذه الوزارة شروطُ الإمامة إلا النَّسبَ وحده . وقد تقدّم بيانُ شروط الإمامة فى الكلام علىٰ البيعات . ثم قال : وكلُّ ماصحَّ من الإمام صحَّ من وزير التفويض إلا فى ثلاثة أشياءً :

أحدها — ولايةُ العهد. فإنَّ لإمام أن يَعْهَدَ إلىٰ مَنْ يرىٰ وليس ذلك للوزير .

الثانى — أنَّ للإمام أن يستعْفِيَ الأمّةَ من الإمامة وليس ذلك للوزير .

الثالث — أنّ للإمام أن يعْزِل من قلّده الوزيرُ وليس للوزير أن يعْزِلَ من قلّده الإمام .

وتفارق هذه الوزارةُ الخلافةَ فى عموم النظر فيما عدا ذلك من وجهين :

---

(١) الزيادة من الأحكام السلطانية ص ١٨ .

(٢) الزيادة من الأحكام السلطانية ص ١٨ .

أحدهما — مختَصٌّ بالإمام وهو أن يتصفَّح افعـالَ الوزير وتدبيرَ الأمور : ليُقِرّ منهـا ماوافق الصَّواب ، ويستدرِك ماخالَفه : لأنَّ تدبير الأمة إليـه موكُول، وعلىٰ اجتهادِه محمُول .

والثـانى — مختصٌّ بالوزير . وهو مطالعةُ الإمام بمـا أمضاه من تدبيرٍ ، وأنفذه من ولايةٍ وتقليدٍ : لئلا يصيرَ بالاستبْداد كالإمام .

أما وزارةُ التنفيذ فسيأتى الكلام عليها فى تقليد الوزارة إن شاء الله تعالىٰ .

القسم الثـانى — إمارة الاستكفاء .

وهى التى تنعقد عن اختيارٍ من الخليفة . وتشتمل علىٰ عملٍ محدودٍ ونظرٍ معْهود، بأن يفوِّضَ الخليفةُ إليـه إمارةَ بلدٍ أو إقْليم ولايةً علىٰ جميع أهله ؛ ونظرًا فى المعهُودِ من سائرِ أعمـاله ، فيصيرُ عامَّ النظر فيما كان محدُودا من عملٍ ، ومعهُودا من نظَر .
قال الماوردىّ : فينظر فيما إليه فى تدبير الجيش ، وترتيبه فى النَّواحى ، وتقديرِ أرْزاقهم إن لم يكُنِ الإمامُ قد قدَّرها ، وإدْرارها عليهم إن كان الإمام قدَّرها ؛ وكذٰلك [النظر فى] الأحكامِ ، وتقليدِ القُضاة والحُكَّام ، وجِبايةِ الخَراج ، وقَبْض الصَّدقات والعملِ فيهما ، وتفريق مايستحق منهما ، وحمـايةِ الحَرِيم ، والذَّبّ عن البَيْضة ، ومراعاةِ الدِّين من تغييرٍ أوتبْـديل ، وإقامةِ الحُدُود فى حقُوق الله تعـالىٰ وحُقُوق الآدميين ، والإمامةِ فى الجُمَع والجمـاعات بالقيام بها ، والاستخْلاف عليها ؛ وتسييرِ الحَجيج من عمَـله ومَنْ يمُرّ عليه من غير عمَـله ؛ وجهاد من يَليه من العدُو ، وقَسْم الغنائم فى المقاتِلة ، وأخْذ خُمُسها لاهل الخُمُس . وله أن يتَّخذ وزيرَتنفيـذ لا وزيرَ تفْويض .

وعلى هذا كانت الأمراءُ والعُمّال فى الأقاليم والأمصار من ابتداء الإسلام إلى أن تغلّب المتغلّبون على الأمر واستُضْعِف جانبُ الخلفاء .

قال الماوردىّ : ويعتبَرُ فى هذه الإمارة ما يُعتبر فى وِزارة التفويض من الشروط : إذ ليس بين عُمُوم الوِلاية وخُصوصِها فَرْقٌ فى الشروط المعتَبَرة فيها .

القسم الثالث — إمارة الاستيلاء .

وهى أن يقلّده الخليفةُ[1] الإمارةَ على بلاد ويفوِّض إليه تدبيرَها، فيستولى عليها بالقوّة ، فيكون [الأمير] باستيلائه مستبِدّا بالسياسة والتدبير ، والخليفةُ بإذنه ينَفِّذ أحكامَ الدين : لتخْرُجَ عن الفساد إلى الصِّحَّة ، ومن الحَظْر إلى الإباحة ؛ نافذَ التصرُّف فى حقوق الملة وأحكامِ الأُمّة . وهذا ما صار إليه الأمرُ بعد التغلّب على الخلفاء ، والاستبدادِ بالأمر بالغَلَبة والقوّة .

قال الماوردىّ : وهذا وإنْ خرج عن عُرْف التقليد المطْلَق فى شروطِه وأحكامِه ، ففيه [من] حفْظ قوانينِ الشرع وحِراسة الأحكام الدينية ما لا يجُوزُ أن يُترك مختَلًّا مَدْخُولا ، ولا فاسدًا مَعْلولا ؛ فجاز فيه مع الاستيلاءِ والاضطرار ، ما امتَنع فى تقليد الاستِكْفاء والاختيار : لوُقُوع الفَرْق بين شروط المَكِنَة[2] والعَجْز . قال : والذى يُتحفَّظ بتقليد المستولِى من قوانين الشريعة سبعةُ أشياء ، يشْترِك فى التزامها الخليفةُ المولِّى والأميرُ المستَوْلى ، ووجُوبُها فى جهة المستولى أغلظُ .

(١) عبارة "الأحكام السلطانية" وإمارة الاستيلاء التى تعقد عن اضطراب فهى أن يستولى بالقوّة على بلاد يقلده الخليفة إمارتها ويفوّض إليه الخ وهى أوضح وأصرح .

(٢) فى المصباح . وله مَكِنَةٌ أى قوة وشدّة .

أحدها — حِفْظ مَنْصِب الإمامة فى خلافة النبوّة، وتدبيرِ أمورِ الأمة : ليكون ما أوجبه الشرعُ من إقامتها محفُوظا، وما تفرّعَ عنها من الحقوق محْروسا .

والثـانى — ظهورُ الطاعةِ الدِّينية التى يزُولُ معها حكمُ العِناد فى الدين ، وينتفى بها مأثم المُبَاينَةِ له .

والثالث — ٱجتماعُ الكلمةِ على الأُلْفة والتناصُر : ليكونَ المسـلمونَ يدًا على مَنْ سـواهم .

والرابع — أن تكونَ عقُود الولايات الدينيّة جائزةً، والأحكامُ والأقضيةُ [فيها] نافذة، لا تبطل بفساد عُقُودها، ولا تسقُط بخَلَل عُهُودها .

الخامس — أن يكونَ ٱستيفاءُ الأموال الشرعيّة بحقٍّ تبرأ به ذمّةُ مؤدِّيها ، ويستَبيحه آخِذُها ومُعْطِيها .

السادس — أن تكونَ الحدُودُ مستوفاةً بحقٍّ ، وقائمةً على مستَحق ؛ فإنَّ جَنْب المؤمن حِمًى إلّا من حقُوق الله تعالى وحُدُوده .

السـابع — أن يكون للأُمّـة فى حِفْظ الدين وازِعٌ عن محارم الله تعالى، يأمُرُ بحقّـه إن أطيع ، ويدعُو إلى طاعتـه إن عُصِى . ثم قال : فإن كَمُلت فيـه شُروطُ الاختيارِ المتقـدّمةُ، كان تقليدُه حتْما ٱسـتِدْعاءً لطاعتـه ، ودفعًا لمشاقّته ومخالفته ؛ وجرى على مَنِ ٱستوْزره أو ٱستَنابه أحكامُ من ٱستَوْزَره الخليفة أو ٱستَنابه . وإن لم تكْمُلْ [فيه] شروطُ الاختيار ، جاز له إظهارُ تقليدِه ٱستدعاءً لطاعته وحَسْما لمخالَفته ومعانَدته، وكان نفُوذُ تصرُّفاته فى الحقُوق والأحكامِ موْقُوفا على أن يستتيب الخليفةُ

له مَنْ تكاملَتْ فيه الشُّروط . قل : وجاز مثلُ هذا وإن شَذَّ عن الأصول : لأن الضرورةَ تُسْقِط ماأَعْوزَ من شُروط المكِنة .

قلت : ومملكةُ الديار المصرية من حِينِ الفتح الإسلاميّ وهلُمَّ جرًّا إلىٰ زماننا دائرةٌ بين هذه الأقسام الثلاثة، لاتكادُ تخْرُج عنها : فكانتْ فى بِداية الأمر « إمارةَ آستكفاء» يولِّى عليها الخليفةُ فى كلِّ زمن مَنْ يقُوم بأعبائها، ويتصرَّف فى أمورها، قاصرُ الوِلاية عليها، واقفٌ عند حَدِّ مايَرِد عليه من الخليفة من الأوامِر والنَّواهى، إلَّا ما كان فى أيام بَنِى طُولُون من الخُـرُوج عن طاعةِ الخلفاء فى بعض الأحيان . فلمَّا آستَوْلىٰ عليها الفاطِميُّون وآستوْزَروا أربابَ السُّيوف فى أواخِرِ دَوْلتهم، وعظُمتْ كلِمتُهم عندهم، صارتْ سلطَنتُها "وزارةَ تفْوِيض". وكان الخليفةُ يحتجِب والوزيرهو المتصرِّف فى المملكة كالملُوك الآنَ أو قريبٍ منهم . وكانوا يُلقَّبون بألقاب الملوك الآنَ : كالملِك الأفضـل رِضْوان وزيرالحافظ، وهو أوَّل من لُقِّب بالملك منهم فيما ذكره المؤيَّد صاحبُ حماةَ فى تاريخه . والملِك الصالح طَلَائِع بن رُزِّيك وزيرالفائز ثم العاضِد . والملِك المنصُور أسدالدين شيركُوه بن شادِى وزيرِ العاضد، وآبنِ أخيه صلاح الدين يُوسف بنِ أيُّوب وزيرِ العاضد أيضا، قبل أن يستقِلَّ بالمُلْك ويخطُبَ بالديار المصرية لبَنِى العبَّاس ببغْداد . ولانُكْرَ فى تسمية الوزير مَلِكا، فقد قيل فى قوله تعالىٰ فى قِصَّة يوسفَ عليه السلام : ﴿ وقَالَ المَلِكُ آئْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْـهُ لِنَفْسى ﴾ إنَّ المرادَ بالملِك الوزيرُ لا الملكُ نفْسه . ولما آنترعتْ من الفاطمِيين وصارتْ إلىٰ بنِى أيُّوبَ، وكانوا يَلُونَها عن خُلَفاء بنى العبَّاس، صارتْ « إمارةَ آستيلاء » لآستيلائِهم عليها بالقُوّة، وآستبدادِهم بالأمْر والتدبير مع أصْلِ إذنِ الخليفة وتقْليده . وكان الرشيدُ قد لقَّب « جَعْفَر بن يحيىٰ البَرْمَكِىّ »

فى زمن وزارته له بالسلطان ، ولم يأخُذ الناسُ فى التلقيب به . فلمّا تغلّب الملوكُ بالشّرق على الخلفاء وآستبدّوا عليهم ، صار لقبُ السلطان سِمةً لهم ، مع ما يختصّهم به الخليفةُ من ألقاب التشريف : كشَرَف الدّولة ، وعَضُد الدولة ، ورُكْن الدولة ، ومُعِزّ الدولة ، وعِزّ الدولة ، ونحو ذلك . وشاركهم فى لَقَب السلطنة غيرُهم من ملُوك النواحى ، فتلقّب بذلك صلاحُ الدين يوسفُ بنُ أيُّوبَ ، وتلقّب بالملك الناصِر عند آستبداده بالمُلْك على العاضِد الفاطمىّ بعدَ وِزارته له ، ونَقَل ما كان من وِزارة التفويض والعهدِ بها إلى السلطنة ، وصارتِ الوزارةُ عن السلطان معدُوقةً بقَدْرٍ مخصوصٍ من التصرُّف . وبقى الأمْرُ على ما هو عليه من الآستيلاء والآستبدادِ بالمُلْك ، مع أصلِ إذْن الخليفة وكِتابةِ العَهْد بالمُلْك ، وهى على ذلك إلى زماننا ، إلا ما كان فى زمنِ تعطيلِ جِيد الخلافة من الخُلَفاء ، من حينِ قَتْل التتارِ « المستَعْصِمَ » آخر خلفاء بنى العباس ببغداد إلى حينِ إقامة الخليفة بمصر فى الدولة الظاهريّة بِيبَرْس . على أنّ فى السلطنة الآنَ شَبَهًا من وِزارة التفويض ، فإن الخليفةَ يفوّض إليه فى تقليده تدبيرَ جميع الممالكِ الإسلامية بالتفويض العامّ لايَستَثْنِى منها شيئا . وغيرُ هذه المملكة و إن كان خارجًا عن يَده فهو داخل فى عُمومِ وِلَايتِه ، حتّى لو غَلَب على شىء منها أو فتحه لم يَحْتَجْ فيه إلى توليةٍ جديدةٍ من الخليفة . ولا مانِعَ لذلك : فسيأتى فى الكلامِ على المناشير أنه يجوزُ للإمام أن يُقْطع أرضَ الكُفْر قبل أن تُفْتَح ، و إذا جاز ذلك فى الإقطاع ففِى هذا أَوْلَى . وحينئذ فتكون سلطنةُ الديار المِصْريّة الآنَ مركّبة من وزارة التفويض و إمارةِ الآستيلاء .

الوجـــه الثـالث

(فيما يجبُ علىٰ الكاتب مراعاتُه فيــه)

وآعلم أنه يجب علىٰ الكاتب مراعاةُ أمور :

منها — براعةُ الآستهلال بمـا يتهيَّأُ له من آسْمِ السـلطان أو لَقَبِه الخاصّ : مثل فلان الدين ، أو لَقَبِه بالسلطنة : مثل الناصِر، والظاهِر ، ونحوِهما ؛ أو غيرِ ذٰلك ممـا يدُلُّ علىٰ مابعده قبلَ الإتيان به كما تقدّم فى البَيْعات وعُهود الخُلَفاء .

ومنها — التنبيهُ علىٰ شَرَف السَّلْطنة وعُلُوّ رُتْبتها ، ووجُوبِ القيام بأمْر الرعِيَّــة ، وتحمُّل ذٰلك عن الخليفة .

ومنها — الإشارةُ إلىٰ آجتهاد الخليفة و إعمـال فِكْره فيمَنْ يقُوم بأمْر الأمَّـة ، وأنه لم يجِدْ بذٰلك أحقَّ من المعهود إليه ولا أوْلىٰ به منه ، فيَصِفُه بالصِّفات الجميلة ، ويُثْنِى عليه بمـا يلِيقُ بمَقَام المُلْكِ .

ومنها — الإشارةُ إلىٰ جَرَيان لفظ تنعقِد به الوِلايةُ من عَهْد أو تقليد أوتفويض ، وقبولِ ذلك ، ووُقُوع الإشهاد علىٰ الخليفة بالعهد .

ومنها — إيرادُ مايليقُ بالمَقَام من الوصيَّة ، بحسَب مايقْتضيه الحال : من علُوّرتبة الخلافة وآنْخفاضها ، مبيِّنا لما يلزَمُه القيامُ به : من حِفْظ الدِّين علىٰ أصوله المستقِرّة ، وما أجمعَ عليه سلف الأمّة ، وتنفيذ الأحكام ، و إنصافِ المظلومِ من الظالم ، وحمايةِ البَيْضة ، والذّبّ عن الحُرَم ، و إقامةِ الحُدُود ، وتحصين الثُّغُور ، وجهاد أعداءِ الله وغَزْوِهم ، وجباية الفَىْء والصَّدَقات علىٰ ما أوجبه الشرعُ من غير حَيْف ولاعَسْف ،

وتقديرِ العطاء، وصَرْف ما يُسْتَحَقّ فى بيت المال من غير سَرَف ولا تقتير، فى وقتِ الحاجة إليه، وآستكفاءِ الأمَناء، وتقليد النُّصَحاء للأعمال والأموال، ومُباشرةِ الأمورِ بنَفْسه وتصفّح الأحوال؛ إلى غير ذلك من الأمور المتعلّقة بالإمامة: من إقامة مَوْسِم الحجّ، وتأمين الحَرَم الشريف وإكرام ضرائح الأنبياء وبيتِ المَقْدِس، وتحرير مقادير المُعامَلات، وغير ذلك مما يقتضيه أمرُ المملكة .

الوجـــه الرابـــع
(فيما يكتب فى الطــرّة، وهو نمطان)

النَّمَط الأوّل — ما كان يُكتَب فى وِزارة التفويض فى دَوْلة الفاطميين .

وكان الخليفةُ هو الذى يكتُب بيده . وهذا أمرٌ وإن كان قد تُرِك فالمعرفةُ به خيرٌ من الجهل، خصُوصًا وقد أثبتَ المقرُّ الشهابىّ بنُ فضل الله عهدَىْ أسد الدين شيركوه وآبنِ أخيه السلطانِ صَلاح الدّين يوسُفَ بن أيوب بالوزارة عن العاضد، فى جملة عُهُود الملوك على ما سيأتى ذِكْره . وسنُورِدُهما فى جملة عُهُود الملوك عن الخلفاء فيما بعدُ إن شاء الله تعالى .

فمن ذلك ما كتب به العاضِدُ فى طُرَّة عهد أسَد الدّين شيركوه المتقدّم ذكره، وهو :

«هذا عهدٌ لا عَهْدَ لوزيرٍ بمثله، وتقليدُ أمانةٍ رآك الله تعالى وأميرُ المؤمنين أهْلًا لحَمْله، والحجّةُ عليك عند الله بما أوضحه لكَ من مَراشد سُبُله؛ فخُذْ كتابَ أميرِ المؤمنين

بِقُوّه، واسْحبْ ذَيْلَ الفَخَار بأن اعترتْ خِدْمَتُكَ إلى بُنُوّة النُّبُوّه، واتخذْ أميرَ المؤمنين للفَوْز سبيلا ﴿ولا تَنْقُضُوا الأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفيلا﴾ » .

ومن ذلك ما كتب به العاضدُ أيضا فى طرّة العهد المكتَتَب عنه بالوِزارة للسلطان صلاح الدِّين يُوسفَ بن أيُّوب قبل استقلاله بالسلطنة ، وهو :

« هـذا عهدُ أميرِ المؤمنين إليْك، وحُجّتُه عند الله تعالىٰ عليْك، فأوْفِ بعَهْدك ويَمينِك، وخُذْ كتابَ أميرِ المؤمنين بيَمينك ؛ ولِمَنْ مَضىٰ بجدِّنا رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم أحسنُ أُسْوه، ولمن بَقِيَ بقُرْبنا أعظمُ سَلْوه ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَايُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى الْأَرْضِ وَلَافَسَادًا والعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِين﴾ » .

النمط الثانى — ما يُكْتَب فى طُرّة عُهود الملوك الآنَ .

وهو قريب ممـا كان يُكتَب أوّلا مما تقدم ذكْرُه ؛ إلّا أنه يُبَدّل فيه لَفْظُ الوِزارة بالمُلْك والسَّلْطنة، ويكونُ الذى يكتُبه هو الذى يكْتُب العَهْدَ دُونَ الخليفةِ . ثم هو بحسَب ما يُؤْثِره الكاتبُ مما يدُلُّ علىٰ صَدْر العهد علىٰ مايقتضيه الحال .

وهـذه نسخةُ طرّةِ عهدٍ ، كتَبَ بهـا القاضى محيي الدين بن عبْد الظاهر، فى نسخةِ عهدٍ أنشأه للسلطان الملكِ الناصرِ محمد بن قَلاوُون، فى سنة سبعَ عشْرة وسبعمائة، وهو :

« هـذا عهدٌ شريفٌ تجدّدتْ مَسرّاتُ الإسلام بتَجْديده ، وتأكّدتْ أسبابُ الإيمان بتأْكيده، ووُجد النصرُ العزيزُ والفتحُ المبينُ بوُجُوده، ووَفَدَ اليُمْنُ والإقبالُ

على الخليقة بوُفُوده، وورد الأنامُ مَوْرِد الأمانِ بوُرُوده . من عبـدِاللهِ ووليِّه الإمامِ المستكفِي بالله أبى الرَّبيع سليمانَ أميرِ المؤمنـين ، آبنِ الحاكم بأمرِ الله أبى العباس أحمـد . عَهِد به إلى السلطان الملكِ النـاصر أبى الفتح محمَّـد ، خلَّد الله سلطانه ، آبن السلطان الملكِ المنصورِ سيفِ الدين قلاوون الصالحيِّ قدّس الله روحه» .

تم الجزء التـاسع . يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء العـاشر

وأوله الوجـــه الخامس

(فيما يكتب فى ألقـاب الملوك عن الخلفـاء ، وهو نمطان)

والحمد لله رب العالمين . وصلاته على سيدنا محمد خاتم الأنبيـاء والمرسلين

وآله وصحبـــه والتابعين وسلامه

وحسبنا الله ونعم الوكيل

(المطبعة الأميرية ٤٧١٥/١٩١٥/٣٠٠٠)